

تفسير الطبري

مِن كتابه

جامع البيان عن تأويل آي القرآن

هذّبه وحقّقه وضبط نصّه وعلّق عليه

الدكتور بشار عواد معروف　　عصام فارس الحرستاني

المجلد السادس

القصص إلى الجاثية

مؤسسة الرسالة


بسم الله الرحمن الرحيم


تفسير الطبري
٦

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع

مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٦٠٣٢٤٣ - ٨١٥١١٢ - ص.ب: ٧٤٦٠ - برقياً: بيوشران

سُورَةُ القَصَصِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وتقدَّست أسماؤه: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣﴾

قد بيَّنا قَبْلُ فيما مضى تأويلَ قولِ الله عزّ وجلّ: «طسم»، وذكرنا اختلافَ أهلِ التأويل في تأويله.

وأما قوله: «تلكَ آياتُ الكِتابِ المُبينِ» فإنه يعني هذه آياتُ الكتابِ الذِي أنزلتُه إليكَ يا محمدُ، المبينُ أنه من عِندِ اللهِ، وأنك لم تتقوَّلْهُ ولم تتخرَّصْهُ.

وقوله: «نَتْلُو عَلَيْكَ»، يقولُ: نقرأُ عليكَ ونقصُّ في هذا القرآنِ من خبرِ موسى «وَفِرْعَوْنَ بالحَقِّ».

وقوله: «نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بالحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»، يقول في هذا القرآنِ نَبَؤُهُم.

وقوله: «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»، يقولُ: لقومٍ يُصَدِّقُونَ بهذا الكتاب، ليعلموا أنَّ ما نتلو عليكَ من نَبَئِهم فيه نبؤهم، وتطمئنّ نفوسُهم، بأنَّ سُنَّتَنا فيمن خالفكَ وعَادَاكَ من المشركينَ سنتُنا فِيمَنْ عادى موسى، ومَنْ آمن به من بني إسرائيل من فرعون وقومِهِ، أنْ نهلكهم كما أهلكناهم، ونُنَجِّيهم منهم كما أنجيناهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ فرعونَ تَجَبَّرَ في أرضِ مصرَ وتَكَبَّرَ، وعَلَا أهلَها وقَهرهم، حتى أقَرُّوا له بالعبودَةِ.

وقوله: «وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً» يعني بالشيع: الفِرَق، يقول: وجعل أهلَها فِرقاً متفرّقين.

وقوله: «يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ» ذُكِرَ أنَّ استضعافَهُ إياها كان استعباده.

وقوله: «إنَّهُ كانَ مِنَ المُفْسِدِينَ»، يقولُ: إنه كان ممن يفسد في الأرض بقتله مَنْ لا يستحقُّ منه القتلَ، واستعباده مَنْ ليس له استعباده، وتَجَبُّرُهُ في الأرض على أهلها، وتكبُّرُه على عبادةِ رَبِّه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾

قولـه: «وَنُـرِيدُ» عطف على قولـه: «يَسْتَضْعِفُ طائِفَـة مِنْهُمْ»، ومعنى الكلام: أنَّ فرعونَ عَلَا في الأرض وجعلَ أهلَها من بني إسرائيل فِرَقاً يستضعِف طائفةً منهم «وَ» نَحْنُ «نُرِيدُ أنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ» استضعفهم فرعون من بني إسرائيل «وَنَجْعَلَهُمْ أئِمَّةً».

وقوله: «وَنَجْعَلَهُمْ أئِمَّةً» أي ولاةً وملوكاً.

وقوله: «وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ»، يقولُ: ونجعلهم وُرَّاثَ آلِ فرعون يَرِثُون

الأرضَ من بعدِ مهلكهم.

وقوله: «وَنُمَكِّنَ لَهُمْ في الأَرْضِ»، يقولُ: ونُوطِّىءَ لهم في أرضِ الشام ومصر «وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وهامانَ وَجُنُودَهُمَا» كانوا قد أخبروا أنَّ هلاكهم على يدِ رجل من بني إسرائيل، فكانوا من ذلك على وَجَلٍ منهم، ولذلك كان فرعون يُذَبِّحُ أبناءهم، ويستحيي نساءهم، فأرى اللهُ فرعونَ وهامانَ وجنودَهُمَا من بني إسرائيلَ على يدِ موسى بن عمران نبيه ما كانوا يَحْذَرُونَهُ منهم من هلاكِهم وخرابِ منازلهم ودُورِهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَأَوْحَيْنَا إلى أُمِّ مُوسَى» حين ولدت موسى «أنْ أرْضِعِيهِ».

وكان قَتادة يقول، في معنى ذلك: «وأوْحَيْنا إلى أُمِّ مُوسَى» قَذَفْنَا في قلبها.

واختلف أهلُ التأويل في الحالِ التي أُمِرَتْ أمُّ موسى أنْ تُلقي موسى في اليَمِّ، فقال بعضهم: أُمِرَتْ أنْ تُلقيهِ في اليمِّ بعد ميلادِه بأربعةِ أشهر، وذلك حال طَلَبِهِ من الرضاعِ أكثر مما يطلبُ الصبيُّ بعد حالِ سقوطِهِ من بطنِ أمه.

وقال آخرون: بل أُمِرَتْ أنْ تُلقيه في اليم بعد وِلَادِهَا إياه، وبعد رضاعها.

وأوْلى قولٍ قيل في ذلك بالصواب، أنْ يقال: إنَّ اللهَ تعالى ذِكْرُه أمرَ

أمَّ موسى أنْ ترضعه، فإذا خافتْ عليه من عدوٍّ الله فرعون وجُنْدِه أنْ تُلقيه في اليمِّ. وجائزٌ أنْ تكون خافتهم عليه بعد أشهرٍ من ولادها إياه، وأيُّ ذلك كان، فقد فعلتْ ما أوحى اللهُ إليها فيه، ولا خبرَ قامتْ به حجةٌ، ولا فطرة في العقلِ لبيانِ أيِّ ذلك كان من أيٍّ، فأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصحة أنْ يُقال كما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ، واليمّ الذي أُمِرَتْ أنْ تُلقيه فيه هو النيلُ.

وقوله: «وَلا تَخافي وَلا تَحْزَنِي»، يقولُ: لا تخافي على ولدك من فرعونَ وجُنْدِه أنْ يقتلوه، ولا تحزني لفراقه.

وقوله: «إنَّا رَادُّوهُ إلَيْكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ المُرْسَلِينَ»، يقولُ: إنَّا رَادُّو ولدكِ إليكِ للرضاعِ لتكوني أنتِ تُرضعيه، وباعثوهُ رسولاً إلى مَنْ تخافينه عليه أنْ يقتله، وفعل الله ذلك بها وبه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فالتقطه آلُ فرعونَ فأصابوهُ وأخذوه، وأصلُه من اللقطة، وهو ما وُجد ضالاً فأُخِذَ.

واختلف أهلُ التأويلِ في المعنيِّ بقوله: «آلُ فِرْعَوْنَ» في هذا الموضع، فقال بعضهم: عنى بذلك: جواري امرأةِ فرعون.

وقال آخرون: بل عنى به ابنة فرعون.

وقال آخرون: عنى به أعوان فرعون.

ولا قول في ذلك عندنا أوْلى بالصوابِ مما قال الله عَزَّ وجَلَّ: «فالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ» وقد بيَّنا معنى الآل فيما مضى بما فيه الكفاية من إعادته ههنا.

قوله: «فالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزناً» إنما هو: فالتقطهُ آلُ فرعون ظناً منهم أنهممحسنونَإلى أنفسهم، ليكون قُرَّةَ عينٍ لهم، فكانت عاقبةَ التقاطِهم إياهُ منه هلاكهم على يديه.

وقوله: «عَدُوّاً وَحَزَناً»، يقولُ: يكون لهم عدوّاً في دينهم، وحَزَناً على ما ينالهم منه من المكروه.

وقوله: «إنَّ فِرْعَوْنَ وهَامانَ وَجُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ فرعونَ وهامان وجنودهما كانوا بربِّهم آثمينَ، فلذلك كان لهم موسى عَدُوّاً وحَزَناً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَقالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ» له: هذا «قُرَّةُ عَيْنٍ لِي ولَكَ» يا فرعونُ، فقرّةُ عينٍ مرفوعة بِمُضْمَرٍ هو هذا، أو هو.

وقوله: «لا تَقْتُلُوهُ» مسألة من امرأةِ فرعون أنْ لا يقتله، وذُكِرَ أنَّ المرأةَ لما قالت هذا القولَ لفرعونَ، قال فرعونُ: أمَّا لكِ فنعم، وأما لي فلا، فكان كذلك.

وقوله: «لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أنْ يَنْفَعَنَا أوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً» ذُكِرَ أنَّ امرأةَ فرعون قالت هذا القولَ حين هَمَّ بقتلِه.

قال بعضهم: حين أتَى به يومَ التقَطَهُ من اليَمِّ.

وقال بعضهم: يوم نَتَف من لحيتِه أو ضَرَبَهُ بعصا كانتْ في يده.

وقـولـه: «وَهُمْ لا يَشْعُـرُونَ»، اختلف أهـلُ التأويل في تأويله، فقال

بعضهم: معنى ذلك: وهم لا يشعرون هلاكهُم على يده.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: «وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» بما هو كائنٌ من أمرِهم وأمرِه.

وقال آخرون: بل معنى قوله: «وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ» بنو إسرائيلَ لا يشعرون أنَّا التقطناه.

والصوابُ من القولِ في ذلك، قول مَنْ قال: معنى ذلك: وفرعونُ وآلُه لا يشعرونَ بما هو كائنٌ من هلاكِهم على يديه.

وإنما قلنا ذلك أوْلى التأويلاتِ به لأنه عُقَيب قوله: «وَقالَتِ امْرأةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لي ولَكَ، لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أنْ يَنْفعَنَا أوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً»، وإذا كان ذلك عقبه، فهو بأنْ يكون بياناً عن القول الذي هو عقبه أحقّ من أنْ يكون بياناً عن غيره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٠﴾

اختلفَ أهلُ التأويلِ في المَعْنِيِّ الذي عَنَى اللهُ أنه أصبحَ منه فؤادُ أمِّ موسى فارغاً، فقال بعضهم: الذي عنى جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنه أصبح منه فؤادُ أمِّ موسى فارغاً: كُلُّ شيءٍ سوى ذِكْرِ ابنها موسى.

وقال آخرون: بل عَنَى أنَّ فؤادها أصبح فارغاً من الوحي الذي كان اللهُ أوحاهُ إليها، إذْ أمرها أنْ تُلقيه في اليمِّ فقال: «وَلا تَخافِي وَلا تَحْزَنِي، إنَّا رَادُّوهُ إلَيْكِ، وَجاعِلُوهُ مِنَ المُرْسَلِينَ»، قال: فحزنتْ ونسيتْ عهدَ اللهِ إليها، فقال اللهُ عَزَّ وجَلَّ: «وأصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فارِغاً» من وحينا الذي أوحيناه إليها.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي قولُ مَنْ قال: معناه: «وَأَصْبَحَ

فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً» من كلِّ شيء إلا من هَمِّ موسى.

وإنما قلنا: ذلك أوْلى الأقوالِ فيه بالصوابِ لدلالةِ قوله: «إنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها» ولو كان عَنَى بذلك: فراغَ قلبها من الوحي لم يعقب بقوله: «إنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ» لأنها إنْ كانت قاربت أنْ تُبدي الوحي، فلم تكد أنْ تبديه إلا لكثرةِ ذِكْرِها إياهُ، وولُوعِهَا به، ومحالٌ أنْ تكونَ به ولعةً إلا وهي ذاكرة. وإذا كان ذلك كذلك بطلَ القولُ بأنها كانت فارغةَ القلبِ مما أُوحي إليها، وأخرى أنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبرَ عنها أنها أصبحتْ فارغةَ القلب، ولم يخصصْ فراغَ قلبها من شيءٍ دونَ شيء، فذلك على العمومِ إلا ما قامتْ حُجَّتُهُ أنَّ قلبَها لم يفرغ منه. وقد ذكر عن فضالة بن عبيد أنه كان يقرؤه «وأصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فازِعاً» من الفزع.

وقوله: «إنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ»، يقولُ: لتبدي به أنه ابْنُهَا من شِدَّةِ وَجْدِها.

وقوله: «لَوْلَا أنْ رَبَطْنا عَلَى قَلْبِهَا»، يقولُ: لولا أنْ عَصَمْنَاها من ذلك بِتَثْبِيتِنَاهَا وتوفيقِنَاهَا للسكوتِ عنه.

وقوله: «لِتَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: عصمناها من إظهارِ ذلك وقِيلِه بلسانها، وثَبَّتْنَاهَا للعهدِ الذي عهدنا إليها «لِتَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ» بوعدِ اللهِ، الموقِنِينَ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَقَالَتْ» أمُّ موسى لأختِ موسى حين ألقته في اليم «قُصِّيهِ»، يقولُ: قُصِّي أثرَ موسى، اتبعي أثره، تقول: قصصت آثار القومِ: إذا اتبعت آثارهم.

وقوله: «فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فقصت أختُ موسى أثره، فَبَصُرَتْ به عن جُنُب: يقول فبصرت بموسى عن بُعْدٍ لم تَدْنُ منه ولم تَقْرَبْ، لئلا يُعْلَمَ أنها منه بسبيلٍ، يقال منه: بصرت به وأبصرته، لغتان مشهورتان، وأبصرت عن جنب، وعن جنابة.

وقوله: «وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ»، يقولُ: وقوم فرعون لا يشعرون بأختِ موسى أنها أختُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وَ مَنَعْنَا موسى المراضعَ أنْ يرتضعَ منهنَّ من قَبْلِ أمه، ذُكِرَ أنَّ أختاً لموسى هي التي قالت لآلِ فرعون: «هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ ناصِحونَ».

ويعني بقوله: «يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ»: يَضُمُّونَهُ لكم.

وقوله: «وَهُمْ لَهُ ناصِحونَ» ذُكِر أنها أُخِذَت، فقيل: قد عَرَفْتُهُ، فقالت: إنما عنيتُ أنهم للمَلِكَ ناصحون.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «فَرَدَدْنَا» موسى «إلى أُمِّهِ» بعد أن التقطه آلُ فرعون، لتقرَّ عينُها بابنها، إذْ رجع إليها سليماً من قَتْلِ فرعون «ولا تَحْزَن» على فراقِهِ إياها «وَلِتَعْلَمَ أنَّ وَعْدَ اللهِ» ـ الذي وَعَدَها إذْ قال لها: «فإذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فأَلْقِيهِ

في الْيَمِّ، وَلا تَخافِي وَلا تَحْزَنِي»... الآية - حقٌّ.

وقـولـه: «وَلكنَّ أَكْثَـرَهُمْ لا يَعْلَمُـونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولكنَّ أكثرَ المشركينَ لا يعلمونَ أنَّ وعد الله حقٌّ لا يصدِّقُونَ بأنَّ ذلك كذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَلَمَّا بَلَغَ» موسى «أَشُدَّهُ»، يعني: حان شِدَّةُ بدنه وقُواه، وانتهى ذلك منه.

وقوله: «وَاسْتَوَى»، يقولُ: تناهى شبابُه، وتَمَّ خلقه واستحكمَ.

وقوله: «آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً» يعني بالحكم: الفهمَ بالدينِ والمعرفة.

وقـولـه: «وكـذلكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكما جزينا موسى على طاعتِه إيانا وإحسانِه بصبرِه على أمرنا، كذلك نجزي كُلَّ مَنْ أحسنَ من رُسُلِنَا وعبادنا، فصبرَ على أمرنا وأطاعنا، وانتهى عما نَهيناهُ عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَدَخَلَ» موسى «المَدِينَةَ» مدينة منف من مصر «عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها» وذلك عند القائلةِ نصفَ النهار.

وقوله: «فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ»، يقولُ: هذا من أهلِ دينِ موسى من بني إسرائيل «وهَـذَا مِنْ عَدُوِّهِ» من القبطِ من قوم فرعون «فاسْتَغاثَهُ الَّذي مِنْ شِيعَتِهِ»، يقولُ: فاستغاثه الذي هو من أهلِ دينِ موسى على الـذي من عدوِّهِ من القبطِ «فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ»، يقولُ: فَلَكَزَهُ ولَهَزَهُ في صدره بجمعِ كَفِّه.

وقوله: «فَقَضَى عَلَيْهِ»، يقولُ: فَفَرَغَ من قتلِه. وقد بيَّنتُ فيما مضى أن معنى القضاء: الفراغ.

وقوله: «قالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ إنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبينٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال موسى حين قتل القتيل: هذا القتل من تسبب الشيطان لي بأن هيَّج غضبي حتى ضربت هذا فهلك من ضربتي، «إنَّهُ عَدُوٌّ»، يقولُ: إنَّ الشيطان عدوٌّ لابنِ آدم «مُضِلٌّ» له عن سبيلِ الرشادِ بتزيينه له القبيحَ من الأعمالِ، وتحسينه ذلك له «مُبينٌ» يعني أنه يبينُ عداوته لهم قديماً، وإضلاله إياهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن ندم موسى على ما كان من قتلِه النفسَ التي قتلها، وتوبته إليه منه، ومسألته غفرانه من ذلك «رَبِّ إنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي» بقتلِ النفسِ التي لم تأمرني بقتلها، فاعْفُ عن ذنبي ذلك، واسترهُ عليَّ، ولا تؤاخذني به فتعاقبني عليه.

وقوله: «فَغَفَرَ لَهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فعفا اللهُ لموسى عن ذَنْبِه ولم يعاقبه

به. «إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ»، يقولُ: إنَّ الله هو الساترُ على المُنيبينَ إليه من ذنوبِهم على ذنوبهم، المتفضِّلُ عليهم بالعفوِ عنها، الرحيمُ للناسِ أنْ يعاقبهم على ذنوبهم بعدما تابوا منها.

وقوله: «قالَ رَبِّ بِمَا أنْعَمْتَ عَلَيَّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال موسى ربِّ بانعامكَ عليَّ بعفوكَ عن قتلِ هذه النفس «فَلَنْ أكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ»، يعني المشركينَ، كأنه أقسمَ بذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأصبح موسى في مدينةِ فرعون خائفاً من جنايتِه التي جناها، وقتله النفسَ التي قتلها أن يُؤخَذَ فَيُقْتَلَ بها. «يَتَرَقَّبُ»، يقولُ: يترقبُ الأخبارَ: أي ينتظرُ ما الذي يتحدَّثُ به الناسُ، مما هم صانعونَ في أمرِه وأمرِ قتيله.

وقوله: «فإذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بالأمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فرأى موسى لما دخل المدينةَ على خوفٍ مترقباً الأخبارَ عن أمرِه وأمرِ القتيل، فإذا الإسرائيليُّ الذي استنصره بالأمسِ على الفرعونيِّ يقاتله فرعونيٌّ آخر، فرآهُ الإسرائيليُّ فاستصرخَهُ على الفرعونيِّ: يقولُ: فاستغاثه أيضاً على الفرعونيِّ، وأصله من الصُّراخِ، كما يقال: قال بنو فلان: يا صَبَاحاه، قال له موسى: «إنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ»، يقول جَلَّ ثناؤه: قالَ موسى للإسرائيليِّ الذي استصرخه، وقد صادف موسى نادماً على ما سَلَفَ منه من قَتْلِه بالأمس القتيلَ، وهو يستصرخُه اليومَ على آخرَ: إنك أيها المستصرخُ لَغَوِيٌّ: يقولُ: إنك لَذُو غوايةٍ، «مبين»: يقولُ: قد تبيَّنتْ غوايتكَ بقتلكَ أمس رجلاً، واليوم آخر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما أراد موسى أنْ يبطشَ بالفرعونيِّ الذي هو عدوٌّ له وللإسرائيلي، قال الإسرائيليُّ لموسى وظَنَّ أنه إياهُ يريد «أتُرِيدُ أنْ تَقْتُلَنِي كما قَتَلْتَ نَفْساً بالأمْسِ».

وقوله: «إنْ تُرِيدُ إلّا أنْ تَكُونَ جَبَّاراً في الأرْضِ»، يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ الإسرائيلي لموسى: إنْ تريدُ ما تريدُ إلا أنْ تكونَ جباراً في الأرض، وكان من فعلِ الجبابرة: قَتْلُ النفوسِ ظلماً بغير حقٍّ. وقيل: إنما قال ذلك لموسى الإسرائيليُّ، لأنه كان عندهم مَنْ قتلَ نفسينِ من الجبابرة.

وقوله: «وَمَا تِرِيدُ أنْ تَكُونَ مِنَ المُصْلِحِينَ»، يقولُ: ما تريد أن تكونَ ممن يعملُ في الأرض بما فيه صلاحُ أهلها، من طاعة الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾

ذُكِرَ أنَّ قولَ الإسرائيلي سمعه سامعٌ فأفشاه، وأعلمَ به أهلَ القتيلِ، فحينئذٍ طلب فرعونُ موسى، وأمر بقتلِه، فلما أمرَ بقتلِه، جاء موسى مُخْبِرٌ وخَبَّرَهُ بما قد أمرَ به فرعون في أمرِه، وأشار عليه بالخروجِ من مصرَ بلدِ فرعونَ وقومِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ

﴿ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٢١ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فخرج موسى من مدينةِ فرعونَ خائفاً من قتله النفسَ أنْ يُقْتَلَ به «يترقب»، يقولُ: ينتظر الطلبَ أنْ يدركه فيأخذه.

وقوله: «قالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال موسى وهـو شاخصٌ عن مدينـة فرعـون خائفـاً: ربِّ نجني من هؤلاءِ القوم الكافرين، الذين ظلموا أنفسهم بكُفْرِهم بك.

وقوله: «وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولما جعل موسى وجهـه نحـو مدينَ، ماضياً إليهـا، شاخصـاً عن مدينـةِ فرعون، وخارجاً عن سلطانه، «قال: عَسَى رَبِّي أنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ»، وعَنَى بقوله: «تِلْقَاءَ»: نحوَ مدينَ؛ ويقال: فعل ذلك من تلقاءِ نفسِه، يعني به: مِن قِبَل نفسه ويقال: دارُه تِلقاءَ دارِ فلان: إذا كانت مُحَاذِيَتَها.

وقوله: «عَسَى رَبِّي أنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ»، يقولُ: عسى ربي أنْ يبينَ لي قصدَ السبيلِ إلى مَدْيَنَ، وإنما قال ذلك لأنه لم يكن يعرف الطريقَ إليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ۝٢٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَلَمَّا وَرَدَ» موسى «مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً»، يعني: جماعةً «مِنَ النَّاسِ» يَسْقُونَ نَعَمَهُمْ ومواشيهم.

وقوله: «وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِم امْرأتَيْنِ تَذُودَانِ»، يقولُ: ووجدَ من دون أمة

الناس الذين هُمْ على الماءِ امرأتين تذودان، يعني بقوله: «تَذُودَانِ» تَحْبِسان غَنَمَهُمَا عن الناسِ حتى يَفرغُوا من سقي مواشيهم؛ يقال منه: ذادَ فلانٌ غنمه وماشيته: إذا أرادَ شيءٌ من ذلك[1] يَشِذُّ ويذهب، فردَّهُ ومنعه، يذودها ذَوْداً.

وقـوله: «قالَ ما خَطْبُكُمَا»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال موسى للمرأتين ما شأنكما وأمركما تذودانِ ماشيتكما عن الناسِ، هَلاَّ تسقونها مع مواشي الناسِ، والعربُ تقولُ للرجل: ما خَطْبُكَ: بمعنى ما أمرك وحالك.

وقـولـه: «قـالَتا لا نَسْقي حتى يُصْدِرَ الرِّعاءُ»، يقول جَلَّ ثناؤه: قالتِ المرأتان لموسى: لا نسقي ماشيتنا حتى يصدرَ الرِّعَاءُ مواشِيَهم، لأنَّا لا نُطِيقُ أنْ نسقي، وإنما نسقي مواشينا ما أفضلَتْ مواشي الرِّعاءِ في الحوض، والرِّعاء: جَمْعُ راعٍ، والراعي جمعه رعاء ورُعاة ورعيان.

وقوله: «وَأَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ»، يقولان: لا يستطيعُ من الكِبَرِ والضعفِ أنْ يسقيَ ماشيته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فسقى موسى للمرأتين ماشيتهما، ثم تَوَلَّى إلى ظلٍّ شجرةٍ ذُكِر أنها سَمُرة.

وقوله: «فقالَ رَبِّ إنِّي لِمَا أنْزَلْتَ إليَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ» محتاج، وذُكِرَ أنَّ نبيَّ الله موسى عليه السلام قال هذا القولَ، وهو بجهدٍ شديدٍ، وعَرَّضَ ذلك للمرأتين تعريضاً لهما، لعلَّهما أنْ تُطعماه مما به من شدَّةِ الجوع. وقيل: إنَّ

---

(١) يعني: إذا أراد شيء من الغنم أن يشذّ.

الخير الذي قالَ نبيُّ الله «إنِّي لِمَا أنْزَلْتَ إليَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ» محتاجٌ، إنَّما عَنَى به: شَبْعَةَ من طعام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فجاءت موسى إحدى المرأتينِ اللَّتين سَقَى لهما تمشي على استحياءٍ من موسى، وقد سترتْ وجهها بثوبها.

وقوله: «قَالَتْ إنَّ أبي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيكَ أجْرَ ما سَقَيْتَ لَنَا»، يقول تعالى ذِكْرُه: قالت المرأةُ التي جاءت موسى تمشي على استحياء: إنَّ أبي يدعوك ليجزيك: تقول: يُثِيبَكَ أجرَ ما سقيتَ لنا.

وقوله: «فَلَمَّا جاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ القَصَصَ»، يقولُ: فمضى موسى معها إلى أبيها، فلما جاء أباها وقَصَّ عليه قَصَصَهُ مع فرعونَ وقومِه من القبطِ، قال له أبوها: «لَا تَخَفْ» فقد «نَجَوْتَ مِنَ القَوْمِ الظالِمِينَ» يعني: من فرعونَ وقومِه، لأنه لا سلطانَ له بأرضنا التي أنتَ بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قالت إحدى المرأتين اللتين سقى لهما موسى لأبيها حينَ أتاهُ موسى، وكان اسمُ إحداهما صَفُّورا، واسم الأخرى لَيَّا، وقيل: شَرْفا كذلك.

وأما أبوهما ففي اسمه اختلافٌ، فقال بعضهم: كان اسمه يثرون.

وقال آخرون: بل اسمه: يَثرَى.

وقال آخرون: بل اسمه شعيب، وقالوا: هو شعيب النبيُّ عليه السلام.

وهذا مما لا يُدرك عِلْمُه إلا بخبرٍ، ولا خبرَ بذلك تجبُ حجته، فلا قولَ في ذلك أولى بالصواب مما قاله الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ «وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ... قالَتْ إحْداهُما: يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ» تعني بقولها: استأجره ليرعى عليكَ ماشيتكَ «إنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ القَوِيُّ الأمِينُ»، تقول: إنَّ خيرَ مَنْ تستأجره للرعي القويّ على حِفْظِ ماشيتكَ والقيام عليها في إصلاحها وصلاحها، امين الذي لا تخافُ خيانته، فيما تأمنه عليه. وقيل: إنها لما قالت ذلك لأبيها، استنكرَ أبوها ذلك من وَصْفِهَا إياهُ فقال لها: وما عِلْمُكِ بذلك، فقالت: أما قُوَّتَهُ فما رأيتُ من علاجِه ما عالجَ عند السقي على البئر، وأما الأمانةُ فما رأيتُ من غَضِّ البصرِ عني.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٢٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «قالَ» أبو المرأتين اللتين سقى لهما موسى لموسى: «إنِّي أُرِيدُ أنْ أُنْكِحَكَ إحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ عَلى أنْ تَأْجُرَني ثَمانِيَ حِجَجٍ»، يعني بقوله: «عَلى أن تَأْجُرَني»: على أن تُثِيبني من تزويجها رعي ماشيتي ثماني حِجَجٍ، من قولِ الناس: آجركَ اللهُ فهو يَأجُرُك، بمعنى: أثابكَ الله؛ والعربُ تقول: أَجرتُ الأجيرَ أجره، بمعنى: أعطيتُه ذلك، كما يقال: أخذته فأنا آخذه. وكأنَّ أباها عندي جعلَ صَدَاقَ ابنتِهِ التي زوّجها موسى رَعْيَ موسى

عليه ما شيتَهُ ثمانيَ حجج، والحِجَج: السنون.

وقوله: «فإنْ أتمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ»، يقولُ: فإن أتممتَ الثماني الحجج عشراً التي شَرَطْتُهَا عليكَ بإنكاحي إياك إحدى ابنتيَّ، فجعلتها عشر حجج، فإحسانٌ من عندك، وليس مما اشترطتُه عليكَ بسببِ تزويجك ابنتي «وما أُريدُ أنْ أشُقَّ عَلَيْكَ» باشتراطِ الثماني الحِجَج عَشْراً عليكَ «سَتَجِدُنِي إنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ» في الوفاء بما قلتُ لك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «قَالَ» موسى لأبي المرأتين «ذلكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ» أي هذا الذي قلتَ من أنك تُزَوِّجُنِي إحدى ابنتيكَ على أنْ آجُرَكَ ثماني حِجَج، واجبٌ بيني وبينك، على كُلِّ واحدٍ منا الوفاءُ لصاحبِهِ بما أوجبَ له على نفسه.

وقوله: «أيَّمَا الأجَلَيْنِ قَضَيْتُ»، يقولُ: أيَّ الأجلين منَ الثماني الحجج والعشر الحجج قضيتُ، يقولُ: فرغتُ منها فوَفَّيْتُكَهَا رعيَ غنمكَ وماشيتكَ «فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ»، يقولُ: فليس لك أنْ تعتدي عليَّ، فتطالبني بأكثرَ منه.

وقوله: «وَاللهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ»، يقولُ: والله على ما أوجبَ كُلَ واحدٍ منا لصاحبِهِ على نفسه بهذا القولِ شهيدٌ وحفيظ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما وَفَّى موسى صاحِبَهُ الأجلَ الذي فارقه عليه عند إنكاحِه إياه ابنتَهُ، وذُكِرَ أنَّ الذي وَفَّاهُ من الأجلين، أتمهما وأكملهما، وذلك العشر الحجج، على أنَّ بعضَ أهلِ العلم قد رُوِيَ عنه أنه قال: زاد مع العشر عَشْراً أخرى.

وقوله: «وَسَارَ بأهْلِهِ آنَسَ مِنْ جانِبِ الطورِ ناراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: «فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأجَلَ وَسَارَ بأهْلِهِ» شاخصاً بهم إلى منزله من مصرَ «آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ» يعني بقوله: آنَسَ: أبصرَ وأحَسَّ.

وقوله: «قال لأهْلِهِ امْكُثُوا إنِّي آنَسْتُ ناراً»، يقولُ: قال موسى لأهله: تَمَهَّلُوا وانتظروا، إنِّي أبصرتُ ناراً «لَعَلِّي آتيكُمْ مِنْها»، يعني من النار «بِخَبَرٍ أو جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ»، يقولُ: أو آتيكم بقطعةٍ غليظةٍ من الحطبِ فيها النارُ.

وقوله: «لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ»، يقولُ: لعلكم تسخَنون بها من البرد، وكان في شتاء.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما أتى موسى النارَ التي «آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ» «نُودِيَ مِنْ شَاطِىءِ الْوَادِ الأيْمَنِ»، يعني بالشاطىءِ: الشطَّ، وهو جانبُ الوادي وعدوته، والشاطىءُ يُجمعُ شواطىء وشطآن، والشطّ: الشُّطوطَ، والأيمن: نعتٌ من الشاطىء عن يمينِ موسى.

وقوله: «في البُقْعة المباركة» من صلة الشاطىء.

وتأويل الكلام: فلما أتاها نادى اللهُ موسى من شاطئِ الوادي الأيمنِ في البقعة المباركة منه من الشجرة: «أَنْ يا مُوسَى إنِّي أنا الله رَبُّ العَالَمِينَ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: نُودِي موسى: «أَنْ يا موسى إنِّي أنا اللهُ ربُّ العَالَمِين. وأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ» فألقاها موسى، فصارت حيةً تسعى «فَلَمَّا رآها» موسى «تَهْتَزُّ»، يقـولُ: تَتَحَرَّكُ وتضـطرب «كأَنَّها جانٌّ» والجانُّ: واحِدُ الجِنَّان، وهي نوعٌ معروف من أنواع الحيات، وهي منها عظام. ومعنى الكلام: كأنها جانٌّ من الحيات. «وَلَّى مُدْبِراً»، يقولُ: ولى موسى هارباً منها. «وَلَمْ يُعَقِّبْ»، يقولُ: ولم يرجعْ على عقبه.

وقوله: «يا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فَنُودِيَ موسى: يا موسى أقبـلْ إليَّ ولا تَخَفْ من الذي تهربُ منه. «إِنَّك مِنَ الآمِنِينَ» مِنْ أَنْ يضرَّكَ، إنما هو عصاك.

وقـولـه: «اسْلُكْ يَدَكَ في جَيْبِـكَ»، يقـولُ: أَدْخِلْ يدكَ، وفيه لغتان: سلكته، وأسلكته «في جَيْبِكَ» يقولُ: في جيبِ قميصكَ.

وقوله: «تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غيرِ سُوءٍ»، يقولُ: تخرج بيضاء من غيرِ بَرَصٍ.

وقوله: «وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ»، يقولُ: واضمُمْ إليكَ يَدَكَ.

وقوله: «مِنَ الرَّهْبِ»، يقولُ: من الخوفِ والفرَقِ الذي قد نالكَ من معاينتك ما عاينتَ من هولِ الحية.

وقوله: فَذَانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فهذانِ اللذان أَرَيْتُكَهُمَا يا موسى من تَحَوُّلِ العصا حيةً، ويدكَ وهي سمراء، بيضاءَ تلمعُ من غير برصٍ، «برهانان»، يقول: آيتانِ وحجتان، وأصلُ البرهانِ: البيانُ، يقال للرجل: يقول القول إذا سئل الحجة عليه: هاتِ برهانكَ على ما تقولُ: أي هاتِ تبيان ذلك ومصداقه.

«إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ»، يقولُ: إلى فرعون وأشرافِ قومِه حجةً عليهم، ودلالةً على حقيقةِ نبوّتكَ يا موسى «إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ»، يقولُ: إنَّ فرعونَ وملأه كانوا قوماً كافرين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «قالَ» موسى: «رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ» من قوم فرعون «نَفْسَاً فَأَخَافُ» إنْ أتيتهم فلم أُبِنْ عن نفسي بحجةٍ «أَنْ يَقْتُلُونِ» لأن في لساني عقدةً، ولا أبينُ معها ما أريدُ من الكلام «وَأَخِي هَارُون هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً»، يقولُ: أحسنُ بياناً عما يريدُ أنْ يبينه «فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْأً»، يقولُ: عوناً «يُصَدِّقُنِي»: أي يبينُ لهم عني ما أخاطبهم به.

وقوله: «إِنِّي أخافُ أنْ يُكَذِّبُونِ»، يقولُ: إني أخافُ أنْ لا يصدقوني على قولي لهم: إني أُرسِلْتُ إليكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال الله لموسى «سَنَشُدُّ عَضُدَكَ»؛ أي نُقَوِّيك ونُعِينُك بأخيكَ، تقولُ العربُ إذا أعزَّ رجلٌ رجلاً وأعانَهُ ومنعه مِمَّنْ أرادَهُ بظلم: قد شَدَّ فلانٌ على عَضُدِ فلان، وهو مَنْ عاضده على أمرٍ: إذا أعانه.

وقوله: «وَنَجْعَلُ لَكما سُلْطاناً»، يقولُ: ونجعل لكما حُجَّةً.

وقوله: «فَلا يَصِلُونَ إلَيْكُما»، يقول تعالى ذِكْرُه: فلا يصلُ إليكما فرعونُ وقومه بسوء.

وقوله: «بآياتِنا»، يقول تعالى ذِكْرُه: «فَلا يَصِلُونَ إلَيْكُمَا» فرعونُ وقومُه «بِـآياتِنا أَنْتُما وَمَنْ اتَّبَعَكُما الغالِبُونَ» فالباء في قوله بآياتنا من صلةِ غالبون. ومعنى الكـلام: أنتمـا ومَن اتَّبعكما الغالبونَ فرعونَ وملأَهُ بآياتنا أي بحُجَّتِنا وسُلطاننا الذي نجعلُه لكما.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما جاء موسى فرعونَ وملأَهُ بأدلَّتنا وحُجَجِنَا بيناتٍ أنها حججٌ شاهدةٌ بحقيقةِ ما جاء به موسى من عندِ ربه، قالوا لموسى: ما هذا الذي جئتنا به إلا سِحْرٌ افتريته من قبلك وتَخرَّصْتَهُ كذباً وباطلاً «وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا» الذي تَدْعُونَا إليه من عبادةِ مَنْ تدعونا إلى عبادتِه في أسلافنا وآبائنا الأوّلين الذين مضوا قَبْلَنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَقالَ مُوسَى» مجيباً لفرعون «رَبِّي أَعْلَمُ» بالمحقِّ منا يا فرعون من المُبْطِلِ، ومَنِ الذي جاء بالرشاد إلى سبيل الصواب والبيانِ عن واضحِ الحجةِ من عنده، ومَنِ الذي له العقبى المحمودة في الدار الآخرة منا.

وهذه معارضةٌ من نبيِّ الله موسى عليه السلام لفرعون، وجميل مخاطبة، إذْ ترك أن يقول له، بل الذي غَرَّ قَوْمَهُ وأهلك جنودَهُ، وأضلَّ أتباعَهُ أنتَ لا أنا، ولكنه قال: «رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بالهُدَى مِنْ عِنْدِهِ، وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ» ثم بالغ في ذَمِّ عدوِّ الله بأجمل من الخطاب فقال: «إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ»، يقولُ: إنه لا ينجحُ ولا يدركُ طَلبتَهُم الكافرونَ بالله تعالى، يعني بذلك فرعونَ، إنه لا يفلح ولا ينجح لكفرِه بربه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال فرعونُ لأشرافِ قومه وسادتهم: «يا أَيُّها المَلأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرِي» فتعبدوه، وتُصَدِّقُوا قولَ موسى فيما جاءكم به من أنَّ لكم وله رباً غيري ومعبوداً سواي، «فَأَوْقِدْ لي يا هامانُ عَلى الطِّينِ»، يقولُ: فاعمل لي آجُراً، وذُكِرَ أنه أوَّلُ مَنْ طبخ الآجُرَّ وبَنَى به.

وقوله: «فاجْعَلْ لي صَرْحاً»، يقولُ: ابن لي بالآجرِّ بناءً، وكل بناء مسطح فهو صرحٌ كالقصر.

وقوله: «لَعَلِّي أَطَّلِعُ إلى إِلَهِ مُوسَى»، يقولُ: أنظر إلى معبودِ موسى، الذي يعبده، ويدعو إلى عبادته «وإنِّي لأَظُنُّهُ» فيما يقولُ من أنَّ له معبوداً يعبدُه في السماء، وأنه هو الذي يُؤيده ويَنْصُره، وهو الذي أرسله إلينا «مِنَ الكاذبين». فَذُكِرَ لنا أنَّ هامان بنى له الصرحَ، فارتقى فوقَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَاسْتَكْبَرَ» فرعونُ «وَجُنُودُهُ» في أرضِ مصرَ عن تصديقِ موسى واتباعِه على ما دعاهم إليه من توحيدِ الله، والإقرارِ بالعبوديةِ له بغير الحقِّ، يعني تعدِّياً وعتوّاً على رَبِّهم «وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إلينا لا يُرْجَعُونَ»، يقولُ: وحسبوا أنهم بعد مماتهم لا يُبْعَثُونَ، ولا ثوابَ، ولا عقابَ، فركبوا أهواءهم، ولم يعلموا أنَّ الله لهم بالمرصاد، وأنه لهم مُجازٍ على أعمالهم الخبيثة.

وقوله: «فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فجمعنا فرعونَ وجنودَهُ من القبطِ «فَنَبَذْناهُمْ في الْيَمِّ»، يقولُ: فألقيناهم جميعَهُمْ في البحر فغرقناهم فيه، وذكر أنَّ ذلك بحر من وراء مصر.

وقوله: «فانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فانظر يا محمدُ بعينِ قلبكَ كيفَ كان أمرُ هؤلاءِ الذين ظلموا أنفسهم فكفروا بربهم. وردُّوا على رسولِه نصيحتَهُ، ألم نُهْلِكهم فَنُوَرِّثُ ديارهم وأموالَهُمْ أولياءنا، ونُخَوِّلُهم ما كانَ لهم من جناتٍ وعيونٍ وكنوزٍ، ومقامٍ كريم، بعد أنْ كانوا مستضعفين، تُقَتَّلُ أبناؤهم، وتُسْتَحْيا نساؤهم، فإنَّا كذلك بكَ وبمن آمنَ بك وصدَّقك فاعلونَ مُخَوِّلُوكَ وإياهم دِيارَ مَنْ كَذَّبكَ، ورَدَّ عليكَ ما أتيتهم به من الحقِّ وأموالهم، ومُهْلِكُوهم قتلاً بالسيف، سُنَّةَ الله في الذين خَلَوْا من قَبْلُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وجعلنا فرعونَ وقومَهُ أئمةً يأتمُّ بهم أهلُ العُتُوِّ على اللهِ والكفرِ به، يدعونَ الناسَ إلى أعمالِ أهلِ النار «وَيَوْمَ القيامَةِ لا يُنْصَرُونَ»، يقول جَلَّ ثناؤُه: ويومَ القيامة لا ينصرهم اللهُ إذا عَذَّبهم ناصرٌ، وقد كانوا في الدنيا يتناصرون، فاضمحلَّتْ تلك النُّصْرَةُ يومئذٍ.

وقوله: «وأَتْبَعْنَاهُمْ في هَذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ القيامَةِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وألزمنا فرعونَ وقومَهُ في هذه الدنيا خِزْياً وغضباً منا عليهم، فحتمنا لهم فيها بالهلاكِ والبوارِ والثناء السيّء، ونحن مُتْبِعُوهم لعنةً أخرى يومَ القيامة، فَمُخْزُوهُمْ بها الخِزْيَ الدائمَ، ومُهِينُوهم الهوانَ اللازم.

وقوله: «هُمْ مِنَ المَقْبوحِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هُمْ من القومِ الذين قَبَّحَهُمُ اللهُ فأهلكهم بكفرِهم بربِّهم، وتكذيبهم رسولَهُ موسى عليه السلام، فجعلهم عبرةً للمعتبرين، وعِظَةً للمتعظين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى» التوراةَ «مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الأُمَمَ التي كانت قَبْلَهُ كقومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ وقومِ لوط وأصحاب مَدين «بَصَائِرَ للنَّاسِ»، يقولُ: ضياء لبني إسرائيل فيما بهم إليه الحاجة من أمر دينهم «وَهُدًى»،

يقولُ: وبياناً لهم ورحمة لمن عملَ به منهم. «لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ»، يقولُ: ليتذكروا نِعْمَ اللهِ بذلك عليهم، فيشكروهُ عليها ولا يَكْفُروا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «وَمَا كُنْتَ» يا محمدُ «بِجَانِب» غربيِّ الجبلِ «إِذْ قَضَيْنا إلى مُوسَى الأمْرِ»، يقولُ: إذ فرضنا إلى موسى الأمرَ فيما ألزمناهُ وقومَهُ، وعَهِدْنَا إليه من عهد «وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ»، يقولُ: وما كنتَ لذلك من الشاهدين.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وَلَكِنَّا أَنْشأنا قُرُوناً» ولكنا خلقنا أمماً فأحدثناها من بعدِ ذلك «فَتطاوَلَ عَلَيْهِم العُمُرُ».

وقوله: «وَما كُنْتَ ثاوياً في أَهْلِ مَدْيَنَ»، يقولُ: وما كنت مقيماً في أهلِ مدين، يقال: ثويت بالمكان أثْوي به ثَواء.

«تَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِنـا»، يقولُ: تقرأُ عليهم كتابَنا. «وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ»، يقولُ: لم تَشْهَدْ شيئاً من ذلك يا محمدُ، ولكنا كُنَّا نحنُ نفعلُ ذلك ونرسلُ الرُّسُلَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما كنتَ يا محمدُ بجانبِ الجبلِ إذ نادينا موسى بأنْ «فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ، وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيّ»... الآية [الأعراف: ١٥٦].

وقوله: «وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لم تشهدْ شيئاً من ذلك يا محمدُ فتعلمه، ولكنَّا عَرَّفْناكَهُ، وأنزلنا إليك، فاقْتَصَصْنا ذلك كُلَّهُ عليك في كتابنا، وابتعثناكَ بما أنزلنا إليكَ من ذلك رسولاً إلى مَنِ ابتعثناكَ إليه من الخَلْقِ رحمةً منا لكَ ولهم.

وقوله: «لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِك»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولكنْ أرسلناكَ بهذا الكتابِ وهذا الدينِ لتنذر قوماً لم يَأْتِهم من قَبْلِكَ نذيرٌ، وهم العربُ الذين بعث إليهم رسولُ الله ﷺ، بعثه الله إليهم رحمةً لينذرهم بأسه على عبادتِهم الأصنامَ، وإشراكِهم به الأوثانَ والأنداد.

وقوله: «لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ»، يقولُ: ليتذكَّروا خطأَ ما هُمْ عليه مقيمونَ من كفرِهم بربِّهم، فينيبوا إلى الإقرارِ لله بالوحدانية، وإفرادِه بالعبادةِ دونَ كُلِّ ما سواه من الآلهة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولولا أنْ يقولَ هؤلاءِ الذين أرسلتُك يا محمدُ إليهم، لو حَلَّ بهم بأسُنَا، أو أتاهم عذابنا من قبل أنْ نُرسلك إليهم على كُفْرِهم بربِّهم، واكتسابهم الآثامَ، واجترامهم المعاصي: رَبَّنا هَلَّا أرسلتَ إلينا رسولاً من قَبْلِ أنْ يحلَّ بنا سَخَطُكَ، وينزلَ بنا عذابُكَ فنتبعَ أدِلَّتَك، وآيَ كتابكَ الذي تنزله على رسولكَ ونكونَ من المؤمنينَ بأُلوهيتكَ، المصدِّقينَ رسولَكَ فيما أمَرْتَنا ونهيتنا، لعاجلناهم العقوبةَ على شِرْكِهم من قبلِ ما أرسلناكَ إليهم، ولكنا بعثناكَ إليهم نذيراً بأسَنَا على كفرهم، لئلا يكونَ للناسِ على الله حجةٌ بعدَ الرسلِ. والمصيبةُ في هذا الموضع: العذابُ والنقمة.

ويعني بقوله: «بِمَا قَدَّمَتْ أيْدِيهِمْ» بما اكتسبوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما جاء هؤلاءِ الذين لم يأتِهِمْ من قبلكَ يا محمدُ نذيرٌ فبعثناكَ إليهم نذيراً «الحقُّ من عِنْدِنَا»، وهو محمدٌ ﷺ بالرسالةِ من الله إليهم، قالوا: تمرّداً على الله، وتمادياً في الغيّ: هَلَّا أُوتيَ هذا الذي أُرسلَ إلينا، وهو محمدٌ ﷺ مثل ما أُوتيَ موسى بن عمران من الكتابِ، يقول الله تبارك وتعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ لقومكَ من قريش، القائلينَ لك «لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسَى» أو لم يَكْفُر الذين علموا هذه الحجةَ من اليهودِ بما أوتيَ موسى من قَبْلِك.

وقوله: «قالوا سِحْرَان تَظاهرا»، بمعنى: كتاب موسى وهو التوراة، وكتاب

عيسى وهو الإنجيل[١].

وقوله: «وَقالُوا إنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وقالت اليهودُ: إنَّا بكلِّ كتابٍ في الأرض من توراةٍ وإنجيلٍ، وزبورٍ وفرقانٍ كافرون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يا محمدُ للقائلينَ للتوراةِ والإنجيل: هما سحران تظاهرا: ائتوا بكتابٍ من عند الله، هو أَهْدَى منهما لطريقِ الحقِّ ولسبيلِ الرشاد «أَتَّبِعْهُ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» في زعمكم أنَّ هذين الكتابينِ سحرانِ، وأنَّ الحقَّ في غيرِهما[٢].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾

---

(١) هذا هو الرأي الذي ارتضاه المؤلف وصَوَّبه بعد إيراد مجموعة من الآراء، وأن المخاطبين بذلك هم اليهود. وكلام المؤلف فيه شيء من الاضطراب، ولولا أنه كرره فيما يأتي من تفسير لقلنا إنه من وهم النساخ، فالمشهور أن المخاطبين بذلك هم أهل مكة، والمقصود بذلك التوراة والقرآن، وهو الذي قاله الفراء في معاني القرآن: ٣٠٦/٢، وابن الجوزي في زاد المسير: ٢٢٨/٦، وانظر التعليق الآتي.

(٢) ثم قال المؤلف: «وبنحو الذي قلنا قال أهل التأويل» ثم ساق تفسير ابن زيد: «قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما، من هذين الكتابين الذي بعث به موسى والذي بعث به محمدﷺ»، وانظر بَعْدُ إلى تعليقنا السابق. على ان المؤلف سيزيد ذلك بياناً في تفسير الآية الآتية.

يقـول تعـالى ذِكْرُه: فإنْ لم يُجِبْكَ هؤلاءِ القائلونَ للتوراةِ والإنجيلِ: سحرانِ تَظَاهرا، الزاعمونَ أنَّ الحقَّ في غيرهما من اليهودِ يا محمدُ، إلى أنْ يأتوكَ بكتابٍ من عند الله، هو أهدى منهما، فاعلمْ أنَّما يَتَّبِعُونَ أهواءهم وأنَّ الذي ينطقونَ به ويقولونَ في الكتابين، قولٌ كَذِبٌ وباطلٌ لا حقيقةَ له.

ولعل قائلاً أنْ يقول: أَوَ لَمْ يكن النبيُّ ﷺ يعلم أنَّ ما قالَ القائلونَ من اليهودِ وغيرهم في التوراة والإنجيل من الإفكِ والزور المُسَمُّوهُمَا سِحْرَيْنِ باطلٌ من القولِ، إلا بأنْ لا يجيبوه إلى إتيانهم بكتابٍ هو أهدى منهما؟

قيل: هذا كلام خرجَ مخرجَ الخطابِ لرسولِ الله ﷺ، والمرادُ به المَقُولُ لهم أَوَ لَمْ يَكفُروا بما أُوتِيَ موسى من قبلُ من كفار قريش، وذلك أنه قيل للنبيِّ ﷺ: قُلْ يامحمدُ لمشركي قريش: أو لم يكفر هؤلاءِ الذين أمروكم أنْ تقولوا: هَلَّا أُوتيَ محمدٌ مِثْلَ ما أُوتِيَ موسى، بالذي أوتيَ موسى من قبل هذا القرآن، ويقولوا للذي أنزل عليه وعلى عيسى «سِحْرَانِ تَظَاهَرَا»، فقولوا لهم إنْ كنتم صادقين أنَّ ما أُوتي موسى وعيسى سحرٌ، فأْتُوني بكتابٍ من عند الله، هو أهدى من كتابيهما، فإنْ هم لم يُجِيبُوكُمْ إلى ذلك فاعلموا أنهم كَذَبَةٌ، وأنهم إنما يتبعون في تكذيبهم محمداً، وما جاء به من عندِ الله أهواء أنفسهم، ويتركون الحقَّ وهم يعلمون، يقول تعالى ذِكْرُه: وَمَنْ أضلُّ عن طريقِ الرشادِ، وسبيلِ السدادِ مِمَّنْ اتَّبَعَ هوى نفسِه بغيرِ بيانٍ من عند الله، وعهدٍ من الله، ويتركُ عهدَ الله الذي عَهِدَهُ إلى خَلْقِه في وحيه وتنزيله. «إنَّ اللهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمينَ»، يقـول تعالى ذِكْرُه: إن الله لا يُوفِّق لإصابةِ الحقِّ وسبيلِ الرشد القومَ الذين خالفوا أمرَ الله وتركوا طاعته، وكذَّبُوا رسولَهُ، وبَدَّلُوا عهده، واتبعوا أهواء أنفسهم إيثاراً منهم لطاعةِ الشيطانِ على طاعةِ ربهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ

﴿يَتَذَكَّرُونَ ۝٥١ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد وَصَّلْنَا يا محمدُ لقومكَ من قريش ولليهودِ من بني إسرائيلَ القولَ بأخبارِ الماضين والنبأ عما أحللنا بهم من بأسنا، إذْ كَذَّبُوا رُسُلَنَا، وعَمَّا نحنُ فاعلونَ بمن اقتفى آثارهم، واحتذى في الكفر بالله، وتكذيبِ رسله مِثَالَهُمْ، ليتذكَّروا فيعتبروا ويَتَّعِظُوا، وأصله من وَصْلِ الحبالِ بعضِها ببعضٍ.

وقوله: «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ»، يعني بذلك تعالى ذكره قوماً من أهلِ الكتابِ آمنوا برسولِه وصَدَّقُوه، فقال الذين آتيناهم الكتابَ من قبلِ هذا القرآنِ هُمْ بهذا القرآنِ يؤمنون، فَيُقِرُّونَ أنه حقٌّ من عندِ الله، ويُكَذِّبُ جَهَلَةُ الأميين، الذين لم يأتِهم من الله كتابٌ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَإِذَا يُتْلَى» هذا القرآنُ على الذين آتيناهم الكتابَ من قبل نزولِ هذا القرآنِ «قالُوا آمَنَّا بِهِ»، يقولُ: يقولون: صَدَّقْنَا به «إِنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّنا»، يعني من عندِ رَبِّنَا نَزَلَ، «إِنَّا كُنَّا مِنْ قبلِهِ» أي نزولِ هذا القرآن «مُسْلِمِينَ»، وذلك أنهم كانوا مؤمنينَ بما جاء به الأنبياءُ قبلَ مجيءِ نبينا محمدٍ ﷺ وعليهم، من الكتبِ، وفي كتبهم صفةُ محمدٍ ونعتُه، فكانوا به وبمبعثِه وبكتابِه مُصَدِّقينَ قبل نزولِ القرآن، فلذلك قالوا: «إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِه مُسْلِمِينَ».

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٥٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاءِ الذين وصفتُ صِفتَهم «يُؤْتَوْنَ» ثوابَ عملهم «مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا».

واختلف أهلُ التأويل في معنى الصبر الذي وَعَدَ اللهُ ما وعدَ عليه، فقال بعضهم: وَعَـدَهُمْ ما وَعَدَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بصبرِهم على الكتابِ الأوّل، واتباعِهم محمداً ﷺ، وصبرهم على ذلك.

وقال آخرون: بل وعدهم بصبرهم بإيمانهم بمحمدٍ ﷺ قبلَ أنْ يبعث، وباتباعهم إياهُ حين بُعِثَ.

وقـال آخـرون: إن قوماً كانوا مشركينَ أسلموا، فكانَ قومهم يؤذونهم، فنزلت «أولَئِكَ يُؤْتونَ أجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا»[(١)].

وقوله: «وَيَدْرَءُونَ بالحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ»، يقولُ: ويدفعون بحسناتِ أفعالهم التي يفعلونها سيئاتِهم «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ» من الأموالِ «يُنْفِقُونَ» في طاعة الله، إما في جهادٍ في سبيلِ الله، وإما في صدقةٍ على محتاجٍ، أو في صِلَةِ رَحِمٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ۝٥٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا سمع هؤلاءِ القوم الذين آتيناهم الكتابَ اللغوَ، وهو الباطلُ من القولِ.

---

(١) لم يبين المؤلف الأولى بالصـواب من هذه الأقـوال، على غير عادته، والظاهر أن القـولين الأولين همـا الأولى بالصـواب، وهمـا بمعنى واحـد لإطباق الجمهور أن المقصودين بهذا هم مؤمنو أهل الكتاب. وأيضاً لحديث ابي موسى الأشعري رضي الله عنه في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهـل الكتـاب آمن بنبيه وأدرك النبي ﷺ فآمن به واتبعـه وصـدقـه فله أجران. . . الحديث»: البخاري (٩٧)، ومسلم (١٥٤).

وقال آخرون: عنى باللغو في هذا الموضع ما كان أهل الكتاب ألحقوه في كتاب الله مما ليس هو منه.

وقال آخرون: نزلت في قوم كانوا مشركين فأسلموا فكان قومهم يؤذونهم.

وقوله: «أعْرَضُوا عَنْهُ»، يقولُ: لم يُصْغُوا إليه ولم يستمعوه «وَقالُوا لَنا أعمالُنا وَلَكُمْ أعمالُكُمْ»، وهذا يدلُّ على أنَّ اللغو الذي ذكره الله في هذا الموضع. إنما هو سماعُ القومِ ممن يؤذيهم بالقولِ ما يكرهون منه في أنفسهم، وأنهم أجابوهم بالجميلِ من القولِ «لَنا أعمالُنا» قد رَضِينَا بها لأنفسنا، «وَلَكُمْ أعمالُكُمْ» قد رضيتم بها لأنفسكم.

وقوله: «سَلامٌ عَلَيْكُمْ»، يقولُ: أَمَنَة لكم مِنَّا أنْ نُسَابَّكُمْ أو تَسمعُوا مِنَّا ما لا تُحِبُّون «لا نَبْتَغِي الجاهِلِينَ»، يقولُ: لا نريدُ محاورةَ أهلِ الجهلِ ومسابَّتَهُمْ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «إنَّكَ» يا محمدُ «لا تَهْدِي مَنْ أحْبَبْتَ» هدايتَهُ «وَلَكِنَّ الله يَهْدِي مَنْ يَشاءُ» أنْ يهديه من خَلْقِه بتوفيقِه للإيمانِ به وبرسوله. ولو قيل: معناه: إنك لا تهدي مَنْ أحببته لقرابتِه منكَ، ولكنَّ الله يهدي مَنْ يشاء، كان مذهباً. «وَهُوَ أعْلَمُ بالمُهْتَدِينَ»، يقول جَلَّ ثناؤه: والله أعلمُ مَنْ سبقَ له في عِلْمِه أنه يهتدي للرشاد، ذلكِ الذي يهديه الله فيسدِّدُه ويوفِّقُه.

وذُكر أنَّ هذه الآية نزلتْ على رسولِ الله ﷺ من أجلِ امتناعِ أبي طالب عَمِّهِ من إجابتِه إذْ دَعَاهُ إلى الإيمانِ بالله إلى ما دعاه إليه من ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقالتْ كفارُ قريش: إنْ نَتَّبعِ الحقَّ الذي جئتَنا به معكَ، ونتبرأْ من الأندادِ والآلهةِ، يَتخطَّفُنا الناسُ من أرضنا بإجماعِ جميعِهم على خِلافِنا وحَرْبِنا، يقولُ الله لنبيه: فقل: «أوْ لَمْ نُمكِّنْ لَهُمْ حَرَماً»، يقولُ: أو لم نُوَطِّئْ لهم بلداً حرّمنا على الناسِ سفكَ الدماءِ فيه، ومنعناهم من أنْ يتناولوا سُكَّانَهُ فيه بسوءٍ، وأمنا على أهله من أنْ يُصِيبَهُمْ بها غارةٌ، أو قتلٌ، أو سِباء.

وقـولـه: «يُجْبَى إلَيْهِ ثَمَـرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ»، يقولُ: يُجمع إليه، وهو من قولهم: جبيتُ الماء في الحوضِ إذا جمعتُه فيه، وإنما أُريد بذلك: يُحملُ إليه ثَمراتُ كلِّ بلدٍ.

وقوله: «رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا»، يقولُ: ورزقاً رزقناهم من لدنا، يعني: من عندنا «ولَكِنَّ أكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولكنَّ أكثرَ هؤلاءِ المشركينَ القـائلينَ لرسـولِ الله ﷺ: «إنْ نَتَّبِعِ الهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أرْضِنا»، لا يعلمونَ أنَّا نحنُ الذين مكَّنا لهم حرماً آمناً، ورزقناهم فيه، وجعلنا الثمرات من كلِّ أرضٍ تُجْبَى إليهم، فهم بجهلِهم بِمَنْ فعـلَ ذلـك بهم يكفـرون، لا يشكرون مَنْ أنعمَ عليهم بذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ» أَبْطَرَتها «مَعِيشتها» فبطرتْ، وأَشِرَتْ، وطَغَتْ، فكفرت رَبَّها. وقيل: بَطِرَتْ معيشتَها، فجعل الفعل للقرية، وهو في الأصل للمعيشة، كما يقال: أَسْفَهَكَ رأيك فَسفِهته، وأبطرك مالُكَ فبطرته.

وقوله: «فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إلاَّ قَلِيلاً»، يقولُ: فتلك دُورُ القومِ الذين أهلكناهم بكفرهم بربِّهم ومنازلهم، لم تُسْكَنْ من بعدِهم إلا قليلاً، يقولُ: خَرِبَتْ من بعدِهم فلم يُعمرْ منها إلا أقلها، وأكثرها خرابٌ، ولفظ الكلام وإنْ كان خارجاً على أنَّ مساكنهم قد سُكِنتْ قليلاً، فإن معناه: فتلك مساكِنُهم لم تُسْكَنْ من بعدِهم إلا قليلاً منها، كما يقال: قضيتُ حَقَّكَ إلا قليلاً منه.

وقوله: «وَكُنَّا نَحْنُ الوَارِثِينَ»، يقولُ: ولم يكنْ لما خَرَّبْنَا من مساكنهم منهم وارثٌ، وعادتْ كما كانت قبل سُكناهم فيها، لا مالكَ لها إلا الله، الذي له ميراثُ السمواتِ والأرض.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ ۝٥٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَما كانَ رَبُّكَ» يا محمدُ «مُهْلِكَ القُرَى» التي حوالي مكة في زمانكَ وعصرك «حتى يَبْعَثَ في أُمِّها رَسُولاً»، يقولُ: حتى يبعثَ في مكةَ رسولاً، وهي أمّ القرى، يتلو عليهم آياتِ كتابنا، والرسولُ محمدٌ ﷺ.

وقـولـه: «وَما كُنَّا مُهْلِكِي القُرَى إلاَّ وأهْلُها ظالِمونَ»، يقولُ: ولم نكن لنهلك قريةً وهي بالله مؤمنـةٌ إنما نُهلكها بِظُلْمِها أنفُسَها بكفرِها بالله، وإنما

أهلكنا أهلَ مكةَ بكفرِهم بربِّهم وظُلْمِ أنفسهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما أُعطيتم أيها الناسُ من شيءٍ من الأموالِ والأولاد، فإنما هو متاعٌ تتمتعون به في هذه الحياة الدنيا، وهو من زِينَتِهَا التي يُتَزَيَّنُ به فيها، لا يغني عنكم عند الله شيئاً، ولا ينفعكم شيءٌ منه في مَعادِكم، وما عندَ اللهِ لأهلِ طاعته وولايته خيرٌ مما أُوتيتموهُ أنتم في هذه الدنيا من متاعها وزينتها وأبقى. يقولُ: وأبقى لأهلِه، لأنه دائمٌ لا نفادَ له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أفَمَنْ وعَدناهُ من خَلْقِنا على طاعتِه إيَّانَا الجنةَ، فآمَنَ بما وعدناه وصدَّقَ وأطاعنا، فاستحقَّ بطاعتِه إيانا أنْ نُنْجزَ له ما وعدناهُ، فهو لاقٍ ما وُعِدَ، وصائرٌ إليه كَمَنْ متَّعناهُ في الحياة الدنيا متاعها، فتمتع به، ونسي العملَ بما وعدنا أهلَ الطاعة، وتركَ طلبه، وآثرَ لذَّةً عاجلةً على آجلة، ثم هو يومَ القيامة إذا ورد على الله من المُحْضَرينَ، يعني: من المُشْهَدين عذابَ الله وأليمَ عقابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويوم ينادي ربُّ العِزَّةِ الذين أشركوا به الأندادَ والأوثانَ في الدنيا، فيقول لهم: «أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُم تَزْعُمُونَ» أنهم لي في الدنيا شركاء «قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ»، يقولُ: قال الذين وَجَبَ عليهم غضبُ الله ولعنته، وهُمُ الشياطينُ الذين كانوا يغوون بني آدم: «رَبَّنا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا، أَغْوَيْناهُمْ كَمَا غَوَيْنا».

وقوله: «تَبَرَّأنا إِلَيْكَ»، يقولُ: تبرأنا من ولايتهم ونُصْرتهم إليك «ما كانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ»، يقولُ: لم يكونوا يعبدوننا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقِيلَ للمشركينَ بالله الآلهةَ والأندادَ في الدنيا «ادْعُوا شركاءَكُمْ» الذين كنتم تَدْعُونَ من دونِ الله. «فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ»، يقولُ: فلم يُجيبُوهم. «ورأَوُا العَذابَ»، يقولُ: وعاينوا العذابَ «لَوْ أَنَّهُمْ كانُوا يَهْتَدُونَ»، يقولُ: فوَدُّوا حين رأوا العذابَ لو أنهم كانوا في الدنيا مهتدين للحقِّ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعـالَى: وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويوم ينادي اللهُ هؤلاءِ المشركينَ فيقول لهم: «ماذَا أَجَبْتُمُ المُرْسَلِينَ» فيما أرسلناهم به إليكم من دعائِكم إلى توحيدنا، والبراءة من الأوثانِ والأصنام «فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْباء يَوْمَئِذٍ»، يقولُ: فخفيت عليهم الأخبارُ من قولِهم: قد عَمِيَ عني خبرُ القوم: إذا خفيَ. وإنما عُنِيَ بذلك أنهم عميت

عليهم الحجةُ ، فلم يدروا ما يحتجون، لأنَّ الله تعالى قد كان أبلغَ إليهم في المعـذرةِ، وتابعَ عليهم الحجةَ، فلم تكن لهم حجةٌ يحتجون بها، ولا خبر يخبرون به مما تكونُ لهم به نجاةٌ ومَخْلصٌ.

وقوله: «فَهُمْ لا يَتساءَلُونَ» بالأنسابِ والقرابة.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «فأمَّا مَنْ تابَ» من المشركينَ، فأنابَ وراجعَ الحقَّ، وأخلصَ للهِ الألوهةَ، وأفردَ له العبادةَ، فلم يشركْ في عبادته شيئاً. «وَآمَنَ»، يقولُ: وصدَّق بنبيه محمدٍ ﷺ، «وَعَمِلَ صَالِحاً»، يقولُ: وعمل بما أمرهُ اللهُ بعملِه في كتابه، وعلى لسانِ رسولِه ﷺ، «فَعَسَى أن يكُونَ مِنَ المُفْلِحِينَ»، يقولُ: فهو من المُنْجِحينَ المُدْرِكينَ طَلبتهم، عند الله الخالدينَ في جنانهِ، وعَسَى من الله واجبٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَرَبُّكَ» يا محمدُ «يَخْلُقُ ما يَشَاءُ» أنْ يخلقه «وَيَخْتارُ» لولايته الخِيرةَ من خَلْقِه، ومَنْ سَبقتْ له من السعادة. وإنما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «وَيَخْتَارُ ما كانَ لَهُمُ الخِيرَةُ»، والمعنى: ما وصفتُ، لأنَّ المشركينَ كانوا فيما ذُكِرَ عنهم يختارون أموالَهم، فيجعلونها لآلهتِهم، فقال اللهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: وربُّكَ يا محمدُ يخلقُ ما يشاءُ أنْ يخلقه، ويختارُ للهدايةِ والإيمانِ والعملِ الصالح من خَلْقِه ما هو في سابقِ عِلْمِه أنه خِيرَتُهم، نظيرَ ما كانَ من هؤلاءِ

المشركينَ لآلهتهم خيار أموالِهم، فكذلكَ اختياري لنفسي، واجتبائي لولايتي، واصطفائي لخِدْمتي وطاعتي خِيارَ مملكتي وخلقي.

وقوله سبحانه وتعالى: «عَمَّا يُشْرِكُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه تنزيهاً لله وتبرئةً له، وعُلُوّاً عما أضافَ إليه المشركونَ من الشركِ، وما تخرَّصُوه من الكذبِ والباطلِ عليه. وتأويل الكلام: سبحان الله وتعالى عن شركهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وربُّكَ يا محمدُ يعلمُ ما تُخْفي صدورُ خَلْقِه، وهو مِنْ أكننتُ الشيءَ في صدري: إذا أضمرتُه فيه، وكننتُ الشيءَ: إذا صُنْتُه. «وما يُعْلِنُونَ»، يقولُ: وما يُبْدُوْنَهُ بألسنتهم وجوارِحهم، وإنما يعني بذلك أنَّ اختيارَ مَنْ يختارُ منهم للإيمانِ به على عِلْمٍ منه بسرائرِ أمورِهم وبواديها. وأنه يختارُ للخيرِ أهْلَهُ، فيوفِّقُهم له، ويولي الشرَّ أهلَهُ، ويُخَلِّيهم وإياهُ.

وقوله: «وَهُوَ اللهُ لا إلَهَ إلَّا هُوَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وربك يا محمدُ المعبودُ الذي لا تصلحُ العبادةُ إلَّا له، ولا معبودَ تجوزُ عبادته غيره «لَهُ الحَمْدُ في الأُولى» يعني في الدنيا والآخرة. «وَلَهُ الحُكْمُ»، يقولُ: وله القضاءُ بين خَلْقِه «وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»، يقولُ: وإليه تُرَدُّونَ من بعدِ مماتِكم، فيقضي بينكم بالحقّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «قُلْ»، يا محمدُ، لهؤلاءِ المشركينَ باللهِ: أيها القومُ أرأيتم إنْ جعلَ اللهُ عليكم الليلَ دائماً لا نهارَ إلى يوم القيامة يَعْقُبه. والعربُ تقول لكلِّ ما كانَ متصلاً لا ينقطعُ من رخاءٍ أو بلاءٍ أو نعمةٍ هو سَرْمَدٌ.

وقوله: «مَنْ إلَهٌ غيرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بضياءٍ»، يقولُ: مَنْ معبودٌ غيرُ المعبودِ الذي له عبادةُ كُلِّ شيءٍ يأتيكم بضياءِ النهارِ، فتستضيئونَ به. «أَفَلا تَسْمَعُونَ»، يقولُ: أفلا تُرْعُونَ ذلك سَمْعَكُمْ، وتفكرون فيه فتتعِظُونَ، وتعلمونَ أنَّ ربكم هو الـذي يأتي بالليلِ ويذهبُ بالنهارِ إذا شاء، وإذا شاء أتى بالنهارِ وذهبَ بالليل، فينعم باختلافِهِمَا كذلك عليكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٧٢﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه لنبيه محمـدٍ ﷺ «قُلْ»، يا محمدُ لمشركي قومك «أرأيْتُمْ» أيها القوم «إنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً» دائماً لا ليلَ معه أبداً «إلى يَوْمِ القِيامَةِ مِنْ إلَهٌ غيرُ اللهِ» مَنْ معبودٌ غيرُ المعبودِ الذي له عبادةُ كلِّ شيء «يَأْتِيكُمْ بلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ» فتستقرُّونَ وتهدؤون فيه. «أَفَلا تُبْصِرُونَ»، يقولُ: أفلا ترون بأبصاركم اختلافَ الليلِ والنهار عليكم، رحمة من الله لكم، وحجة منه عليكم، فتعلَمُوا بذلك أنَّ العبادةَ لا تصلحُ إلا لمن أنعمَ عليكم بذلك دونَ غيرِه، ولمن له القُدرةُ التي خالفَ بها بين ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَمِنْ رَحْمَتِهِ» بكم أيها الناسُ «جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ والنَّهارَ» فخالفَ بينهما، فجعل هذا الليلَ ظلاماً «لِتَسْكُنُوا فِيهِ» وتَهْدَؤوا وتستقرُّوا لراحةِ أبدانِكم فيه من تعبِ التصرُّفِ الذي تتصرَّفُونَ نهاراً لمعايشتكم، وجعل هذا النهارَ ضياءً تُبصرونَ فيه، فتتصرَّفُونَ بأبصارِكم فيه لمعايشتكم، وابتغاءَ رزقِهِ الذي قَسَمَهُ بينكم بفضْلِه الذي تفضَّلَ عليكم.

وقوله: «وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولتشكروهُ على إنعامِه عليكم بذلك، فَعَلَ ذلك بكم لِتُفْرِدُوه بالشكرِ، وتُخْلِصُوا له الحمدَ، لأنه لم يشركه في إنعامِه عليكم بذلك شريكٌ، فلذلك ينبغي أن لا يكونَ له شريكٌ في الحمد عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

يعني تعالى ذِكْرُه: ويومَ ينادي رَبُّكَ يا محمدُ هؤلاءِ المشركينَ فيقولُ لهم: «أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ» أيها القومُ في الدنيا أنهم شركائي.

وقوله: «وَنَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً» وأحضرنا من كلِّ جماعةٍ شهيدَها وهو نَبِيُّهَا الذي يشهدُ عليها بما أجابته أمتُه فيما أتاهُمْ به عن اللهِ من الرسالة.

وقوله: «فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ»، يقولُ: فقلنا لأمةِ كُلِّ نبيٍّ منهم التي رَدَّتْ نصيحتَهُ، وكذَّبتْ بما جاءها به من عند رَبِّهم، إذْ شهدَ نبيُّها عليها بإبلاغِه إياها رسالةَ الله. «هاتُوا بُرْهَانَكُمْ»، يقولُ: فقال لهم: هاتوا حُجَّتكم على إشراكِكم بالله ما كنتم تشركونَ مع إعذارِ اللهِ إليكم بالرسلِ، وإقامته عليكم بالحجج.

وقوله: «فَعَلِمُوا أَنَّ الحَقَّ للهِ»، يقولُ: فعلموا حينئذٍ أنَّ الحجةَ البالغةَ لله عليهم، وأنَّ الحقَّ لله، والصدقَ خبرُه، فأيقنوا بعذابٍ من اللهِ لهم دائمٌ. «وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ»، يقولُ: واضمحلَّ فذهبَ الذي كانوا يُشركونَ باللهِ في الدنيا، وما كانوا يتخرَّصُونَ، ويكذبون على رَبِّهم، فلم ينفعهم هنالك بل ضَرَّهم وأصلاهم نارَ جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إِنَّ قارُونَ» وهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي ابن يعقوب «كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى»، يقولُ: كان من عشيرةِ موسى بن عمران النبيِّ ﷺ، وهو ابنُ عمه لأبيهِ وأمهِ وذلك أنَّ قارونَ هو قارونُ بن يصهر بن قاهث، وموسى: هو موسى بن عمران بن قاهث، كذا نَسَبَهُ ابنُ جُرَيج، وأكثر أهلِ العلم في ذلك على ما قاله ابنُ جريج.

وقوله: «فَبَغَى عَلَيْهِمْ»، يقولُ: فتجاوز حَدَّهُ في الكِبْرِ والتَّجَبُّرِ عليهم.

وقوله: «وآتَيْنَاهُ مِنَ الكُنُوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوءُ بالعُصْبَةِ أُولي القُوَّةِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وآتينا قارونَ من كنوزِ الأموالِ ما إنَّ مفاتحه، وهي جمع مفتح، وهو الذي يفتح به الأبواب، لَتُثْقِلُ العُصْبَةَ.

وقوله: «أُولي القُوَّةِ» يعني: أُولي الشدّة.

وقوله: «إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَح إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الفَرِحِينَ»، يقولُ: إذ قال قومه: لا تَبْغِ ولا تَبْطَر فرحاً، إنَّ الله لا يحبُّ مِنْ خَلْقِه الأشِرينَ البَطِرِينَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مخبراً عن قِيلِ قومِ قارونَ له: لا تبغِ يا قارونُ على قومِكَ بكثرةِ مالك، والتمسْ فيما آتاكَ اللهُ من الأموالِ خيرات الآخرةِ بالعملِ فيها بطاعةِ الله في الدنيا.

وقوله: «وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا»، يقولُ: ولا تترك نصيبكَ وحظكَ من الدنيا أنْ تأخذَ فيها بنصيبكَ من الآخرة، فتعمل فيه بما ينجيكَ غداً من عقابِ الله.

وقوله: «وأحْسِنْ كمَا أحْسَنَ اللهُ إلَيْكَ»، يقولُ: وأحسنْ في الدنيا إنفاقَ مالِكَ الذي آتاكَهُ اللهُ في وجوهِه وسُبُلِه، كما أحسنَ اللهُ إليكَ، فوسَّعَ عليكَ منه، وبسطَ لكَ فيها.

«وَلَا تَبْغِ الفَسَادَ في الأرْضِ»، يقولُ: ولا تلتمسْ ما حرَّمَ اللهُ عليكَ من البغي على قومكَ. «إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ»، يقولُ: إن الله لا يحبُّ بغاةَ البغي والمعاصي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال قارونُ لقومِهِ الذين وعظوه: إنما أوتيتُ هذه الكنوزَ على فضلِ علمٍ عندي عَلِمَهُ اللهُ مني، فرضيَ بذلك عني، وفَضَّلني بهذا

المالِ عليكم، لعلمِه بفضلي عليكم.

وقولـه: «أوَ لَمْ يَعْلَمْ أنَّ اللهَ قَدْ أهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ القُـرُونِ مَنْ هو أشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وأكْثَرُ جَمْعاً»، يقول جَلَّ ثناؤه: أو لم يعلم قارونُ حين زعمَ أنه أوتيَ الكنوزَ لفضلِ علمٍ عنده علمته أنا منه، فاستحقَّ بذلك أنْ يُؤتى ما أُوتيَ من الكنوزِ، أنَّ اللهَ قد أهلكَ من قبله من الأممِ منْ هو أشـدُّ منـه بطشـاً، وأكثر جمعاً للأموال؛ ولو كان اللهُ يؤتي الأموالَ مَنْ يؤتيه لفضلٍ فيه وخيرٍ عنده، ولِرِضَاهُ عنه. لم يكن يهلك مَنْ أهلكَ من أربابِ الأموالِ الذين كانوا أكثر منه مالاً، لأنَّ مَنْ كان عنه راضياً، فمحالٌ أنْ يهلكه اللهُ، وهو عنه راضٍ، وإنما يهلكُ مَنْ كان عليه ساخطاً.

وقوله: «ولا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ المُجْرِمُونَ»، قيل: إن معنى ذلك أنهم يدخلون النارَ بغير حسابٍ، وهو قول قتادة.

وقيل: معنى ذلـك: أنَّ المـلائكـةَ لا تسـأل عنهم، لأنهم يعـرفـونهم بسيماهم، وهو قول مجاهد.

وقيل معنى ذلـك: ولا يُسْـأَلُ عن ذنوبِ هؤلاءِ الذينَ أهلكَهُم اللهُ من الأممِ الماضيةِ المجرمونَ فِيمَ أُهْلِكُوا. فالهاء والميم في قوله: «عَنْ ذُنُوبِهِم» على هذا التأويل لِمَنْ الذي في قوله: «أوَ لَمْ يَعْلَمْ أنَّ اللهَ قَدْ أهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ القُرُونِ مَنْ هُوَ أشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً»، وعلى التأويل الأوَّلِ الذي قاله مجاهد وقَتادة للمجرمين، وهي بأنْ تكون من ذِكْرِ المحرمينَ أوْلى، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه غيرُ سائلٍ عن ذنوبِ مذنبٍ غيرَ مَنْ أذنبَ، لا مؤمنٍ ولا كافر. فإذْ كان ذلك كذلك، فمعلومٌ أنه لا معنى لخصوصِ المجرمين، لو كانت الهاء والميم اللتان في قولـه: «عَنْ ذُنُوبِهم»، لمن الذي في قوله: «مَنْ هُوَ أشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً» من دونِ المؤمنينَ، يعني لأنه غير مسؤولٍ عن ذلك مؤمنٌ ولا كافرٌ، إلا الذين رَكِبُوه واكتسبُوه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ۝٧٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فخرج قارونُ على قومهِ في زينته، وهي فيما ذُكِرَ ثيابُ الأرجوان.

«قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيا: يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال الذين يريدون زينةَ الحياة الدنيا من قومِ قارون: يا ليتنا أُعْطِينا مِثْلَ ما أُعْطِيَ قارونُ من زينتها. «إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ»، يقولُ: إنَّ قارونَ لذو نصيبٍ من الدنيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ۝٨٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال الذين أُوتوا العلم باللهِ، حين رأوا قارونَ خارجاً عليهم في زينتهِ، للذين قالوا: يا ليتَ لنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارون: وَيْلَكُمْ اتَّقُوا الله وأطيعوه، فثوابُ الله وجزاؤُه لمن آمنَ به وبرسله، وعملَ بما جاءتْ به رُسُلُه من صالحاتِ الأعمالِ في الآخرة، خيرٌ مما أُوتِيَ قارونُ من زينته وماله.

وقوله: «وَلا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ»، يقولُ: ولا يُلَقَّاها: أي ولا يوفَّقُ لِقيلِ هذه الكلمةِ، وهي قوله: «ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً» والهاء والألف كناية عن الكلمة، وقال: «إِلَّا الصَّابِرُونَ» يعني بذلك: الذينَ صبروا عن طلبِ زينةِ الحياةِ الدنيا، وآثروا ما عندَ اللهِ من جزيلِ ثوابهِ على صالحاتِ الأعمالِ على لذّاتِ الدنيا وشهواتها، فَجَدُّوا في طاعةِ الله، ورفضوا الحياةَ الدنيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فخسفنا بقارونَ وأهل داره. وقيل: وبدارِه، لأنه ذكر أنَّ موسى إذْ أمرَ الأرضَ أنْ تأخذه أمرها بأخذِهِ، وأخذ مَنْ كان معه من جلسائِه في داره، وكانوا جماعةً جلوساً معه، وهم على مثل الذي هو عليه من النفاقِ والمؤازرةِ على أذى موسى.

وقوله: «فَمَا كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ»، يقولُ: فلم يكن له جُنْدٌ يرجع إليهم، ولا فئةٌ ينصرونه لما نزل به من سخطه. بل تَبَرَّؤُوا منه «وَما كانَ مِنَ المُنْتَصِرينَ»، يقولُ: ولا كان هو ممن ينتصر من الله إذا أحلَّ به نقمتَهُ، فيمتنع لقوَّته منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأصبحَ الذين تَمَنَّوْا مكانَهُ بالأمسِ من الدنيا وغناه وكثرة مالِه، وما بُسِطَ له منها بالأمسِ، يعني قبلَ أنْ ينزلَ به ما نزلَ من سخطِ الله وعقابه، يقولون: وَيْكَأَنَّ الله، ومعناه: ألم تَرَ أن.

فتأويل الكلامِ: وأصبح الذين تمنوا مكانَ قارونَ وموضِعَهُ من الدنيا بالأمسِ يقولون لَمَّا عاينوا ما أحلَّ اللهُ به من نقمته، ألم تَرَ يا هذا أنَّ الله يبسطُ الرزق لمن يشاءُ من عبادِه فيوسع عليه، لا لفضلِ منزلتِهِ عنده، ولا لكرامته عليه، كما كان بسط من ذلك لقارونَ لا لفضله ولا لكرامته عليه. «وَيَقْدِرُ»،

يقـولُ: ويضيق على مَنْ يشـاء من خَلْقِه ذلك، ويقتر عليه، لا لهوانِه، ولا لسخطه عمله.

وقوله: «لَوْلَا أنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا»، يقول: لولا أنْ تَفَضَّلَ علينا، فصرفَ عنا ما كنا نتمناهُ بالأمسِ «لَخَسَفَ بِنا».

وقـولـه: «وَيْكَـأَنَّـهُ لا يُفْلِحُ الكـافِرُونَ»، يقولُ: أَلَمْ تعلم أنه لا يفلحُ الكافرونَ فَتُنْجِح طلباتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: تلك الدارُ الآخرةُ نجعل نعيمَها للذينَ لا يريدونَ تَكَبُّراً عن الحقِّ في الأرضِ وتجبراً عنه ولا فساداً: يقولُ: ولا ظُلْمِ الناسِ بغير حقٍّ وعملاً بمعاصي اللهِ فيها.

وقـوله: «وَالعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والجنةُ للمتقينَ»، وهُمْ الذين اتقوا معاصي الله، وأدّوا فرائضه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: من جاء الله يومَ القيامةِ بإخلاصِ التوحيد، فله خيرٌ، وذلك الخير هو الجنة والنعيمُ الدائمُ، ومَنْ جاء بالسيئة، وهي: الشركُ بالله.

وقوله: «فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ»، يقولُ: فلا يثاب الذين عملوا السيئات على أعمالهم السيئة «إلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ»، يقولُ: إلا جزاء ما كانوا يعملون.

القصص: ٨٥

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذي أنزلَ عليكَ يا محمدُ القرآنَ.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «لَرَادُّكَ إلى مَعادٍ»، فقال بعضهم: معناه: لمصيرِكَ إلى الجنة.

وقال آخرون: معنى ذلك: لرادُّوكَ إلى الموتِ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لَرَادّكَ إلى الموضِعِ الذي خرجتَ منه، وهو مكة.

والصوابُ من القول في ذلك عندي قولُ مَنْ قال: لرادُّكَ إلى عادتك من الموتِ، أو إلى عادتك حيث ولدتَ، وذلك أنَّ المعادَ في هذا الموضع: المفعل من العادة ليس من العَوْدِ، إلا أنْ يوجه موجه تأويل قوله «لَرَادّكَ» لمصيرِكَ، فيتوجه حينئذ قوله: «إلى مَعادٍ» إلى معنى العَوْدِ، ويكون تأويله: إنَّ الذي فرض عليك القرآنَ لمصيرك إلى أنْ تعودَ إلى مكةَ مفتوحةً لك.

وقوله: «قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بالهُدَى وَمَنْ هُوَ في ضَلالٍ مُبِينٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يا محمدُ، لهؤلاءِ المشركينَ: ربي أعلمُ مَنْ جاء بالهُدى الذي من سَلَكَهُ نجا، ومَنْ هو في جورٍ عن قَصْدِ السبيلِ منا ومنكم.

وقوله: «مُبين»، يعني أنه يبين للمفكر الفهم إذا تأمَّله وتدبَّره، أنه ضلالٌ، وجورٌ عن الهدى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما كنتَ ترجو يا محمدُ أنْ ينزلَ عليك هذا القرآن، فتعلم الأنباءَ والأخبارَ عن الماضينَ قبلكَ والحادثة بعدك، مما لم يكن بعد، مما لم تَشْهدهُ ولا تشهدهُ، ثم تتلو ذلك على قومكَ من قريش، إلا أنَّ رَبَّك رحمكَ، فأنزلَهُ عليكَ، فقوله: «إلَّا رَحْمَة مِنْ رَبِّكَ» استثناء منقطع.

وقوله: «فَلا تَكُونَنَّ ظَهيراً للْكافِرينَ»، يقولُ: فاحمد رَبَّكَ على ما أنعمَ به عليكَ من رحمتِه إياكَ بإنزالِه عليكَ هذا الكتابَ، ولا تكونَنَّ عَوْناً لمن كفرَ بربك على كفرِه به، وقيل: إنَّ ذلك من المؤخَّرِ الذي معناه التقديمُ. وإن معنى الكلام: إنَّ الذي فَرَضَ عليك القرآنَ فأنزله عليكَ، وما كنتَ ترجو أنْ ينزلَ عليك، فتكون نبياً قبل ذلك لرادُّوكَ إلى مَعَادٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولا يصرفنَّكَ عن تبليغِ آياتِ الله وحججه بعد أنْ أنزلها إليكَ رَبُّكَ يا محمدُ هؤلاءِ المشركونَ بقولهم: «لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسَى» وادْعُ إلى رَبِّكَ وبَلِّغْ رسالتَهُ إلى مَنْ أرسلكَ إليه بها. «وَلا تَكُونَنَّ مِنَ المُشْرِكِينَ»، يقولُ: ولا تتركنَّ الدعاءَ إلى رَبِّكَ، وتبليغ المشركينَ رسالته، فتكون ممن فعَلَ فِعْلَ المشركينَ بمعصيتِه رَبَّهُ، وخلافه أمره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولا تعبد يا محمدُ مع معبودك الذي له عبادةُ كُلِّ شيءٍ معبوداً آخرَ سواه.

وقوله: «لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»، يقولُ: لا معبودَ تصلحُ له العبادةُ إلا اللهُ الذي كُلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهه.

واختلف في معنى قوله: «إِلَّا وَجْهَهُ»، فقال بعضهم: معناه: كلُّ شيءٍ هالك إلا هو.

وقال آخرون: معنى ذلك: إلا ما أُريدَ به وجهه.

وقوله: «لَهُ الحُكْمُ»، يقولُ: له الحُكمُ بين خلقِهِ دونَ غيرِه، ليسَ لأحدٍ غيره معه فيهم حُكْمٌ. «وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»، يقولُ: وإليه تُرَدُّونَ من بعدِ مماتِكُم، فيقضي بينكم بالعدلِ، فيجازِي مؤمنيكم جزاءهم، وكفاركم ما وَعَدَهُمْ.



سورة العنكبوت

بسم الله الرحمن الرحيم

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾

وقد بيَّنا معنى قوله تعالى ذِكْرُهُ «آلمٓ» وذكرنا أقوالَ أهلِ التأويل في تأويله، والذي هو أَوْلى بالصوابِ من أقوالهم عندنا فيما مضى بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع(١).

وأما قوله: «أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ» فإنَّ معناه: أظَنَّ الذين خرجوا يا محمدُ من أصحابك من أذى المشركين إياهم أنْ نتركهم بغير اختبارٍ ولا ابتلاء امتحانٍ، بأنْ قالوا: آمنا بك يا محمدُ فصدَّقْناكَ فيما جِئْتَنَا به من عندِ الله، كلا لنختبرهم، ليتبينَ الصادقُ منهم من الكاذب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولقد اختبرنا الذين من قبلهم من الأممِ، مِمَّنْ أرسلنا إليهم رسلنا، فقالوا مِثْلَ ما قالته أمتكَ يا محمدُ بأعدائهم، وتمكيننا إياهم من أذاهم كموسى إذْ أرسلناه إلى بني إسرائيلَ، فابتليناهم بفرعون ومَلَئِهم، وكعيسى

(١) انظر أول سورة البقرة.

إذْ أرسلناهُ إلى بني إسرائيل، فابتلينا مَن اتَّبعهُ بمن تولَّى عنه، فكذلك ابتلينا أتباعكَ بمخالفيكَ من أعدائك «فَلَيَعْلَمَنَّ الله الَّذِينَ صَدَقُوا» منهم في قِيلِهم آمنا «ولَيَعْلَمَنَّ الكاذِبين» منهم في قِيلهم ذلك، والله عالمٌ بذلك منهم قبلَ الاختبارِ، وفي حال الاختبارِ، وبعد الاختبارِ، ولكن معنى ذلك: ولَيُظْهِرَنَّ الله صِدْقَ الصادقِ منهم في قِيله آمنا بالله من كذبِ الكاذبِ منهم بابتلائِه إياه بعدوِّهِ، ليعلم صدقه من كذبه أولياؤه، على نحوِ ما قد بيَّناه فيما مضى قبلُ.

وذكر أنَّ هذه الآية نزلتْ في قومٍ من المسلمين عَذَّبهم المشركونَ، فَفُتِنَ بعضُهم، وصبرَ بعضُهم على أذاهم حتى أتاهم الله بفرجٍ من عنده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أم حَسِبَ الذين يشركون بالله فيعبدونَ معه غيرَهُ، وهم المَعْنِيُّونَ بقوله: «الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا»، يقول: أنْ يُعْجِزُونَا فيفوتونا بأنفسهم، فلا نقدرُ عليهم فننتقم منهم لِشِرْكِهم بالله.

وقوله: «ساءَ مَا يَحْكُمونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ساء حُكْمُهم الذي يحكمونَ بأنَّ هؤلاء الذين يعملون السيئاتِ يسبقوننا بأنفسهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: مَنْ كان يرجو الله يومَ لقائه، ويطمع في ثوابه، فإنَّ

أجلَ الله الذي أجَّلَهُ لبعثِ خَلْقِه للجزاءِ والعقابِ لآتٍ قريباً، «وهو السميعُ»، يقول: والله الذي يرجو هذا الراجي بلقائه ثوابَهُ، السميعُ لقوله: آمنا بالله، «العليمُ» بصدقِ قِيله.

وقوله: «وَمَنْ جَاهَدَ فإنَّمَا يُجَاهِدُ لنَفْسِهِ»، يقول: ومَنْ يجاهد عدوَّهُ من المشركينَ فإنما يجاهدُ لنفسه، لأنه يفعل ذلك ابتغاءَ الثوابِ من الله على جهادِه، والهرب من العقابِ، فليس بالله إلى فِعْلِه ذلك حاجةٌ، وذلك أنَّ الله غنيٌّ عن جميعِ خلقه، له الملكُ والخلقُ والأمر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: والذين آمنوا بالله ورسوله، فَصَحَّ إيمانُهم عند ابتلاءِ الله إياهم وفتنته لهم، ولم يرتدُّوا عن أديانهم بأذى المشركين إياهم «وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ» التي سَلَفَتْ منهم في شركهم «وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أحْسَنَ الَّـذِي كَانُـوا يَعْمَلُونَ»، يقول: ولَنُثِيبَنَّهُمْ على صالحاتِ أعمالهم في إسلامهم، أحسنَ ما كانوا يعملونَ في حالِ شِرْكِهم مع تكفيرنا سيئاتِ أعمالهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَوَصَّيْنَا الإنْسانَ» فيما أنزلنا إلى رسولنا «بِوَالِدَيْهِ» أن يفعل بهما «حُسْناً».

وقولـه: «وَإنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما»، يقول: ووصينا الإنسانَ، فقلنا له: إنْ جاهدك والداكَ لتشركَ بي ما ليسَ لك به علمٌ أنه ليس لي شريك، فلا تطعهما فتشرك بي ما ليسَ لك به علمٌ ابتغاءَ مَرْضَاتِهما، ولكنْ خالفهما في ذلك «إليَّ مرجعكم»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إليَّ مَعَادُكم ومصيرُكُم يوم القيامة. «فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»، يقول: فأخبركم بما كنتم تعملون في الدنيا من صالحِ الأعمالِ وسَيِّئاتِها، ثم أُجازيكم عليها المحسن بالإحسان، والمسيء بما هو أهله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «والَّذِينَ آمَنُوا» بالله ورسولِهِ «وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ» من الأعمالِ، وذلك أن يُؤَدُّوا فرائضَ الله، ويجتنبوا محَارِمَهُ «لَنُدْخِلَنَّهُمْ في الصَّالِحِينَ» في مَدْخلِ الصالحين، وذلك الجنة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومن الناس مَنْ يقولُ: أقررنا بالله فوحَّدْنَاهُ، فإذا آذاهُ المشركون في إقرارِه بالله، جعلَ فتنةَ الناس إياهُ في الدنيا، كعذابِ الله في الآخرة، فارتدَّ عن إيمانِه بالله، راجعاً على الكُفْر به. «وَلَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ» يا محمدُ أهلَ الإيمانِ به «لَيَقُولُنَّ» هؤلاء المرتدُّونَ عن إيمانهم، الجاعلونَ فتنةَ الناس كعذابِ الله: «إنَّا كُنَّا» أيها المؤمنون «مَعَكُمْ» ننصركم على أعدائِكم،

كذباً وإفكاً، يقول الله: «أَوَ لَيْسَ الله بأَعْلَمَ» أيها القومُ من كلِّ أحدٍ «بمَا في صُدُور العَالمينَ» جميع خَلْقِه، القائلينَ آمنَّا بالله وغَيرهم، فإذا أُوذِيَ في الله ارتَّدَ عن دينِ الله فكيف يُخادَعُ مَنْ كان لا يَخْفَى عليه خافيةٌ، ولا يستترُ عنه سر ولا علانية.

وذُكِرَ أنَّ هذه الآيةَ نزلتْ في قومٍ من أهلِ الإيمانِ كانوا بمكة، فخرجوا مهاجرين، فأُدْرِكُوا وأُخِذُوا فَأَعْطُوا المشركينَ لَمَّا نالَهُمْ أذاهم ما أرادُوا منهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وليعلمنَّ الله أولياءَ الله، وحِزْبَهُ أهلَ الإيمانِ بالله منكم أيها القومُ، وليعلمنَّ المنافقينَ منكم حتى يميزوا كُلَّ فريقٍ منكم من الفريقِ الآخر، بإظهارِ الله ذلك منكم بالمحنِ والابتلاءِ والاختبارِ وبمسارعةِ المُسَارِع منكم إلى الهجرةِ من دارِ الشركِ إلى دارِ الإسلامِ، وتثاقلِ المتثاقلِ منكم عنها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقالَ الذين كفروا بالله من قريش لِلَّذِينَ آمنوا بالله منهم «اتَّبِعُوا سَبِيلَنا»، يقول: قالوا: كونوا على مِثْلِ ما نحنُ عليه من التكذيب بالبعثِ بعد المماتِ وجحودِ الثوابِ والعقابِ على الأعمال. «وَلْنَحْمِلْ خطاياكُمْ»، يقول: قالوا فإنكم إن اتبعتم سبيلَنا في ذلك، فَبُعِثْتُمْ من بعد

المماتِ، وجُوزِيتم على الأعمالِ، فإنَّا نتحملُ آثام خطاياكُمْ حينئذٍ.

وقوله: «وما هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ إنَّهُم لَكَاذِبُونَ»، وهذا تكذيبٌ من الله للمشركين القائلين للذين آمنوا «اتَّبِعُوا سَبيلنا وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: وكذبوا في قِيلِهم ذلك لهم، ما هُمْ بحاملينَ من آثامِ خطاياهم من شيءٍ، إنهم لكاذبون[1] فيما قالوا لهم ووعدُوهم، من حملِ خطاياهم إنْ هم اتَّبَعُوهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وليحملنَّ هؤلاء المشركونَ بالله القائلونَ للذين آمنوا به اتَّبِعْوا سبيلَنا ولنحملْ خطاياكم أوزارَ أنفسِهم وآثامها، وأوزارَ مَنْ أضَلُّوا وصَدُّوا عن سبيلِ الله مع أوزارِهم، ولَيُسْأَلنَّ يومَ القيامةِ عما كانوا يُكَذِّبُونهم في الدنيا بوعدهم إياهم الأباطيلَ، وقِيلِهم لهم: اتَّبِعُوا سبيلنا ولنحملْ خطاياكم فيفترونَ الكذبَ بذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾

وهذا وعيدٌ من الله تعالى ذكره هؤلاء المشركينَ من قريش، القائلينَ للذين آمنوا: اتَّبِعُوا سبيلَنا، ولنحملْ خطاياكم. يقولُ لنبيه محمدٍ ﷺ: لا يَحْزُنَنَّكَ يا محمدُ ما تَلْقَى من هؤلاء المشركين أنتَ وأصحابُكَ من الأذى، فإني وإنْ أمليتُ

(١) في المطبوع لكاذبوا.

لهم فأطلتُ إملاءهم، فإنَّ مصيرَ أمرهم إلى البوارِ، ومصيرَ أمركَ وأمر أصحابكَ إلى العُلُوِّ والظفرِ بهم، والنجاةِ مما يحلُّ بهم من العقاب، كَفِعْلِنَا ذلك بنوحٍ، إذْ أرسلناهُ إلى قومِه، فلبثَ فيهم ألفَ سنةٍ إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى التوحيد، وفراقِ الآلهةِ والأوثانِ، فلم يَزِدْهُمْ ذلك من دعائِه إياهم إلى الله من الإقبالِ إليه، وقبولِ ما أتاهم به من النصيحةِ من عند الله إلَّا فراراً.

وقوله: «وَهُمْ ظالِمُونَ»، يقول: وهم ظالمون أنفسهم بكفرهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فأنجينا نوحاً وأصحابَ سفينتِه، وهم الذين حملهم في سفينتِه من ولدِه وأزواجِهم.

وقد بينَّا ذلك فيما مضى قبل، فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الموضع.

«وَجَعَلْناها آيَةً للْعَالَمِينَ»، يقول: وجعلنا السفينةَ التى أنجيناهُ وأصحابَهُ فيها عبرةً وعِظةً للعالمين، وحجةً عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: واذكُرْ أيضاً يا محمدُ إبراهيمَ خليل الرحمن، إذْ قال لقومه: «اعبدوا الله» أيها القومُ دونَ غيره من الأوثانِ والأصنامِ،

فإنه لا إلهَ لكم غيرهُ، «واتقوه»: يقول: واتقوا سخطه بأداءِ فرائضِه، واجتنابِ معاصيه «ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» ما هو خيرٌ لكم مما هو شرٌّ لكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن قِيل خليله إبراهيم لقومه: إنما تعبدون أيها القومُ من دونِ الله أوثاناً مُثُلاً.

فتأويل الكلام إذن: إنما تعبدون من دون الله أوثاناً، وتصنعون كذباً وباطلاً.

وقوله: «إنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: إن أوثانكم التي تعبدونَها، لا تقدر أنْ ترزقكم شيئاً، «فابتغُوا عندَ اللهِ الرِّزْقَ»، يقول: فالتمسوا عند الله الرزقَ لا من عندِ أوثانكم، تدركوا ما تبتغونَ من ذلك، «وَاعْبُدُوهُ»، يقول: وذلُّوا له «وَاشْكُرُوا لَهُ» على رزقِهِ إياكم، ونِعَمِه التي أنعمهَا عليكم، يُقال: شكرتُه، وشكرتُ له أفصح من شكرته.

وقوله: «إلَيْهِ تُرْجَعُونَ»، يقول: إلى الله تُرَدُّونَ من بعدِ مماتِكم، فيسألكم عما أنتم عليه من عبادتكم غيرَهُ وأنتم عبادُهُ وخَلْقُه، وفي نعمِه تَتقلَّبُونَ، ورزقه تأكلون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإنْ تُكذِّبوا أيها الناسُ رسولَنا محمداً ﷺ فيما دعاكم إليه من عبادةِ رَبِّكم الذي خلقكم ورزقكم، والبراءةِ من الأوثانِ، فقد كَذَّبتْ جماعاتٌ من قبلكم رُسُلَها فيما دَعَتْهُمْ إليه الرُّسُلُ من الحقِّ، فَحَلَّ بها من الله سَخَطُهُ، ونـزلَ بهـا منه عاجلُ عقوبتِه، فسبيلكُمْ سبيلُهَا فيما هو نازلٌ بكم بتكذيبكم إياه. «وَما على الرَّسُولِ إلَّا البَلاغُ المُبينُ»، يقول: وما على محمدٍ إلا أنْ يُبلِّغَكُمْ عن الله رسالتَهُ، ويؤدِّي إليكم ما أَمرَهُ بأدائِه إليكم رَبُّه. ويعني بالبلاغ المبين: الذي يُبين لِمَنْ سمعه ما يُرادُ به، وَيُفْهِمُ به ما يُعْنَى به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُهُ: أَوَلَمْ يَرَوْا كيف يستـأنفُ الله خَلْقَ الأشياء طفلاً صغيراً، ثم غلاماً يافعاً، ثم رجلاً مجتمعاً، ثم كهلاً، يقال منه: أبدأَ وأعاد، وبدأ وعاد، لغتان بمعنى واحد.

وقوله: «ثُمَّ يُعِيدُه»، يقول: ثم هو يُعِيدُه من بعدِ فنائِه وبِلاَهُ، كما بدأَهُ أوّلَ مرّةٍ خَلْقاً جديداً، لا يتعذَّرُ عليه ذلك. «إنَّ ذلكَ على الله يَسِيرٌ» سهلٌ كما كان يسيراً عليه إبداؤُه.

وقوله: «قُلْ سِيرُوا في الأرضِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ لمحمد ﷺ: قُلْ يا محمدُ للمنكرين للبعثِ بعد المماتِ، الجاحدينَ الثوابَ والعقابَ: سيروا في الأرضِ فانـظروا كيف بدأ الله الأشياءَ وكيف أنشأها وأحدثها؛ وكما أوجدها وأحدثها ابتداءً، فلم يتعذَّرْ عليه إحداثُها مُبْدِئاً. فكذلك لا يتعذَّرُ عليه إنشاؤُها

مُعِيداً، «ثُمَّ الله يُنْشِىءُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ»، يقول: ثم الله يبدئ تلك البدأة الآخرة بعد الفناء.

وقوله: «إنَّ الله على كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الله على إنشاء جميعِ خَلْقِه بعد إفنائِه كهيئته قبل فنائه، وعلى غيرِ ذلك مما يشاء فعله قادر لا يُعجزه شيءٌ أراده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ثم الله يُنْشِىءُ النشأةَ الآخرة خَلْقَهُ من بعدِ فنائِهم. فيعذِّبُ مَنْ يشاءُ منهم على ما أسلفَ من جُرْمِه في أيامِ حياته، ويرحمُ مَنْ يشاء منهم مِمَّنْ تابَ وآمنَ وعملَ صالحاً «وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ»، يقول: وإليه تُرْجَعُونَ وتُرَدُّونَ.

وأما قوله: «وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ في الأَرْضِ وَلا في السَّماء» فإن ابن زيد قال في ذلك: لايُعجزه أهلُ الأرضينَ في الأرضين ولا أهلُ السمواتِ في السمواتِ إنْ عَصَوْهُ، وقرأ: «مثقالُ ذَرّةٍ في السَّموات ولا في الأرض، وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذلكَ ولا أَكْبَرُ إلَّا في كِتابٍ مُبينٍ».

وقال في ذلك بعضُ أهلِ العربيةِ من أهلِ البصرة: وما أنتم بمعجزين في الأرضِ ولا مَنْ في السماء مُعْجِزِينَ قال: وهو من غامضِ العربيةِ للضمير الذي لم يظهر في الثاني.

وهذا القولُ أصحُّ عندي في المعنى من القول الآخر، ولو قال قائل: معناه: ولا أنتم بمعجزين في الأرض، ولا أنتم لو كنتم في السماء بمعجزين

كان مذهباً.

وقوله: «وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ الله مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصيرٍ»، يقول: وما كان لكم أيها الناسُ من دونِ الله من وليٍّ يلي أمورَكُمْ، ولا نصيرٍ ينصركم من الله إنْ أرادَ بكم سوءً ، ولا يمنعكم منه إنْ أحلَّ بكم عقوبتَه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: والذين كفروا حُججَ الله ، وأنكروا أدِلَّتَهُ، وجحدوا لقاءَهُ والورودَ عليه، يومَ تقومُ الساعة «أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: أولئك يَئِسُوا من رحمتي في الآخرة لما عَايَنُوا ما أُعِدَّ لهم من العذابِ، وأولئك لهم عذابٌ مُوجِع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلم يكن جواب قومِ إبراهيمَ له إذ قال لهم: اعبدُوا الله واتَّقوهُ، ذلكم خيرٌ لكم إنْ كنتم تعلمون، إلا أنْ قالَ بعضُهم لبعضٍ: اقتلوه أو حَرِّقُوهُ بالنارِ، ففعلوا، فأَرادُوا إحراقَهُ بالنار، فأضرموا له النار، فألقَوْهُ فيها، فأنجاهُ الله منها، ولم يسلطها عليه، بل جعلها عليه بَرْداً وسلاماً.

«إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ في إنجائنا لإبراهيمَ من النارِ، وقد أُلقِيَ فيها وهي تَسعَّرُ، وتصييرها عليه برداً وسلاماً، لأدلةً

وحججاً لقومٍ يصدّقون بالأدلةِ والحججِ إذا عاينوا ورأوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن قِيلِ إبراهيمَ «وقَالَ» إبراهيم لقومه: يا قوم «إنَّمَا أتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ الله أوْثانا».

واختلفتِ القَرَأةُ في قراءة قوله: «مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ» فقرأته عامة قَرَأة المدينة والشام وبعض الكوفيين «مَوَدَّةً» بنصب مودة بغير إضافة بينكم بنصبها. وقرأ ذلك بعض الكوفيين «مَوَدَّةَ بَيْنَكُمْ» بنصب المودّة وإضافتها إلى قوله: «بَيْنِكُمْ»، وخَفْض بينكم. وكأن هؤلاء الذين قرءوا قوله: «مَوَدَّةً» نصباً وجَّهُوا معنى الكلام إلى: إنما أتخذتم أيها القومُ أوثاناً مودة بينكم، فجعلوا إنما حرفاً واحداً، وأوقعوا قوله: «اتَّخَذْتُمْ» على الأوثانِ، فنصبوها بمعنى: اتخذتمُوها مودّة بينكم في الحياة الدنيا، تَتَحَابُّونَ على عبادتها، وتتوادُّونَ على خدمتها، فتتواصلونَ عليها.

وقرأ ذلك بعضُ قَرَأةِ أهلِ مكة والبصرة «مَوَدَّةُ بَيْنِكُمْ» برفع المودة وإضافتها إلى البين، وخفض البين. وكأن الذين قرؤوا ذلك كذلك، جعلوا «إنَّ مَا» حرفين، بتأويل: إنَّ الذين اتخذتم من دونِ الله أوثاناً إنما هو مودَّتُكم للدنيا، فرفعوا مودة على خبر إن. وقد يجوز أنْ يكونوا على قراءتهم ذلك رفعاً بقوله: «إنما» أن تكون حرفاً واحداً، ويكون الخبر متناهياً عند قوله: «إنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ الله أوْثاناً» ثم يبتدئُ الخبر فيقال: ما مَوَدَّتُكم تلك الأوثانَ بنافعتِكُمْ، إنما مودّة بينكم في حياتكم الدنيا، ثم هي منقطعة، وإذا أُريدَ هذا

المعنى كانت المودَّةُ مرفوعة بالصفة بقوله: «في الحَياةِ الدُّنيا» وقد يجوز أنْ يكونوا أرادوا برفعِ المودّة، ورفعَها على ضمير هي.

وهذه القراءات الثلاث متقاربات المعاني، لأنَّ الذين اتخذوا الأوثانَ آلهةً يعبدونها، اتخذوها مودة بينهم، وكانت لهم في الحياةِ الدنيا مودةً، ثم هي عنهم منقطعةٌ، فبأيِّ ذلك قرأ القارئُ فمصيبٌ، لتقاربِ معاني ذلك، وشهرةِ القراءةِ بكلٍّ واحدةٍ منهنّ في قَرَأةِ الأمصار.

وقوله: «ثُمَّ يَوْمَ القِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ، وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ثم يومَ القيامةِ أيها المتوادُّونَ على عبادةِ الأوثانِ والأصنام، والمتواصلونَ على خدماتها عند ورودِكُمْ على رَبِّكم، ومعاينتكم ما أعدَّ الله لكم على التواصل، والتوادِّ في الدنيا من أليم العذابِ، يَكْفُر بعضُكم ببعضٍ: يقول يتبرأ بعضُكم من بعضٍ، ويلعنُ بعضُكم بعضاً.

وقوله: «وَمأْوَاكُمُ النَّارُ»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: ومصيرُ جميعِكُم ـ أيها العابدونَ الأوثانَ وما تعبدونَ ـ النارُ. «وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ»، يقول: وما لكم أيها القومُ المُتَّخِذُو الآلهة، من دونِ الله مودَّة بينكم من أنصارٍ ينصرونكم من الله حين يُصْلِيكُمْ نارَ جهنم، فينقذونَكُمْ من عذابِهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَصَدَّقَ إبراهيمَ خليلَ الله لوطٌ «وَقَالَ إنّي مُهَاجِرٌ إلى رَبِّي»، يقول: وقال إبراهيمُ: إني مهاجر دارَ قومي إلى ربي إلى الشام.

وقوله: «إنَّهُ هُوَ العَزِيزُ الحكِيمُ»، يقول: إنَّ ربي هو العزيز الذي لا يذِلُّ مَنْ نَصَره، ولكنه يمنعه مِمَّنْ أراده بسوءٍ، وإليه هجرتُه، الحكيمُ في تدبيره

خَلْقَهُ، وتصريفه إياهم فيما صرفهم فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ورزقناه من لَدُنَّا إسحاقَ ولداً، ويعقوبَ من بَعْدِهِ وَلَدَ وَلَدٍ.

وقوله: «وَجَعَلْنَا في ذرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ والكتابَ» بمعنى الجمع، يُرادُ به الكتبَ، ولكنه خُرِّجَ مخْرج قولهم: كثر الدرهم والدينار عند فلان.

وقوله: «وآتَيْناهُ أجْرَهُ في الدُّنْيا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأعطيناه ثوابَ بلائِه فينا في الدنيا «وَإِنَّهُ» مع ذلك «في الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ» فله هناكَ أيضاً جزاء الصالحين، غير منتقص حَظُّه بما أُعطي في الدنيا من الأجرِ على بلائِه في الله عَمَّا له عنده في الآخرة.

وقيل: إنَّ الأجرَ الذي ذكره الله عزَّ وجلَّ أنه آتاهُ إبراهيمَ في الدنيا هو الثناء الحسن، والولد الصالح.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: واذكر لوطاً إذْ قال لقومه: إنكم لتأتونَ الذُّكْرَانَ «مَا سَبَقَكُمْ بِهَا»، يعني بالفاحشة التي كانوا يأتونَها، وهي إتيان الذكران «مِنْ أَحَدٍ مِنَ العَالَمِينَ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن قِيلِ لوطٍ لقومه «أئِنَّكُمْ» أيها القومُ «لَتَأْتُونَ الرِّجالَ» في أدبارهم. «وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ»، يقول: وتقطعون المسافرينَ عليكم بفِعْلِكُمْ الخبيث، وذلك أنهم فيما ذُكِرَ عَنْهُمْ كانوا يفعلون ذلك بمن مَرَّ عليهم من المسافرينَ، ومَنْ وردَ بلادهم من الغرباء.

وقوله: «وَتَأْتُونَ في نَادِيكُمُ المُنْكَرَ»، معناه: وتحذفون في مجالسكم المارَّة بكم، وتسخرون منهم.

وقوله: «فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إلاَّ أنْ قالُوا ائْتِنا بعَذَابِ الله إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلم يكن جواب قوم لُوطٍ إذْ نَهاهُمْ عما يكرهُهُ الله من إتيانِ الفواحشِ التي حَرَّمَهَا الله إلا قِيلُهم: ائتِنَا بعذابِ الله الذي تَعِدُنا، إنْ كنتَ من الصادقينَ فيما تقولُ، والمُنْجِزِينَ لما تَعِدُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إبْراهِيمَ بالبُشْرَى» من الله بإسحاق، ومن وراءِ إسحاقَ يعقوبَ «قالُوا إنَّا مُهْلِكُو أهْلِ هَذِهِ القَرْيَةِ»، يقول: قالت رُسُلُ الله لإبراهيمَ: إنَّا مُهْلِكُو أهل هذه القرية، قرية سَدُوم، وهي قرية قوم لوط «إنَّ أهْلَها كانُوا ظالمينَ»، يقول: إنَّ أهلَها كانوا ظالمي أنفسهم

بمعصيتهم الله، وتكذيبهم رسولَهُ ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال إبراهيمُ للرسلِ من الملائكةِ إذْ قالوا له: «إنَّا مُهْلِكُو أهْلِ هَذهِ القَرْيَةِ إنَّ أهْلَها كانُوا ظالِمينَ» فلم يستثنوا منهم أحداً. إذْ وصفوهم بالظلم إن فيها لوطاً، وليس من الظالمين، بَلْ هو من رُسُلِ الله، وأهلِ الإيمانِ به، والطاعةِ له، فقالت الرسلُ له: «نَحْنُ أعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا» من الظالمينَ الكافرينَ بالله منك، وإنَّ لوطاً ليسَ منهم، بَلْ هو كما قلت من أولياءِ الله، لَنُنَجِّيَنَّهُ وأهلَهُ من الهلاكِ الذي هو نازلٌ بأهلِ قريته «إلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الغابِرينَ» الذين أبقتهم الدهورُ والأيامُ، وتطاولت أعمارُهم وحياتهم، وأنها هالكةٌ من بين أهلِ لوطٍ مع قومها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَلَمَّا أنْ جاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً» من الملائكة «سِيءَ بِهِمْ»، يقول: ساءته الملائكةُ بمجيئِهم إليه، وذلك أنهم تَضَيفُوه، فساؤوه بذلك، فقوله: «سِيءَ بِهِمْ»: فُعِلَ بهم، مِنْ ساءه بذلك، «وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً»، يقول: وضاقَ ذَرْعُه بضيافَتِهم لِمَا عَلِمَ من خُبْثِ فعلِ قومه.

وقوله: «وَقالُوا لا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: قالت الرسلُ للوطٍ: لا تخف علينا أن يصل إلينا قومُكَ، ولا تحزَنْ مما أخبرناكَ من أنَّا

مُهْلِكُوهم، وذلك أنَّ الرسلَ قالت له: «يا لُوطُ إنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إلَيْكَ فَأَسْرِ بأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مَنَ اللَّيْلِ، إنَّا مُنَجُّوكَ» من العذابِ الذي هو نازلٌ بقومكَ. «وأهْلَكَ»، يقول: ومُنَجُّو أهلِكَ معكَ «إلَّا امْرَأَتَكَ» فإنها هالكةٌ فيمن يهلكُ من قومِها، كانت من الباقينَ الذين طالتْ أعمارُهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٣٤﴾

يقـول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن قِيلِ الرسلِ للوطٍ: «إنَّا مُنْزِلُونَ» يا لُوط «عَلى أهْلِ هَذِهِ القَرْيَةِ» سَدُوم «رِجْزاً مَنَ السَّمَاءِ»، يعني: عذاباً.

وقـوله: «بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ»، يقول: بما كانوا يأتونَ من معصيةِ الله، ويركبونَ من الفاحشةِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولقد أبقينا من فعلتنا التي فَعَلْنا بهم آيةً، يقول: عبرةً بَيِّنةً وعِظةً واعظة، لقومٍ يعقلون عن الله حُجَجه، ويتفكرونَ في مواعظِه، وتلك الآيةُ البَيِّنَةُ هي عندي عُفُوُّ آثارِهم، ودروسُ معالِمهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٣٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأرسلتُ إلى مَدْينَ أخاهم شعيباً، فقال لهم: يا قوم اعبدوا الله وحده، وذِلُّوا له بالطاعةِ، واخضعوا له بالعبادة. «وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ»، يقول: وارجوا بعبادَتِكُمْ إيايَ جزاءَ اليوم الآخر، وذلك يوم القيامة. «وَلاَ تَعْثَوْا في الأَرْضِ مُفْسِدِينَ»، يقول: ولا تُكْثِرُوا في الأرض معصيةَ الله، ولا تُقيموا عليها، ولكنْ تُوبوا إلى الله منها وأنيبوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فكذَّبَ أهلُ مَدين شعيباً فيما أتاهم به عن الله من الرسالةِ، فأخذتهم رَجْفةُ العذابِ فأصبحوا في دارهم جاثمينَ جُثوماً، بعضُهم على بعضٍ مَوْتَى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ۝٣٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: واذكروا أيها القومُ عاداً وثمود، وقد تَبَيَّنَ لكم من مساكِنهم خرابُها وخلاؤُها منهم بوقائعنا بهم، وحلولِ سَطْوتنا بجميعهم «وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أعْمَالَهُمْ»، يقول: وحَسَّنَ لهم الشيطانُ كفرهم بالله، وتكذيبَهُم رُسُلَهُ «فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبيلِ»، يقول: فَرَدَّهُمْ بتزيينِه لهم ما زيَّنَ لهم من الكفرِ عن سبيلِ الله، التي هي الإيمان به ورسله، وما جاؤوهم به من عند رَبِّهم. «وكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ».

يقول: وكانوا مُسْتَبْصرينَ في ضلالتهم، مُعْجَبِينَ بها، يحسِبونَ أنهم على

هُدى وصوابٍ، وهُمْ على الضلال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: واذكُرْ يا محمدُ قارونَ وفرعونَ وهامانَ، ولقد جاء جميعَهُمْ موسى بالبيِّناتِ، يعني بالواضحاتِ من الآياتِ، فاستكبروا في الأرضِ عن التصديقِ بالبيناتِ من الآياتِ، وعن اتِّباعِ موسى صلواتُ الله عليه. «وما كانوا سابقين»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما كانوا سابِقِينا بأنفسِهم، فيفُوتُونَنا، بَلْ كنا مُقْتَدِرِينَ عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فأخذنا جميعَ هذه الأمم التي ذكرناها لك يا محمدُ بعذابنا «فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حاصِباً» وهم قوم لُوطٍ الذين أمطرَ الله عليهم حجارةً من سِجِّيلٍ مَنْضُود، والعرب تسمي الريحَ العاصفَ التي فيها الحصى الصغارُ أو الثلجُ أو البَرَدُ والجليدُ: حاصباً.

وقوله: «وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ»، اختلف أهل التأويل في الذين عُنوا بذلك، فقال بعضهم: هم ثمود قومُ صالحٍ.

وقال آخرون: بل هم قومُ شعيب.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنَّ الله قد أخبر عن ثمود وقوم

شعيب من أهلِ مَدْيَنَ أنه أهلكهم بالصيحةِ في كتابه في غير هذا الموضع، ثم قال جَلَّ ثناؤُهُ لنبيه ﷺ: فَمِنَ الأممِ التي أهلكناهم مَنْ أرسلنا عليهم حاصباً، ومنهم مَنْ أخذته الصيحةُ، فلم يخصص الخبرَ بذلك عن بعضٍ مَنْ أخَذَتْهُ الصيحةُ من الأممِ دونَ بعضٍ، وكلا الأمتين أعني ثمود ومدين قد أخذتهم الصَّيحة.

وقوله: «وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرْضَ»، يعني: بذلك قارون.

«وَمِنْهُمْ مَنْ أغْرَقْنَا»، يعني: قوم نوح وفرعون وقومه.

وقوله: «وَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كانُوا أنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولم يَكُن الله لِيُهْلِكَ هؤلاء الأمم الذين أهلكهم بذنوبِ غيرهم، فيظلمَهُمْ بإهلاكه إياهم بغيرِ استحقاق، بَلْ إنما أهلكهم بذنوبهم، وكُفْرِهم بربِّهم، وجحودهم نِعَمَهُ عليهم، مع تتابع إحسانه عليهم، وكثرة أياديه عندهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بتصرفهم في نِعمِ رَبِّهم، وتَقَلُّبهم في آلائه وعبادتهم غيرَهُ، ومعصيتهم مَنْ أنعَمَ عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ۝٤١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: مَثَلُ الذين اتَّخَذُوا الآلهةَ والأوثانَ من دونِ الله أولياءَ يَرْجُونَ نَصْرها ونَفْعَها عند حاجتهم إليها في ضعفِ احتيالهم، وقُبْحِ رواياتهم، وسوءِ اختيارهم لأنفسهم، كمثَلِ العنكبوتِ في ضَعْفِها، وقِلَّةِ احتيالها لنفسها، اتخذتْ بيتاً لنفسها، كيما يُكِنّها، فلم يُغْنِ عنها شيئاً عند حاجتها إليه، فكذلك هؤلاء المشركونَ لم يُغْنِ عنهم حين نزلَ بهم أمرُ الله، وحَلَّ بهم سخطه أولياؤُهم الذين اتخذوهم من دونِ الله شيئاً، ولم يدفعوا عنهم ما أحلَّ الله بهم

من سخطهِ بعبادتهم إياهم.

وقــولــه: «وإنَّ أوْهَــنَ البُيُوتِ»، يقــول: وإنَّ أضعفَ البيوتِ «لَبَيْتُ العَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ»، »، يقول تعالى ذِكْرُهُ: لو كان هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أولياء، يعلمونَ أنَّ أولياءهم الذين اتخذوهم من دونِ الله في قلةِ غَنائِهم عنهم، كغناءِ بيتِ العنكبوت عنها، ولكنهم يجهلون ذلك، فيحسبون أنهم ينفعونَهُمْ ويُقَرِّبُونهم إلى الله زُلْفى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾**

اختلف القَرَأَةُ في قراءةِ قوله: «إنَّ الله يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ» فقرأته عامة قَرَأَةِ الأمصار «تَدْعُونَ» بالتاء بمعنى الخطاب لمشركي قريش. «إنَّ الله» أيها الناسُ «يَعْلَمُ ما تَدْعُونَ إلَيْهِ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ». وقرأ ذلك أبو عمرو «إنَّ الله يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ» بالياء بمعنى الخبرِ عن الأممِ، إنَّ الله يعلمُ ما يدعو هؤلاء الذين أهلكناهم من الأممِ من دونِه من شيء.

والصوابُ من القراءة في ذلك عندنا، قراءةُ مَنْ قرأ بالتاء، لأنَّ ذلك لو كان خبراً عن الأممِ الذين ذكر الله أنه أهلكهم، لكان الكلامُ: إنَّ الله يعلمُ ما كانوا يدعون، لأنَّ القومَ في حالِ نزولِ هذا الخبرِ على نبيِّ الله لم يكونوا موجودينَ، إذْ كانوا قد هلكوا فبادوا، وإنما يقال: إنَّ الله يعلمُ ما تَدْعونَ إذا أُريدَ به الخبر عن موجودينَ، لا عَمَّنْ قد هَلَكَ.

فتأويلُ الكلامِ إذْ كان الأمرُ كما وصفنا: إنَّ الله يعلمُ أيها القومُ حالَ ما تعبدونَ من دونِه من شيء، وأنَّ ذلك لا ينفعكُمْ ولا يضرُّكُم، إنْ أراد الله بكم

سوءٍ، ولا يغني عنكم شيئاً؛ وإنَّ مَثَلَهُ في قِلَّةِ غَنائِه عنكم، مَثَلُ بيتِ العنكبوتِ في غَنَائه عنها.

وقوله: «وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ»، يقول: والله «العزيز» في انتقامه مِمَّنْ كفرَ به، وأشركَ في عبادتِه معه غيره فاتقوا أيها المشركونَ به عقابَهُ بالإيمانِ به قبلَ نزولِه بكم، كما نزلَ بالأممِ الذين قصَّ الله قَصصهم في هذه السورةِ عليكم، فإنه إنْ نزلَ بكم عقابُه لم تُغْنِ عنكم أولياؤكم الذين اتَّخذتُموهم من دونِه أولياءَ، كما لم يُغْنِ عنهم مَنْ قَبْلَكُمْ أولياؤُهم الذين اتخذوهم من دونه، «الحكيم» في تدبيره خلقه، فمُهلك مَن استوجبَ الهلاكَ في الحال التي هلاكه صلاح، والمؤخر من أخَّرَ هلاكَهُ من كَفَرَةِ خَلْقِه به إلى الحينِ الذي في هلاكهِ الصلاحُ.

وقوله: «وَتلكَ الأمْثالُ نَضْرِبُها للنَّاسِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وهذه الأمثالُ، وهي الأشباهُ والنظائر. «نضربها للناسِ»، يقول: نُمَثِّلُهَا ونُشَبِّهُهَا ونحتجُّ بها للناسِ.

«وما يَعْقِلُها إلَّا العالِمُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما يعقلُ أنه أصيبَ، بهذه الأمثالِ التي نضربها للناسِ منهم، الصوابَ والحقَّ، فيما ضربتُ له مَثَلاً، إلا العالمونَ بالله وآياته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمد ﷺ: خلق الله يا محمدُ السمواتِ والأرضَ وحده منفرداً بخلقها، لا يَشْرِكُه في خَلْقِها شريكٌ. «إنَّ في ذلكَ لآيَةً»، يقول: إن في خَلْقِه ذلك لحجةً لمن صَدَّقَ بالحججِ إذا عاينها، والآياتِ إذا رآها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: «اتْلُ» يعني: اقرأ «ما أُوحِيَ إلَيْكَ» مِنَ الكتابِ يعني: ما أُنزلَ إليكَ من هذا القرآنِ «وأقِمِ الصَّلاَةَ»، يعني: وأدِّ الصلاةَ التي فرضها الله عليكَ بحدودها. «إنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ»، اختلف أهلُ التأويل في معنى الصلاةِ التي ذكرت في هذا الموضع، فقال بعضهم عنى بها القرآن الذي يقرأ في موضعِ الصلاةِ، أو في الصلاة.

وقال آخرون: بل عنى بها الصلاة.

والصوابُ من القول في ذلك أنَّ الصلاةَ تنهى عن الفحشاءِ والمنكر.

فإنْ قال قائل: وكيف تَنْهى الصلاةُ عن الفحشاءِ والمنكر إنْ لم يكن معنياً بها ما يُتْلَى فيها؟ قيل: تنهى مَنْ كان فيها، فتحول بينه وبين إتيانِ الفواحش، لأنَّ شُغْلَهُ بها يَقْطَعُه عن الشغلِ بالمنكرِ، ولذلك قال ابن مسعود: من لم يُطِعْ صلاتَهُ لم يَزْدَدْ من الله إلا بُعْداً. وذلكَ أنَّ طاعتَهُ لها إقامتُه إياها بحدودِها، وفي طاعته لها مُزْدَجرٌ عن الفحشاءِ والمنكر.

وقوله: «وَلَذِكْرُ الله أكْبَرُ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معناه: ولَذِكْرُ الله إياكم أفضلُ من ذِكْرِكُمْ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولَذِكْرُكم الله أفضلُ من كلِّ شيءٍ.

وقال آخرون: هو محتملٌ للوجهين جميعاً، يعنون القولَ الأوّلَ الذي ذكرناه والثاني.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لَذِكْرُ الله العبد في الصلاة أكبرُ من الصلاة.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وللصلاة التي أتيتَ أنتَ بها وذكركَ الله فيها أكبر ـ مما نهتك الصلاة عن الفحشاء والمنكر.

وأشبه هذه الأقوال بما دلّ عليه ظاهر التنزيل قول من قال: ولذكر الله إياكم أفضل من ذكركم إياه.

وقوله: «وَالله يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ»، يقول: والله يعلم ما تصنعونَ أيها الناسُ في صلاتكم من إقامةِ حدودها، وتركِ ذلك وغيرهِ من أموركم، وهو مُجازِيكم على ذلك، يقول: فاتقوا أنْ تُضيعوا شيئاً من حدودِها، والله أعلم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَلَا تُجَادِلُوا» أيها المؤمنون بالله وبرسوله اليهودَ والنصارى، وهم: أهْلُ الكِتابِ «إلَّا بالَّتِي هِيَ أحْسَنُ»، يقول: إلا بالجميلِ من القولِ، وهو الدعاء إلى الله بآياته، والتنبيه على حُججه.

وقوله: «إلَّا الَّذين ظَلَمُوا مِنْهُمْ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويله؛ فقال بعضهم: معناه: إلا الذين أبوا أنْ يُقِرُّوا لكم باعطاءِ الجزيةِ، ونصبوا دونَ ذلك لكم حرباً، فإنهم ظَلَمةٌ، فأولئك جادلوهم بالسيفِ حتى يُسْلِمُوا أو يُعْطُوا الجزيةَ.

وقال آخرون: معنى ذلك: «وَلَا تُجَادِلُوا أهْلَ الكِتَابِ» الذين قد آمنوا به، واتَّبَعُوا رسولَهُ فيما أخبروكم عنه مما في كتبهم «إلَّا بالتي هي أحْسَنُ» «إلَّا الَّذِينَ

ظَلَمُوا مِنْهُمْ»، فأقاموا على كفرهم، وقالوا: هذه الآية محكمةٌ، وليست بمنسوخة.

وقال آخرون: بل نزلت هذه الآيةُ قبل أن يُؤْمَرَ النبيُّ ﷺ بالقتالِ، وقالوا: هي منسوخةٌ نَسَخَهَا قوله: «قاتِلُوا الَّذِين لا يُؤْمِنُونَ بالله وَلَا باليَوْمِ الآخِرِ».

وأولى هذه الأقوال بالصوابِ، قولُ مَنْ قال: عنى بقوله: «إلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ»: إلا الذين امتنعوا من أداءِ الجِزْيةِ، ونصبوا دونَها الحرب.

فإن قال قائلٌ: أو غير ظالم من أهلِ الكتاب، إلا مَنْ لم يؤدِّ الجزيةَ؟ قيل: إنَّ جميعهم وإنْ كانوا لأنفسهم بكفرهم بالله، وتكذيبهم رسولَهُ محمداً ﷺ ظَلَمَةٌ، فإنه لم يَعْنِ بقولِه: «إلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ» ظلم أنفسهم. وإنما عنى به: إلا الذين ظلموا منهم أهلَ الإيمانِ بالله ورسوله محمدٍ ﷺ، فإنَّ أولئك جادِلُوهم بالقتالِ.

وإنما قلنا: ذلك أوْلى الأقوالِ فيه بالصوابِ، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه أَذِنَ للمؤمنينَ بجدالِ ظَلَمَةِ أهلِ الكتابِ بغير الذي هو أحسن، بقوله: «إلَّا الَّذِين ظَلَمُوا مِنْهُمْ»، فمعلومٌ إذ كان قد أذن لهم في جدالهم، أنَّ الذين لم يُؤْذَنْ لهم في جِدالهم إلا بالتي هي أحسن، غير الذين أذِنَ لهم بذلك فيهم، وأنهم غير المؤمن، لأنَّ المؤمنَ منهم غيرُ جائزٍ جِدَالهُ إلا في غير الحقِّ، لأنه إذا جاء بغيرِ الحقِّ، فقد صار في معنى الظَّلَمةِ في الذي خالف فيه الحقَّ. فإذْ كان ذلك كذلك، تَبَيَّنَ أنَّ لا معنى لقولِ مَنْ قال: عنى بقوله: «وَلَا تُجَادِلُوا أهلَ الكِتابِ» أهلَ الإيمانِ منهم، وكذلك لا معنى لقولِ مَنْ قال: نزلت هذه الآية قبلَ الأمرِ بالقتال، وزعم أنها منسوخةٌ، لأنه لا خبرَ بذلك يقطعُ العُذْرَ، ولا دلالة على صحته من فطرةِ عقلٍ.

وقد بيَّنا في غير موضعٍ من كتابنا، أنه لا يجوز أنْ يُحْكَمَ على حُكْمِ

الله في كتابه بأنه منسوخٌ إلا بحجةٍ يجبُ التسليمُ لها من خبرٍ أو عقل.

وقوله: «وَقُولُوا آمَنَّا بالَّذِي أُنْزِلَ إلَيْنَا وأُنْزِلَ إلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ للمؤمنين به وبرسوله، الذين نهاهم أنْ يُجَادِلُوا أهلَ الكتاب إلا بالتي هي أحسن، إذا حَدَّثَكُمْ أهلُ الكتاب أيها القومُ عن كتبهم، وأخبروكم عنها بما يمكن ويجوز أنْ يكونوا فيه صادقينَ، وأنْ يكونوا فيه كاذبين، ولم تَعْلَمُوا أمرَهُمْ وحالهم في ذلك فقولوا لهم: «آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إلَيْنَا وأُنْزِلَ إلَيْكُمْ» مما في التوراة والإنجيل. «وَإِلَهُنَا وإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ»، يقول: ومعبودُنا ومعبودُكُمْ واحد. «وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ»، يقول: ونحن له خاضعون مُتَذَلِّلُونَ بالطاعةِ فيما أمرنا ونهانا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: كما أنزلنا الكُتُبَ على مَنْ قبلكَ يا محمدُ من الرسل «كَذَلِكَ أنْزَلْنَا إلَيْكَ» هذا «الكِتَابَ فالَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الكِتَابَ» من قَبْلِكَ من بني إسرائيل «يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ»، يقول: ومِنْ هؤلاءِ الذين هم بين ظَهْرَانَيْكَ اليومَ مَنْ يؤمنُ به كعبدِالله بن سلام، ومَنْ آمَنَ برسولِه من بني إسرائيل.

وقوله: «وَمَا يَجْحَدُ بآيَاتِنَا إلَّا الكَافِرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَما يجحدُ بأدلتنا وحججنا إلا الذي يجحدُ نِعَمَنَا عليه، وينكر توحيدنا وربوبيتنا على عِلْمٍ منه عناداً لنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَمَا كُنْتَ» يا محمدُ «تَتْلُو»، يعني: تقرأ «مِنْ قَبْلِهِ»، يعني: من قبلِ هذا الكتابِ الذي أنزلتُه إليكَ «مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ»، يقول: ولم تكن تكتب بيمينكَ، ولكنك كنت أُمِّيًا «إِذَنْ لارْتَابَ المُبْطِلُونَ»، يقول: ولو كنتَ من قبلِ أن يُوحَى إليك تقرأ الكتابَ، أو تَخُطُّهُ بيمينكَ، «إِذَنْ لارتابَ»، يقول: إذن لشَكَّ بسببِ ذلك في أمرك، وما جئتهم به من عندِ رَبِّكَ من هذا الكتابِ الذي تتلوه عليهم المُبْطِلُونَ القائلونَ إنه سَجْعٌ وكَهَانةٌ، وإنه أساطيرُ الأوّلين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

اختلف أهل التأويل في المعنيِّ بقوله: «بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ في صُدُورِ الَّذِينَ أُوتوا العِلْمَ»، فقال بعضهم: عُنِيَ به نبيُّ الله ﷺ، وقالوا: معنى الكلام: بل وجودُ أهلِ الكتابِ في كتبهم أن محمداً ﷺ لايكتبُ ولا يقرأ، وأنه أميٌّ، آيات بينات في صدورهم.

وقال آخرون: عنى بذلك القرآن، وقالوا: معنى الكلام: بَلْ هذا القرآن آياتٌ بيِّناتٌ في صدور الذين أُوتُوا العِلْمَ من المؤمنين بمحمدٍ ﷺ.

وأَوْلى القولين في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: عنى بذلك: بل العلم بأنك ما كنتَ تتلو من قبلِ هذا الكتابِ كتاباً، ولا تَخُطُّهُ بيمينكَ، آيات بينات في صدور الذين أُوتوا العلم من أهلِ الكتاب.

وإنما قلت ذلك أوْلى التأويلين بالآية، لأنَّ قوله: «بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ في صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ» بين خبرينِ من أخبارِ الله عن رسولِه محمدٍ ﷺ، فهو بأنْ يكونَ خبراً عنه أوْلى من أن يكون خبراً عن الكتابِ الذي قد انقضى الخبرُ عنه قبلُ.

وقوله: «وَمَا يَجْحَدُ بآياتِنَا إلَّا الظَّالِمُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ما يجحدُ نُبُوَّةَ محمدٍ ﷺ وأدِلَّتَهُ، ويُنْكِرُ العلمَ الذي يعلمُ من كتبِ الله التي أنزلها على أنبيائِه، ببعثِ محمدٍ ﷺ ونبوّته ومبعثِه إلا الظالمونَ، يعني الذين ظلموا أنفسَهُمْ بكفرِهم بالله عزَّ وجلَّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقالت المشركونَ من قريش: هَلَّا أُنْزِلَ على محمدٍ آيةٌ من رَبِّه تكونُ حجةً لله علينا كما جُعِلَتِ الناقةُ لصالحٍ، والمائدةُ آيةً لعيسى، قُلْ يا محمد إنما الآياتُ عندَ الله لا يقدرُ على الإتيانِ بها غيرُه. «وَإِنَما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ»، وإنما أنا نذيرٌ لكم أُنذركُمْ بأسَ الله وعقابَهُ على كُفْرِكُمْ برسولِه. وما جاءكم به من عند ربكم «مبين»، يقول قد أبان لكم إنذارَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أَوَ لَمْ يَكْفِ هؤلاء المشركين يا محمدُ، القائلينَ: لولا أُنزلَ على محمدٍ ﷺ آيةٌ من ربهِ، من الآياتِ والحجج «أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ» هذا «الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ»، يقول: يُقْرأ عليهم. «إنَّ في ذلكَ لَرَحْمَةً»، يقول: إنَّ

في هذا الكتاب الذي أنزلنا عليهم لرحمة للمؤمنين به وذكر يتذكرون بما فيه من عبرةٍ وعِظة.

وذُكِرَ أنَّ هذه الآيةَ نزلت من أجلِ أنَّ قوماً من أصحابِ رسولِ الله ﷺ انتسخوا شيئاً من بعضِ كتبِ أهلِ الكتاب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ للقائلينَ لك: لولا أُنزلَ عليك آيةٌ من ربـك، الجـاحـدينَ بآياتنا من قومك: كفى الله يا هؤلاء بيني وبينَكُمْ شاهداً لي وعليَّ، لأنه يعلم المُحِقَّ مِنَّا من المُبْطِلِ، ويعلمُ ما في السموات وما في الأرض، لا يَخْفَى عليه شيء فيهما، وهو المجازي كُلَّ فريقٍ منا بما هو أهلُه، المحقَّ على ثباتِه على الحقِّ، والمُبْطِلَ على باطلِه بما هو أهلُه. «وَالَّذِينَ آمَنُوا بالباطِلِ»، يقول: صدقوا بالشرك، فأقَرُّوا به وكفروا به: يقول: وجَحَدُوا الله. «أُولَئِكَ هُمُ الخاسِرُونَ»، يقول: هم المغبونون في صفقتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويستعجلك يا محمدُ هؤلاء القائلونَ من قومكَ: لولا أُنزلَ عليه آيةٌ من ربه بالعذابِ ويقولون: «اللَّهُمَّ إنْ كانَ هَذا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فأمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارةً مِنَ السَّماءِ»، ولولا أجلٌ سَمَّيْتُه لهم فلا أُهْلِكُهُمْ حتى يَسْتَوْفُوه ويبلغوه، لجاءهم العذابُ عاجلاً.

وقوله: «وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ»، يقول: وليأتينهم العذابُ فجأةً وهم لا يشعرون بوقتِ مجيئِه قبلَ مجيئه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ٥٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يستعجلكَ يا محمدُ هؤلاء المشركونَ بمجيءِ العذابِ ونزولِه بهم، والنارُ بهم محيطةٌ لم يَبْقَ إلا أنْ يدخلوها. وقيل: إنَّ ذلك هو البحر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٥٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافِرِينَ» يومَ يَغْشَى الكافرينَ العذابُ من فوقِهم في جهنم، ومن تحتِ أرجلهم.

وقوله: «وَيَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: ويقول الله لهم: ذُوقُوا ما كنتم تعملونَ في الدنيا من معاصي الله، وما يُسخطهُ فيها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ٥٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ للمؤمنينَ به من عبادِه: يا عبادي الذين وَحَّدُوني وآمنوا بي وبرسولي محمدٍ ﷺ «إنَّ أرْضِي واسِعَةٌ».

واختلف أهلُ التأويل في المعنى الذي أُريدَ من الخبرِ عن سَعَةِ الأرض،

فقال بعضهم: أُريدَ بذلك أنها لم تَضِقْ عليكم فتقيموا بموضعٍ منها لا يحلُّ لكم المُقـامُ فيه، ولكن إذا عُمِلَ بمكانٍ منها بمعاصي الله فلم تقدروا على تغييرِه، فاهرُبوا منه.

وقال آخرون: معنى ذلك: إنَّ ما أُخْرِجُ من أرضي لكم من الرزقِ واسعٌ لكم.

وأَوْلى القولين بتأويل الآيةِ قول مَنْ قال: معنى ذلك: إنَّ أرضي واسعة فاهربوا مِمَّنْ مَنعَكُمْ من العملِ بطاعتي لدلالةِ قوله: «فإيَّايَ فاعْبُدُونِ» على ذلك، وأنَّ ذلك هو أظهر معنييه، وذلك أنَّ الأرضَ إذا وصفها بِسعَة، فالغالبُ من وصفهِ إياها بذلك أنها لاتضيقُ جَميعها على مَنْ ضاقَ عليه منها مَوْضِعٌ، لا أنه وصفها بكثرةِ الخيرِ والخِصْبِ.

وقوله: «فإيَّايَ فاعْبُدُونِ»، يقول: فأخلِصُوا لي عبادتكم وطاعتكم، ولا تطيعوا في معصيتي أحداً من خَلْقِي.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ للمؤمنين به من أصحابِ نبيه هاجرُوا من أرضِ الشركِ من مكةَ إلى أرضِ الإسلام المدينة، فإنَّ أرضي واسعةٌ فاصبروا على عبادتي، وأخلِصـوا طاعتي، فإنكم ميتـون وصـائـرون إليّ، لأن كُلَّ نفسٍ حية ذائقةُ الموتِ، ثم إلينا بعد الموتِ تُرَدُّونَ، ثم أخبرهم جَلَّ ثناؤهُ عما أعَدَّ للصابرينَ منهم على طاعتِه من كرامتِه عنده. فقال: «والذين آمنوا»، يعني: صدّقوا الله

ورسوله فيما جاء به من عندِ الله «وعملوا الصالحات»، يقول: وعملوا بما أمرهم الله فأطـاعوه فيه، وانتهوا عما نهاهم عنه «لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الجَنَّةِ غُرَفاً»، يقول: لننزلنهم من الجنة عَلاليَ.

وقـوله: «تَجْري مِنْ تَحْتِها الأنهارُ»، يقول: تجري من تحتِ أشجارها الأنهـارُ. «خـالِـدِينَ فِيهـا»، يقـول: ماكثينَ فيهـا إلى غيرِ نهاية. «نِعْمَ أجْرُ العامِلِين»، يقول: نعم جزاءُ العاملينَ بطاعةِ الله هذه الغرفُ التي يُثْوِيهُمُوها[1] الله في جنَّاتِه، تجري من تحتها الأنهار، الذينَ صَبَرُوا على أذى المشركينَ في الدنيا، وما كانوا يَلْقون منهم، وعلى العملِ بطاعةِ الله وما يرضيهِ وجهادِ أعدائه «وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» في أرزاقهم وجهادِ أعدائهم، فلا يَنْكُلون عنهم ثِقةً منهم بأنَّ الله مُعْلِي كَلمتِه، ومُوهِنُ كيدِ الكافرينَ، وأن ما قُسِم لهم من الرزقِ فلن يَفُوتَهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ للمؤمنينَ به، وبرسولِه من أصحابِ محمدٍ ﷺ: هاجِرُوا وجاهدوا في الله أيها المؤمنونَ أعداءَهُ، ولا تخافوا عيلةً ولا إقتاراً، فكم من دابةٍ ذاتِ حاجـةٍ إلى غذاءٍ ومـطعمٍ ومشـربٍ لا تحمـلُ رزقها، يعني غذاءها لا تحمله، فترفعه في يومها لغدها لِعَجْزهَا عن ذلك «الله يَرْزُقُها وَإِيَّاكُمْ» يوماً بيومٍ «وَهُوَ السَّمِيعُ» لأقوالِكم: نَخْشَى بفراقنا أوطانَنَا العَيْلَةَ «العَلِيمُ» ما في أنفسِكم، وما إليه صائرٌ أمرُكُمْ، وأمرُ عدوِّكم من إذلالِ الله إياهم، ونُصْرتكم عليهم، وغير ذلك من أمورِكم، لا يَخْفَى عليه شيءٌ من أمورِ خَلْقِه.

---

(١) أي يقيمون في هذه الغرف من الجنة. من فعل: ثَوَى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولئن سألتَ يامحمدُ هؤلاء المشركينَ بالله مَنْ خلقَ السمواتِ والأرض فسوَّاهُنَّ، وسخَّرَ الشمسَ والقمر لعبادِه، يجريانِ دائبين لمصالحِ خَلْقِ الله، ليقولُنَّ: الذي خَلَقَ ذلك وفعَلَه الله. «فأنَّى يُؤْفَكُونَ»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: فأنى يُصْرَفُونَ عَمَّنْ صنعَ ذلك، فيعدلون عن إخلاصِ العبادةِ له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: الله يُوَسِّعُ مِنْ رِزْقِه لِمَنْ يشاءُ من خَلْقِه، ويُضَيِّقُ فيُقتِّرُ لمن يشاءُ منهم: يقول: فأرزاقُكم وقِسْمَتُهَا بينكم أيها الناسُ بيدي دونَ كُلِّ أحدٍ سوايَ، أبسطُ لمن شئتُ منها، وأقترُ على مَنْ شئت، فلا يخلفنكم عن الهجرةِ وجهادِ عدوِّكُمْ خوفُ العَيْلَةِ. «إنَّ الله بكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»، يقول: إنَّ الله عليمٌ بمصالحكم، ومَنْ لا يصلُح له إلا البسطُ في الرزق، ومَنْ لا يصلحُ له إلا التقتيرُ عليه، وهو عالم بذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: ولئن سألتَ يا محمدُ هؤلاء المشركينَ

بالله من قومك مَنْ نَزَّلَ من السماء ماءً، وهو المطرُ الذي ينزله الله من السحابِ. «فأحْيا بِه الأرضِ»، يقول: فأحيا بالماءِ الذي نزلَ من السماء الأرضَ، وإحياؤها: إنباتُه النباتَ فيها «منْ بعدِ موْتها» من بعد جُدُوبِها وقُحُوطِها.

وقوله: «لَيَقُولُنَّ الله»، يقول: ليقولُنَّ: الذي فَعَلَ ذلك الله الذي له عبادةُ كُلِّ شيءٍ.

وقوله: «قُلِ الحَمْدُ لله»، يقول: وإذا قالوا ذلك، فَقُلِ الحمدُ لله. «بَلْ أكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ»، يقول: بل أكثرُ هؤلاء المشركينَ بالله لا يعقلونَ ما لهم فيه النفعُ من أمرِ دِينهم، وما فيه الضرُّ، فَهُمْ لجهلِهم يحسِبُونَ أنهم لعبادتهم الآلهةَ دونَ الله، ينالونَ بها عندَ الله زُلْفةً وقربةً، ولا يعلمونَ أنهم بذلك هالكونَ مستوجبونَ الخلودَ في النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَمَا هَذِهِ الحَياةُ الدُّنْيا» التي يتمتعُ منها هؤلاء المشركونَ. «إلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ»، يقول: إلا تعليلُ النفوسِ بما تلتذُّ به، ثم هو مُنْقَضٍ عن قريبٍ، لا بقاءَ له ولا دوامَ «وإنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَان»، يقول: وإنَّ الدارَ الآخرةَ لفيها الحياةُ الدائمة التي لا زوالَ لها ولا انقطاعَ ولا موتَ معها.

وقوله: «لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ»، يقول: لو كان هؤلاء المشركون يعلمونَ أنَّ ذلك كذلك، لقَصَّرُوا عن تكذِيبهم بالله، وإشراكِهم غيرَهُ في عبادتِه، ولكنهم لا يعلمونَ ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فإذا ركبَ هؤلاء المشركونَ السفينةَ في البحر، فخافوا الغرقَ والهلاكَ فيه «دَعَوُا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ»، يقول: أخلصوا لله، عند الشدَّةِ التي نزلتْ بهم، التوحيدَ، وأفردوا له الطاعةَ، وأذعنوا له بالعبودةِ، ولم يستغيثوا بآلهتم وأندادهم، ولكنْ بالله الذي خلقهم «فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إلى البَرِّ»، يقول: فلما خَلَّصهم مما كانوا فيه وسلَّمهم، فصاروا إلى البرِّ إذا هُمْ يجعلونَ مع الله شريكاً في عبادتهم، ويَدْعُونَ الآلهةَ والأوثانَ معه أرباباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلما نَجَّى الله هؤلاء المشركينَ مما كانوا فيه في البحرِ من الخوفِ والحَذَرِ من الغرقِ إلى البرِّ إذا هم بعد أنْ صاروا إلى البرِّ يُشركونَ بالله الآلهـةَ والأنـدادَ «لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ»، يقول: ليجحدوا نعمةَ الله التي أنعمها عليهم في أنفسهم وأموالهم.

«وَلِيَتَمَتَّعُوا»، اختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ ذلك، فقرأته عامة قَرَأَةِ المدينة والبصـرة «وَلِيَتَمَتَّعُوا» بكسر اللام، بمعنى: وكي يتمتعوا آتيناهُمْ ذلك. وقرأ ذلك عامة قَرَأَةِ الكوفيين «وَلْيَتَمَتَّعُوا» بسكون اللام على وجهِ الوعيدِ والتوبيخِ: أي اكْفُرُوا فإنكم سوفَ تعلمونَ ماذا يَلْقَوْنَ من عذابِ الله بكفرهم به.

وأولى القراءتين عندي في ذلك بالصوابِ، قراءة من قرأ بسكونِ اللام

على وجـهِ التهديدِ والوعيدِ، وذلك أنَّ الذين قرؤوه بكسر اللام زعموا أنهم إنما اختاروا كسرها عطفاً بها على اللام التي في قوله: «لِيَكْفُرُوا»، وأنَّ قوله: «لِيَكْفُرُوا» لَمَّا كان معنـاه: كي يكفروا كان الصوابُ في قوله: «وَلِيَتَمَتَّعُوا» أن يكون: وكي يتمتعوا، إذْ كان عطفاً على قوله: ليكفروا عندهم، وليسَ الذي ذَهَبُوا من ذلكِ بمذهب، وذلك لأنَّ لام قوله: «لِيَكْفُرُوا» صَلُحت أنْ تكون بمعنى كي، لأنها شرطٌ لقولِه: إذا هم يشركون بالله كي يكفروا بما آتيناهم من النعم، وليس ذلك كذلك في قوله: «وليتَمَتَّعُوا» لأن إشراكَهم بالله كان كُفْراً بنعمتِه، وليس إشراكُهم به تمتعاً بالدنيا، وإنْ كان الإشراكُ به يسهلُ لهم سبيلُ التمتعِ بها، فإذْ كان ذلك كذلك فتوجيههُ إلى معنى الوعيدِ أوْلى وأحقّ من توجيههِ إلى معنى: وكي يتمتعوا، وبعد فقد ذكر أن ذلك في قراءة أُبيّ «وَتَمَتَّعُوا» وذلك دليلٌ على صحةِ مَنْ قرأه بسكونِ اللام بمعنى الوعيد.

وقوله: «أوَلَمْ يَرَوْا أنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ مُذَكِّراً هؤلاء المشركينَ من قريش ـ القائلينَ: لولا أُنزلَ عليه آيةٌ من رَبِّه ـ نِعْمَتَهُ عليهم التي خَصَّهُمْ بها دونَ سائرِ الناسِ غيرهم مع كُفْرِهم بنعمتِه وإشراكهم في عبادته الآلهةَ والأندادَ، أوَ لَمْ يَرَ هؤلاء المشركونَ من قريش، ما خَصَصْنَاهُمْ به من نعمتنا عليهم دونَ سائرِ عبادنا، فيشكرونا على ذلك، ويَنْزَجِرُوا عن كُفْرِهم بنا، وإشراكِهم ما لا ينفعنا ولا يضرُّهُمْ في عبادتنا أنَّا جعلنا بلدَهم حَرَماً، حَرَّمْنَا على الناسِ أنْ يدخلوهُ بغارةٍ أو حربٍ آمناً، يأمَنُ فيه مَنْ سكنه، فأوى إليه من السِّباء والخوفِ، والحرام الذي لا يأمنه غيرهم من الناسِ «وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ»، يقول: وتُسْلَبُ الناسُ من حولهم قتلاً وسِباءً.

وقوله: «أفَبالباطِلِ يُؤْمِنُونَ»، يقول: أفبالشركِ بالله يُقِرُّونَ بألوهةِ الأوثانِ بأنْ يُصَدِّقُوا، وبنعمـةِ الله التي خَصَّهم بهـا من أنْ جعلَ بلدَهُمْ حرماً آمناً يكفرونَ، يعني بقوله: «يكفرون»: يَجْحَدُونَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومَنْ أظلمُ أيها الناسُ ممن اختلقَ على الله كذباً، فقالوا إذا فعلوا فاحشةً: وجدنا عليها آباءنا، والله أمرنا بها، والله لا يأمرُ بالفحشاء. «أوْ كَذَّبَ بالحَقِّ لَمَّا جاءَهُ»، يقول: أو كذَّبَ بما بعثَ الله به رسولَهُ محمداً ﷺ من توحيده، والبراءةِ من الآلهةِ والأندادِ لما جاءه هذا الحقُّ من عندِ الله. «ألَيْسَ في جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكافِرِينَ»، يقول: أليس في النار مَثْوىً ومَسْكَنٌ لِمَنْ كفرَ بالله، وجَحَدَ توحيدَهُ وكذَّبَ رسولَهُ ﷺ، وهذا تقريرٌ، وليسَ باستفهامٍ. إنما أخبر أن للكافرين بالله مَسْكَنا في النار، ومنزلا يَثْوُون فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: والذين قاتلوا هؤلاء المفترينَ على الله كذباً من كفار قريش، المكذِّبينَ بالحقِّ لما جاءهم فينا، مُبْتَغِينَ بقتالهم علوَّ كَلِمَتِنَا، ونُصْرةَ ديننا، «لنهدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا»، يقول: لنوفِّقَنَّهُمْ لإصابةِ الطرقِ المستقيمة، وذلك إصابة دينِ الله الذي هو الإسلامُ الذي بعث الله به محمداً ﷺ «وَإنَّ الله لَمَعَ المُحْسِنِينَ»، يقول: وإنَّ الله لمع مَنْ أحسنَ من خَلْقِه، فجاهدَ فيه أهلَ الشركِ، مُصَدِّقاً رسولَهُ فيما جاء به من عندِ الله بالعونِ له، والنصرةِ على مَنْ جاهد من أعدائه.

سُورَةُ الرُّومِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾

قد بَيَّنا فيما مضى قبلُ معنى قوله: «الٓمٓ» وذكرنا ما فيه من أقوالِ أهلِ التأويل، فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الموضع[1].

وتأويل الكلام: غَلبت فارسُ الرومَ «في أَدْنَى الأَرْضِ» من أرضِ الشام إلى أرضِ فارس «وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ»، يقول: والرومُ من بعد غَلَبَةِ فارس إياهم «سَيَغْلِبُونَ» فارسَ «في بِضْعِ سِنِينَ لله الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ» غَلَبتهم فارسُ «وَمِنْ بَعْدُ» غلبتهم إياها، يقضي في خَلْقِه ما يشاء، ويحكمُ ما يريدُ، ويُظْهِرُ مَنْ شاء منهم على مَنْ أحبَّ إظهارَهُ عليه «وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ الله»، يقول: ويوم يغلِبُ الرومُ فارسَ يفرحُ المؤمنونَ بالله ورسوله بنصرِ الله إيَّاهُمْ على المشركينَ، ونُصْرةِ الرومِ على فارسَ. «يَنْصُرُ» الله تعالى ذكره «مَنْ يَشاءُ» من خلقه، على مَنْ يشاء، وهو نُصْرَةُ المؤمنينَ على المشركينَ ببدرٍ. «وَهُوَ العَزِيزُ»،

(١) انظر تفسير أول سورة البقرة.

يقولُ: واللهُ الشديدُ في انتقامِه من أعدائِه، لايمنعه من ذلك مانعٌ، ولا يحولُ بينه وبينه حائلٌ. «الرَّحِيمُ» بمن تابَ من خَلْقِه، وراجعَ طاعتَهُ أنْ يُعَذِّبَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وَعْدَ الله جَلَّ ثناؤُهُ، وَعَدَ أنَّ الرومَ ستغلبُ فارسَ من بعدِ غلبةِ فارسَ لهم، ونَصَبَ «وَعْدَ الله» على المصدر من قوله: «وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ» لأنَّ ذلك وَعْدٌ من الله لهم أنهم سيغلبون، فكأنه قال: وَعَدَ الله ذلك المؤمنينَ وعداً. «لا يُخْلفُ الله وَعْدَهُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الله يَفِي بوعدِه للمؤمنينَ أنَّ الرومَ سيغلبونَ فارسَ، لا يُخْلِفُهُمْ وَعْدَهُ ذلك، لأنه ليس في مواعيدِه خُلْفٌ. «ولكِنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ»، يقول: ولكنَّ أكثرَ قريش الذين يُكَذِّبُونَ بأنَّ الله مُنْجز وعده المؤمنينَ، من أنَّ الرومَ تغلبُ فارس، لا يعلمونَ أنَّ ذلك كذلك، وأنه لا يجوزُ أنْ يكونَ في وعدِ الله إخلافٌ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُهُ: يعلمُ هؤلاء المُكَذِّبُونَ بحقيقةِ خبرِ الله أنَّ الرومَ ستغلبُ فارسَ، ظاهراً من حياتهم الدنيا، وتدبير معايشهم فيها، وما يُصْلِحُهُمْ، وهُمْ عن أمْـرِ آخرتِهم، وما لهم فيه النجاةُ من عقابِ الله هنالك غافلونَ، لا يفكرون فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرْ هؤلاء المكذّبونَ بالبعثِ يا محمدُ من قومكَ في خَلْقِ الله إياهم، وأنه خَلَقَهُمْ ولم يكونوا شيئاً، ثم صرفهم أحوالاً وتاراتٍ حتى صاروا رجالاً، فيعلموا أنَّ الذي فعل ذلك قادرٌ أنْ يُعيدَهُمْ بعد فنائِهم خَلْقاً جديداً، ثم يجازي المحسنَ منهم بإحسانِه، والمسيءَ بإساءتِه، لا يظلِمُ أحداً منهم فيعاقبه بجرمِ غيرِه، ولا يحرمُ أحداً منهم جزاءَ عملِه، لأنه العدلُ الذي لايجورُ «ما خَلَقَ الله السمواتِ والأرض وما بينهما»، إلا بالعدلِ، وإقامةِ الحقِّ، «وأجلٍ مسمى»، يقول: وبأجلٍ مؤقتٍ مُسَمّى، إذا بلغتْ ذلك الوقتَ أفنى ذلك كُلَّهُ، وبَدَّلَ الأرضَ غيرَ الأرضِ والسموات، وبَرَزُوا لله الواحدِ القهَّار، وإنَّ كثيراً من الناسِ بلقاء رَبِّهم جاحدونَ مُنْكِرُونَ، جهلاً منهم بأنَّ مَعَادهم إلى الله بعد فنائهم، وغفلةً منهم عن الآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أَوَ لَمْ يَسِرْ هؤلاء المكذِّبُونَ بالله، الغافلونَ عن الآخرةِ من قريش في البلادِ التي يسلكونها تَجَراً، فينظروا إلى آثار الله فيمن كان قَبْلَهُمْ من الأممِ المكذِّبةِ، كيف كان عاقبةُ أمرها في تكذيبها رُسُلَهَا، فقد كانوا أشدَّ منهم قوَّةً، وأثاروا الأرضَ، يقول: واستخرجوا الأرضَ، وحَرَثُوها وعَمَرُوهَا أكثرَ

مما عَمَرَ هؤلاء، فأهلكهم الله بكفرهم وتكذيبهم رُسُلَهُم، فلم يقدروا على الامتناع ، مع شدّةِ قواهم مما نزلَ بهم من عقابِ الله، ولا نَفَعتهم عمارتهم ما عَمَرُوا من الأرضِ، إذْ جاءتهم رُسُلَهُم بالبيناتِ من الآياتِ، فكذَّبُوهم، فأحَلَّ الله بهم بأسَهُ، فما كان الله ليظلمهم بعقابِه إياهم على تكذيبهم رُسُلَهُ وجحودهم آياتِه، ولكن كانوا أنفسهم يظلمونَ بمعصيتهم رَبَّهُمْ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ثم كان آخرَ أمرِ مَنْ كفرَ من هؤلاءِ الذي أثاروا الأرضَ وعمروها، وجاءتهم رُوسُلُهم بالبيناتِ بالله، وكَذَّبُوا رُسُلَهم، فأساءوا بذلك من فعلهم. السوأى: يعني الخلة التي هي أسوأ من فِعْلِهم؛ أما في الدنيا، فالبوارُ والهلاكُ، وأما في الآخرة فالنارُ لا يُخْرَجُونَ منها، ولا هم يُسْتعتبون.

وقوله: «أنْ كذَّبُوا بآياتِ الله»، يقول: كانتْ لهم السوأى، لأنهم كَذَّبُوا في الدنيا بآياتِ الله، «وكانوا بها يستهزؤون»، يقول: وكانوا بحججِ الله وهم أنبياؤه ورسله يسخرون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: الله تعالى يبدأُ إنشاءَ جميعِ الخَلْقِ منفرداً بإنشائه من غيرِ شريكٍ ولا ظهير، فَيُحْدِثُه من غيرِ شيءٍ، بل بقدرته عزَّ وجلَّ، ثم يُعيدُه خلقاً جديداً بعد إفنائِه وإعدامِه، كما بدأه خَلْقاً سَوِيّاً، ولم يَكُ شيئاً. «ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»، يقول: ثم إليه من بعد إعادتهم خلقاً جديداً يُرَدُّونَ، فَيُحْشَرون

لفصلِ القضاءِ بينهم و«لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا ويَجْزِيَ الَّذِينَ أحْسَنُوا بالحُسْنَى» [النجم: ٣١].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝١٢ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ۝١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويومَ تجيءُ الساعةُ التي فيها يفصلُ الله بين خَلْقِه، وينشـر فيهـا المـوتى من قبـورهم، فيحشـرهـم إلى موقفِ الحسـابِ «يُبْلِسُ المُجْرِمُـونَ»، يقول: يَيْأَسُ الذين أشركوا بالله، واكتسبوا في الدنيا مساوِئَ الأعمالِ من كلِّ شرٍّ، ويكتئبون ويَتَنَدَّمُونَ.

وقوله: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويومَ تقومُ الساعة لم يكن لهؤلاء المجرمينَ الذين وصف جَلَّ ثناؤُهُ صِفَتهم من شركائِهم الذين كانوا يتبعونهم، على ما دعوهم إليه من الضلالةِ، فيشاركونهم في الكفرِ بالله، والمعاونةِ على أذى رُسُلِه، شفعاءُ يشفعونَ لهم عندَ الله، فيستنقذوهم من عذابـه، «وكـانُـوا بِشُـرَكـائِهِم كافِرِينَ»، يقول: وكانوا بشركائهم في الضلالةِ والمعـاونـة في الـدنيا على أولياءِ الله كافرينَ، يجحدونَ ولايتهم، ويتبرَّؤُونَ منهم، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ: «إذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا، ورأَوُا العَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأسْبابُ، وَقالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أنَّ لَنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كما تَبَرَّؤُوا مِنَّا» [البقرة: ١٦٦-١٦٧].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۝١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويوم تجيءُ الساعةُ التي يحشرُ فيها الخلقُ إلى الله «يومئذٍ»، يقول: في ذلك اليوم «يتفرَّقُون»، يعني: يتفرّقُ أهلُ الإيمانِ بالله، وأهلُ الكفرِ به، فأما أهلُ الإيمانِ، فَيُؤْخَذُ بهم ذاتَ اليمينِ إلى الجنةِ، وأما أهلُ الكفر فيؤخذُ بهم ذاتَ الشمالِ إلى النار، فهنالك يميزُ الله الخبيثَ من الطيِّبِ.

«فأمَّا الَّذينَ آمَنُوا» بالله ورسوله «وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ»، يقول: وعملوا بما أمرهم الله به، وانتهوا عما نَهاهم عنه «فَهُمْ في رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ»، يقول: فهم في الرياحين والنباتاتِ الملتفة، وبين أنواعِ الزهر في الجِنان يُسَرُّونَ، ويُلَذُّونَ بالسماعِ وطِيبِ العيشِ الهنيِّ، وإنما خصّ جَلَّ ثناؤُهُ ذِكْرَ الروضةِ في هذا الموضع، لأنه لم يَكُنْ عند الطرفين أحسن منظراً، ولا أطيب نشراً من الرياض، فأعلمهم بذلك تعالى، أنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحَاتِ من المنظرِ الأنيق، واللذيذِ من الأراييحِ، والعيشِ الهنيّ فيما يحبون، ويُسَرُّونَ به، ويُغْبَطُونَ عليه. والحبرةُ عند العرب: السرورُ والغِبطة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأَخِرَةِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأما الذين جحدوا توحيدَ الله، وكذَّبُوا رُسُلَهُ، وأنكروا البعثَ بعد المماتِ والنشورَ للدارِ الآخرة، فأولئك في عذابِ الله مُحْضَرُونَ، وقد أحضرهم الله إياها، فجمعهم فيها ليذوقوا العذابَ الذي كانوا في الدنيا يُكَذِّبُون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ

﴿تُصْبِحُونَ ١٧ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَسَبِّحُوا الله أيها الناسُ: أي صَلُّوا له حين تُمْسُونَ، وذلك صلاة المغرب، وحين تُصْبحونَ، وذلك صلاة الصبح «وَلَهُ الحَمْدُ في السَّمَـوَاتِ والأرْضِ»، يقـول: ولـه الحمـدُ من جميعِ خَلْقِـه دونَ غيرِهِ في السمـواتِ من سكانها من الملائكةِ، والأرض من أهلها، من جميع أصنافِ خَلْقه فيها، «وَعشِيًّا»، يقول: وسَبِّحوه أيضاً عَشِيًّا، وذلك صلاة العصر «وَحِينَ تُظْهِرُونَ»، يقول: وحين تَدْخلون في وقتِ الظهر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: صَلُّوا في هذه الأوقات التي أمركم بالصلاةِ فيها أيها الناسُ، لله الذي يخرجُ الحيَّ من الميت، وهو الإنسانُ الحيّ من الماءِ الميتِ، ويخرجُ الماءَ الميتَ من الإنسانِ الحيِّ «ويُحْيِي الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِها» فَيُنْبِتُهَا، ويخرجُ زَرْعَها بعد خَرَابها وجُدُوبها. «وكذلكَ تُخْرَجُونَ»، يقول: كما يُحْيِي الأرضَ بعد موتها، فيخرج نباتَها وزَرْعَها، كذلك يُحْيِيكُمْ من بعد مماتِكم، فيخرجكم أحياءً من قبورِكم إلى موقفِ الحسابِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ٢٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومِنْ حُجَجِهِ على أنه القادرُ على ما يشاءُ أيها الناسُ

من إنشـاءٍ وإفنـاءٍ، وإيجادٍ وإعدامٍ، وأنَّ كُلَّ موجودٍ فَخَلَقَهُ خلقةَ أبيكم من ترابٍ، يعني بذلك خلقَ آدمَ من ترابٍ، فوصفهم بأنه خَلَقَهم من ترابٍ، إذْ كان ذلك فِعْلُه بأبيهم آدم كنحوِ الذي قد بَيَّنا فيما مضى من خطابِ العربِ مَنْ خاطبت بما فعلتْ بِسَلَفِه من قولهم: فعلنَا بكم وفَعَلْنَا.

وقوله: «ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ»، يقول: ثم إذا أنتم معشَر ذرّيةِ مَنْ خلقناهُ من ترابٍ بَشَرٌ تنتشرون، يقول: تَتصرّفُونَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومن حججه وأدلته على ذلك أيضاً خَلْقُه لأبيكم آدم من نفسِه زوجةً ليسكُنَ إليها، وذلك أنه خَلَقَ حوَّاءَ من ضلعٍ من أضلاعِ آدم.

وقـولـه: «وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً»، يقول: جعل بينكم بالمصاهرةِ والختونةِ مودَّةً تتوادُّونَ بها، وتتواصلونَ من أجلها، ورحمةً رَحِمَكُمْ بها، فعطفَ بعضُكم بذلك على بعضٍ «إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ في فِعْلِه ذلك لَعِبَراً وعظاتٍ لقومٍ يتذكرون في حججِ الله وأدلته، فيعلمونَ أنه الإلهُ الذي لا يُعجزه شيءٌ أراده، ولا يتعذَّرُ عليه فِعْلُ شيءٍ شاءه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومن حججه وأدلته أيضاً على أنه لا يُعْجِزُه شيءٌ، وأنه إذا شاء أماتَ مَنْ كان حياً من خَلْقِه، ثم إذا شاء أنْشَرَهُ وأعاده كما كان قبلَ

إماتتِه إياهُ خَلْقُهُ[١] السمواتِ والأرضِ من غيرِ شيءٍ أحدث ذلك منه، بل بقُدرَتِه التي لا يمتنعُ معها عليه شيءٌ أراده. «وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ»، يقول: واختلاف منطقِ ألسنتكم ولغاتِها «وأَلْوَانِكُمْ»، يقول: واختلاف ألوانِ أجسامكم. «إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِلْعَالِمِينَ»، يقول: إنَّ في فعله ذلك كذلك لعبراً وأدلةً لخلقِه الذين يعقلونَ أنه لا يُعْيِيهِ إعادتُهم لهيئتهم التي كانوا بها قبلَ مماتِهم من بعد فنائِهم، وقد بيَّنا معنى العالمين فيما مضى قَبْلُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومن حججه عليكم أيها القومُ تقديرُهُ الساعاتِ والأوقاتِ، ومخالفته بين الليلِ والنهار، فجعلَ الليلَ لكم سكناً تسكنونَ فيه، وتنامونَ فيه، وجعلَ النهارَ مُضيئاً لتصرُّفِكُمْ في معايِشِكُمْ والتماسِكم فيه مِنْ رزقِ رَبِّكم «إنَّ في ذلك لآياتٍ لقَوْمٍ يَسْمَعُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ في فعلِ الله ذلك كذلك، لعبراً وذكرى وأدلةً على أنَّ فاعلَ ذلك لا يُعْجِزُهُ شيءٌ أرادَهُ لقومٍ يسمعونَ مواعظَ الله، فيتعظون بها، ويعتبرون فيفهمون حججَ الله عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومن حججه «يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفاً» لكم إذا كنتم سفراً،

---

(١) سياق العبارة: ومن حججه.. خلقه.

أنْ تُمْطَرُوا فتتأذَّوْا به «وطَمَعاً» لكم، إذا كنتم في إقامةٍ أن تُمطروا، فَتَحْيَوا وتُخْصِبُوا. «وَيُنَزِّلُ منَ السَّماءِ ماءً»، يقول: وينزِّلُ من السماء مطراً، فيحيي بذلـك المـاء الأرضَ الميتةَ، فتنبتُ ويخرجُ زَرْعُهَا بعد موتِها، يعني جُدوبها ودروسها. «إن في ذلكَ لآياتٍ»، يقول: إن في فِعْلِه ذلك كذلك لعبراً وأدلةً «لِقَوْمٍ يَعْقِلونَ» عن الله حُجَجَهُ وأدلته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومن حججه أيها القومُ على قُدْرتِه على ما يشاءُ، قيامُ السماء والأرض بأمره خُضوعاً له بالطاعةِ بغيرِ عَمَدٍ تُرى، «ثُمَّ إذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأرْضِ إذَا أنْتُم تَخْرُجُونَ»، يقول: إذا أنتم تَخْرُجونَ من الأرضِ، إذا دعاكم دعوةً مُستجيبينَ لدعوتِه إياكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولله مَنْ في السمواتِ والأرض من ملك وجنٍّ وإنسٍ عبيدٌ ومِلْكٌ «كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ»، يقول: كلٌّ له مطيعونَ، فيقول قائلٌ: وكيف قيلَ: «كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ» وقد علمَ أنَّ أكثرَ الإنسِ والجنِّ له عاصون؟

فنقول: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فنذكر اختلافهم، ثم نبين الصوابَ عندنا في ذلك من القولِ، فقال بعضهم: ذلك كلام مخرجهُ مخرجُ العمـومِ، والمـرادُ به الخصـوص، ومعنـاه: كلٌّ له قانتون في الحياةِ والبقاءِ

والموتِ، والفناءِ والبعثِ والنشورِ، لا يمتنعُ عليه شيءٌ من ذلك، وإنْ عصاه بعضُهم في غير ذلك.

وقال آخرون: هو على الخصوص، والمعنى: وله مَنْ في السمواتِ والأرض من مَلِكٍ وعبدٍ مؤمنٍ لله مطيعٌ دونَ غيرهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: كُلٌّ له قانتون بإقرارهم بأنه ربهم وخالقهم.

وأولى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ قولُ من قال: هو أنَّ كلَّ مَنْ في السمواتِ والأرض من خَلْقٍ لله مطيعٌ في تَصَرُّفِه فيما أرادَ تعالى ذِكْرُه من حياةٍ وموت، وما أشبه ذلك، وإنْ عَصَاهُ فيما يكسبُه بقولِه، وفيما له السبيلُ إلى اختيارِه وإيثارِه على خِلافِه.

وإنما قلتُ: ذلك أوْلى بالصواب في تأويلِ ذلك، لأنَّ العُصَاةَ من خَلْقِه فيما لهم السبيلُ إلى اكتسابِه كثيرٌ عددهم، وقد أخبر تعالى ذكره عن جميعهم أنهم له قانتون، فغيرُ جائزٍ أنْ يخبر عَمَّنْ هو عاصٍ أنه له قانتٌ فيما هو له عاصٍ. وإذا كان ذلك كذلك، فالذي فيه عاصٍ هو ما وصفتُ، والذي هو له قانتٌ ما بَيَّنْتُ.

وقوله: «وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: والذي له هذه الصفاتُ تبارَكَ وتعالى، هو الذي يبدأُ الخَلْقَ من غيرِ أصلٍ فينشئُه ويُوجِدُه، بعد أنْ لم يكن شيئاً، ثم يفنيه بعد ذلك، ثم يُعِيدُه، كما بدأَهُ بعد فنائه.

«وهو أهونُ عليه»، اختلف أهلُ التأويل، في معنى قوله: «وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ»، فقال بعضهم: معناه: وهو هَيِّنٌ عليه.

وقال آخرون: معناه: وإعادةُ الخَلْقِ بعد فنائِهم أهونُ عليه من ابتداء

خلقهم.

وقد يحتملُ هذا الكلامُ وجهين غيرَ القولينِ اللَّذيْنِ ذكرتُ، وهو أنْ يكونَ معنـاهُ: وهو الذي يبدأ الخَلْقَ ثم يُعيده، وهو أهوَنُ على الخلق: أي إعادةُ الشيءِ أهونُ على الخَلْقِ من ابتدائه.

وقـولـه: «وَلَـهُ الـمَثَـلُ الأعْلَى»، يقـول: ولله المَثَـلُ الأعلى في السمواتِ والأرض، وهو أنه لا إله إلا هو وحده لا شريكَ له، ليسَ كمثلِه شيءٌ، فذلك المَثَلُ الأعلى، تعالى رَبُّنَا وتَقَدَّسَ.

وقوله: «وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وهو العزيزُ في انتقامِه من أعدائِه، الحكيم في تدبيرِه خَلْقَهُ، وتصريفهم فيما أراد من إحياءٍ وإماتةٍ، وبعثٍ ونشرٍ، وما شاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: مَثَّلَ لكم أيها القومُ رَبُّكُم مَثَلاً من أنفسكم، «هل لكم مما ملكتْ أيمانُكم»، يقول: من مماليكِكُم من شُركاءَ، فيما رزقناكم من مالٍ، «فأنتم فيه سواء» وَهُمْ، يقول: فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم فكيف رضيتم أنْ تكونَ آلهتُكم التي تعبدونَها لي شركاءَ في عبادتكم إيَّايَ، وأنتم وَهُمْ عَبيدي ومماليكي، وأنا مالكُ جميعَكُمْ.

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: «تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أنْفُسَكُمْ»، فقـال بعضهم: معنى ذلـك: تخافون هؤلاء الشركاء مما ملكتْ أيمانُكم أنْ يَرِثُوكُمْ أموالَكُمْ من بعد وفاتِكم، كما يرثُ بعضُكم بعضاً.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: تخافون هؤلاء الشركاء مما ملكتْ أيمانُكم أنْ يُقاسِمُوكُمْ أموالَكم، كما يقاسِمُ بعضُكم بعضاً.

وأولى القولين بالصوابِ في تأويلِ ذلك القولُ الثاني، لأنه أشبههما بما دلَّ عليه ظاهرُ الكلام، وذلك أنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ وَبَّخَ هؤلاء المشركينَ الذين يجعلون له من خَلْقِه آلهةً يعبدونها، وأشركوهم في عبادتهم إياه، وهم مع ذلك يُقِرُّونَ بأنها خَلْقُهُ وهم عَبيدُه، وغيرهم بفِعْلِهم ذلك، فقال لهم: هل لكم من عبيدكم شركاءُ فيما خوّلناكُمْ من نِعَمِنَا، فهم سواء، وأنتم في ذلك تخافونَ أنْ يُقاسموكم ذلك المالَ الذي هو بينكم وبينهم، كخيفةِ بعضِكم بعضاً أنْ يُقاسِمَهُ ما بينه وبينه من المالِ شركةً، فالخيفةُ التي ذكرها تعالى ذِكْرُه بأنْ تكون خيفةً مما يخافُ الشريكُ من مقاسمةِ شريكهِ المالَ الذي بينهما إياهُ أشبه من أنْ تكونَ خيفةً منه بأنْ يَرِثَهُ، لأنَّ ذكر الشركة لا يدلُّ على خِيفةِ الوراثة، وقد يدلُّ على خيفةِ الفراقِ والمقاسمة.

وقوله: «كذلكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: كما بَيَّنا لكم أيها القومُ حججنا في هذه الآياتِ من هذه السورةِ على قُدْرَتنا على ما نَشاءُ من إنشاءِ ما نشاءُ، وإفناءِ ما نُحِبُّ، وإعادةِ ما نريدُ إعادَتَهُ بعد فنائِه، ودَلَّلْنَا على أنه لا تصلحُ العبادةُ إلا للواحِدِ القهار، الذي بيده ملكوتُ كلِّ شيءٍ كذلك نبينُ حججنا في كل حقٍّ لقومٍ يعقلون، فيتدبرونَها إذا سمعوها، ويعتبرونَ فَيَتَّعِظُونَ بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ما ذلك كذلك، ولا أشركَ هؤلاء المشركونَ في عبادة الله الآلهـة والأوثانَ، لأنَّ لهم شركاً فيما رزقهمُ الله من ملكِ أيمانهم، فَهُمْ

وعَبيدُهم فيه سواءٌ، يخافونَ أنْ يُقاسموهم ما هُمْ شركاؤُهم فيه، فَرَضُوا لله من أجلِ ذلك بما رَضُوا به لأنفسهم، فأشركوهم في عبادتِه، ولكنَّ الذين ظلموا أنفسهم فكفروا بالله، اتَّبعُوا أهواءهم، جهلاً منهم لحقِّ الله عليهم، فأشركوا الآلهـةَ والأوثـانَ في عبـادته «فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ»، يقول: فَمَنْ يُسَدِّدْ للصوابِ من الطرق، يعني بذلك مَنْ يُوفِّقْ للإسلامِ مَنْ أضلَّ الله عن الاستقامةِ والـرشـاد «وَمَـا لَهُمْ مِنْ ناصِـرِينَ»، يقـول: وما لِمَنْ أضَلَّ الله من ناصرينَ ينصرونَهُ، فينقذونه من الضلالِ الذي يبتليه به تعالى ذِكْرُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَسَدِّدْ وجهكَ نحو الوجهِ الذي وَجَّهَكَ إليه رَبُّكَ يا محمدُ لطاعتِه، وهي الدينُ، «حنيفاً»، يقول: مستقيماً لدينِه وطاعتِه. «فِطْرَةَ الله التي فطرَ الناسَ عليها»، يقول: صنعة الله التي خلقَ الناسَ عليها، ونُصِبَتْ فطرة على المصدر من معنى قوله: «فَأقِمْ وَجْهَكَ للدِّينِ حَنِيفاً» وذلك أن معنى ذلك: فَطَرَ الله الناسَ على ذلك فِطرةً.

وقوله: «ذلكَ الدِّينُ القَيِّمُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ إقامتكَ وجهكَ للدين حنيفاً غيرَ مُغَيِّرٍ ولا مُبَدِّلٍ هو الدينُ القيم، يعني المستقيم الذي لا عِوَجَ فيه عن الاستقامةِ من الحنيفيةِ إلى اليهوديةِ والنصرانية، وغير ذلك من الضلالاتِ والبدعِ المُحْدَثَةِ. «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لايَعْلَمُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولكن أكثرَ الناسِ لا يعلمون أنَّ الدينَ الذي أمرتُكَ يا محمدُ به بقولي: «فأقِمِ وَجْهَكَ للدِّينِ حَنِيفاً» هو الدين الحقُّ دونَ سائرِ الأديانِ غيره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٣٢﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «مُنِيبِينَ إِلَيْهِ» تائبينَ راجعينَ إلى الله مقبلين.

وتأويل الكلام: فأقم وجهكَ يا محمدُ للدين حنيفاً منيبينَ إليه إلى الله، فالمُنيبونَ حالٌ من الكافِ التي في وجهكَ.

فإنْ قال قائل: وكيف يكون حالاً منها، والكافُ كناية عن واحدٍ، والمُنيبون صِفةٌ لجماعةٍ؟ قيل: لأنَّ الأمرَ من الكافِ كناية اسمهِ من الله في هذا الموضعِ أمرٌ منه له ولأمتهِ، فكأنه قيل له: فأقِمْ وجهكَ أنتَ وأُمَّتكَ للدينِ حنيفاً لله، مُنيبينَ إليه.

وقوله: «وَاتَّقُوهُ»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: وخَافُوا الله وراقبوه أنْ تُفَرِّطُوا في طاعته، وتركبوا معصيتَهُ. «وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ»، يقول: ولا تكونوا من أهلِ الشركِ بالله بتضييعِكُمْ فرائِضَهُ، وركوبكم معاصيه، وخلافكم الدينَ الذي دعاكم إليه.

وقوله: «مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وكانُوا شِيَعاً»، يقول: ولا تكونوا من المشركين الذين بَدَّلُوا دِينهم، وخالفوه ففارقوه «وكانوا شِيَعاً»، يقول: وكانوا أحزاباً فِرَقاً كاليهودِ والنصارى.

وقوله: «كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ»، يقول: كُلُّ طائفةٍ وفرقةٍ من هؤلاء الذين فارقوا دينهم الحقّ، فأحدَثُوا البِدَعَ التي أحدثوا بما لديهم فَرِحُونَ، يقول: بما هم به متمسكون من المذهبِ، فَرِحُونَ مسرورون، يحسبون أنَّ الصوابَ معهم دونَ غيرهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإذا مَسَّ هؤلاء المشركينَ الذين يجعلونَ مع الله إلهاً آخرَ ضُرٌّ، فأصابتهم شِدَّةٌ وجُدوبٌ وقُحوطٌ «دَعَوْا رَبَّهُمْ»، يقول: أخلصوا لربِّهم التوحيدَ، وأفردوهُ بالدعاءِ والتضرُّعِ إليه، واستغاثوا به مُنيبينَ إليه، تائبينَ إليه من شِرْكِهم وكفرهم، «ثُمَّ إذا أذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً»، يقول: ثم إذا كشف رَبُّهم تعالى ذِكْرُهُ عنهم ذلك الضرَّ وفَرَّجَهُ عنهم وأصابهم برخاءٍ وخِصبٍ وسَعةٍ، «إذا فريقٌ منهم»، يقول: إذا جماعةٌ منهم بربِّهم يُشْرِكُونَ، يقول: يعبدونَ معه الآلهةَ والأوثانَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مُتَوعِّداً لهؤلاءِ المشركينَ الذين أخبرَ عنهم أنه إذا كشفَ الضُرَّ عنهم كَفَرُوا به، «ليكفروا» بما أعطيناهم، يقول: إذا هم بربِّهم يشركونَ، كي يكفروا: أي يَجْحَدُوا النعمةَ التي أنعمتُهَا عليهم بكشفي عنهم الضُرَّ الذي كانوا فيه، وإبدالي ذلك لهم بالرخاءِ والخِصْبِ والعافيةِ، وذلك الرخاء والسعة هو الذي آتاهم تعالى ذِكْرُهُ، الذي قال: بما آتيناهم.

وقـوله: «فَتَمَتَّعُوا»، يقول: فتمتعوا أيها القومُ بالذي آتيناكم من الرخاءِ والسَّعةِ في هذه الدنيا، «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» إذا وردتم على رَبِّكم ما تَلْقَوْنَ من عذابِهِ، وعظيم عقابِهِ على كفركم به في الدنيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ۝٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أمْ أنزلنا على هؤلاء الذين يشركونَ في عبادتنا الآلهةَ والأوثانَ كتاباً بتصديقِ ما يقولونَ، وبحقيقةِ ما يفعلونَ «فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ»، يقول: فذلك الكتابُ ينطقُ بصحةِ شِرْكِهم، وإنما يعني جَلَّ ثناؤُهُ بذلك: أنه لم يُنزلْ بما يقولونَ ويفعلون كتاباً، ولا أرسلَ به رسولاً وإنما هو شيءٌ افتعلوهُ واختلقوهُ، اتباعاً منهم لأهوائِهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ۝٣٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإذا أصابَ الناسَ مِنَّا خِصْبٌ ورخاءٌ وعافيةٌ في الأبدانِ والأموالِ، فَرِحُوا بذلك، وإنْ تُصِبْهُمْ منا شدَّةٌ من جَدْبٍ وقحطٍ وبلاء في الأموالِ والأبدان «بِمَا قَدَّمَتْ أيْدِيهِمْ»، يقول: بما أسلفوا من سيءِ الأعمالِ بينهم وبين الله، وركبوا من المعاصي. «إذَا هُمْ يَقْنَطُونَ»، يقول: إذا هم ييأسون من الفرجِ، والقنوطُ: هو الإياس.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أوَ لَمْ يَرَ هؤلاء الذين يفرحونَ عند الرخاءِ يُصيبهم والخِصْب، وييأسونَ من الفرجِ عند شدَّةٍ تنالهم، بعيونِ قلوبهم، فيعلموا أنَّ الشدَّةَ والرخاءَ بيدِ الله، وأنَّ الله يبسطُ الرزقَ لمن يشاءُ من عبادِه فَيُوسِّعهُ عليه،

ويَقْدِرُ على مَنْ أرادَ فيُضيِّقُه عليه. «إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»، يقول: إن في بَسْطِهِ ذلك على مَنْ بَسَطَهُ عليه، وقَدْرِهِ على مَنْ قَدَرَهُ عليه، ومخالفته بين مَنْ خالفَ بينه من عبادِهِ في الغنى والفقرِ لدلالة واضحة لمن صَدَّقَ حججَ الله وأقرَّ بها إذا عاينها ورآها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: فأعطِ يا محمدُ ذا القرابةِ منكَ حَقَّهُ عليكَ من الصِلةِ والبرِّ، والمسكينَ وابنَ السبيلِ، ما فَرَضَ الله لهما في ذلك.

وقوله: «ذلكَ خَيْرٌ للذينَ يُريدونَ وَجْهَ الله»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إيتاء هؤلاء حقوقهم التي ألزمها الله عبادَهُ، خيرٌ للذين يُريدُونَ الله بإتيانهم ذلك. «وأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ»، يقول: ومَنْ يفعل ذلك مبتغياً وجهَ الله به، فأولئك هم المُنْجِحُونَ، المُدْرِكُونَ طَلِباتِهم عند الله، الفائزونَ بما ابتغوا والتمسوا بإيتائهم إياهم ما آتَوْا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما أعطيتم أيها الناسُ بعضَكم بعضاً من عَطِيَّةٍ لتزدادَ في أموالِ الناسِ برجوع ثوابها إليه، مِمَّنْ أعطاهُ ذلك، «فلا يَرْبُو عندَ الله»،

يقول: فلا يزدادُ ذلك عند الله، لأنَّ صاحبه لم يُعْطِه مَنْ أعطاهُ مبتغياً به وجهه «وَما آتَيْتُمْ مِن زَكاةٍ»، يقول: وما أعطيتم من صدقةٍ تريدونَ بها وجهَ الله، «فأولئك»، يعني: الذين يتصدَّقُونَ بأموالهم ملتمسينَ بذلك وجهَ الله «هم المضعفون»، يقول: هم الذين لهم الضِّعْفُ من الأجرِ والثواب من قولِ العرب: أصبح القومُ مُسْمِنينَ مُعْطِشينَ، إذا سَمِنَتْ إبلُهم وعَطِشَتْ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٤٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ للمشركينَ به، مُعَرِّفَهُمْ قُبْحَ فِعْلِهم، وخُبْثَ صنيعهم: الله أيها القومُ الذي لا تصلحُ العبادةُ إلا له، ولا ينبغي أنْ تكونَ لغيره، هو الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً، ثم رزقكم وخَوَّلَكُمْ، ولم تكونوا تملكونَ قبلَ ذلك، ثم هو يُمِيتُكم من بعدِ أنْ خلقكم أحياء، ثم يُحييكم من بعدِ مماتكم لبعثِ القيامة.

وقوله: «هَلْ مِنْ شُركائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ»، يقول تعالى ذِكره: هل من آلهتكم وأوثانكم التي تجعلونهم لله في عبادتكم إياهُ شركاءَ مَنْ يفعل من ذلكم من شيءٍ، فيخلقُ أو يرزقُ، أو يميتُ، أو ينشرُ، وهذا من الله تقريعٌ لهؤلاء المشركينَ. وإنما معنى الكلام أنَّ شركاءهم لا تفعل شيئاً من ذلك، فكيف يُعْبَدُ من دونِ الله مَنْ لا يفعلُ شيئاً من ذلك، ثم برأ نفسه تعالى ذِكْرُهُ عن الفِريةِ التي افتراها هؤلاء المشركونَ عليهِ بزعمهم أنَّ آلهتم له شركاءُ، فقال جَلَّ ثناؤُهُ سبحانه: أي تنزيهاً لله وتبرئةً. «وَتَعالى»، يقول: وعُلُوًّا له «عَمَّا يُشْرِكُونَ»، يقول: عن شِرْكِ هؤلاء المشركينَ به.

الروم: ٤١

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ظهرت المعاصي في بَرِّ الأرض وبحرها بكسبِ أيدي الناسِ ما نهاهم الله عنه.

واختلف أهل التأويل في المراد من قوله: «ظهر الفساد في البر والبحر»، فقال بعضهم: عنى بالبر الفلوات، وبالبحر الأمصار والقرى التي على المياه والأنهار.

وقال آخرون: بل عنى بالبر ظهرَ الأرض الأمصار وغيرها، وبالبحرِ البحرَ المعروف.

وأولى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ أنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ، أخبرَ أنَّ الفسادَ قد ظهرَ في البرِّ والبحرِ عند العربِ في الأرض القفار، والبحر بحران: بحرٌ ملحٌ، وبحر عَذْبٌ، فهما جميعاً عندهم بحر، ولم يخصصْ جَلَّ ثناؤُهُ الخبرَ عن ظهورِ ذلك في بحرٍ دونَ بحرٍ، فلذلك على ما وقعَ عليه اسمُ بحرٍ عذباً كان أو ملحاً. وإذا كان ذلك كذلك، دخل القرى التي على الأنهار والبحار.

وقوله: «بما كسبت أيدي الناس»، معناه: ظهرت معاصي الله في كل مكـانٍ من برٍّ وبحرٍ «بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ»، أي بذنوبِ الناسِ، وانتشرَ الظلمُ فيهما.

وقوله: « لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: ليصيبهم بعقوبةِ بعضِ أعمالهم التي عملوا، ومعصيتهم التي عصوا «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ»، يقول: كي يُنيبوا إلى الحقِّ، ويرجعوا إلى التوبة ويتركوا معاصي الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ لهؤلاء المشركينَ باللهِ من قومكَ، سِيروا في البلاد، فانظروا إلى مساكنِ الذين كفروا بالله من قبلكم، وكَذَّبُوا رُسُلَه، كيف كان آخرُ أمرهم، وعاقبةُ تكذيبهم رسُلَ الله وكفرهم، ألم نهلكهم بعذابٍ منا، ونجعلهم عبرةً لمن بعدَهم، كان أكثرُهُمْ مشركينَ، يقول: فَعَلنا ذلك بهم، لأنَّ أكثرهم كانوا مشركين بالله مثلَهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فوجِّهْ وجْهَكَ يا محمدُ نحوَ الوجهِ الذي وجَّهكَ إليه رَبُّكَ «للدِّين القيِّم» لطاعة ربك، والمِلَّةِ المستقيمةِ التي لا اعوجاجَ فيها عن الحقِّ «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ الله»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: من قبل مجيءِ يومٍ من أيامِ الله لا مَرَدَّ له لمجيئِه، لأنَّ الله قد قضى بمجيئه فهو لا محالة جاءٍ «يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ»، يقول: يوم يجيء ذلك اليومُ يصدَّعُ الناسُ، يقول: يتفرَّقُ الناسُ فرقتين من قولهم: صَدَعتُ الغنمَ صدعتين: إذا فرقتها فرقتين: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: مَنْ كفرَ بالله فعليه، أوزارُ[1] كُفْرِه، وآثامُ جحودِه نِعَمَ رَبِّهِ، «وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً»، يقول: وَمَنْ أطاع الله، فعملَ بما أمره به في الدنيا، وانتهى عما نهاه عنه فيها «فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ»، يقول: فلأنفسهم يستعدون، ويسوُّون المضجعَ ليسلَمُوا من عقابِ رَبِّهم، وينجوا من عذابه.

القَــوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾

يقـول تعالى ذِكْرُهُ: «يومئذٍ يصَّدَّعونَ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا» بالله ورسوله «وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ»، يقول: وعملوا بما أمرهم الله «مِنْ فَضْلِهِ» الذي وعد مَنْ أطاعَهُ في الدنيا أنْ يجزيه يومَ القيامة «إِنَّهُ لا يُحِبُّ الكافِرينَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنما خصَّ بجزائه من فضلِه الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ دونَ من كفرَ بالله، إنـه لا يحبُّ أهـلَ الكفـرِ به. واستـأنف الخبـر بقوله: «إنَّه لا يُحِبُّ الكافِرينَ» وفيه المعنى الذي وصفت.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومن أدلته على وحدانيته وحججه عليكم على أنه إلهُ كلِّ شيءٍ «أنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشراتٍ» بالغيثِ والرحمة «وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ»، يقول: ولينزِّلَ عليكم من رحمته، وهي الغيثُ الذي يُحيي به البلادَ، ولتجري

(١) في المطبوع: «أو زاد» وليس بشيء.

السفنُ في البحارِ بها بأمره إياها «وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ»، يقول: ولتلتمسوا من أرزاقِه ومعايشكم التي قَسَمَهَا بينكم «وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»، يقول: ولتشكروا رَبَّكُمْ على ذلك أرسلَ هذه الرياحَ مبشرات.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مسلِّياً نبيه ﷺ فيما يَلْقَى من قومِه من الأذى فيه بما لقيَ مَنْ قَبْلَهُ من رُسُلِه من قومِهم، ومُعلمه سُنَّتَهُ فيهم وفي قومهم، وأنه سالكٌ به وبقومِه سنته فيهم، وفي أممهم، ولقد أرسلنا يا محمد من قبلك رسلاً إلى قومهم الكفرة، كما أرسلناكَ إلى قومك العابدي الأوثانِ من دونِ الله «فجاءُوهُمْ بالبَيِّناتِ»، يعني: بالواضحاتِ من الحججِ على صِدْقِهم وأنهم لله رسلٌ كما جئتَ أنتَ قومكَ بالبيناتِ فكذَّبُوهم كما كذَّبكَ قومُكَ، وردُّوا عليهم ما جاءوهم به من عندِ الله، كما ردُّوا عليك ما جئتهم به من عند ربك. «فانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أجْرَمُوا»، يقول: فانتقمنا من الذين أجرموا الآثامَ، واكتسبوا السيئاتِ من قومِهم، ونحن فاعِلُو ذلك كذلك بمجرمي قومكَ «وكَانَ حَقاً عَلَيْنا نَصْرُ المُؤْمِنِينَ»، يقول: ونجيَّنا الذين آمنوا بالله وصَدَّقُوا رسله، إذ جاءهم بأسنا، وكذلك نفعلُ بكَ وبِمَنْ آمَنَ بك من قومك «وكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ المُؤْمِنِينَ» على الكافرين، ونحنُ ناصروكَ ومَنْ آمَن بك على مَنْ كفرَ بك، ومُظْفِرُوكَ بهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: الله يرسلُ الرياحَ فتثيرُ سحاباً، يقول: فتنشىء الرياحُ سحاباً، وهي جمع سحابة، فيبسطُه في السماء كيف يشاء، يقول: فينشرهُ الله، ويجمعهُ في السماء كيف يشاء.

وقوله: «وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً»، يقول: ويجعل السحاب قِطعاً، متفرّقة.

وقوله: «فَتَرَى الوَدْقَ»، يعني: المطرَ «يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ»، يعني: من بينِ السحاب.

وقوله: «فإذَا أصابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبادِهِ إذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ»، يقول: فإذا صرف ذلك الودقَ إلى أرضِ مَنْ أراد صَرْفَهُ إلى أرضِه من خَلْقِه رأيتهم يستبشرونَ بأنه صرف ذلك إليهم ويفرحون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكان هؤلاء الذين أصابهم الله بهذا الغيثِ من عبادِه من قبل أنْ ينزلَ عليهم هذا الغيث من قبل هذا الغيثِ لَمُبْلِسينَ، يقول: لمكتئبين حزنين باحتباسهِ عنهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

اختلفت القَرَأَةُ في قوله: «فانْظُرْ إلى آثَارِ رَحْمَةِ الله» فقرأته عامة قَرَأَة أهلِ المدينة والبصرة وبعض الكوفيين «إلى أَثَرِ رَحْمَةِ الله» على التوحيد، بمعنى: فانظرْ يا محمدُ إلى أثرِ الغيثِ الذي أصابَ الله به من أصابَ من

عبادِه، كيف يحيي ذلك الغيثُ الأرض من بعد موتها. وقرأ ذلك عامة قَرَأة الكوفة «فانْظُرْ إلى آثارِ رَحْمَةِ الله» على الجماع ، بمعنى: فانظر إلى آثارِ الغيثِ الذي أصابَ الله به مَنْ أصابَ كيف يحيي الأرضَ بعد موتها.

والصوابُ من القولِ في ذلك، أنهما قراءتان مشهورتان في قرأةِ الأمصارِ، متقاربتا المعنى، وذلك أنَّ الله إذا أحيا الأرضَ بغيثٍ أنزله عليها، فإنَّ الغيثَ أحياها باحياءِ الله إياها به، وإذا أحياها الغيثُ، فإنَّ الله هو المحيي به، فبأيِّ القراءتين قرأ القارئُ فمصيب. فتأويلُ الكلام إذن: فانظر يا محمدُ إلى آثارِ الغيثِ الذي يُنَزِّلُ الله من السحابِ، كيف يحيي بها الأرضَ الميتةَ، فَيُنْبِتُها ويُعْشِبُهَا من بعد موتها ودُثورِها، إن ذلك لمحيي الموتى. يقول جلّ ذكره: إن الذي يحيي هذه الأرضَ بعد موتها بهذا الغيثِ، لمحيي الموتى من بعد موتهم، وهو على كلِّ شيءٍ مع قدرته على إحياءِ الموتى قديرٌ، لا يعزُّ عليه شيءٌ أراده، ولا يمتنعُ عليه فعل شيءٍ شاءه سبحانه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ۝٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولئن أرسلنا ريحاً مفسدةً ما أنبته الغيثُ الذي أنزلناهُ من السمـاء، فرأى هؤلاء الـذين أصـابهُم الله بذلـك الغيثِ الذي حَيِيَتْ به أرضُوهم، وأعشبتْ ونَبتتْ به زُروعهم ما أنبتته أرضوهم بذلك الغيثِ من الزرعِ مُصْفَرًّا، قد فسدَ بتلك الريحِ التي أرسلناها، فصارَ من بعد خُضْرَتِه مصفراً، لَظَلُّوا من بعد استبشارهم، وفرحتهم به يكفرونَ بربهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ

ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ «فإنَّكَ» يا محمدُ «لا تُسْمِعُ المَوْتَى»، يقول: لا تجعل لهم أسماعاً يفهمون بها عنكَ ما تقولُ لهم، وإنما هذا مَثَلٌ معناه: فإنك لا تقدرُ أنْ تُفْهِمَ هؤلاء المشركينَ الذين قد ختمَ الله على أسماعهم، فَسَلَبَهُم فَهْمَ ما يُتلى عليهم من مواعظِ تنزيلِه، كما لا تقدرُ أنْ تُفْهِمَ الموتى الذين قد سلبهم الله أسماعهم، بأن تجعل لهم أسماعاً.

وقوله: «وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ»، يقول: وكما لا تقدرُ أن تُسْمِعَ الصُّمَّ الذين قد سُلِبُوا السمعَ الدعاء، إذا هُمْ وَلَّوْا عنكَ مُدْبِرينَ، كذلك لا تقدرُ أنْ تُوَفِّقَ هؤلاء الذين قد سلبهم الله فَهْمَ آياتِ كتابه، لسماعِ ذلك وفهمه.

وقوله: «وَما أنتَ بِهادِ العُمْيِ عَنْ ضلالَتِهِمْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما أنتَ يا محمدُ بمسَدِّدٍ مَنْ أعماهُ الله عن الاستقامة، ومحجة الحقِّ، فلم يوفقه لإصابةِ الرشد، فصارفه عن ضلالتِه التي هو عليها وركوبه الجائرِ من الطرقِ إلى سبيلِ الرشاد، يقول: ليس ذلك بيدكَ ولا إليكَ، ولا يقدرُ على ذلك أحدٌ غيري، لأني القادرُ على كل شيء، وقيل: بهادي العُمْيِ عن ضلالتهم، ولم يقل: من ضلالتهم. لأنَّ معنى الكلام ما وصفت، من أنه: وما أنتَ بصارفهم عنه، فحمل على المعنى. ولو قيل: من ضلالتهم كان صواباً. وكان معناه: ما أنت بمانِعهم من ضلالتهم.

وقوله: «إنْ تُسْمعُ إلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بآياتِنا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه: ما تسمع السماع الذي ينتفع به سامعه فيعقله، إلا مَنْ يؤمن بآياتنا، لأن الذي يؤمنُ بآياتنا إذا سمع كتابَ الله تدبَّرَهُ وفهمه وعقله، وعمل بما فيه، وانتهى إلى حدودِ الله، الذي حَدَّ فيه، فهو الذي يسمعُ السماعَ النافع.

وقـولـه: «فَهُمْ مُسْلِمُونَ»، يقول: فهم خاضعونَ لله بطاعته، متذللون لمواعظِ كتابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُهُ لهؤلاء المكذِّبينَ بالبعثِ من مشركي قريش محتجاً عليهم بأنه القادرُ على ذلك وعلى ما يشاء «اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ» أيها الناسُ «مِنْ ضَعْفٍ»، يقول: من نطفةٍ وماءٍ مهين، فأنشأكم بشراً سوياً «ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً»، يقول: ثم جعل لكم قُوَّةً على التصرُّفِ من بعدِ خَلْقِه إياكم من ضعف، ومن بعـدِ ضعفكم بالصغـرِ والـطفولةِ «ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً»، يقول: ثم أحدث لكم الضعفَ بالهرمِ والكبرِ عما كنتم عليه أقوياءَ في شبابكم، وشيبةً.

وقوله: «يَخْلُقُ ما يَشاءُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: يخلق ما يشاء من ضعفٍ وقوّةٍ وشبابٍ وشيب «وَهُوَ العَلِيمُ» بتدبيرِ خَلْقِه «القَدِيرُ» على ما يشاء، لا يمتنعُ عليه شيءٌ أراده، فكما فعل هذه الأشياء، فكذلك يُميتُ خَلْقَهُ ويُحييهم إذا شاءَ، يقول: واعلموا أنَّ الذي فعلَ هذه الأفعالَ بقدرته يحيي الموتى إذا شاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويوم تجيءُ ساعةُ البعثِ، فيبعثُ الخَلْقَ من قبورِهم يُقْسِمُ المجرمونَ، وهم الذين كانوا يكفرون بالله في الدنيا، ويكتسبونَ فيها

الآثامَ، وإقسامُهُم: حلفُهم بالله «ما لَبِثُوا غيرَ ساعةٍ»، يقول: يُقْسِمُونَ بأنهم لم يلبثوا في قبورهم غيرَ ساعةٍ واحدة، يقول الله جَلَّ ثناؤُهُ: «كذلك» في الدنيا «كانوا يُؤْفَكُونَ»، يقول: كذبوا في قِيلهم وقَسَمِهِم ما لبثنا غيرَ ساعة، كما كانوا في الدنيا يكذبون ويحلفون على الكذب وهم يعلمون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾

كان قتادة يقول: هذا من المُقَدَّمِ الذي معناهُ التأخيرُ. وذُكر عن ابن جُرَيج أنه كان يقول: معنى ذلك: وقال الذين أُوتُوا العلمَ بكتابِ الله، والإيمانَ بالله وكتابه[1].

وقوله: «في كِتَابِ الله»، يقول: فيما كتب الله مما سَبَقَ في علمه أنكم تلبثونه «فَهَذَا يَوْمُ البَعْثِ»، يقول: فهذا يوم يبعث الناس من قبورهم. «وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلمونَ»، يقول: ولكنكم كنتم لا تعلمونَ في الدنيا أنه يكونُ، وأنَّكُمْ مبعوثونَ من بعد الموتِ، فلذلك كنتم تكذبون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فيوم يبعثون من قبورهم «لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا

---

(١) حذفنا قول قتادة في كيفية التقديم والتأخير، لاضطرابه في المطبوع والمخطوط، واكتفينا بقول ابن جريج الذي يماثل قول قتادة ويوضحه. وانظر زاد المسير: ٦/٣١٢، وفتح القدير للشوكاني: ٤/٢٢٤.

مَعْذِرَتُهُمْ» يعني: المكذِّبينَ بالبعثِ في الدنيا مَعْذِرَتُهم، وهو قولهم: ما عَلِمْنَا أنه يكونُ، ولا أنا نُبْعَثُ «وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ»، يقول: ولا هؤلاء الظَلَمَةُ يُسْتَرجعونَ يومئذٍ عما كانوا يكذِّبونَ به في الدنيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ۝٥٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولقد مَثَّلْنَا للناسِ في هذا القرآنِ من كُلِّ مثلٍ احتجاجاً عليهم، وتنبيهاً لهم عن وحدانية الله.

وقوله: «وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بآيةٍ»، يقول: ولئن جئتَ يا محمدُ هؤلاء القوم بآيةٍ، يقول: بدلالةٍ على صِدْقِ ما تقولُ، «لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إنْ أنتُمْ إلَّا مُبْطِلُونَ»، يقول: ليقولنّ الذين جحدوا رسالتكَ، وأنكروا نبوَّتَكَ، إنْ أنتم أيها المصدِّقُونَ محمداً فيما أتاكم به إلا مُبطِلونَ فيما تَجيئُونَنَا به من هذه الأمور.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: كذلك يختمُ الله على قلوبِ الذين لا يعلمونَ حقيقةَ ما تأتيهم به يا محمدُ من عند الله من هذه العِبر والعظاتِ، والآياتِ البيِّناتِ، فلا يفقهونَ عن الله حُجةً، ولا يفهمونَ عنه ما يتلو عليهم من آيِ كتابه، فهم لذلك في طغيانهم يتردَّدُونَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فاصبرْ يا محمدُ لما ينالُك من أذاهم، وبلِّغْهُم رسالةَ ربك، فإنَّ وعدَ الله الذي وعدكَ من النصرِ عليهم، والظفرِ بهم، وتمكينك وتمكينِ أصحابكَ وتُبَّاعك في الأرضِ حقٌّ «وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ»، يقول: ولا يستخفنَّ حلمكَ ورأيكَ هؤلاء المشركونَ بالله الذين لا يُوقِنُونَ بالمعادِ ولا يصدِّقُونَ بالبعثِ بعد المماتِ، فَيُثَبِّطُوكَ عن أمرِ الله والنفوذِ لما كلَّفكَ من تبليغهم رسالَتَهُ.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤﴾

وقد تقدّم بياننا تأويل قولِ الله تعالى ذكره «الٓمٓ»[1].

«وقوله: «تلك آيات الكتاب الحكيم»، يقول جلَّ ثناؤُهُ: هذه آيات الكتاب الحكيم بياناً وتفصيلاً.

وقوله: «هُدىً وَرَحْمَةً»، يقول: هذه آيات الكتاب بياناً ورحمةً من الله، رَحِمَ به من اتَّبعه، وعَمِلَ به من خَلْقِه.

وقوله: «لِلْمُحْسِنِينَ» وهم الذين أحسنوا في العمل بما أنزلَ الله في هذا القرآن، يقول تعالى ذِكْرُهُ: هذا الكتابُ الحكيمُ هُدى ورحمةٌ للذين أحسنوا، فَعَمِلُوا بما فيه من أمرِ الله ونهيه. «الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ»، يقول: الذين يقيمون الصَّلاةَ المفروضةَ بحدودها «وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ» مَنْ جَعَلَهَا الله له المفروضة في أموالهم. «وَهُمْ بالآخرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ»، يقول: يفعلون ذلك وهم بجزاءِ الله وثوابهِ لمن فعل ذلك في الآخرةِ يوقنون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

(١) انظر أول تفسير سورة البقرة.

﴿ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: هؤلاء الذين وصفتُ صِفَتَهم على بيانٍ من رَبِّهم ونور. «وأُولَئِـكَ هُمُ المُفْلحونَ»، يقول: وهؤلاء هم المُنْجِحونَ المُدْرِكُونَ ما رَجَوْا وأمَّلُوا من ثوابِ رَبِّهم يومَ القيامة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦﴾

اختلف أهـلُ التـأويل في تأويل قولـه: «وَمِنَ النَّـاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيثِ»، فقال بعضهم: من يشتري الشراءَ المعروفَ بالثمن.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: مَنْ يختار لَهْوَ الحديثِ ويَسْتَحِبَّهُ.

وأولى التأويلين عندي بالصواب تأويلُ مَنْ قال: معناه: الشراء، الذي هو بالثمن، وذلك أنَّ ذلك هو أظهر مَعْنَيَيْهِ.

فإن قال قائـل: وكيف يشتـري لَهْوَ الحديثِ؟ قيل: يشتري ذاتَ لهوِ الحديثِ، أو ذا لهوِ الحديثِ، فيكون مشترياً لهوَ الحديث.

وأما الحديث، فإنَّ أهلَ التأويل اختلفوا فيه، فقال بعضهم: هو الغناءُ والاستمتاعُ له.

وقال آخرون: عنى باللهو: الطَّبْلَ.

وقال آخرون: عنى بلهـو الحديث: الشِّرْكَ.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: عنى به كلَّ ما كانَ من الحديثِ

مُلْهياً عن سبيلِ الله مما نَهى الله عن استماعِه أو رسوله، لأنَّ الله تعالى عَمَّ بقولِه: «لَهْوَ الحَدِيثِ» ولم يخصصْ بعضاً دونَ بعضٍ، فذلك على عمومِه حتى يأتي ما يدلُّ على خصوصِه، والغناء والشركُ من ذلك.

وقوله: «لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ»، يقول: ليصدَّ ذلك الذي يشتري من لهوِ الحديثِ عن دينِ الله وطاعته، وما يقرِّبُ إليه من قراءةِ قرآنٍ وذكرِ الله.

وقوله: «بغَيْرِ عِلْم»، يقول: فَعَلَ ما فعلَ من اشترائِه لهوَ الحديثِ جهلاً منه بما لَهُ في العاقبةِ عند الله من وزرِ ذلك وإثمِه.

وقوله: «وَيَتَّخِذَها هُزْوًا»، اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأَة المـدينـة والبصرة وبعض أهل الكوفة «وَيَتَّخِذُها» رفعاً، عطفاً به على قوله: «يَشْتَرِي»، كأن معناه عندهم: ومن الناس مَنْ يشتري لِهوَ الحديثِ، ويتخذ آياتِ الله هزواً. وقرأ ذلك عامة قَرَأَة الكوفة «وَيَتَّخِذَها» نصباً عطفاً على يضلَّ، بمعنى: ليضلَّ عن سبيلِ الله، وليتخذَها هُزُواً.

والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان معروفتان في قَرَأَة الأمصار، متقاربتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئُ فمصيب الصوابِ في قراءته والهاء والألف في قوله: «وَيَتَّخِذَها» من ذِكر سبيل الله.

وقوله: «أُولَئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: هؤلاء الذين وصفنا أنهم يشترون لهو الحديث ليضلوا عن سبيلِ الله، لهم يومَ القيامةِ عذابٌ مُذِلٌّ مُخْزٍ في نار جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُهُ: وإذا تُتلى على هذا الـذي اشترى لهوَ الحديثِ

للإضلالِ عن سبيل الله آيات كتابِ الله، فقرئت عليه «وَلَّى مُسْتَكْبِراً»، يقول: أدبرَ عنها واستكبرَ استكباراً، وأعرضَ عن سماع الحقِّ والإجابة عنه «كأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كأنَّ في أُذُنيهِ وَقْراً»، يقول: ثقلاً، فلا يطيقُ من أجله سماعه.

وقوله: «فَبشِّرْهُ بعَذابٍ ألِيمٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَبَشِّرْ هذا المُعْرِضَ عن آياتِ الله إذا تُلِيتْ عليه استكباراً بعذابٍ له من الله يومَ القيامةِ مُوجِع، وذلك عذابُ النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا» بالله فوحَّدُوه، وصدَّقُوا رسولَهُ واتبعوه «وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ»، يقول: فأطاعوا الله، فعملوا بما أمرهم في كتابهِ وعلى لسانِ رسوله، وانتهوا عما نهاهم عنه «لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ»، يقول: لهؤلاء بساتين النعيم «خـالـدين فيها»، يقول: ماكثينَ فيها إلى غيرِ نهاية «وَعدَ الله حَقًّا»، يقول: وعدهم الله وعداً حقاً، لا شكَّ فيه ولا خلفَ له «وَهُوَ العَزِيزُ»، يقول: وهو الشديدُ في انتقامه من أهلِ الشركِ به، والصادِّينَ عن سبيلهِ، «الحَكِيمُ» في تدبير خلقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومن حكمته أنه «خَلَقَ السَّمَوَاتِ» السبع «بغَيْرِ عَمَدٍ

تَرَوْنَها»، وقد ذكرتُ فيما مضى اختلافَ أهلِ التأويلِ في معنى قوله: «بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها» وبيَّنَّا الصوابَ من القولِ في ذلك عندنا.

وقوله: «وألْقَى في الأرضِ رَواسِيَ أنْ تَمِيدَ بِكُمْ»، يقول: وجعل على ظهرِ الأرضِ رواسيَ، وهي ثوابت الجبال أنْ تَميدَ بكم، يعني: أن لا تميد بكم[1]، يقول: أن لا تضطربَ بكم، ولا تتحرَّكَ يمنةً ولا يسرة، ولكن تستقِّر بكم.

وقوله: «وَبَثَّ فيها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ»، يقول: وفَرَّقَ في الأرضِ من كلِّ أنواعِ الدوابِّ. وقيل الدوابُّ اسمٌ لكلِّ ما أكل وشرب، وهو عندي لكلِّ ما دبَّ على الأرض.

وقوله: «وأنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ ماءً فأنْبَتْنَا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأنزلنا من السماء مطراً، فأنبتنا بذلك المطر في الأرض من كلِّ زوجٍ، يعني من كل نوعٍ من النباتِ كريم، وهو الحسن النِّبتة.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: هذا الذي عددتُ[2] عليكم أيها الناسُ أني خلقتُهُ في هذه الآية خلق الله الذي له أُلوهةُ كل شيءٍ، وعبادة كل خلق، الذي لا تصلحُ العبادةُ لغيرِه، ولا تنبغي لشيءٍ سواه، فأروني أيها المشركون في عبادتكم إياه مَن دونه من الآلهةِ والأوثان، أيّ شيء خَلَقَ الذين من دونه من آلهتكم

---

(١) «أن» في هذا الموضع تكفي عن «لا»، فالمراد كما ذكر: «أن لا» وأضفنا لفظة «يعني» من عندنا للتوضيح.

(٢) في المطبوع: «أعددت» والصواب ما أثبتنا.

وأصنامكم، حتى استحقت عليكم العبادة فعبدتموها من دونه، كما استحقَّ ذلك عليكم خالقكم، وخالق هذه الأشياء التي عددتها عليكم.

وقوله: «بَلِ الظَّالِمُونَ في ضَلالٍ مُبينٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ما عبد هؤلاء المشركون الأوثان والأصنام من أجل أنها تخلقُ شيئاً، ولكنهم دعاهم إلى عبادتها ضلالُهم، وذهابُهم عن سبيل الحقِّ، فهم في ضلال: يقول: فهم في جَوْرٍ عن الحقِّ، وذهابٍ عن الاستقامةِ «مبين»، يقول: يبين لمن تأمله، ونظر فيه وفكَّر بعقلٍ أنه ضلالٌ لا هدى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولقد آتينا لقمانَ الفقهَ في الدينِ والعقل والإصابة في القول.

وقوله: «أنِ اشْكُرْ لله»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولقد آتينا لقمانَ الحكمةَ، أن احمدِ الله على ما آتاكَ من فضلِه، وجعل قوله: «أنِ اشْكُرْ» ترجمةً عن الحكمة، لأنَّ من الحكمةِ التي كان أُوتيها، كان شكره الله على ما آتاهُ.

وقوله: «وَمَنْ يَشْكُرْ فإنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ»، يقول: ومن يشكر الله على نعمه عنده فإنما يشكرُ لنفسه، لأنَّ الله يجزلُ له على شكرِه إياه الثوابَ، وينقذه به من الهَلَكَة «وَمَنْ كَفَرَ فإنَّ الله غَنِيٌّ حَمِيدٌ»، يقول: وَمَنْ كفرَ نعمةَ الله عليه، إلى نفسِه أساءَ، لأنَّ الله معاقبه على كفرانِه إياه، والله غنيٌّ عن شكرِه إياهُ على نعمه، لا حاجةَ به إليه، لأنَّ شكره إياه لا يزيدُ في سلطانه، ولا ينقصُ كفرانه إياه من مُلْكِه، ويعني بقوله: «حَمِيدٌ» محمودٌ على كلِّ حالٍ، له الحمدُ على نِعَمِه، كَفَرَ العبدُ نِعْمَتَهُ، أو شكرَهُ عليها، وهو مصروف من مفعول إلى فعيل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمد ﷺ: واذكُرْ يا محمدُ «إذْ قَالَ لُقْمانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بالله إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ»، يقول: لخطأٌ من القولِ عظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ۝١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأمرنا الإنسان ببرِّ والديه «حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ»، يقول: ضَعْفاً على ضعفٍ، وشِدَّةً على شدّة.

وقوله: «وَفِصَالُهُ في عَامَيْنِ»، يقول: وفطامُه في انقضاء عامين، وقيل: «وَفِصَالُهُ في عامَيْنِ» وترك ذِكْرِ انقضاء اكتفاءً بدلالة الكلام عليه، كما قيل: «وَاسأَلِ القَرْيَةَ التي كُنَّا فِيها» يراد به أهل القرية.

وقوله: «أنِ اشْكُرْ لي وَلِوَالِدَيْكَ»، يقول: وعَهِدْنَا إليه أنْ اشكرْ لي على نعمي عليكَ، ولوالديكَ تربيتهما إياك، وعلاجهما فيك ما عالجا من المشقةِ حتى استحكم قواك.

وقوله: «إليَّ المَصِيرُ»، يقول: إلى الله مصيركَ إيها الإنسان، وهو سائِلُكَ عما كان من شكركَ له على نعمه عليكَ، وعما كان من شكرك لوالديكَ، وبرِّكَ بهما على ما لَقِيا منكَ من العناءِ والمشقةِ في حال طُفُوليَّتِكَ وصِباكَ، وما اصطنعا إليك في برِّهما بكَ، وتَحَنُّنِهمَا عليكَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإنْ جاهداكَ أيها الإنسانُ والداكَ على أنْ تُشْرِكَ بي في عبادتك إيايَ معي غيري مما لا تعلمُ أنه لي شريكٌ، ولا شريكَ له تعالى ذِكْرُه علوًّا كبيراً، فلا تُطِعْهُمَا فيما أراداكَ عليه من الشركِ بي، «وَصَاحِبْهُمَا في الدُّنْيا مَعْرُوفاً»، يقول: وصاحبهما في الدنيا بالطاعةِ لهما فيما لا تبعةَ عليكَ فيه فيما بينكَ وبين رَبِّكَ ولا إثمَ.

وقوله: «وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أنابَ إليَّ»، يقول: واسلكْ طريقَ مَنْ تابَ من شركه، ورجعَ إلى الإسلامِ، واتبع محمداً ﷺ.

وقوله: «إليَّ مَرْجِعُكُمْ فأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» فإن إليَّ مصيركم ومعادكم بعد مماتكم فأخبركم بجميعِ ما كنتم في الدنيا تعملون من خيرٍ وشرٍّ، ثم أُجازيكم على أعمالكم، المحسنَ منكم بإحسانِه، والمسيء بإساءته.

فإنْ قال لنا قائل: ما وجه اعتراض هذا الكلامِ بين الخبرِ عن وصيتي لقمان ابنه؟ قيل ذلك أيضاً، وإنْ كان خبراً من الله تعالى ذِكْرُه عن وصيته عبادَهُ به، وأنه إنما أوصى به لقمان ابنه، فكان معنى الكلام«وإذْ قال لُقْمانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بالله إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» ولا تطع في الشرك به والديكَ «وَصَاحِبْهُما في الدُّنْيا مَعْرُوفاً» فإن الله وَصَّى بهما فاستؤنف الكلامُ على وجه الخبرِ من الله، وفيه هذا المعنى، فذلك وجه اعتراض ذلك بين الخبرين عن وصيته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ١٦﴾

تأويل الكلام: إنَّ الأمرَ إنْ تَكُ زنة حبةٍ من خردلٍ من خيرٍ أو شرٍّ عملتهُ، فتكن في صخرةٍ، أو في السمواتِ، أو في الأرض، يأتِ بها الله يومَ القيامةِ، حتى يوفيك جزاءه.

وقوله: «إنَّ الله لَطِيفٌ خَبيرٌ»، يقول: إن الله لطيفٌ باستخراجِ الحبةِ من موضعها حيث كانت، خبيرٌ بموضعها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن قِيلِ لقمانَ لابنه «يَا بُنَيَّ أقِمِ الصَّلَاةَ» بحدودها «وأمُرْ بالمَعْرُوفِ»، يقول: وَأْمُرِ الناسَ بطاعةِ الله، واتباعِ أمره. «وَانْهَ عنِ المُنْكَرِ»، يقول: وانه الناسَ عن معاصي الله ومواقعةِ محارمه «وَاصْبِرْ عَلى ما أَصَابَكَ»، يقول: واصبرْ على ما أصابكَ من الناس في ذاتِ الله إذا أنتَ أمرتهم بالمعروف، ونهيتهم عن المنكر، ولا يصدّنَكَ عن ذلك ما نالكَ منهم «إنَّ ذلكَ مِنْ عَزْمِ الأمُورِ»، يقول: إنَّ ذلك مما أمر الله به من الأمور عزما منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ١٨﴾

تأويل الكـلام: ولا تُعْـرِضْ بوجهكَ عَمَّنْ كَلَّمْتَهُ تَكَبُّراً واستحقاراً لمن تُكَلِّمُه، وأصل الصعر داء يأخذُ الإبلَ في أعناقها أو رؤوسها حتى تَلْفِتَ أعناقُها عن رءوسها، فَيُشَبَّهُ به الرجلُ المتكبرُ على الناس.

وقوله: «وَلاَ تَمْشِ فِي الأرضِ مَرَحاً»، يقول: ولا تمشِ في الأرض مختالاً.

وقوله: «إنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ»، متكبرٍ ذي فخرٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

يقول: وتواضع في مشيكَ إذا مشيتَ، ولا تستكبرْ، ولا تستعجلْ، ولكن اتَّئِدْ.

وقـوله: «وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ»، يقول: واخفض من صوتك، فاجعله قصداً إذا تكلمت.

واختلف أهـلُ التـأويل في تأويل قولـه: «إنَّ أنْكَـرَ الأصْـوَاتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ»، فقال بعضهم: معناه: إنَّ أقبحَ الأصوات.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: إنَّ أشرَّ الأصواتِ.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: معناه: إنَّ أقبحَ أو أشرَّ الأصواتِ، وذلك نظير قولهم: إذا رأوا وجهاً قبيحاً، أو منظراً شنيعاً: ما أنكرَ وجهَ فلان، وما أنكرَ منظره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي

﴿ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُهُ «أَلَمْ تَرَوْا» أيهـا الناسُ «أَنَّ الله سَخَّرَ لَكُمْ ما في السَّمَوَاتِ» من شمسٍ وقمر ونجمٍ وسحاب «وَما في الأرْضِ» من دابةٍ وشجرٍ وماء وبحرٍ وفلك وغير ذلك من المنافعِ، يجري ذلك كله لمنافعكم ومصالحكم لغذائِكم وأقواتِكم وأرزاقكم وملاذِّكم، تتمتعون ببعضِ ذلك كله، وتنتفعون بجميعه.

«وأسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وبَاطِنَةً»، واختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك، فقـرأه بعض المكيين وعـامـة الكـوفيين «وأسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَةً» على الواحدةِ، ووجَّهُوا معناها إلى أنه الإسلامُ، أو إلى أنها شهادة أنْ لا إله إلا الله. وقرأته عامة قَرَأَةُ المدينة والبصرة «نِعَمَهُ» على الجماع، ووجَّهوا معنى ذلك، إلى أنها النعم التي سخرها الله للعبادِ مما في السموات والأرضِ، واستشهدوا لصحةِ قراءتهم ذلك كذلك بقوله: «شاكِراً لأنْعُمِهِ» قالوا: فهذا جمع النعم.

والصـوابُ من القـول في ذلك عندنا أنهما قراءتان مشهورتان في قَرَأَةِ الأمصار متقاربتا المعنى، وذلك أن النعمةَ قد تكون بمعنى الواحدة، ومعنى الجماع، وقد يدخل في الجماع الواحدة. وقد قال جَلَّ ثناؤهُ «وَإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ الله لا تُحْصُوها» فمعلومٌ أنه لم يعن بذلك نعمةً واحدة. وقال في موضع آخر: «ولم يَكُ من المشركينَ شاكراً لأنعمه»، فجمعها، فبأيِّ القراءتين قرأ القارئ ذلك فمصيب.

وقـولـه: «ظـاهِـرَةً»، يقـول: ظاهرة على الألسنِ قولاً، وعلى الأبدانِ وجوارحِ الجسدِ عملاً.

وقوله: «وَبَاطِنَةً»، يقول: وباطنة في القلوبِ اعتقاداً ومعرفة.

وقوله: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدىً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومن الناس مَنْ يخاصمُ في توحيدِ الله، وإخلاصِ الطاعةِ والعبادةِ له بغيرِ علمٍ عنده بما يخاصمُ، «ولا هدى»، يقول: ولا بيانٍ يبينُ به صحة ما يقول «وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ»، يقول: ولا بتنزيلٍ من الله جاء بما يدعي، يبينُ حقيقةَ دعواه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإذا قيلَ لهؤلاء الذين يجادلون في توحيدِ الله جهلاً منهم بعظمةِ الله، اتبعوا أيها القومُ ما أنزلَ الله على رسولِه، وصَدِّقوا به، فإنه يفرقُ بين المحقِّ منا والمبطل، ويفصلُ بين الضَّال والمهتدي، فقالوا: بل نَتَّبِعُ ما وجدنا عليه آباءنا من الأديانِ، فإنهم كانوا أهلَ حقٍّ، قال الله تعالى ذِكْرُهُ: «أَوَ لَوْ كانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ» بتزيينِه لهم سوءَ أعمالِهم، واتباعهم إياهُ على ضلالتهم وكفرهم بالله وتركهم اتباعَ ما أنزلَ الله من كتابِه على نبيه «إلى عَذَابِ السَّعِيرِ»، يعني: عذاب النار التي تتسعرُ وتلتهب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومَنْ يُعَبِّدْ وجهَهُ مُتذللاً بالعُبودةِ، مُقِرًّا له بالألوهةِ «وَهُوَ مُحْسِنٌ»، يقول: وهو مطيعٌ لله في أمره ونهيه. «فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بالعُرْوَةِ الوُثْقى»، يقول: فقد تمسك بالطرفِ الأوثقِ الذي لا يخافُ انقطاعه مَنْ تَمَسَّكَ به، وهذا

مَثَلٌ، وإنما يعني بذلك أنه قد تمسك من رِضا الله بِإسلامِه وَجْهَهُ إليه وهو مُحْسِنٌ، ما لا يخافُ معه عذابَ الله يومَ القيامة.

وقوله: «وَإِلى الله عاقِبَةُ الأمُورِ»، يقول: وإلى الله مرجعُ عاقبةِ كلِّ أمرٍ خيرِه وشرِّه، وهو المُسَائِلُ أهلَهُ عنه، ومُجَازِيهم عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومَنْ كفرَ بالله فلا يحزنك كفرُه، ولا تذهبْ نفسكَ عليهم حسرةً، فإنَّ مرجعهم ومصيرهم يومَ القيامة إلينا، ونحنُ نخبرهم بأعمالهم الخبيثة التي عملوها في الدنيا، ثم نُجازيهم عليها جزاءهم «إنَّ الله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ»، يقول: إنَّ الله ذُو علمٍ بما تُكِنُّه صدورهم من الكفرِ بالله، وإيثار طاعة الشيطان.

وقوله: «نُمَتِّعُهُمْ قليلاً»، يقول: نُمْهِلُهُمْ في هذه الدنيا مهلاً قليلاً يتمتعون فيها، «ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إلى عَذابٍ غَلِيظٍ»، يقول: ثم نُورِدُهم على كرهٍ منهم عذاباً غليظاً، وذلك عذابُ النارِ، نعوذُ بالله منها، ومن عملٍ يُقَرِّبُ منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولئن سألتَ يا محمدُ هؤلاء المشركينَ بالله من قومك

«مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأرْضِ لَيَقُولُنَّ الله قُلِ الحَمْدُ لله»، يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيهِ محمدٍ، فإذا قالوا ذلك، فقل لهم: الحمدُ لله الذي خلق ذلك، لا لمن لا يخلق شيئاً وهم يُخْلَقُون، ثم قال تعالى ذِكْرُهُ: «بَلْ أكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ»، يقول: بل أكثر هؤلاءِ المشركونَ لا يعلمونَ من الذي له الحمدُ، وأين موضعُ الشكرِ.

وقوله: «لله ما في السَّمَوَاتِ والأرْضِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: لله كلُّ ما في السمواتِ والأرضِ من شيء ملكاً كائناً ما كان ذلك الشيءُ من وثنٍ وصنمٍ وغيرِ ذلك، مما يُعْبَدُ أو لا يعبد. «إنَّ الله هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ»، يقول: إنَّ الله هو الغنيُّ عن عبادةِ هؤلاءِ المشركينَ به الأوثانَ والأندادَ، وغير ذلك منهم ومن جميع خلقه، لأنهم مُلْكُه وله، وبهم الحاجةُ إليه، «الحميدُ»، يعني: المحمودُ على نعمِه التي أنعمها على خَلْقِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولو أنَّ شجرَ الأرضِ كلها بُرِيَتْ أقلاماً «والبَحْرُ يَمُدُّهُ»، يقول: والبحرُ له مِدادٌ، والهاء في قوله: «يَمُدُّهُ» عائدةٌ على البحر.

وقوله: «من بَعْدِه سَبْعَةُ أبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِمَاتُ الله» وفي هذا الكلام محذوف استغني بدلالةِ الظاهرِ عليه منه، وهو: يكتب كلام الله بتلك الأقلامِ وبذلك المدادِ، لتَكَسَّرَتْ تلكَ الأقلامُ، ولنفدَ ذلكَ المِدادُ، ولم تنفد كلماتُ الله.

وذُكر أنَّ هذه الآية نزلتْ على رسولِ الله ﷺ في سببِ مجادلةٍ كانت من

اليهودِ له.

وقوله: «إنَّ الله عَزيزٌ حَكِيمٌ»، يقول: إن الله ذو عزَّةٍ في انتقامه ممن أشركَ به، وادَّعى معه إلهاً غيره، حكيم في تدبيرِه خَلْقَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ما خَلْقُكم أيها الناسُ ولا بعثكم على الله إلا كخلقِ نفسٍ واحدة وبعثها، وذلك أن الله لا يتعذّر عليه شيء أراده، ولا يمتنع منه شيء شاءه «إنما أمره إذَا أرادَ شَيْئاً أنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون» فسواء خَلْقُ واحدٍ وبعثُه، وخلق الجميعِ وبعثُهم.

وقوله: «إنَّ الله سَمِيعٌ بَصِيرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الله سميعٌ لما يقولُ هؤلاء المشركونَ ويفترونه على رَبِّهم، من ادِّعائِهم له الشركاءَ والأندادَ وغير ذلك من كلامِهم وكلامِ غيرهم، «بصير» بما يعملونه وغيرهم من الأعمال، وهو مُجازِيهم على ذلك جزاءهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «أَلَمْ تَرَ» يا محمدُ بعينكَ «أنَّ الله يُولِجُ اللَّيْلَ في النَّهارِ»، يقول: يزيدُ من نقصانِ ساعاتِ الليلِ في ساعاتِ النهار «ويُولِجُ النَّهارَ في اللَّيْلِ»، يقول: يزيد ما نقصَ من ساعاتِ النهار في ساعات اللَّيل.

وقوله: «وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والقَمَرَ كُلٌّ يَجْري إلى أَجَلٍ مُسَمًّى»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وسخر الشمسَ والقمرَ لمصالحِ خَلْقِه ومنافعهم «كلٌّ يجري»، يقول: كلّ ذلك يجري بأمرِه إلى وقتٍ معلوم، وأجلٍ محدود إذا بلغه، كوّرت الشمس والقمر.

وقوله: «وأنَّ الله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبيرٌ»، يقول: وإنَّ الله بأعمالكم أيها الناسُ من خيرٍ أو شرٍّ ذُو خبرةٍ وعلمٍ، لا يَخْفَى عليه منها شيءٌ، وهو مُجازيكم على جميع ذلك.

وخرج هذا الكلام خطاباً لرسول الله ﷺ، والمعنيُّ به المشركون، وذلك أنه تعالى ذِكْرُهُ، نَبَّه بقوله: «أنَّ الله يُولِجُ اللَّيْلَ في النَّهارِ، ويُولِجُ النَّهارَ في اللَّيْلِ» على موضعِ حُجَّتِه مَنْ جَهِلَ عظمتَهُ، وأشركَ في عبادته معَهُ غيرَهُ، يدلُّ على ذلك قولُه: «ذلكَ بأنَّ الله هُوَ الحَقُّ وأنَّ ما يَدْعُونَ من دُونِه الباطِلُ».

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: هذا الذي أخبرتك يا محمدُ أنَّ الله فعله من إيلاجه الليلَ في النهـار، والنهارَ في الليل، وغير ذلك من عظيمِ قُدْرَته، إنما فعله بأنه الله حقاً، دونَ ما يدعوهُ هؤلاء المشركون به، وأنه لا يقدرُ على فِعْلِ ذلك سواهُ، ولا تصلحُ الأُلوهةُ إلا لمن فعلَ ذلك بقُدرته.

وقوله: «وأنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِه الباطِلُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وبأنَّ الذي يعبدُ هؤلاء المشركون من دونِ الله الباطل الذي يضمحلُّ، فيبيدُ ويَفْنى. «وأنَّ الله هُوَ العلي الكَبيرُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وبأن الله هو العليُّ، يقول: ذو العلوِّ على كلِّ شيءٍ، وكلّ ما دونه فله متذللٌ مُنْقَادٌ، الكبيرُ الذي كُلُّ شيءٍ دونه،

فله متصاغِرٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: ألم تَرَ يا محمدُ أنَّ السفنَ تجري في البحر نعمةً من الله على خَلْقِه «لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِه»، يقول: ليريكم من عِبَرِهِ وحُجَجِه عليكم «إنَّ في ذلك لآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ»، يقول: إنَّ في جري الفلك في البحر دلالةً على أنَّ الله الذي أجراها هو الحقُّ، وأنَّ ما يدعون من دونه الباطلُ «لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ»، يقول: لكلِّ مَنْ صبر نفسه عن محارمِ الله، وشكره على نعمه فلم يكفره.

فإن قال قائل: وكيف خصَّ هذه الدلالةَ بأنها دلالةٌ للصبَّارِ الشَّكورِ دونَ سائرِ الخَلْقِ؟ قيل: لأنَّ الصبر والشكر من أفعالِ ذوي الحِجَى والعقولِ، فأخبرَ: إن في ذلك لآياتٍ لكلِّ ذي عقلٍ، لأنَّ الآيات جعلها الله عبراً لذوي العقولِ والتمييز.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإذا غشيَ هؤلاء الذين يدعونَ من دونِ الله الآلهةَ والأوثانَ في البحرِ، إذا ركبوا في الفُلكِ، موجٌ كالظُّللِ، وهي جمع ظُلَّة، شَبَّه بها الموجَ في شدةِ سوادِ كثرةِ الماء.

وقوله: «دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإذا غشي هؤلاء موجٌ كالظُّللِ، فخافوا الغرق، فزعوا إلى الله بالدعاءِ مخلصينَ له الطاعةَ، لا يشركونَ به هنالك شيئاً، ولا يدعونَ معه أحداً سواه، ولا يستغيثون بغيره. قوله «فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إلى البَرّ» مما كانوا يخافونه في البحر من الغرق والهلاك إلى البرِّ. «فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ»، يقول: فمنهم مقتصدٌ في قولِه وإقرارِه بربه، وهو مع ذلك مُضْمِرٌ الكفرَ به.

وقوله: «وَما يَجْحَدُ بآياتِنَا إلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما يكفرُ بأدلتنا وحججنا إلا كلُّ غدَّارٍ بعهدِهِ، والخَتْرُ عند العرب: أقبحُ الغدرِ.

وقوله: «كَفُورٌ»، يعني: جحوداً للنِّعم، غير شاكرٍ ما أسدى إليه من نعمة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٣٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أيها المشركونَ من قريش، اتقوا الله، وخافوا أنْ يحلَّ بكم سَخَطُه في يومٍ لا يغني والدٌ عن ولدِهِ، ولا مولودٌ هو مُغْنٍ عن والدِهِ شيئاً، لأنَّ الأمر يصيرُ هنالك بيدِ مَنْ لا يُغالَبُ، ولا تنفعُ عنده الشفاعةُ والوسائل، إلا وسيلة من صالحِ الأعمال التي أسلفها في الدنيا.

وقوله: «إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقّ»، يقول: اعلموا أنَّ مجيء هذا اليوم حقٌّ، وذلك أنَّ الله قد وَعَدَ عباده ولا خُلْفَ لوعده «فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الحَياةُ الدُّنْيا»، يقول: فلا تخدعَنَّكُم زينةُ الحياةِ الدنيا ولذَّاتُها، فتميلوا إليها، وتَدَعُوا الاستعدادَ لما فيه خلاصُكم من عقابِ الله ذلك اليوم.

وقوله: «وَلَا يَغُرَّنَّكُم باللهِ الغَرُورِ»، يقول: ولا يخدعنَّكم بالله خادعٌ، والغَرور بفتح الغين: هو ماغَرَّ الإنسانَ من شيءٍ كائناً ما كانَ شيطاناً كان، أو إنساناً، أو دنيا؛ وأما الغُرور بضمِّ الغين: فهو مصدر من قول القائل: غررته غُروراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «يا أَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ، وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً» هو آتيكم عِلْمُ إتيانه إياكم عند رَبِّكم، لا يعلمُ أحدٌ متى هوَ جائِيكم، لا يأتيكم إلا بغتةً، فاتقوهُ أنْ يَفْجأَكُمْ بغتةً، وأنتم على ضلالتكم لم تُنِيبُوا منها، فتصيرُوا من عذابِ الله وعقابِهِ إلى ما لا قِبَلَ لكم به، وابتدأ تعالى ذِكْرُهُ الخبرَ عن علمه بمجيء الساعةِ، والمعنَى ما ذكرتُ لدلالةِ الكلامِ على المراد منه، فقال: «إنَّ الله عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعةِ» التي تقومُ فيها القيامةُ، لا يعلمُ ذلك أحدٌ غيره. «وينزِّلُ الغَيْثَ» من السماء، لايقدرُ على ذلك أحدٌ غيره «وَيَعْلَمُ ما في الأَرْحامِ» أرحامِ الإناث «وَما تَدْرِي نَفْسٌ ماذَا تَكْسِبُ غداً»، يقول: وما تعلمُ نَفْسُ حيٍّ ماذا تعملُ في غَدٍ، «وما تَدْري نَفْسٌ بأيِّ أرْضٍ تَمُوتُ»، يقول: وما تعلمُ نفس حيٍّ بأيِّ أرضٍ تكونُ مَنِيَّتُها. «إنَّ الله عَلِيمٌ خَبِيرٌ»، يقول: إن الذي يعلمُ ذلك كله، هو الله دونَ كلِّ أحدٍ سواه، إنه ذو علم بكلِّ شيءٍ، لايخفى عليه شيءٌ، خبيرٌ بما هو كائنٌ، وما قد كان.



سُورَةُ السَّجْدَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾

قد مضى البيانُ عن تأويل قوله: «الم» بما فيه الكفاية.

وقوله: «تَنْزِيلُ الكتابِ لا رَيْبَ فِيهِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: تنزيلُ الكتابِ الذي نَزَّلَ على محمدٍ ﷺ، لا شكَّ فيه «من ربِّ العالمين»، يقول: من ربِّ الثقلين: الجنِّ والإنس.

وقوله: «أمْ يَقُولونَ افْتَرَاهُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: يقولُ المشركونَ بالله: اختلقَ هذا الكتابَ محمدٌ من قِبَلِ نفسهِ، وتَكَذَّبَهُ، و: «أم» هذه تقرير، وقد بيَّنا في غير موضعٍ من كتابنا، أنَّ العرب إذا اعترضتْ بالاستفهام في أضعافِ كلامٍ قد تقدَّمَ بعضُه أنه يستفهم بأم. ثم أكْذَبَهُمْ تعالى ذِكْرُه، فقال: ما هُوَ كما تزعمونَ وتقولونَ من أن محمداً افتراهُ، بَلْ هو الحقُّ والصِدْقُ من عندِ رَبِّكَ يا محمدُ، أنزلَهُ إليك، لِتُنْذِرَ قوماً بأسَ الله وسطوته، أنْ يحلَّ بهم على كفرهم به «ما أتاهُمْ مِنْ نَذيرٍ مِنْ قَبْلكَ»، يقول: لم يأتِ هؤلاء القوم الذين أرسلكَ رَبُّكَ يا محمدُ إليهم، وهم قومه من قريش، نذيرٌ ينذرهم بأسَ الله على كفرِهم قبلك.

وقوله: «لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ»، يقول: ليتبيَّنُوا سبيلَ الحقِّ فيعرفوهُ ويؤمنوا به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: المعبودُ الذي لا تصلحُ العبادةُ إلا له أيها الناسُ «الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأرْضَ وَما بَيْنَهُما» من خَلْقٍ «في سِتَّةِ أيَّامٍ» ثم استوى على عرشه في اليومِ السابعِ بعد خَلْقِه السمواتِ والأرض وما بينهما.

وقوله: «ما لَكُمْ مِنْ دُونِه مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ»، يقول: ما لكم أيها الناسُ دونَهُ وليٌّ يلي أمركم وينصركم منه إنْ أراد بكم ضراً، ولا شفيعٌ يشفعُ لكم عنده إنْ هو عاقبكم على معصيتكم إياه، يقول: فإياهُ فاتخذوا ولياً وبه وبطاعته، فاستعينوا على أمورِكم فإنه يمنعكم إذا أرادَ مَنْعَكُمْ مِمَّنْ أرادَكُمْ بسوءٍ، ولا يقدر أحدٌ على دفعهِ عما أرادَ بكم هو، لأنه لا يقهرهُ قاهرٌ، ولا يغلبهُ غالبٌ. «أفلا تَتَذَكَّرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: أفلا تعتبرونَ وتتفكَّرُونَ أيها الناسُ، فتعلموا أنه ليسَ لكم دونَه وليٌّ ولا شفيعٌ، فتفردوا له الأُلوهةَ، وتُخْلِصُوا له العبادةَ، وتخلعوا ما دونه من الأندادِ والآلهة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: الله هو الذي يُدَبِّرُ الأمرَ من أمرِ خَلْقِه من السماءِ إلى الأرضِ، «ثم يعرُج إليه»، واختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ بقوله: «ثُمَّ يَعْرُجُ إلَيْهِ في يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ ألْفَ سَنَةٍ ممَّا تَعُدُّونَ»، فقال بعضهم: معناه: أنَّ الأمر

ينزلُ من السماءِ إلى الأرضِ ، ويصعدُ من الأرضِ إلى السماءِ في يومٍ واحد، وقدر ذلك ألف سنة مما تعدُّونَ من أيامِ الدنيا، لأنَّ ما بينَ الأرضِ إلى السماءِ خمس مئةِ عام، وما بين السماء إلى الأرض مثل ذلك، فذلك ألف سنة.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: يُدَبِّرُ الأمرَ من السماءِ إلى الأرضِ ، ثم يعرج إليه في يومٍ من الأيامِ الستةِ التي خَلَقَ الله فيهنَّ الخَلْقَ، كان مقدارُ ذلك اليوم ألفَ سنة مما تعدُّونَ من أيامِكم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: يدبرُ الأمرَ من السماءِ إلى الأرضِ بالملائكة، ثم تعرجُ إليه الملائكةُ، في يَوْمٍ كان مقدارهُ ألفَ سنةٍ من أيام الدنيا.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: يدبرُ الأمرَ من السماء إلى الأرض في يومٍ كان مقدارُ ذلك التدبيرِ ألفَ سنة مما تعدُّون من أيامِ الدنيا، ثم يعرجُ إليه ذلك التدبيرُ الذي دَبَّرَهُ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: يدبرُ الأمرَ من السماء إلى الأرض، ثم يَعْرجُ إلى الله في يومٍ كان مقدارهُ ألفَ سنة، مقدارُ العروجِ ألفُ سنة مما تعدّون.

وأَوْلى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قولُ مَنْ قال: معناه: يدبرُ الأمرَ من السماءِ إلى الأرضِ ، ثم يعرجُ إليه في يومٍ ، كان مقدارُ ذلك اليومِ في عروجِ ذلك الأمر إليه، ونزوله إلى الأرض ألفَ سنةٍ مما تعدون من أيامِكم خمس مئةٍ في النزول، وخمس مئة في الصعود، لأنَّ ذلك أظهرُ معانيه، وأشبهها بظاهرِ التنزيل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ

﴿الرَّحِيمُ ۝٦ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: هذا الذي يفعلُ ما وصفتُ لكم في هذه الآياتِ، هو «عالمُ الغيب»، يعني: عالم ما يغيبُ عن أبصاركم أيها الناسُ، فلا تبصرونه مما تُكِنُّه الصدورُ، وتخفيه النفوسُ، وما لم يَكُنْ بَعْدُ مما هو كائنٌ، «والشهادة»، يعني: ما شاهدتهُ الأبصارُ فأبصرته وعاينته وما هو موجودٌ. «العَزِيزُ»، يقول: الشديدُ في انتقامهِ ممن كفرَ به وأشركَ معه غيره، وكذَّبَ رُسُلَهُ. «الرَّحِيمُ» بمن تابَ من ضلالتِه، ورجعَ إلى الإيمانِ به وبرسوله، والعملِ بطاعته، أنْ يُعَذِّبَهُ بعد التوبة.

وقوله: «الَّذي أحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ»، اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك، فقرأه بعض قَرَأَة مكة والمدينة والبصرة «أحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ» بسكون اللام. وقرأه بعض المدنيين وعامة الكوفيين «أحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ» بفتح اللام.

والصواب من القولِ في ذلك عندي أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان قد قرأ بكلٍّ واحدةٍ منهما علماء من القَرَأَة صحيحتا المعنى، وذلك أنَّ الله أحْكَمَ خَلْقَهُ، وأحْكَمَ كُلَّ شيءٍ خَلَقَهُ، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيبٌ.

وقوله: «وَبَدأَ خَلْقَ الإنْسَانِ مِنْ طِينٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وبدأ خَلْقَ آدمَ من طينٍ «ثُمَّ جعَلَ نَسْلَهُ» يعني ذرِّيَتَهُ من سلالةٍ، يقول: من الماء الذي انسلَّ فخرجَ منه. وإنما يعني: من إراقةٍ من مائهِ.

وقوله: «مِنْ ماءٍ مَهينٍ»، يقول: من نطفةٍ ضعيفةٍ رقيقة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُهُ: ثم سوَّى الإنسانَ الذي بدأ خلقه من طينٍ خَلْقاً سوياً معتدلاً، «ونَفَخَ فيه مِنْ رُوحِهِ» فصار حياً ناطقاً «وَجَعَل لَكُمُ السَّمْعَ والأبْصارَ والأفْئِدَةَ قليلاً ما تَشْكُرُونَ»، يقول: وأنعمَ عليكم أيها الناسُ ربكم بأنْ أعطاكم السمـعَ تسمعـونَ به الأصـواتَ، والأبصارَ تُبْصرونَ بها الأشخاص، والأفئدة تعقلونَ بها الخيرَ من السوءِ، لتشكروه على ما وَهَبَ لكم من ذلك.

وقوله: «قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ»، يقول: وأنتم تشكرونَ قليلاً من الشكرِ رَبَّكم على ما أنعمَ عليكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقال المشركونَ باللهِ، المكذِّبُونَ بالبعثِ «أئِذَا ضَلَلْنَا في الأرض» أي صارت لحومُنَا وعِظامنا تراباً في الأرض، وفيها لغتان: ضَلَلْنا، وضَلِلْنا بفتحِ اللام وكسرها، والقراءة على فتحها، وهي الجَوْداءُ، وبها نقرأُ.

وإنما عنى هؤلاء المشركون بقولهم: «أئِذَا ضَلَلْنا في الأرضِ»، أي: إذا هلكت أجسادُنا في الأرض، لأنَّ كُلَّ شيءٍ غَلَبَ عليه غيرُه حتى خفي فيما غلب، فإنه قد ضلَّ فيه، تقولُ العرب: قد ضلَّ الماءُ في اللبن: إذا غَلَبَ عليه حتى لايتبين فيه.

وقـولـه: «بَـلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ما بهؤلاء المشركينَ جحودُ قدرةِ الله على ما يشاء، بل هُمْ بلقاءِ رَبِّهم كافرونَ، حذراً لعقـابـه، وخـوفَ مجـازاتِـه إياهم على معصيتهم إياه، فهم من أجـلِ ذلك يجحدونَ لقاءَ رَبِّهم في المعاد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قُلْ يا محمدُ لهؤلاء المشركين بالله «يتوفاكم مَلَكُ الموت»، يقول: يستوفي عَدَدَكُم بقبضِ أرواحِكم مَلَكُ الموتِ الذي وُكِّلَ بقبضِ أرواحكم.

«ثُمَّ إلى رَبِّكُم تُرْجَعُونَ»، يقول: من بعد قبضِ ملكِ الموتِ أرواحَكم إلى رَبِّكم يومَ القيامةِ تُرَدُّونَ أحياء كهيئَتِكُمْ قبلَ وفاتِكم، فيجازي المحسنَ منكم بإحسانِه، والمُسيء باساءته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: لو ترى يا محمدُ هؤلاء القائلين «أئِذَا ضَلَلْنا في الأرضِ أئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيد» إذ هم ناكِسُو رُؤوسِهِم عند رَبِّهم حياءً من ربهم، للذي سَلَفَ منهم من معاصيه في الدنيا، يقولون: يا «رَبَّنَا أَبْصَرْنَا» ما كنا نكذِّبُ به من عقابِكَ أهلَ معاصيكَ «وَسَمِعْنَا» منك تصديقَ ما كانتْ رُسُلُكَ تأمُرُنَا به في الدنيا، «فارجعنا»، يقول: فارْدُدْنَا إلى الدنيا نعملْ فيها بطاعتك، وذلك العمل الصالح. «إنَّا مُوقِنُونَ»، يقول: إنا قد أيقنَّا الآنَ ما كُنَّا به في الدنيا جهالاً من وحدانيتك، وأنه لايصلحُ أن يُعبدَ سواكَ، ولا ينبغي أنْ يكونَ ربٌّ سواكَ، وأنك تُحيي وتُميتُ، وتبعثُ مَنْ في القبور بعدَ المماتِ والفناءِ وتفعلُ ما تشاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَلَوْ شِئْنَا» يا محمدُ «لآتَيْنَا» هؤلاء المشركينَ باللهِ من قومِكَ وغيرِهم من أهلِ الكفرِ باللهِ «هُدَاهَا»، يعني: رُشْدَها وتوفيقَها للإيمانِ باللهِ «وَلَكِنْ حَقَّ القَوْلُ مِنِّي»، يقول: وَجَبَ العذابُ مني لهم.

وقوله: «لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ»، يعني: من أهلِ المعاصي والكفرِ باللهِ منهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ۖ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يقالُ لهؤلاء المشركينَ باللهِ إذا هُمْ دخلوا النارَ: ذُوقُوا عذابَ اللهِ بما نسيتم لقاءَ يومِكم هذا في الدنيا، «إِنَّا نَسِيناكُمْ»، يقول: إنَّا تركناكم اليومَ في النار.

وقوله: «وَذُوقُوا عَذَابَ الخُلْدِ»، يقول: يقال لهم أيضاً: ذُوقوا عذاباً تخلدونَ فيه إلى غيرِ نهاية «بِما كُنْتُمْ» في الدنيا «تَعْمَلُون» من معاصي الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ما يصدقُ بحججنا وآياتِ كتابنا إلا القومُ الذين إذا ذُكِّرُوا بها وَوُعِظُوا «خَرُّوا» لله «سُجَّداً» لوجوههم، تذلُّلاً له، واستكانةً لعظمتِه،

وإقراراً له بالعبوديَّةِ «وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ»، يقول: وسبحوا الله في سجودهم بحمده، فيبرِّئونَهُ مما يصفه أهلُ الكفرِ به، ويضيفونَ إليه من الصاحبةِ والأولادِ والشركاءِ والأندادِ «وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ»، يقول: يفعلونَ ذلك، وهم لايستكبرونَ عن السجودِ له والتسبيحِ، لا يستنكفونَ عن التذلُّلِ له والاستكانة. وقيل: إنَّ هذه الآيةَ نزلت على رسولِ الله ﷺ، لأن قوماً من المنافقينَ كانوا يخرجونَ من المسجدِ إذا أُقيمت الصلاةُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: تَتَنَحَّى جنوبُ هؤلاء الذين يؤمنون بآياتِ الله، الذين وصفتُ صِفَتهم، وترتفعُ من مضاجعهم التي يضطجعونَ لمنامِهم، ولا ينامون «يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً» في عفوِه عنهم، وتفضُّلِه عليهم برحمتِه ومغفرتِه «ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ» في سبيل الله، ويؤدُّونَ منه حقوقَ الله التي أوجبها عليهم فيه. «وتتجافى»: تتفاعل من الجفاء؛ والجفاء: النبو.

وإنما وصفهم تعالى ذِكْرُهُ بتجافي جنوبِهم عن المضاجِع لتركهِم الاضطجاعَ للنومِ شُغلاً بالصلاةِ.

واختلف أهلُ التأويل في الصلاة التي وصفهم جَلَّ ثناؤُهُ، أنَّ جنوبهم تتجافى لها عن المضاجعِ، فقال بعضهم: هي الصلاةُ بين المغربِ والعشاء، وقال: نزلتْ هذه الآيةُ في قومٍ كانوا يصلون في ذلك الوقت.

وقال آخرون: عنى بها صلاة المغرب.

وقال آخرون: لانتظارِ صلاةِ العتمَة.

وقال آخرون: عنى بها قيام الليل.

وقال آخرون: إنما هذه صفة قومٍ لا تخلو ألسنَتهُم من ذِكْرِ الله.

والصوابُ من القول في ذلك أن يقال: إنَّ الله وصف هؤلاء القوم بأنَّ جنوبَهم تَنْبُو عن مضاجعِهم، شغلاً منهم بدعاءِ رَبِّهم وعبادته خوفاً وطمعاً، وذلك نبوّ جنوبِهم عن المضاجع ليلاً، لأنَّ المعروفَ من وصف الواصفِ رجلاً بأنَّ جَنْبَهُ نَبَا عن مضجعه، إنما هو وصفٌ منه له بأنه جفا عن النومِ في وقتِ منامِ الناس المعروفِ، وذلك الليلُ دونَ النهار، وكذلك تَصِفُ العربُ الرجلَ إذا وصفته بذلك، يدلُّ على ذلك قولُ عبدالله بن رواحة الأنصاري رضي الله عنه في صفةِ نبيِّ الله ﷺ:

يَبِيتُ يُجافِي جَنْبَهُ عَنْ فِراشِهِ   إذا اسْتَثْقَلَتْ بالمُشْرِكِينَ المَضَاجِعُ

فإذا كان ذلك كذلك، وكان الله تعالى ذِكْرُهُ لم يخصصْ في وصفهِ هؤلاء القوم بالذي وصفَهُمْ به من جفاءِ جنوبِهم عن مضاجِعهم من أحوالِ الليلِ وأوقاتِه حالاً ووقتاً دونَ حالٍ ووقتٍ؟ كان واجباً أن يكون ذلك على كلِّ آناءِ الليل وأوقاتِه، وإذا كان كذلك كان مَنْ صلى ما بين المغربِ والعشاء، أو انتظرَ العشاء الآخرةَ، أو قامَ الليلَ أو بعضَهُ، أو ذكَرَ الله في ساعاتِ الليل، أو صلى العتمة مِمَّنْ دخلَ في ظاهر قوله: «تَتَجَافَى جُنُوبُهُم عَنِ المَضَاجِعِ» لأن جنبه قد جفا عن مضجعه في الحالِ التي قام فيها للصلاةِ، قائماً صلى أو ذكر الله، أو قاعداً بعد أنْ لا يكون مضطجعاً، وهو على القيامِ أو القعودِ قادرٌ، غير أنَّ الأمرَ وإنْ كان كذلك، فإنَّ توجيهَ الكلامِ إلى أنه معنيٌّ به قيام الليل أعجب إليَّ، لأنَّ ذلك أظهر معانيه، والأغلب على ظاهرِ الكلام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلا تعلم نفسٌ ذي نفسٍ ما أخفى الله لهؤلاء الذين وَصَفَ جَلَّ ثناؤهُ صِفتهم في هاتين الآيتين، مما تقرُّ به أعينهم في جِنانِه يومَ القيامة «جَزَاءً بِمَا كانُوا يَعْمَلُونَ»، يقول: ثواباً لهم على أعمالهم التي كانوا في الدنيا يعملون، (فعن) أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «قالَ الله أعْدَدْتُ لعبادي الصَّالحينَ ما لا عَيْنٌ رأتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ واقْرَؤوا إنْ شِئْتُمْ قال الله ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ من قُرَّةِ أعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كانُوا يَعْمَلُونَ﴾»[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ۝١٨ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٩ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أفَهَذَا الكافرُ المكذِّبُ بوعدِ الله ووعيدِه، المخالِفُ أمرَ الله ونهيه، كهذا المؤمنِ بالله، المصدِّقِ بوعدِه ووعيدِه، المطيع له في أمرِه ونهيه، كلا «لايَسْتَوُونَ» عند الله، يقول: لا يعتدلُ الكفَّارُ بالله، والمؤمنونَ به عِنْدَهُ، فيما هو فاعلٌ بهم يومَ القيامة.

وقوله: «أمَّا الَّذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ المأْوَى»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: أما الذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ، وعملوا بما أمرهم الله ورسولَهُ «فلهم جناتُ المأوى»، يعني: بساتينُ المساكنِ التي يسكنونها في الآخرةِ ويأوونَ إليها.

---

(١) متفق عليه: البخاري ٨/٣٩٦، ومسلم (٢٨٢٤).

وقوله: «نُزُلًا بِمَا كانُوا يَعْمَلُونَ»، يقول: نُزُلًا أنزلهُمُوها جزاءً منه لهم بما كانوا يعملون في الدنيا بطاعته.

وقوله: «وأمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأما الذين كفروا بالله، وفارقوا طاعته «فَمأْوَاهُمُ النَّارُ»، يقول: فمساكِنُهم التي يأوونَ إليها في الآخرةِ النارُ «كُلَّما أرَادوا أنْ يَخْرُجوا مِنْها أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ به» في الدنيا «تُكَذِّبُونَ» أنَّ الله أعدَّهَا لأهلِ الشركِ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢١﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى العذابِ الأدنى، الذي وعد الله أنْ يذيقَهُ هؤلاء الفَسَقَةَ، فقال بعضهم: ذلك مصائبُ الدنيا في الأنفسِ والأموال.

وقال آخرون: عَنَى بها الحدودَ.

وقال آخرون: عَنَى بها القتلَ بالسيفِ، قال: وقُتِلُوا يومَ بدر.

وقال آخرون: عَنَى بذلك سنونَ أصابَتْهُمْ.

وقال آخرون: عَنَى بذلك: عذابَ القبر.

وقال آخرون: ذلك عذاب الدنيا.

وأوْلى الأقوال في ذلك أن يقال: إنَّ الله وعدَ هؤلاءِ الفَسَقَةَ المكذِّبينَ بوعيدِه في الدنيا العذابَ الأدنى، أن يُذِيقَهُمُوه دونَ العذابِ الأكبر، والعذاب: هو ما كانَ في الـدنيا من بلاءٍ أصـابَهُمْ، إما شدّة من مجاعة، أو قتلٍ، أو مصائبَ يُصابونَ بها، فكلُّ ذلك من العذابِ الأدنى، ولم يخصص الله تعالى ذِكْـرُهُ، إذْ وعـدهم ذلك أنْ يعذِّبَهُمْ بنوعٍ من ذلك دونَ نوعٍ، وقد عذَّبَهُمْ بكلِّ ذلك في

الدنيا بالقتلِ والجوعِ والشدائدِ والمصائبِ في الأموال، فأوفى لهم بما وعدهم.

وقوله: «دُونَ العَذَابِ الأكْبَرِ»، يقول: قبلَ العذابِ الأكبر، وذلك عذابُ يومِ القيامة.

وقوله: «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ»، يقول: كي يرجعوا ويتوبوا بتعذيبهم العذابَ الأدنى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأيّ الناسِ أظلمُ ممن وَعَظَهُ الله بحججه، وآي كتابه ورسله، ثم أعرضَ عن ذلك كله، فلم يَتَّعِظْ بمواعظِه، ولكنه استكبرَ عنها.

وقوله: «إنَّا مِنَ المُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ»، يقول: إنا من الذين اكتسبوا الآثامَ، واجترحوا السيئاتِ منتقمونَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولقد آتينا موسى التوراةَ، كما آتيناكَ الفرقانَ يا محمدُ «فَلَا تَكُنْ في مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ»، يقول: فلا تَكُنْ في شكٍّ من لقائه، فكان قتادةُ يقول: معنى ذلك: فلا تكن في شكٍّ من أنك لقيته، أو تلقاهُ ليلةَ أُسريَ بك.

وقوله: «وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إسْرائِيلَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وجعلنا موسى هُدى لبني إسرائيلَ، يعني: رشاداً لهم يَرْشُدونَ باتباعِهِ، ويُصيبونَ الحقَّ

بالاقتداءِ به، والائتمامِ بقوله.

وقوله: «وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أئمَةً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وجعلنا من بني إسرائيلَ أئمةً، وهي جمع إمام، والإمامُ، الذي يُؤتَمُّ به في خير أو شرٍّ وأُريدَ بذلك في هذا الموضع أنه جعل منهم قادةً في الخير، يؤتَمُّ بهم، ويُهْتَدى بهديهم.

وقوله: «يَهْدُونَ بأمْرِنَا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: يهدون أتباعَهُم وأهلَ القبولِ منهم بإذننا لهم بذلك، وتقويتنا إياهُمْ عليه.

وقوله: «لَمَّا صَبَرُوا»، اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأَة المدينة والبصرة، وبعض أهل الكوفة «لَمَّا صَبَرُوا» بفتح اللام وتشديد الميم، بمعنى: إذْ صبروا، وحِينَ صبروا، وقرأ ذلك عامة قَرَأَة الكوفة (لِمَا) بكسر اللام وتخفيف الميم، بمعنى: لِصَبْرِهم عن الدنيا وشهواتها، واجتهادِهم في طاعتنا، والعملِ بأمرنا.

والقول عندي في ذلك أنهما قراءتان مشهورتان متقاربتا المعنى، قد قرأ بكلٍّ واحدةٍ منهما عامة من القَرَأَة فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب. وتأويلُ الكلام إذ قُرِىء ذلك بفتح اللام وتشديد الميم: وجعلنا منهم أئمةً يهدون أتباعهم بإذننا إياهم، وتقويتنا إياهم على الهداية، إذْ صبروا على طاعتنا، وعَزَفُوا أنفسَهُمْ عن لذَّاتِ الدنيا وشهواتها. وإذ قُرِىءَ بكسر اللام فيكون على ما قد وصفنا.

وقوله: «وكانُوا بآيَاتِنا يُوْقِنُونَ»، يقول: وكانوا أهلَ يقينٍ بما دَلَّهُمْ عليه حُججنا، وأهلَ تصديقٍ بما تَبَيَّنَ لهم من الحقِّ، وإيمانٍ برسلنا، وآياتِ كتابنا وتنزيلنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ رَبَّكَ يا محمدُ هو يبينُ جميعَ خلقِه يومَ القيامة فيما كانوا فيه في الدنيا يختلفون من أمورِ الدينِ والبعثِ والثوابِ والعقاب، وغيرِ ذلك من أسبابِ دينهم، فيفرقُ بينهم بقضاءٍ فاصلٍ بإيجابه لأهلِ الحقِّ الجنةَ، ولأهلِ الباطلِ النارَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أو لم يبين لهم كثرةُ إهلاكِنا القرونَ الماضيةَ من قَبْلِهم يمشونَ في بلادهم وأرضهم، كعادٍ وثمود.

وقوله: «إنَّ في ذلك لآياتٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ في خلاء مساكنِ القرونِ الذين أهلكناهم من قَبْلُ هؤلاء المكذِّبينَ بآياتِ الله من قريش من أهلها الذين كانوا سُكَّانها وعُمَّارها بإهلاكِنا إياهم لما كذَّبوا رسلنا، وجحدوا بآياتنا، وعبدوا من دونِ الله آلهةً غيره التي يَمُرُّونَ بها فَيُعَاينُونَهَا، لآياتٍ[1] لهم وعظاتٍ يَتَّعِظُونَ بها، لو كانوا أولي حجا وعقولٍ، يقول الله «أفَلا يَسْمَعُونَ» عظاتِ الله وتذكيرَهُ إياهم آياتهِ، وتعريفَهُمْ مواضعَ حججه؟

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أوَ لَمْ يَرَ هؤلاءِ المكذِّبُونَ بالبعثِ بعد الموتِ والنشر

(١) سياق العبارة: إن في خلاء مساكن. . . لآياتٍ.

بعدِ الفناء، أنَّا بقُدْرَتِنَا نسوقُ الماءَ إلى الأرض اليابسة الغليظة التي لا نبات فيها، وأصلُهُ من قولهم: ناقةٌ جُرزٌ: إذا كانت تأكل كلَّ شيء، وكذلك الأرضُ الجروزُ: التي لا يبقى على ظهرها شيءٌ إلا أفسدته.

«فنخرجُ به زرعاً تأكلُ منه أنعامهُمْ وأنفُسهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فنخرجُ بذلك الماءِ الذي نسوقُه إليها على يبسِها وغلظها وطولِ عهدها بالماءِ زرعاً خضراً تأكلُ منه مواشيهم. وتغذى به أبدانهم وأجسامهم فيعيشون به «أفلا يبصرون»، يقول تعالى ذكره أفلا يرون ذلك بأعينهم فيعلموا برُؤْيَتِهُمُوهُ أنَّ القدرةَ التي بها فعلتُ ذلك لا يتعذَّرُ عليَّ أنْ أُحيي بها الأمواتَ وأُنشرهم من قبورِهم، وأُعيدُهم بهيئاتهم التي كانوا بها قبلَ وفاتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَيَقُولونَ» هؤلاء المشركون بالله يا محمدُ لكَ «مَتى هَذَا الْفَتْحُ»، واختلف في معنى ذلك، فقال بعضهم: معناه: متى يجيءُ هذا الحكمُ بيننا وبينكم، ومتى يكونُ هذا الثوابُ والعقاب.

وقال آخرون: بل عنى بذلك: فتحَ مكة.

والصواب من القول في ذلك قولُ مَنْ قال: معناه: ويقولون متى يجيء هذا الحكمُ بيننا وبينكم، يَعْنُونَ العذابَ، يدلُّ على أنَّ ذلك معناه قوله: «قُلْ يَوْمَ الفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ» ولا شكَّ أنَّ الكفارَ قد كان جعل الله لهم التوبة قبل فتحِ مكة وبعدَهُ، ولو كان معنى قوله: «مَتى هَذَا الفَتْحُ» على ما قاله مَنْ قال: يعني به: فتح مكة، لكان لا توبةَ لمن أسلمَ

من المشركينَ بعد فتحِ مكة، ولا شكَّ أنَّ الله قد تابَ على بشرٍ كثيرٍ من المشركينَ بعد فتح مكة، ونفعهم بالإيمانِ به وبرسوله فمعلومٌ بذلك صحة ما قلنا من التأويلِ، وفساد ما خالفه.

وقوله: «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»، يعني: إنْ كنتم صادقينَ في الذي تقولون مِنْ أنَّا مُعاقَبُونَ على تكذيبنا محمداً ﷺ، وعبادتنا الآلهةَ والأوثان.

وقوله: «قُلْ يَوْمَ الفَتْحِ لاينفع الذين كفروا إيمانهم» يقول لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ لهم يومَ الحكم، ومجيء العذابِ: لا ينفعُ مَنْ كفرَ بالله وبآياتِه إيمانُهم الذي يحدثونه في ذلك الوقت.

وقوله: «وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ»، يقول: ولا هم يؤخرون للتوبة والمراجعة.

وقوله: «فأَعْرِضْ عَنْهُمْ وانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرونَ»، يقول لنبيه محمدٍ ﷺ: فأعرضْ يا محمدُ عن هؤلاء المشركينَ بالله، القائلينَ لك: متى هذا الفتحُ، المُسْتَعْجِليكَ بالعذابِ، وانتظرْ ما الله صانعٌ بهم، إنهم منتظرونَ ما تَعِدُهم من العذابِ ومجيءِ الساعة.

سُورَةُ الأَحْزَاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: «يا أيُّها النبيُّ اتَّقِ الله» بطاعته، وأداءِ فرائضه، وواجبِ حقوقِه عليكَ، والانتهاءِ عن محارمه، وانتهاكِ حدوده «وَلَا تُطِع الكافِرينَ» الذين يقولون لكَ: اطردْ عنكَ أتباعكَ من ضعفاءِ المؤمنينَ بك حتى نُجالِسَكَ. «والمُنافِقينَ» الذين يُظْهِرُونَ لكَ الإيمانَ بالله والنصيحة لك، وهم لا يَأْلُـونَكَ وأصحابك ودِينَكَ خبالاً، فلا تقبلْ منهم رأياً، ولا تَسْتَشِرْهُمْ مُسْتَنْصِحاً بهم، فإنهم لكَ أعـداء. «إنَّ الله كانَ عَلِيمـاً حَكِيماً»، يقول: إنَّ الله ذو علم بما تُضْمِـرُه نفوسهم، وما الذي يقصدون في إظهارهم لك النصيحة، مع الذي ينطوونَ لكَ عليه، حكيمٌ في تدبيرِ أمركَ وأمرِ أصحابكَ ودينك، وغيرِ ذلك من تدبيرِ جميعِ خَلْقِه. «وَاتَّبِعْ ما يُوحَى إلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ»، يقول: واعملْ بما ينزل الله عليكَ من وحيِه، وآيِ كِتابه. «إنَّ الله كانَ بمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً»، يقول: إنَّ الله بما تعمل به أنتَ وأصحابُكَ من هذا القرآنِ، وغيرِ ذلك من أمورِكم وأمورِ عبادِه «خبيراً» أي ذا خبرةٍ، لا يخفى عليه من ذلك شيءٌ، وهو مجازيكم على ذلك بما وعدكم من الجزاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾



يقول تعالى ذِكْرُهُ: وفَوِّضْ إلى الله أمركَ يا محمدُ، وثِقْ به «وكَفَى بالله وَكِيلًا»، يقول: وحَسْبُكَ بالله فيما يأمركَ وكيلًا، وحفيظاً بك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في المرادِ من قولِ الله «ما جَعَلَ اللهِ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ في جَوْفِهِ»، فقال بعضهم: عنى بذلك تكذيبَ قومٍ من أهلِ النفاق، وصفوا نبيَّ الله ﷺ بأنه ذو قلبين، فنفى الله ذلك عن نبيهِ، وكَذَّبهم.

وقال آخرون: بل عُنِيَ بذلك: رجلٌ من قريش كان يُدعى ذَا القلبينِ من دَهْيه.

وقال آخرون: بل عُني بذلك زيد بن حارثة من أجلِ أنَّ رسولَ الله ﷺ كان تَبَنَّاهُ، فضربَ الله بذلك مثلًا.

وأولى الأقـوال في ذلك بالصواب قولُ من قال: ذلك تكذيبٌ من الله تعالى قولَ مَنْ قال لرجلٍ في جوفه قلبانِ يعقلُ بهما، وجائزٌ أنْ يكون ذلك تكذيباً من الله لمن وصف رسولَ الله ﷺ بذلك، وأنْ يكون تكذيباً لمن سَمَّى القرشيَّ الذي ذُكر أنه سُمِّيَ ذا القلبين من دَهْيه، وأيّ الأمرين كان فهو نفيٌ من الله عن خَلْقِه من الرجال أنْ يكونُوا بتلك الصفة.

وقوله: «وَما جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولم يجعل الله أيها الرجالُ نساءَكم اللائي تقولون لَهُنَّ: أنتنَّ علينا كظهورِ أُمَّهاتِنَا أُمَّهاتِكُمْ، بَلْ جعل ذلك من قِيلِكم كذباً، وألزمكم عقوبةً لكم كفَّارة.

وقوله: «وَما جَعَلَ أدعياءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ»، يقول: ولم يجعل الله من ادَّعيتَ أنه ابنك، وهو ابن غيرك ابنك بدعواك.

وذُكر أنَّ ذلك نزلَ على رسولِ الله ﷺ من أجلِ تَبَنِّيه زيدَ بن حارثة[1].

وقوله: «ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بأفْوَاهِكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: هذا القولَ، وهو قولُ الرجلِ لامرأتِه: أنتِ عليَّ كظهرِ أمي، ودعاؤُه مَنْ ليس بابنهِ أنه ابنُه، إنما هو قولُكم بأفواهِكم لا حقيقةَ له، لا يَثْبُتُ بهذه الدعوى نَسَبُ الذي ادَّعَيْتَ بُنُوَّتَهُ، ولا تصيرُ الزوجةُ أُمًّا بقولِ الرجلِ لها: أنت عليَّ كظهرِ أمي. «واللهُ يقُولُ الحَقَّ»، يقول: والله هو الصادقُ الذي يقولُ الحقَّ، وبقولِه يَثْبُتُ نَسَبُ مَنْ أثبت نسبه، وبه تكونُ المرأة للمولودِ أُمًّا إذا حكم بذلك «وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: والله يبينُ لعبادِه سبيلَ الحقِّ، ويرشدهم لطريقِ الرشاد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥﴾

يقول الله تعالى ذِكْرُهُ: انسبوا أدعياءَكُم الذين ألحقتم أنسابَهم بكم

(١) ذلك ثابت في الصحيحين.

لآبائهم، يقولُ لنبيه محمدٍ ﷺ: أَلْحِقْ نَسَبَ زيدٍ بأبيهِ حارثةَ، ولا تَدْعُهُ زيدَ ابن محمدٍ.

وقوله: «هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ»، يقول: دعاؤُكم إياهُمْ لآبائِهم هو أعدلُ عند الله، وأصدقُ وأصوبُ من دعائِكم إياهم لغيرِ آبائهم ونِسْبَتِكُمُوهُمْ إلى مَنْ تَبَنَّاهُمْ وادَّعاهم وليسوا له بنينَ.

وقـوله: «فإنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ في الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فإنْ أنتم أيها الناسُ لم تعلموا آباءَ أدعيائِكم مَنْ هم فَتَنْسُبُوهُمْ إليهم، ولم تَعْرِفُوهم، فَتُلْحِقُوهم بهم، فإخوانُكم في الدين، يقول: فهم إخوانكم في الدين، إنْ كانوا من أهلِ مِلَّتكم ومواليكم إنْ كانوا مُحَرَّرِيكُمْ وليسوا بِبَنِيكُمْ.

«فإنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فإخْوَانكُمْ في الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ»، فإنْ لم تعلموا مَنْ أبوه فإنما هو أخوكَ ومولاكَ.

وقوله: «وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطأْتُمْ بِهِ»، يقول: ولا حَرَجَ عليكم ولا وزرَ في خطأٍ يكونُ منكم في نسبةِ بعضِ مَنْ تنسبُونَهُ إلى أبيهِ، وأنتم ترونَهُ ابنَ مَنْ ينسبونهُ إليه، وهو ابنٌ لغيره «وَلَكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ»، يقول: ولكنَّ الإثمَ والحرجَ عليكم في نِسْبَتِكُمُوهُ إلى غيرِ أبيه، وأنتم تعلمونه ابنَ غيرِ مَنْ تنسبونَه إليه.

وقوله: «وكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكان الله ذا سترٍ على ذنبِ مَنْ ظاهرَ زوجتَهُ فقال الباطلَ والزورَ من القولِ، وذنبِ من ادَّعى ولدَ غيرِه ابناً له، إذا تابا وراجعا أمرَ الله، وانتهيا عن قِيلِ الباطلِ بعد أنْ نهاهما رَبُّهما عنه، ذا رحمةٍ بهما أن يعاقبهما على ذلك بعد توبتِهما من خطيئتِهما.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «النَّبِيُّ» محمدٌ «أَوْلَى بِالمُؤْمِنِينَ»، يقول: أحقُّ بالمؤمنينَ به «مِنْ أَنْفُسِهِمْ» أنْ يحكمَ فيهم بما يشاءُ من حكم، فيجوز ذلك عليهم[1].

وقوله: «وأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ»، يقول: وحرمةُ أزواجِه حرمةُ أمهاتِهم عليهم في أنهن يحرمُ عليهم نكاحُهُنَّ من بعدِ وفاتِه، كما يحرمُ عليهم نكاحُ أمهاتهم.

وقوله: «وأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ مِنَ المُؤْمِنِينَ والمُهَاجِرِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأولو الأرحامِ الذين وَرَّثْتَ بعضَهم من بعضٍ، هم أَوْلى بميراثِ بعضٍ من المؤمنينَ والمهاجرين أنْ يرثَ بعضهم بعضاً بالهجرةِ والإيمانِ دون الرحم.

وقوله: «إلا أَنْ تَفْعَلُوا إلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً»، اختلف أهلُ التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معنى ذلك: إلا أنْ تُوصُوا لذوي قرابتكم من غيرِ أهلِ الإيمان والهجرة.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: إلا أنْ تُمْسِكُوا بالمعروفِ بينكم بحقِّ الإيمانِ والهجرةِ والحلف، فَتُؤْتُونَهُمْ حَقَّهم من النُّصْرةِ والعَقْلِ عنهم[2].

---

(١) الأحاديث الصحيحة في ذلك كثيرة معروفة، ومنها حديث أبي هريرة المعروف: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة»، وهو في الصحيحين.

(٢) العقل: دفع الدية عن القتل الخطأ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنْ تُوصُوا إلى أوليائكم من المهاجرينَ وصيةً.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك عندي بالصوابِ أنْ يقال: معنى ذلك: إلا أن تفعلوا إلى أوليائِكم الذِينَ كان رسولُ الله ﷺ آخَى بينهم وبينكم من المهاجرينَ والأنصار، معروفاً من الوصيةِ لهم، والنصرة والعقل عنهم، وما أشبهَ ذلك، لأنَّ كُلَّ ذلك من المعروفِ الذي قد حَثَّ الله عليه عباده.

وإنما اخترتُ هذا القولَ، وقلت: هو أولى بالصوابِ من قِيلِ مَنْ قال: عَنَى بذلك الوصيةَ للقرابةِ من أهلِ الشرك، لأنَّ القريبَ من المشرك، وإنْ كان ذا نَسَبٍ فليس بالمولى، وذلك أنَّ الشِّرْكَ يقطعُ ولايةَ ما بين المؤمن والمشركِ، وقد نَهَى الله المؤمنينَ أنْ يتخذوا منهم ولياً بقوله: «لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أوْلِيَاءَ»، وغير جائزٍ أنْ ينهاهم عن اتخاذِهم أولياءَ، ثم يَصِفُهم جَلَّ ثناؤُهُ بأنهم لهم أولياء. وموضع «أن» من قوله: «إلَّا أنْ تَفْعَلُوا» نصب على الاستثناء. ومعنى الكلام: وأُولُوا الأرحامِ بعضهم أولى ببعضٍ في كتابِ الله من المؤمنين والمهاجرين، إلا أنْ تفعلوا إلى أوليائكم الذين ليسوا بأولي أرحامٍ منكم معروفاً.

وقوله: «كانَ ذلكَ في الكِتَابِ مَسْطُوراً»، يقول: كان أُولُو الأرحامِ بعضهم أولى ببعضٍ في كتابِ الله: أي في اللوح المحفوظ «مسطوراً»، أي: مكتوباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: كان ذلك في الكتاب مسطوراً، إذْ كتبنا كُلَّ ما هو كائنٌ في الكتابِ «وإذْ أخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ» كان ذلك أيضاً في الكتاب مسطوراً، ويعني بالميثاق: العهد، وقد بيَّنا ذلك فيما مضى قَبْلُ. «وَمِنْكَ» يا محمدُ «وَمِنْ نُوحٍ وإبْراهِيم ومُوسى وعِيسَى بن مَرْيَمَ وأخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً»، يقول: وأخذنا من جميعهم عهداً مؤكداً أنْ يُصَدِّقَ بعضُهم بعضاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أخذنا من هؤلاءِ الأنبياءِ ميثاقَهم كيما أسألَ المرسلينَ عما أجابَتْهُمْ به أُممهم، وما فعلَ قومُهم فيما أبلغوهم عن رَبِّهم من الرسالة.

وقوله: «وأعَدَّ للكافِرينَ عَذَاباً أليماً»، يقول: وأعدَّ للكافِرينَ بالله من الأممِ عذاباً موجعاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ» التي أنعمها على جماعتكم وذلك حين حُوصِرَ المسلمونَ مع رسولِ الله ﷺ أيامَ الخندقِ «إذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ»: يعني جنودَ الأحزابِ: قريش، وغَطفان، ويهود بني النضير «فأرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً» وهي فيما ذكر: ريح الصَّبا.

وقوله: «وكانَ الله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكان الله

بأعمالكم يومئذٍ، وذلك صبرهم على ما كانوا فيه من الجهدِ والشِدَّةِ، وثباتهم لعـدوِّهم، وغير ذلـك من أعمـالهم، «بصيراً» لا يَخْفَى عليه من ذلك شيءٌ يحصيه عليهم ليجزيهم عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُهُ: وكـان الله بما تعملون بصيراً، إذ جاءتكم جنودُ الأحزابِ من فوقِكم، ومِنْ أسفلَ منكم، وقِيلَ: إنَّ الذينَ أَتوهم من أسفلَ منهم أبو سفيان في قريش ومَنْ معه.

وقوله: «وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ»، يقول: وحين عَدلَتْ الأبصارُ عن مقرِّهَا، وشَخَصَتْ طامحةً.

وقوله: «وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ»، يقول: نَبَتِ القلوبُ عن أماكنها من الرعبِ والخوفِ، فبلغتْ إلى الحناجر.

وقوله: «وَتَظُنُّونَ باللهِ الظُّنُونا»، يقول: وتظنون بالله الظنونَ الكاذبةَ، وذلك كظنِّ مَنْ ظنَّ منهم أنَّ رسولَ الله ﷺ يُغْلَبُ، وأنَّ ما وَعَدَهُ الله من النصرِ أنْ لا يكونَ، ونحوِ ذلك من ظنونهم الكاذبة التي ظنها مَنْ ظنَّ ممن كانَ مع رسولِ الله ﷺ في عسكره.

وقـولـه: «هُنـالِـكَ ابْتُلِيَ المُـؤْمِنُـونَ»، يقـول: عند ذلك اخْتُبِرَ إيمانُ المؤمنين، ومُحِّصَ القومُ وعُرِفَ المؤمنُ من المنافق.

وقوله: «وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً»، يقول: وحُرِّكُوا بالفتنةِ تحريكاً شديداً، وابْتُلُوا وفُتِنُوا.

وقوله: «وَإِذْ يقُولُ المُنافِقُونَ والَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ»: شكٌّ في الإيمانِ وضَعْفٌ في اعتقادهم إياه: «ما وَعَدَنَا الله ورسولُه إلا غروراً»، وذلك فيما ذُكِرَ قولُ معتب بن قشير[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وَإِذْ قَالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ» وإذ قال بعضُهم: يا أهلَ يثربَ، ويثرب: اسمُ أرضٍ، فيقال: إنَّ مدينة رسولِ الله ﷺ في ناحية من يثرب.

وقوله: «لا مَقامَ لَكُمْ فارْجِعُوا» بفتح الميم من المقام[2]، يقول: لا مكانَ لكم، تقومونَ فيه.

وقـوله: «فارْجِعُوا»، يقول: فارجعوا إلى منازلكم، أمَرَهُمْ بالهربِ من عسكرِ رسولِ الله ﷺ والفرارِ منه، وتركِ رسولِ الله ﷺ. وقيل: إنَّ ذلك من قِيلِ أوس بن قيظي ومَنْ وافقه على رأيه.

---

(١) معتب بن قشير أحد المنافقين ، وهو المعنيّ في قوله: «وإذ يقول المنافقون».

(٢) قراءة المصحف بضم الميم كما هو معروف، ولكن المؤلف يرى الأصوب قراءتها بالفتح كما سيأتي.

والقراءة على فتح الميم من قوله: «لا مَقامَ لَكُمْ» بمعنى: لا موضعَ قيامٍ لكم، وهي القراءة التي لا أستجيزُ القراءةَ بخلافها، لإجماعِ الحُجَّةِ من القرّاءِ عليها. وذُكر عن أبي عبدالرحمن السلمي أنه قرأ ذلك «لا مُقامَ لَكُمْ» بضم الميم، يعني: لا إقامةَ لكم.

وقوله: «وَيَسْتأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ ومَا هِيَ بِعَوْرَةٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويستأذنُ بعضُهم رسولَ الله ﷺ في الإذنِ بالانصرافِ عنه إلى منزلِه، ولكنه يريدُ الفرارَ والهربَ من عسكرِ رسولِ الله ﷺ.

وقوله: «وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أقْطارِها»، يقول: ولو دخلت المدينة على هؤلاء القائلينَ: «إنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ» من أقطارها، يعني: من جوانبها ونواحيها، واحدها: قطر.

وقوله: «ثُمَّ سُئِلُوا الفِتْنَةَ»، يقول: ثم سُئِلُو الرجوعَ من الإيمانِ إلى الشركِ «لأَتَوْها»، يقول: لفعلوا ورجَعُوا عن الإسلامِ وأشركوا.

وقوله: «وَما تَلَبَّثُوا بها إلاَّ يَسِيراً»، يقول: وما احْتَبَسُوا عن إجابتهم إلى الشركِ إلا يسيراً قليلاً، ولأسرعوا إلى ذلك.

واختلفت القَـرَأَةُ في قراءةِ قوله: «لأَتَوْها» فقرأ ذلك عامة قَرَأَةِ المدينة وبعض قَرَأةِ مكة «لأَتَوْها» بقصر الألف، بمعنى جاؤوها. وقرأه بعض المكيين وعامة قَرَأةِ الكوفة والبصرة «لآتَوْها» بمدِّ الألف، بمعنى: لأعطوها لقوله: «ثم سُئِلُوا الفتنة»، وقالوا: إذا كان سؤالٌ كانَ إعطاءٌ، والمدُّ أعجبُ القراءتين إليَّ لما ذكرتُ، وإنْ كانت الأُخرى جائزة.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولقد كان هؤلاء الذين يستأذنونَ رسولَ الله ﷺ في الانصرافِ عنه، ويقولون إنَّ بيوتنا عورةٌ، عاهدوا الله من قبل ذلك، أنْ لا يُوَلُّوا عدوَّهم الأدبارَ، إن لَقُوهُمْ في مشهدٍ لرسولِ الله ﷺ معهم، فما أوفوا بعدهِم، «وكانَ عَهْدُ الله مَسْئُولاً»، يقول: فيسأل الله ذلك من أعطاه إياه من نفسه.

وذُكر أنَّ ذلك نزلَ في بني حارثة لما كان من فِعْلِهم في الخندق بعد الذي كان منهم بأُحُد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ «قُلْ» يا محمدُ لهؤلاء الذين يستأذنونك في الانصرافِ عنك ويقولون: إن بيوتنا عورة: «لَنْ يَنْفَعَكُمُ الفِرَارُ إنْ فَرَرْتُمْ مِنَ المَوْتِ أوِ القَتْلِ»، يقول: لأن ذلك، أو ما كتب الله منهما واصلٌ إليكم بكلِّ حالٍ، كَرِهْتُمْ أو أحببتم. «وإذاً لا تُمَتَّعُونَ إلاَّ قَلِيلاً»، يقول: وإذا فررتم من الموتِ أو القتلِ لم يزد فِراركُم ذلكَ في أعمارِكم وآجالكم، بل إنما تُمَتَّعُونَ في هذه الدنيا إلى الوقتِ الذي كُتِبَ لكم، ثم يأتيكم ما كُتِبَ لكم وعليكم.

وقـولـه: «قُلْ مَنْ ذا الَّذِي يَعْـصِـمُـكُـمْ مِنَ الله إنْ أرادَ بِكُمْ سُوءاً أوْ أرادَ بِكُمْ رَحْمَةً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: قُلْ يا محمد لهؤلاء الذين يستأذنونكَ ويقولون: إنَّ بيوتَنا عورةٌ هرباً من القتلِ: مَنْ ذا الذي يمنعُكم من الله إنْ هو أرادَ بكم سوءً في أنفسكم، من قتلٍ أو بلاءٍ أو غيرِ ذلك، أو عافيةٍ وسلامة؟ وهل ما يكونُ بكم في أنفسكم من سوءٍ أو رحمة إلا من قِبَلِه؟

وقوله: «وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِياً وَلَا نَصِيراً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولا يجد هؤلاء المنافقون إنْ أرادَ الله بهم سوءاً في أنفسهم وأموالهم من دونِ الله ولياً يَلِيهم بالكفايةِ ولا نصيراً ينصرهم من الله فيدفع عنهم ما أرادَ الله بهم من سوءٍ في ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قد يعلمُ الله الذين يُعَوِّقُونَ منكم عن رسولِ الله ﷺ فَيَصُدُّونَهم عنه، وعن شهودِ الحربِ معه، نفاقاً منهم، وتخذيلاً عن الإسلامِ وأهلِه «والقائِلِينَ لإخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إلَيْنَا»، أي: تعالوا إلينا، ودعوا محمداً، فلا تشهدوا معه مَشْهَدَهُ، فإنّا نخافُ عليكم الهلاكَ بهلاكِه، «وَلا يَأْتُونَ البأْسَ إلّا قَلِيلاً»، يقول: ولا يشهدونَ الحربَ والقتالَ إنْ شهدوا إلا تعذيراً، ودفعاً عن أنفسِهم المؤمنينَ.

وقوله: «أشِحَّةً عَلَيْكُمْ»، اختلف أهل التأويل في المعنى الذي وَصَفَ الله به هؤلاء المنافقينَ في هذا الموضعِ من الشُّحِّ، فقال بعضهم: وصفهم بالشحِّ عليهم في الغنيمة.

وقال آخرون: بل وصفهم بالشحِّ عليهم بالخيرِ.

والصوابُ من القولِ في ذلك عندي أن يقال: إنَّ الله وصف هؤلاء المنافقين بالجبنِ والشُّحِّ، ولم يخصصْ وَصْفَهُمْ من معاني الشحِّ، بمعنى دونَ معنى، فهم كما وَصَفَهُم الله به: أشحة على المؤمنينَ بالغنيمةِ والخيرِ والنفقةِ في سبيلِ الله، على أهلِ مسكنةِ المسلمينَ.

وقوله: «فإِذَا جاءَ الخَوْفُ». . . إلى قوله: «مِنَ المَوْتِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فإذا حَضَرَ البأسُ، وجاء القتالُ خافوا الهلاكَ والقتلَ، رأيتَهم يا محمدُ ينظرونَ إليك لواذاً بك، تدورُ أعينُهم خوفاً من القتلِ، وفراراً منه «كالَّذي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ»، يقول: كَدَوَرَانِ عينِ الذي يُغْشَى عليه من الموتِ النازلِ به «فإِذَا ذَهَبَ الخَوْفُ»، يقول: فإذا انقطعتِ الحربُ واطمأنوا «سَلَقُوكُمْ بأَلْسِنَةٍ حِدادٍ».

وأما قوله: «سَلَقُوكُمْ بأَلْسِنَةٍ حِدادٍ»، فإنه يقول: عَضُّوكُمْ بألسنةٍ ذَربةٍ، ويقالُ للرجلِ الخطيبِ الذَّربِ اللسانِ: خطيب مسلق ومصلق، وخطيبٌ سَلاق وصَلاق.

وقد اختلف أهلُ التأويل في المعنى الذي وصف تعالى ذِكْرُهُ هؤلاء المنافقينَ أنهم يسلقونَ المؤمنينَ به، فقال بعضهم: ذلك سَلْقُهُمْ إياهم عند الغنيمةِ بمسألتهم القسمَ لهم.

وقال آخرون: بل ذلك سلقهم إياهم بالأذَى.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنهم يسلقونهم من القولِ بما تحبون نفاقاً منهم.

وأشبه هذه الأقوالِ بما دلَّ عليه ظاهرُ التنزيل قولُ مَنْ قال «سَلَقُوكُمْ بأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَةً عَلى الخَيْرِ» فأخبر أنَّ سلقهم المسلمينَ شحاً منهم على الغنيمةِ والخيرِ، فمعلومٌ إذْ كان ذلك كذلك، أن ذلك لطلبِ الغنيمة. وإذا كان

ذلك منهم لطلب الغنيمةِ دخلَ في ذلك قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: سلقوكم بالأذى، لأنَّ فِعْلَهم ذلك كذلك لا شكَّ أنه للمؤمنينَ أذى.

وقوله: «أشِحَّةً عَلى الخَيْرِ»، يقول: أشحةً على الغنيمةِ إذا ظفرَ المؤمنونَ.

وقوله: «لَمْ يُؤْمِنُوا فأحْبَطَ الله أعمالَهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: هؤلاء الذين وصفتُ لك صفتهم في هذه الآياتِ لم يُصَدِّقُوا الله ورسولَهُ، ولكنهم أهلُ كُفْرٍ ونفاقٍ، فأحبطَ الله أعمالهم، يقول: فأذهبَ الله أُجورَ أعمالِهم وأبْطَلَها.

وقوله: «وكانَ ذلكَ على الله يَسِيراً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكان إحباطُ عَمَلِهم الذي كانوا عَمِلُوا قبلَ ارتدادِهم ونفاقِهم على الله يسيراً.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يحسبُ هؤلاء المنافقونَ الأحزابَ، وهم قريش وغطفان.

وقوله: «لَمْ يَذْهَبُوا»، يقول: لم ينصرفُوا، وإنْ كان قد انصرفوا جُبْناً وهَلَعاً منهم.

وقوله: «وَإنْ يَأْتِ الأحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أنهُمْ بادُونَ في الأعْرابِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإنْ يأتِ المؤمنينَ الأحزابُ وهم الجماعةُ: واحدهم: حزبٌ. «يَوَدُّوا»، يقول: يَتَمَنَّوْا من الخوفِ والجبن أنهم غُيَّبٌ عنكم في البادية مع الأعرابِ خوفاً من القتلِ. وذلك أنَّ قوله: «لَوْ أنَّهُمْ بادُونَ فِي الأعْرابِ»، تقول: قد بَدَا فلانٌ إذا صار في البدوِ فهو يبدو، وهو بادٍ، وأما الأعرابُ: فإنهم جمعُ

أعرابيٌّ، وواحدُ العرب: عربيّ. وإنما قيل: أعرابيٌّ لأهلِ البدو، فَرْقاً بين أهلِ البوادي والأمصار، فجعل الأعراب لأهلِ البادية، والعرب لأهلِ المِصْر.

وقولـه: «يَسـألُونَ عَنْ أنْبائِكُمْ»، يقول: يستخبرُ هؤلاء المنافقونَ أيها المؤمنـونَ الناسَ عن أنبائِكم، يعني عن أخبارِكم بالبادية، هل هَلَكَ محمدٌ وأصحابُه؟ نقول: يتمنون أنْ يسمعوا أخبارَكم بهلاكِكم، أن لا يشهدوا معكم مشاهدكم «وَلَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إلا قَليلاً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ للمؤمنين: ولو كانـوا أيضـاً فيكم ما نَفَعُـوكُم، وما قاتلوا المشركينَ «إلا قليلاً»، يقول: إلا تعذيراً، لأنهم لا يقاتلونهم حِسْبَةً ولا رجاءَ ثوابٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾

اختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «أُسْوَةٌ» فقرأ ذلك عامة قَرَأَةِ الأَمْصَارِ «إِسْوَةٌ» بكسر الألف، خَلاَ عاصمَ بن أبي النجود، فإنه قرأه بالضمِّ «أُسْوَةٌ»، وكان يحيى ابن وثاب يقرأُ هذه بالكسر، ويقرأ قوله: «لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ» بالضمِّ، وهما لغتان. وذُكِرَ أنَّ الكسرَ في أهل الحجاز، والضمَّ في قيس، يقولون: أُسْوة، وأُخوة.

وهذا عتابٌ من الله للمتخلفينَ عن رسولِ الله ﷺ وعسكرِه بالمدينةِ، من المؤمنينَ به، يقولُ لهم جَلَّ ثناؤُهُ: «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة»، أنْ تتأسوا به، وتكونوا معه حيثُ كان، ولاتتخلَّفُوا عنه. «لِمَنْ كانَ يَرْجُو الله»، يقول: فإنَّ مَنْ يرجو ثوابَ الله ورحمتَهُ في الآخرة لا يرغبُ بنفسه، ولكنه تكونُ

له به أُسوة في أنْ يكون معه حيثُ يكونُ هو. «وَذَكَرَ الله كَثِيراً»، يقول: وأكْثَرَ ذِكْرَ الله في الخوفِ والشدّةِ والرخاء.

وقوله: «وَلَمَّا رأى المُؤْمِنُونَ الأحْزَابَ»، يقول: ولَمَّا عاينَ المؤمنونَ بالله ورسولِه جماعات الكفار قالوا تسليماً منهم لأمر الله، وإيقاناً منهم بأنَّ ذلك إنجاز وعدِه لهم، الذي وَعَدَهُمْ بقوله: «أمْ حَسِبْتُمْ أنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ». . . إلى قوله: «قَرِيبٌ» هذا ما وَعَدَنَا الله ورسولُهُ، وصَدَقَ الله ورسولُه، فأحسنَ الله عليهم بذلك من يقينهم، وتسليمهم لأمرِه الثناء، فقال: وما زَادَهُمْ اجتماعُ الأحزابِ عليهم إلا إيماناً بالله وتسليماً لقضائه وأمره، ورزقهم به النصرَ والظفرَ على الأعداء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «مِنَ المُؤْمِنينَ» بالله ورسولِه «رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا الله عَلَيْه»، يقول: أوفوا بما عاهدُوهُ عليه من الصبرِ على البأساءِ والضرَّاءِ، وحين البأسِ «فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ»، يقول: فمنهم مَنْ فرغ من العملِ الذي كان نَذَرَهُ الله وأوجَبَهُ له على نفسِه، فاستشهد بَعْضٌ يومَ بدرٍ، وبعضٌ يومَ أُحد، وبعضٌ في غيرِ ذلك من المواطن «وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ» قضاءَهُ والفراغ منه، كما قضى مَنْ مضى منهم على الوفاءِ لله بعهدِه، والنصرِ من الله، والظفرِ على عدوِّه. والنَّحْب: النَّذْرُ في كلامِ العرب. وللنحب أيضاً في كلامهم وجوهٌ غير ذلك، منها الموتُ.

وقيل: إنَّ هذه الآية نزلتْ في قومٍ لم يشهدوابدراً، فعاهدوا الله أنْ يَفُوا قتالاً للمشركينَ مع رسولِ الله ﷺ، فمنهم مَنْ أوْفى فقضى نَحْبَهُ، ومنهم من بَدَّلَ، ومنهم من أوْفى ولم يقضِ نحبه، وكان منتظراً، على ما وَصَفَهُم الله به من صفاتهم في هذه الآية.

وقوله: «وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلًا»: وما غَيَّرُوا العهدَ الذي عاقدوا رَبَّهم تغييراً، كما غَيَّرَهُ المُعَوِّقُونَ القائلونَ لإخوانِهم: هَلُمَّ إلينا، والقائلونَ: ﴿إنَّ بيوتَنَا عورةٌ﴾ [الأحزاب:١٣].

وقوله: «لِيَجْزِيَ الله الصادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: «مِنَ المُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا الله عَلَيْهِ لِيَجْزِيَ الله الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ»، يقول: لِيُثِيبَ الله أهلَ الصدق بصدقهم الله بما عاهدوه عليه، ووفائِهم لَهُ بِهِ، «وَيُعَذِّبَ المُنَافِقِينَ إنْ شاءَ» بكفرِهم بالله ونفاقِهم «أوْ يَتُوبَ عَلَيهِمْ» من نفاقِهم، فيهديهم للإيمان.

وقوله: «إنَّ الله كانَ غَفُوراً رَحِيماً»، يقول: إنَّ الله كان ذا سترٍ على ذنوبِ التائبينَ، رحيماً بالتائبين أنْ يعاقبهم بعدَ التوبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «ورَدَّ الله الَّذِينَ كَفَرُوا» به وبرسولِه من قُرَيشٍ وغطفانَ «بِغَيْظِهِمْ»، يقول: بِكَرْبهم وغَمِّهم، بِفَوْتِهم ما أمَّلُوا من الظَّفَرِ، وخَيَّبَهم مما كانوا طَمِعُوا فيه من الغَلَبةِ «لَمْ يَنالُوا خَيْراً»، يقول: لم يُصِيبُوا من المسلمينَ مالاً ولا إساراً. «وَكَفَى الله المُؤْمِنِينَ القِتَالَ» بجنودٍ من الملائكة والريحِ التي بعثها عليهم.

وقوله: «وكانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزاً»، يقول: وكان الله قوياً على فِعْلِ ما يشاء فِعْلَهُ بخلقِه، فينصرُ مَنْ شاء منهم على مَنْ شاء أنْ يخذله، لا يغلبُه غالبٌ، «عزيزاً»، يقول: هو شديدُ انتقامُه ممن انتقم منه من أعدائِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأنزلَ الله الذين أعانوا الأحزابَ من قريش وغطفانَ على رسولِ الله ﷺ وأصحابه، وذلك هو مُظَاهَرَتُهم إيَّاهُمْ[1]، وعَنَى بذلك بني قريظة، وهم الذين ظاهروا الأحزابَ على رسولِ الله ﷺ.

وقوله: «مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ»، يعني: من أهلِ التوراةِ، وكانوا يهود.

وقوله: «مِنْ صَياصِيهِمْ»، يعني: من حُصُونهم.

وقوله: «وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ»، يقول: وألقى في قلوبهم الخوفَ منكم «فَرِيقاً تَقْتُلُونَ»، يقول: تقتلونَ منهم جماعةً، وهم الذين قتلَ رسولُ الله ﷺ منهم حين ظهرَ عليهم «وَتأْسِرُونَ فَرِيقاً»، يقول: وتأسرونَ منهم جماعةً، وهم نساؤُهم وذَرارِيهم الذين سبوا.

«وأَوْرَثَكُم أَرْضَهُمْ وَديارَهُمْ وأَمْوَالَهُمْ»، يقول: ومَلَّكَكُمْ بعدَ مَهْلِكِهم أرضَهم، يعني: مزارعهم ومَغَارِسَهُمْ «وديارهم»، يقول: ومساكنهم «وأموالهم»، يعني: سائرَ الأموالِ غيرَ الأرضِ والدور.

---

(١) في المطبوع: «إياه»، وبها يفسد المعنى.

وقوله: «وأرْضاً لَمْ تَطَئُوها»، اختلف أهلُ التأويل فيها، أيّ أرضٍ هيَ؟ فقال بعضهم: هي الروم وفارس ونحوها من البلادِ التي فتحها الله بعدَ ذلك على المسلمين.

وقال آخرون: هي مكة.

وقال آخرون: بل هي خيبر.

والصوابُ من القولِ في ذلك أن يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ أخبرَ أنه أورثَ المؤمنينَ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ أرضَ بني قريظة وديارَهُمْ وأموالَهم، وأرضاً لم يطئوها يومئذٍ ولم تكن مكة ولا خَيبر، ولا أرض فارس والروم ولا اليمن، مما كان وَطِئُوه يومئذٍ، ثم وطئوا ذلك بَعْدُ، وأَوْرَثَهُمُوه الله، وذلك كله داخلٌ في قوله: «وأرْضاً لَمْ تَطَئُوها» لأنه تعالى ذِكْرُهُ لم يخصصْ من ذلك بعضاً دونَ بعض.

«وكانَ الله عَلى كُلِّ شَيْء قَدِيراً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكان الله على أنْ أوْرثَ المؤمنينَ ذلك، وعلى نصرِه إياهم، وغير ذلك من الأمورِ ذَا قُدْرةٍ، لايتعذَّرُ عليه شيءٌ أرادَهُ، ولا يمتنعُ عليه فِعْلُ شيءٍ حاول فعله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ» يا محمدُ «لأزْوَاجِكَ إنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها فَتعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ»، يقول: فإني أمتعكن ما أوجبَ الله

على الرجالِ للنساءِ من المتعةِ عندَ فراقهم إياهُنَّ بالطلاقِ بقوله: «وَمَتِّعُوهُنَّ على المُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلى المُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتاعاً بالمَعْرُوفِ حَقًّا على المُحْسِنِينَ».

وقوله: «وأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلاً»، يقول: وأطلقكنَّ على ما أذِنَ الله به، وأدَّبَ به عبادَهُ بقوله: «إذَا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَإنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الله وَرَسُولَهُ»، يقول: وإنْ كُنتنَّ تُرِدْنَ رِضَا الله ورضا رسولِه وطاعتهما فأطِعْنَهُمَا «فإنَّ الله أعَدَّ للمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ» وهن العاملات منهنَّ بأمرِ الله وأمرِ رسولِه «أجْراً عَظِيماً».

وذُكر أن هذه الآيةَ نزلت على رسولِ الله ﷺ من أجلِ أنَّ عائشةَ سألتْ رسولَ الله ﷺ شيئاً من عَرَضِ الدنيا، إما زيادةً في النفقة، أو غيرَ ذلك، فاعتزلَ رسولُ الله ﷺ نساءَهُ شهراً فيما ذُكِرَ، ثم أمَرَهُ الله أنْ يُخَيِّرَهُنَّ بين الصبر عليه، والرضا بما قسم لهنَّ، والعملِ بطاعةِ الله، وبين أنْ يمتِّعهُنَّ ويفارقْهُنَّ إنْ لم يرضينَ بالذي يقسم لهن. وقيل: كان سببُ ذلك غيرةً كانت عائشةُ غارتها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لأزواجِ النبيِّ ﷺ: «يا نِساء النَّبِيَ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ»، يقول: مَنْ يَزْنِ منكنَّ الزنى المعروف الذي أوجَبَ الله عليه الحَدَّ، يضاعَفْ لها العذابُ على فجورها في الآخرةِ ضِعفين على فجورِ أزواجِ الناسِ غيرهم.

وقوله: «وكانَ ذلكَ على الله يَسِيراً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكانتْ مضاعفةُ العذابِ على مَنْ فعلَ ذلك منهنَّ على الله يسيراً، والله أعلم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومَنْ يُطِعِ الله ورسوله منكنَّ، وتعملْ بما أمرَ الله به «نُؤْتِها أجْرَها مَرَّتَيْنِ»، يقول: يُعْطِهَا الله ثوابَ عملها، مِثْلَي ثوابِ عملِ غيرهنَّ من سائرِ الناسِ. «وأعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً»، يقول: وأعتدنا لها في الآخرةِ عيشاً هنيئاً في الجنة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لأزواجِ رسولِ الله ﷺ: «يا نِساءَ النَّبيِّ لَسْتُنَّ كأحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ» من نساءِ هذهِ الأمةِ «إن اتَّقَيْتُنَّ» الله فأَطَعْتُنَّهُ فيما أمركُنَّ ونهاكُنَّ.

وقوله: «فَلا تَخْضَعْنَ بالقَوْلِ»، يقول: فلا تَلِنَّ بالقولِ للرجالِ فيما يَبْتغيه أهلُ الفاحشةِ منكُنَّ.

وقوله: «فَيَطْمَعَ الَّذي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ»، يقول: فيطمعَ الذي في قلبه ضَعْفٌ، فهو لضعفِ إيمانِه في قلبه، إما شاكٌّ في الإسلامِ منافقٌ، فهو لذلك من أمرِه يستخفُّ بحدودِ الله وإما متهاونٌ بإتيانِ الفواحش.

وقوله: «وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً»، يقول: وقُلْنَ قولاً قد أذِنَ الله لكم به وأباحه.

واختلفت القَـرَأَةُ في قراءة قولـه: «وَقَرْنَ في بُيُوتِكُنَّ» فقرأته عامة قَرَأَة المدينة وبعض الكوفيين: «وَقَرْنَ» بفتح القاف، بمعنى: واقْرَرْنَ في بيوتكنَّ، وكأنَّ مَنْ قرأ ذلك كذلك حذفَ الراءَ الأولى من اقررن، وهي مفتوحة، ثم نقلها إلى القـاف. وقـرأ ذلـك عامـة قَرَأَة الكوفة والبصرة: «وَقِرْنَ» بكسرِ القاف، بمعنى: كُنَّ أهلَ وقارٍ وسكينة «فِي بُيُوتكُنَّ».

وهذه القراءة وهي بالكسر في القاف أَوْلى عندنا بالصوابِ لأنَّ ذلك إنْ كان من الوقارِ على ما اخترنا، فلا شكَّ أن القراءةَ بكسرِ القاف، لأنه يقال وَقَرَ فلانٌ في منزله فهو يَقِرُ وُقوراً، فتكسر القاف في تَفْعِل فإذا أُمِرَ منه قيل: قِر كما يقال من وَزنَ يَزِنُ زِنْ، ومن وَعد يعِد عِدْ، وإنْ كان من القَرارِ، فإنَّ الوجه أن يقـال: اقـررن، لأن مَنْ قال من العربِ: ظَلْت أفعل كذا، وأَحَسْت بكذا، فأسقط عين الفعلِ، وحوَّلَ حركتها إلى فائه في فعلَ وفعلنا وفعلتم، لم يفعل ذلك في الأمر والنهي، فلا يقول: ظلّ قائماً، ولا تظل قائما، فليس الذي اعتلّ به من اعتـلَّ لصحـةِ القـراءة بفتـح القاف في ذلك يقول العرب في ظللت وأحسست ظلت، وأحست بعلة توجب صحته لما وصفت من العلة[1].

وقوله: «وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجاهِلِيَّةِ الأُولى»، قيل: إنَّ التبرُّجَ في هذا الموضع التَّبَخْتُرَ والتَّكَسُّرَ.

وأما قوله: «تَبرُّجَ الجاهِلِيَّةِ الأُولى»، فإن أهلَ التأولِ اختلفوا في الجاهلية الأولى، فقال بعضهم: ذلك ما بين عيسى ومحمد عليهما السلام.

وقال آخرون: ذلك ما بين آدم ونوح.

وقال آخرون: بَلْ ذلك بين نوح وإدريس.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك عندي بالصوابِ أنْ يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ نهى

---

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ٣٤٢/٢، فهذا ما ذهب إليه.

نساءَ النبيِّ أنْ يتبرَّجْنَ تبرُّجَ الجاهليةِ الأولى، وجائزٌ أن يكون ذلك ما بين آدم وعيسى، فيكون معنى ذلك: ولا تبرّجنَ تبرُّجَ الجاهلية الأولى التي قبل الإسلام.

فإنْ قال قائل: أوَ في الإسلامِ جاهليةٌ؟ حتى يقال عَنَى بقوله: «الجاهِلِيَّةِ الأولى» التي قبل الإسلام؟ قيل: فيه أخلاقٌ من أخلاقِ الجاهلية.

وجائزٌ أن يكون ذلك ما بين آدم ونوح. وجائزٌ أنْ يكونَ ما بين إدريس ونوح، فتكون الجاهلية الآخرة، ما بين عيسى ومحمد، وإذا كان ذلك مما يحتملهُ ظاهرُ التنزيل. فالصوابُ أنْ يقالَ في ذلك، كما قال الله: إنه نهى عن تبرُّجِ الجاهليةِ الأولى.

وقوله: «وأقِمْنَ الصَّلَاةَ وآتِينَ الزَّكاةَ»، يقول: وأقِمْنَ الصلاةَ المفروضةَ، وآتينَ الزكاةَ الواجبةَ عليكنَّ في أموالكنَّ «وَأطِعْنَ الله وَرَسُولَهُ» فيما أمَرَكُنَّ وَنَهاكُنَّ. «إنَّمَا يُريدُ الله لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أهْلَ البَيْتِ»، يقول: إنما يريدُ الله ليذهب عنكم السوءَ والفحشاءَ يا أهلَ بيتِ محمد ويُطَهِّرَكُمْ من الدَّنَسِ الذي يكونُ في أهلِ معاصي الله تطهيراً.

اختلف أهلُ التأويل في الذين عنوا بقوله: «أهْلَ البَيْتِ» فقال بعضهم: عُنِيَ به رسولُ الله ﷺ وعليٌّ وفاطمةُ والحسنُ والحسينُ رضوان الله عليهم.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك أزواجَ رسولِ الله ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ۝٣٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لأزواجِ نبيهِ محمدٍ ﷺ: واذكُرْنَ نعمةَ الله عليكنَّ، بأنْ جعلكنّ في بيوتٍ تُتْلى فيهـا آياتُ الله والحكمـة، فاشكُرْنَ الله على ذلك،

واحمدنه عليه، وعنى بقوله: «وَاذْكُرْنَ ما يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ الله» واذكرن ما يقرأ في بيوتكنَّ من آياتِ كتابِ الله والحكمة، ويعني بالحكمة: ما أُوحيَ إلى رسولِ الله ﷺ من أحكامِ دينِ الله، ولم ينزلْ به قرآنٌ، وذلك السنة.

وقوله: «إنَّ الله كانَ لَطِيفاً خَبِيراً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الله كان ذا لُطْفٍ بِكُنَّ، إذْ جعلكنَّ في البيوتِ التي تُتلى فيها آياتُه والحكمةُ، خبيراً بِكُنَّ إذ اختارَكُنَّ لرسولِه أزواجاً.

القَولُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ المُتَذَلِّلِينَ لله بالطاعةِ والمتذلِّلاتِ، والمصَدِّقينَ والمصدِّقات رسولَ الله ﷺ فيما أتاهم به من عند الله، والقانتينَ والقانتاتِ لله، والمطيعينَ لله والمطيعاتِ له فيما أمرهم ونهاهم، والصادقينَ الله فيما عاهدوه عليه والصادقات فيه، والصابرينَ لله في البأساء والضَّرَّاءِ على الثباتِ على دِينه، وحينَ البأسِ والصابرات، والخاشعة قلوبُهم لله وَجَلاً منه ومِنْ عقابِه والخاشعات، والمتصدّقينَ والمتصدقات وهم المؤدُّونَ حقوقَ الله من أموالِهم والمؤدِّياتِ، والصائمينَ شهرَ رمضان الذي فَرَضَ الله صومه عليهم والصائمات ذلك، الحافظينَ فروجهم إلا على أزواجهم أو ما مَلَكَتْ أيمانهم، والحافظات ذلك إلا على أزواجهنَّ إنْ كُنَّ حرائر، أو مَنْ ملكهنَّ إنْ كُنَّ إماء، والذاكرينَ الله بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم والذاكرات، كذلك أعَدَّ الله لهم مغفرةً

لذنوبهم، وأجراً عظيماً: يعني ثواباً في الآخرة على ذلك من أعمالهم عظيماً، وذلك الجنة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: لم يكن لمؤمنٍ بالله ورسوله، ولا مؤمنةٍ إذا قضى الله ورسولُه في أنفسهم قضاءً أنْ يَتَخَيَّرُوا من أمرهم غير الذي قضى فيهم، ويخالفوا أمرَ الله وأمرَ رسولِه وقضاءهما فيعصوهما، ومَنْ يَعْصِ الله ورسولَهُ فيما أمرا أو نهيا. «فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبيناً»، يقول: فقد جارَ عن قَصْدِ السبيل، وسلك غيرَ سبيل الهدى والرشاد.

وذُكِرَ أنَّ هذه الآيةَ نزلتْ في زينب بنت جحش حين خطبها رَسُولُ الله ﷺ على فتاه زيد بن حارثة، فامتنعتْ من إنكاحِه نفسَها.

وقيل: نزلت في أمِّ كلثوم بنت عُقْبة بن أبي مُعَيط، وذلك أنها وهبتْ نفسَها لرسولِ الله ﷺ، فزوَّجها زيدَ بن حارثة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه ﷺ عتاباً من الله له «وَ» اذْكُرْ يا محمدُ «إذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ» بالهدايةِ «وأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ» بالعِتق، يعني زيد بن حارثة مولى رسولِ الله ﷺ «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ الله» وذلك أنَّ زينبَ بنتَ جحشٍ فيما ذُكِرَ رآها رَسُولُ اللهِ ﷺ فأعجبته، وهي في حبالِ مولاه، فأُلقي في نفسِ زيدٍ كراهَتُهَا لما عَلِمَ الله مما وقع في نفسِ نبيهِ ما وقعَ، فأرادَ فراقها، فَذكرَ ذلك لرسولِ الله ﷺ زيد، فقال له رَسُولُ الله ﷺ «أَمسِكْ عَلَيْكَ زَوجَكَ» وهو ﷺ يحبُّ أنْ تكونَ قد بانَتْ منه لينكحها «وَاتَّقِ الله» وخَفِ الله في الواجبِ له عليكَ في زوجتك. «وتُخْفِي في نَفْسِكَ ما الله مُبْدِيه»، يقول: وتخفي في نفسك محبةَ فراقِه إياها لتتزوَّجها إنْ هو فارقَها، والله مُبْدٍ ما تُخفي في نفسكَ من ذلك. «وتَخْشَى النَّاسَ والله أَحَقُّ أنْ تَخْشَاهُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وتخافُ أنْ يقولَ الناسُ: أمَرَ رجلاً بطلاقِ امرأتِه ونكحها حين طلَّقها، والله أحقُّ أنْ تخشاه من الناس.

وقوله: «فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْناكَها»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلما قضى زيدُ بن حارثة من زينب حاجَتَهُ، وهي الوطر.

«زَوَّجْناكَها»، يقول: زوَّجناكَ زينبَ بعدما طَلَّقَها زيدٌ وبانتْ منه «لِكَيْلا يَكُونَ على المؤمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيائِهِمْ»، يعني: في نكاحِ نساءِ مَنْ تَبَنَّوا وليسوا ببَنِيهم ولا أولادِهم على صحةٍ إذا هُمْ طلقوهنَّ وبِنَّ منهم «إذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً»، يقول: إذا قضوا منهنَّ حاجاتهم، وآرابهم وفارقوهنَّ وحَلَلْنَ لغيرهم، ولم يَكُنْ ذلك نزولاً منهم لهم عنهنّ. «وكانَ أَمْرُ الله مَفْعُولاً»، يقول: وكان ما قضى الله من قضاء مفعولاً: أي كائناً كان لا محالة. وإنما يعني بذلك أنَّ قضاءَ الله في زينب أنْ يتزوَّجها رسولُ الله ﷺ كان ماضياً مفعولاً كائناً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝٣٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «ما كانَ على النبيِّ من حَرَجٍ»، من إثمٍ فيما أحلَّ الله له من نكاحِ امرأةِ مَنْ تَبَنَّاهُ بعد فراقِه إيَّاهَا.

وقوله: «سُنَّةَ الله في الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْل»، يقول: لم يكن الله تعالى ليُؤْثِمَ نَبِيَّهُ فيما أحلَّ له مثالَ فِعْلِه بِمَنْ قَبْلَهُ من الرُّسُلِ الذين مَضَوْا قَبْلَهُ في أنه لم يؤثمهم بما أحلَّ بهم، لم يكن لنبيه أنْ يخشى الناسَ فيما أمره به أو أَحَلَّهُ له.

وقوله: «وكانَ أمْرُ الله قَدَراً مَقْدُوراً»، يقول: وكان أمرُ الله قضاءً مَقْضِياً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٣٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: سُنَّةَ الله في الذين خَلَوْا من قبلِ محمدٍ من الرسلِ، الذين يبلغون رسالاتِ الله إلى مَنْ أُرْسِلُوا إليه، ويخافونَ الله في تَرْكِهم تبليغَ ذلك إياهم، ولا يخافونَ أحداً إلا الله، فإنهم إياه يرهبون إنْ هم قَصَّرُوا عن تبليغِهم رسالةَ الله إلى مَنْ أُرْسِلُوا إليه. يقول لنبيه محمد: فَمنْ أولئكَ الرسل الذين هذه صِفَتُهم، فَكُنْ ولا تَخْشَ أحداً إلا الله، فإنَّ الله يمنعك من جميعِ خَلْقِه، ولا يمنعك أحدٌ من خلقه منه، إنْ أرادَ بك سوءاً، «والذين» من قوله: «الَّذِينَ يُبَلِّغونَ رِسالاَتِ الله» خُفِضَ ردّاً على الذين التي في قوله: «سَنَّةَ الله في الَّذِينَ خَلَوْا».

وقوله: «وكَفَى بالله حَسِيباً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكفاكَ يا محمدُ بالله

حافظاً لأعمالِ خَلْقِه، ومحاسباً لهم عليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٤٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ما كان أيها الناسُ محمدٌ أبا زيدِ بن حارثة، ولا أبا أحدٍ من رجالِكم الذين لم يَلِدْهُ محمدٌ، فيحرم عليه نكاحُ زوجتِه بعد فراقِهِ إياها، ولكنه رسولُ الله وخاتمُ النبيين، الذي ختم النبوّة فطبع عليها، فلا تُفْتَح لأحدٍ بعده إلى قيامِ الساعة، وكان الله بكلِّ شيءٍ من أعمالكم ومقالكم وغيرِ ذلك ذا عِلْمٍ لا يخفى عليه شيءٌ.

واختلفت القَرَأة في قراءة قوله: «وخاتَمَ النَّبِيِّينَ» فقرأ ذلك قَرَأة الأمصار سوى الحسن وعاصم بكسر التاء من خاتِم النبيين، بمعنى أنه خَتَم النبيينَ.

وقرأ ذلك فيما يذكر الحسن وعاصم «خاتَمَ النَّبِيِّينَ» بفتح التاء، بمعنى أنه آخرُ النبيينَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٤٢ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ۝٤٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يا أيها الذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ اذكروا الله بقلوبِكُم وألسنتكم وجوارحكم ذِكْراً كثيراً، فلا تُخْلُوا أبدانكم من ذِكْرِه في حالٍ من أحوالِ طاقتكم ذلك. «وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وأَصيلاً»، يقول: صلوا له غدوةً صلاةَ

الصبح، وعشياً صلاةَ العصر.

وقوله: «هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: رَبُّكم الذي تذكرونه الذِّكْرَ الكثيرَ، وتُسَبِّحُونَهُ بُكرةً وأصيلاً، إذا أنتم فعلتم ذلك، الذي يرحمكم، ويُثني عليكم هو، ويَدْعـو لكم ملائكتُـه، وقِيلَ: إنَّ معنى قوله: «يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ» يُشيع عنكم الذِّكْرَ الجميلَ في عباد الله.

وقوله: «لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ»، يقول: تدعو ملائكة الله لكم، فيخرجكم الله من الضلالة إلى الهُدى، ومن الكفرِ إلى الإسلام.

وقوله: «وكانَ بالمُؤْمِنِينَ رَحِيماً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكان بالمؤمنين به ورسوله ذا رحمةٍ أنْ يُعَذِّبَهُمْ وهُمْ له مطيعونَ، ولأمرِه مُتَّبِعُونَ «تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: تحية هؤلاء المؤمنينَ يومَ القيامةِ في الجنةِ سلامٌ، يقول بعضُهم لبعضٍ: أمنة لنا ولكم بدخولنا هذا المدخل من الله أنْ يعذِّبَنا بالنارِ أبداً.

وقوله: «وأعَدَّ لَهُمْ أجْراً كَرِيماً»، يقول: وأعدَّ لهؤلاءِ المؤمنينَ ثواباً لهم على طاعتهم إياه في الدنيا كريماً، وذلك هو الجنة.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ٤٦ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ٤٧ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٤٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: يا محمدُ «إنَّا أرْسَلْناكَ شَاهِداً» على أمتك بإبلاغكَ إياهم ما أرسلناكَ به من الرسالةِ، ومُبَشِّرَهُمْ بالجنة إنْ صَدَّقُوكَ وعملوا بما جئتهم به من عندِ ربكَ، «وَنَذِيراً» من النار أنْ يدخلُوها، فيعذَّبُوا بها

إنْ هم كذَّبُوكَ، وخالفوا ما جِئْتَهُمْ به من عندِ الله.

وقوله: «وَدَاعياً إلى الله»، يقول: وداعياً إلى توحيدِ الله، وإفرادِ الأُلوهةِ له، وإخلاصِ الطاعةِ لوجههِ دونَ كلِّ مَنْ سواه من الآلهةِ والأوثانِ.

وقوله: «بإذْنِهِ»، يقول: بأمرِهِ إياكَ بذلك «وَسِرَاجاً مُنيراً»، يقول: وضياءً لخلْقِه يستضيءُ بالنور الذي أتيتَهم به، من عند الله، عبادُهُ «مُنيراً»، يقول: ضياءً ينيرُ لمن استضاءَ بضوئِه، وعملَ بما أَمَرَهُ. وإنما يعني بذلك: أنه يهدي به مَن اتَّبعَهُ من أمته.

وقوله: «وَبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ بأنَّ لَهُمْ مِنَ الله فَضْلاً كَبيراً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وبشِّر أهلَ الإيمانِ بالله يا محمدُ بأنَّ لهم من الله فضلاً كبيراً: يقول: بأنَّ لهم من ثوابِ الله على طاعتهم إياه تضعيفاً كثيراً، وذلك هو الفضلُ الكبيرُ من الله لهم.

وقوله: «وَلا تُطِعِ الكافِرينَ والمُنَافِقِينَ»، يقول: ولا تطعْ لقولِ كافرٍ ولا منافقٍ، فتسمع منه دعاءه إياكَ إلى التقصيرِ في تبليغِ رسالات الله إلى مَنْ أرسلَكَ بها إليه من خَلْقِه. «وَدَعْ أذاهُمْ»، يقول: وأعْرِضْ عن أذاهم لكَ، واصبرْ عليه، ولا يمنعك ذلك عن القيامِ بأمرِ الله في عباده، والنفوذ لما كلَّفك.

وقوله: «وَتَوَكَّلْ على الله»، يقول: وفَوِّضْ إلى الله أمورَكَ، وَثِقْ به فإنه كافيكَ جميعَ مَنْ دونَهُ، حتى يأتيكَ أمرُه وقضاؤُه: «وَكَفَى بالله وَكِيلاً»، يقول: وحسبك بالله قيماً بأمورِكَ، وحافظاً لك وكالئاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يا أيها الذين صدقوا الله ورسولَه «إِذَا نَكَحْتُمُ المُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ»، يعني: من قَبْلِ أنْ تُجامعوهُنَّ «فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها»، يعني: من إحصاءِ أقراءٍ[1]، ولا أشهرٍ تُحْصُونَها عليهنَّ، فَمَتِّعُوهُنَّ: يقول: أعطوهنَّ ما يستمتعنَ به من عَرَضٍ أو عينِ مالٍ.

وقوله: «وَسَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلاً»، يقول: وخَلُّوا سبيلهنَّ تخليةً بالمعروفِ، وهو التسريحُ الجميل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: «يا أَيُّها النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْواجَكَ اللَّاتي آتَيْتَ أُجورَهُنَّ»، يعني: اللاتي تَزَوَّجْتَهُنَّ بِصَداقٍ مُسَمّى.

وقوله: «وَما مَلَكَتْ يَمينُكَ مِمَّا أفاءَ الله عَلَيْكَ»، يقول: وأَحْلَلْنَا لكَ إماءَكَ اللواتي سَبَيْتَهُنَّ، فملكتهنَّ بالسِّباء، وصِرْنَ لكَ بفتحِ الله عليكَ من الفيءِ «وَبَناتِ عَمِّكَ وَبَناتِ عَمَّاتِكَ وَبَناتِ خالِكَ وَبناتِ خالاتِكَ اللَّاتي هاجَرْنَ مَعَكَ» فأحلَّ الله له ﷺ من بناتِ عمه وعماته وخاله وخالاته، المهاجراتِ معه منهنَّ دونَ مَنْ لم يهاجِرْ منهنَّ معه.

---

(١) يعني: حيضات.

وقوله: «وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إنْ وَهَبَتْ نَفْسَها للنَّبِيِّ»، يقول: وأحللنا له امرأةً مؤمنةً إنْ وهبت نفسها للنبيِّ بغيرِ صداق.

وقوله: «إنْ أَرادَ النَّبِيُّ أنْ يَسْتَنْكِحَها»، يقول: إنْ أراد أن ينكحها، فحلالٌ له أن ينكحها إذا وهبت نفسَها له بغيرِ مهرٍ. «خالِصَةً لَكَ»، يقول: لا يحلُّ لأحدٍ من أمَّتكَ أنْ يقربَ امرأةً وهبتْ نفسَها له، وإنما ذلك لكَ يا محمدُ خالصةً أخلصتْ لكَ من دونِ سائرِ أمتك.

وقوله: «قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ في أَزْواجِهِمْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: قد علمنا ما فرضنا على المؤمنينَ في أزواجهم إذا أرادوا نكاحهنَّ مما لم نَفْرِضْهُ عليكَ، وما خَصَصْنَاهُمْ به من الحكمِ في ذلك دونك، وهو أنَّا فرضنا عليهم أنه لا يحلُّ لهم عقد نكاحٍ على حرّةٍ مسلمةٍ إلا بوليٍّ عصبةٍ وشهودٍ عُدُولٍ، ولا يحلّ لهم منهنّ أكثر من أربع.

وقوله: «وَما مَلَكَتْ أيمانُهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: قد علمنا ما فرضنا على المؤمنين في أزواجهم، لأنه لا يحلُّ لهم منهنَّ أكثر من أربعٍ، وما ملكتْ أيمانهم، فإنَّ جميعهن إذا كُنَّ مؤمناتٍ أو كتابياتٍ، لهم حلالٌ بالسباء والتسرّي وغير ذلك من أسبابِ الملك.

وقوله: «لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وكانَ الله غَفُوراً رَحِيماً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّا أحللنا لكَ يا محمدُ أزواجَكَ اللواتي ذكرنا في هذه الآية، وامرأةً مؤمنةً إنْ وهبت نفسها للنبيِّ، إنْ أراد النبيُّ أن يستنكحها، لكيلا يكونَ عليكَ إثمٌ وضيقٌ في نكـاحِ مَنْ نكحتَ من هؤلاء الأصنـافِ التي أبحتُ نكاحهنَّ من المسمَّياتِ في هذه الآية، وكان الله غفوراً لكَ ولأهلِ الإيمان بكَ، رحيماً بك وبهم أنْ يُعاقبهم على سالفِ ذنبٍ منهم سَلَفَ بعد توبتهم منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ

ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾

اختلف أهلُ التأويل في تاويلِ قوله: «تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وتُؤْوي إلَيْكَ مَنْ تَشاءُ»، فقال بعضهم: عنى بقوله: تُرْجي: تُؤَخِّرُ، وبقوله: تُؤْوي: تضمُّ.

وقال آخرون: معنى ذلك: تُطْلِقُ وتُخلي سبيلَ مَنْ شئتَ من نسائكَ، وتُمْسِك، مَنْ شئت منهنَّ فلا تطلق.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: تتركُ نكاحَ مَنْ شئتَ، وتنكحُ مَنْ شئت من نساء أمتك.

وأولى الأقـوال في ذلك عندي بالصوابِ أنْ يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ جعل لنبيه أنْ يُرجي من النساء اللواتي أحلهنَّ له مَنْ يشاء، ويُؤْوي إليه منهنَّ مَنْ يشاء، وذلك أنه لم يحصر معنى الإرجاءِ والإيواءِ على المنكوحاتِ اللواتي كُنَّ في حباله، عندما نزلتْ هذه الآيةُ دونَ غيرهنَّ مِمَّنْ يُسْتَحدَثُ إيواؤُها أو إرجـاؤها منهنَّ. وإذْ كان ذلك كذلك، فمعنى الكلام: تُؤَخِّرُ مَنْ تشاء ممن وهبتْ نفسَها لكَ، وأحللتُ لك نكاحَها، فلا تقبلها ولا تنكحها. أو مِمَّنْ هُنَّ في حبالك، فلا تَقْربها، وتضمُّ إليكَ مَنْ تشاء ممن وهبتْ نفسها لك، أو أردتَ من النساءِ التي أحللتُ لك نكاحهنَّ، فتقبلها أو تنكحها، وممن هي في حبالك فتجامعها إذا شئتَ، وتتركها إذا شئتَ بغير قَسْمٍ.

وقوله: «وَمَنِ ابْتَغَيْتَ ممَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْكَ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: ومَنْ نكحتَ من نسائك فجامعتَ مِمَّنْ لم تنكح، فَعَزَلْتَهُ عن الجماعِ، فلا جناحَ عليكَ.

وقال آخرون: معنى ذلك: ومَن استبدلت مِمَّنْ أرجيتَ، فخليتَ سبيلَهُ من نسائكَ، أو ممن ماتَ منهنَّ ممن أحللتُ لكَ فلا جناحَ عليك.

وأوْلى التـأولين بالصوابِ في ذلك، تأويلُ من قال: معنى ذلك: ومَن ابتغيتَ إصـابتَهُ من نسائكَ «مِمَّنْ عَزَلْتَ» عن ذلك منهنَّ «فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ» لدلالةِ قوله: «ذَلكَ أدْنَى أنْ تَقَرَّ أعْيُنُهُنَّ» على صِحَّةِ ذلك، لأنه لا معنى لأنْ تقرَّ أعينُهنَّ إذا هو ﷺ استبدلَ بالميتةِ أو المطلقةِ منهنَّ، إلا أن يعني بذلك: ذلك أدنى أنْ تقرّ أعينُ المنكوحةِ منهنَّ، وذلك مما يدلُّ عليه ظاهرُ التنزيلِ بعيدٌ.

وقوله: «ذلكَ أدْنَى أنْ تَقَرَّ أعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ»، يقول: هذا الذي جعلتُ لكَ يا محمدُ من إذني لكَ أنْ تُرْجي مَنْ تشاءُ من النساء اللواتي جعلتُ لك إرجاءهنَّ، وتؤوي مَنْ تشاء منهنَّ، ووَضْعِي عنكَ الحَرَجَ في ابتغائكَ إصابةَ مَنِ ابتغيتَ إصابتَهُ من نسائكَ، وعزلك عن ذلك مَنْ عزلت منهنَّ، أقربُ لنسائكَ أنْ تقرَّ أعينُهنَّ به ولا يَحْزَنَّ ويرضينَ بما آتيتَهُنَّ كُلَّهُنَّ من تفضيلِ مَنْ فضلتَ من قَسْمٍ، أو نفقةٍ، وإيثارِ مَنْ آثرتَ منهن بذلك على غيرِه من نسائكَ، إذا هُنَّ عَلِمْنَ أنه من رِضَايَ منكَ بذلك، وإذني لكَ به، وإطلاقٍ مني لا من قِبَلِكَ.

وقـولـه: «والله يَعلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ»، يقـول: والله يعلمُ ما في قلوبِ الرجالِ من مَيْلِها إلى بعضِ مَنْ عندَهُ من النساءِ دونَ بعضٍ بالهوى والمحبة؛ يقول: فلذلك وضع عنكَ الحرج يا محمد فيما وُضع عنكَ من ابتغاءِ مَنِ ابتغيتَ منهنَّ، ممن عزلتَ تَفَضُّلاً منه عليكَ بذلك وتكرمةً «وكانَ الله عَليماً»، يقول: وكان الله ذا عِلْمٍ بأعمالِ عباده، وغير ذلك من الأشياء كلها «حَليماً»، يقول: ذا حلمٍ على عباده، أنْ يعاجلَ أهلَ الذنوبِ منهم بالعقوبة، ولكنه ذُو حلمٍ وأناةٍ عنهم، ليتوبَ مَنْ تاب منهم، ويُنيبَ من ذنوبه مَنْ أناب منهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله تعالى: «لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ»، فقال بعضهم: معنى ذلك: لا يحلُّ لك النساءُ من بعدِ نسائكَ اللاتي خَيَّرْتَهُنَّ، فاخترنَ الله ورسولَهُ والدارَ الآخرة.

وقال آخرون: إنما معنى ذلك: لا يحلُّ لكَ النساءُ بعد التي أحللنا لك بقولنا: «يا أيهَا النَّبيُّ إنَّا أحْلَلْنا لَكَ أزْواجَكَ»... إلى قوله: «اللاَّتِي هاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرأةً مُؤْمِنَةً إنْ وَهَبَتْ نَفْسَها للنَّبِيِّ» وكأنّ قائلي هذه المقالة وَجَّهُوا الكلامَ إلى أنَّ معناه: لا يحلُّ لك من النساء إلا التي أحللناها لك.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لا يحلُّ لك النساءُ من غيرِ المسلمات، فأما اليهودياتُ والنصرانياتُ والمشركاتُ فحرامٌ عليك.

وأولى الأقوال عندي بالصحة قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: لا يحلُّ لك النساءُ من بعد اللواتي أحْلَلْتُهُنَّ لكَ بقولي: «إنَّا أحْلَلْنا لَكَ أزْوَاجَكَ اللاَّتي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ»... إلى قوله: «وَامْرأةً مُؤْمِنَةً إنْ وَهَبَتْ نَفْسَها للنَّبيّ».

وإنما قلت ذلك أولى بتأويل الآية، لأن قوله: «لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ» عَقيب قولـه: «إنَّا أحْلَلْنا لَكَ أزْوَاجَكَ» وغير جائز أن يقول: قد أحللتُ لك هؤلاء، ولا يحللن لكَ إلا بنسخِ أحدهما صاحبه، وعلى أنْ يكون وقت فرض إحدى الآيتين، فَعَلَ الأخرى منهما. فإذ كان ذلك كذلك ولا برهانَ ولا دلالةَ على نسخِ حكمِ إحدى الآيتين حُكْمَ الأخرى، ولا تَقَدَّمَ تنزيلُ إحداهما قبل صاحبتها، وكان غير مستحيل مخرجهما على الصحة، لم يَجُزْ أنْ يقال:

إحداهما ناسخة الأخرى. وإذا كان ذلك كذلك، ولم يكن لقولِ مَنْ قال: معنى ذلك: لا يحلُّ من بعدِ المسلماتِ يهوديةٌ ولا نصرانية ولا كافرة، معنىً مفهوم، إذْ كان قوله: «مِنْ بَعْدُ» إنما معناه: من بعد المسمياتِ المتقدمِ ذِكْرُهُنَّ في الآية قبل هذه الآية، ولم يكن في الآية المتقدم فيها ذكر المسميات بالتحليلِ لرسولِ الله ﷺ ذكر إباحةِ المسلماتِ كلهنَّ، بل كان فيها ذكر أزواجِه وملكِ يمينِه الذي يفيءُ الله عليه، وبناتِ عمه وبنات عماته، وبنات خاله وبنات خالاته، اللاتي هاجرن معه، وامرأةً مؤمنةً إنْ وهبت نفسها للنبيِّ، فتكون الكوافرُ مخصوصاتٍ بالتحريم، صحَّ ما قلنا في ذلك، دونَ قولِ مَنْ خالف قولنا فيه.

وقوله: «وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: لا يحلُّ لكَ النساءُ من بعدِ المسلماتِ، لا يهوديةٌ ولا نصرانيةٌ ولا كافرةٌ، ولا أنْ تَبَدَّلَ بالمسلماتِ غيرهنَّ من الكوافرِ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولا أنْ تبدَّلَ بأزواجكَ اللواتي هُنَّ في حِبالكَ أزواجاً غيرهنَّ، بأن تُطَلِّقهنَّ، وتنكح غيرهنّ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولا أنْ تُبادِلَ من أزواجكَ غيركَ، بأنْ تُعطيه زوجتكَ وتأخُذْ زوجتَهُ.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قولُ من قال: معنى ذلك: ولا أنْ تُطَلِّقَ أزواجكَ فتستبدلَ بهنَّ غيرهنَّ أزواجاً.

وإنما قلنا ذلك أوْلى بالصواب، لما قد بَيَّنا قبلُ من أن قولَ الذي قال معنى قوله: «لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ» لا يحلّ لك اليهوديةُ أو النصرانيةُ والكافرةُ، قولٌ لا وجهَ له.

فإذ كان ذلك كذلك، فكذلك قوله: «وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ» كافرة لا معنى له، إذْ كان من المسلمات مَنْ قد حُرِّمَ عليه بقوله: «لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ» الذي دللنا عليه قبل. وأما القول الأخير في ذلك أيضاً، فقولٌ لا معنى له، لأنه لو كان بمعنى المبادلة، لكانتِ القراءة والتنزيلُ: ولا أنْ تُبادِلَ بهنَّ من أزواجٍ، أو ولا أنْ تُبَدِّلَ بهنَّ بضمِّ التاء، ولكن القراءة المُجْمَعَ عليها، ولا أنْ تَبَدَّلَ بهنّ بفتح التاء، بمعنى: ولا أنْ تستبدلَ بهنّ، مع أنّ الذي ذُكِرَ من فعلِ الجاهلية غير معروفٍ في أمةٍ نعلمه من الأمم، أن يُبادل الرجلُ آخرَ بامرأتِه الحرَّةِ، فيقال: كان ذلك من فعلهم، فنهى رسولُ الله ﷺ عن فِعْلِ مثله!

فإن قال قائل: أفَلَمْ يكنْ لرسولِ الله ﷺ أن يتزوَّجَ امرأةً على نسائه اللواتي كُنَّ عنده فيكون موجهاً تأويل قوله: «وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ» إلى ما تأوّلت، أو قال: وأين ذكر أزواجه اللواتي كُنَّ عنده في هذا الموضع، فتكون الهاء من قوله: «وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ» من ذكرهن وتوهم أن الهاء في ذلك عائدة على النساء، في قوله: «لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ»؟

قيل: قد كان لرسولِ الله ﷺ أنْ يتزوَّجَ مَنْ شاء من النساءِ اللواتي كان الله أحَلَّهُنَّ له على نسائِه اللاتي كُنَّ عنده يومَ نزلت هذه الآية، وإنما نُهِيَ ﷺ بهذه الآية أنْ يفارق مَنْ كان عنده بطلاقٍ أراد به استبدالَ غيرها بها، لإعجابِ حُسْنِ المُسْتَبْدَلَةِ له بها إياهُ إذ كان الله قد جعلهنَّ أُمَّهاتِ المؤمنين وخَيَّرَهُن بين الحياةِ الدنيا والدارِ الآخرة، والرضا بالله ورسوله، فاخْتَرْنَ الله ورسولَهُ والدارَ الآخرة، فَحُرِّمْنَ على غيره بذلك، ومنع من فراقهنَّ بطلاق، فأما نكاحُ غيرهنَّ فلم يمنعْ منه، بل أحَلَّ الله له ذلك على ما بَيَّنَ في كتابه.

وقد رُوي عن عائشة أن النبيَّ ﷺ لم يقبض حتى أحلّ الله له نساءَ أهلِ الأرض[1].

---

(١) حديث صحيح، أخرجه الترمذي (٣٢١٦) والنسائي (٦/٥٦) والمؤلف ٢٢/٣٢ من رواية=

فإن قال قائل: فإن كان الأمرُ على ما وصفتُ من أنَّ الله حَرَّمَ على نبيه بهذه الآيةِ طلاقَ نسائه اللواتي خَيَّرَهُنَّ فاخْتَرْنَهُ، فما وجهُ الخبرِ الذي رُويَ عنه أنه طَلَّقَ حفصة ثم راجعها[١]، وأنه أراد طلاق سودةَ حتى صالحته على تركِ طلاقِه إياها، ووهبتْ يومَها لعائشة[٢]؟ قيل: كان ذلك قبلَ نزولِ هذه الآية.

والدليلُ على صحة ما قلنا، من أنَّ ذلك كان قبلَ تحريمِ الله على نَبيِّهِ طلاقهن، الروايةُ الواردةُ «أنَّ عمر دخلَ على حفصةَ معاقِبَها حين اعتزلَ رسولُ الله ﷺ نساءَهُ، كان مِنْ قِيلِه لها: قد كان رسولُ الله ﷺ طَلَّقَكِ، فكلمتُه فراجعكِ، فوالله لئن طلَّقكِ، أو لو كان طلَّقك لا كلَّمْتُه فيكِ، وذلك لا شك قبل نزول آيةِ التخييرِ لأن آيةَ التخييرِ إنما نزلت حين انقضى وقتَ يمينِ رسولِ الله ﷺ على اعتزالهنّ.

وأما أمر الدلالة على أنَّ أمرَ سَوْدَةَ كان قبلَ نزولِ هذه الآية، أنَّ الله إنما أمر نبيه بتخييرِ نسائِه بين فراقِه والمُقامِ معه على الرضا بأنْ لا قَسْم لهن، وأنه يُرْجي مَنْ يشاءُ منهنَّ، ويُؤْوي منهنّ مَنْ يشاء، ويُؤْثر مَنْ شاء منهنَّ على من شاء، ولذلك قال له تعالى ذكره: «وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ

= عطاء عن عائشة. وأخرجه النسائي (٦/٥٦) والمؤلف ٢٢/٣٢ من رواية عطاء عن عبيد بن عمير، عن عائشة، وقال الترمذي: حسن صحيح (في المطبوع من الترمذي «حسن»، فقط، والصواب ما ذكرناه، انظر تحفة الأشراف للمزي، حديث ١٧٣٨٩).

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود (٢٢٨٣) وابن ماجة (٢٠١٦) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وأخرجه النسائي (٦/٢١٣) بإسناد صحيح من حديث ابن عمر. وانظر الصحيحة للألباني (٢٠٠٧).

(٢) هي سودة بنت زمعة، تزوجها النبي ﷺ بمكة بعد موت خديجة، وهبتها يومَها لعائشة، في الصحيحين: البخاري (٥٢١٢)، ومسلم (١٤٦٣)، وتواردت الروايات على أنها خشيت الطلاق ففعلت ذلك (انظر فتح الباري: ٩/٣١٣).

ذلكَ أَدْنى أنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ»، ومن المحالِ أنْ يكونَ الصلحُ بينها وبينَ رسولِ الله ﷺ جرى على تَرْكِها يومَها لعائشةَ في حالٍ لا يومَ لها منه.

وغيرُ جائزٍ أنْ يكون كان ذلك منها إلا في حالٍ كانَ لها منه يومٌ هُوَ لها حقٌّ كان واجباً على رسولِ الله ﷺ أداؤه إليها، ولم يكنْ ذلك لهنَّ بعد التخييرِ لما قد وصفتُ قبلُ فيما مضى من كتابنا هذا.

فتأويل الكلام: لا يحلُّ لكَ يا محمدُ النساء من بعد اللواتي أحللتُهنَّ لكَ في الآية قَبْلُ، ولا أنْ تُطَلِّقَ نساءك اللواتي اخترن الله ورسولَهُ والدارَ الآخرة، فَتَبَدَّلَ بهنَّ من أزواجٍ ولو أعجبكَ حُسْنُ مَنْ أردتَ أنْ تبدَّلَ به منهنَّ، إلا ما ملكتْ يمينُك. و«أن» في قوله: «أنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ» رفع، لأنَّ معناها: لا يحلُّ لك النساءُ من بَعْدُ، ولا الاستبدالُ بأزواجكَ، و«إلا» في قوله: «إلَّا ما مَلَكَتْ يمينُكَ» استثناء من النساء، ومعنى ذلك: لا يحلُّ لك النساءُ من بعد اللواتي أحللتهُنَّ لَكَ، إلا ما ملكتْ يمينُكَ من الإماءِ، فإنَّ لك أنْ تَمْلكَ من أيِّ أجناسِ الناسِ ما شئتَ من الإماء.

وقوله: «وكانَ الله على كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً»، يقول: وكان الله على كل شيءٍ؛ ما أحلَّ لك، وحرَّم عليكَ، وغير ذلك من الأشياءِ كلها، حفيظاً لا يعزُبُ عنه عِلْمُ شيءٍ من ذلك، ولا يَؤُودُهُ حِفْظُ ذلك كلّه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا

﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ۝٥٣﴾

يقـول تعالى ذِكْرُهُ لأصحابِ رسولِ الله ﷺ: يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله، لا تدخلُوا بيوتَ نبيٍّ الله إلا أنْ تُدْعَوْا إلى طعامٍ تَطعمونَهُ «غَيْرَ ناظِرِينَ إناهُ»، يعني: غيرَ منتظرينَ إدراكَهُ وبُلوغَهُ.

وقوله: «وَلَكِنْ إذَا دُعِيتُمْ فادْخُلُوا»، يقول: ولكنْ إذا دعاكم رسولُ الله ﷺ فادخلوا البيتَ الذي أذنَ لكم بدخوله، «فإذَا طَعِمْتُمْ فانْتَشِرُوا»، يقول: فاذا أكلتم الطعام الذي دُعيتم لأكلِه فانتشروا، يعني فتفرَّقُوا واخرجوا من منزله.

ومعنى قولـه: «وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ»: ولا متحدِّثِينَ بعدَ فراغِكم من أكلِ الطعام إيناساً من بعضِكم لبعضٍ به.

وقوله: «إنَّ ذَلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ»، يقول: إنَّ دخولَكم بيوتَ النبيِّ من غير أن يُؤْذَنَ لكم وجلوسكم فيهـا مستأنسينَ للحديثِ بعد فراغِكم من أكلِ الطعام الذي دُعيتم له، كان يؤذي النبيَّ، فيستحي منكم أنْ يُخرجِكُمْ منها إذا قعدتم فيها للحديثِ بعد الفراغِ من الطعام، أو يمنعكم من الدخولِ إذا دخلتم بغير إذنٍ مع كراهيتِه لذلك منكم «والله لا يَسْتَحْيي مِنَ الحَقِّ» أن يتبينَ لكم، وإن استـحـيا نبيُّكـم فلم يُبَيِّنْ لكـم كراهـيةَ ذلـك حياءً منكـم «وَإذا سألْتمُـوهُنَّ مَتـاعـاً فاسْألُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجـابٍ»، يقـول: وإذا سألتم أزواج رسولِ الله ﷺ ونساءَ المؤمنينَ اللواتي لَسْنَ لكم بأزواج متاعاً «فاسْألُوهُنَّ من وَرَاءِ حِجـاب»، يقـول: من وراء ستـرٍ بينكم وبينهنَّ، ولا تدخلوا عليهنَّ بيوتَهُنَّ «ذَلِكُمْ أطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ»، يقـول تعالى ذِكْرُهُ: سؤالُكم إياهُنَّ

المتاعَ إذا سألتموهنَّ ذلكَ من وراءِ حجابٍ أطهرُ لقلوبكم وقلوبهنَّ من عوارضِ العينِ فيها التي تعرضُ في صدورِ الرجالِ من أمرِ النساء، وفي صدور النساءِ من أمرِ الرجالِ، وأحْرَى من أنْ لا يكونَ للشيطانِ عليكم وعليهنَّ سبيلٌ.

وقوله: «وَما كانَ لَكُمْ أنْ تُؤْذُوا رَسُول الله»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما ينبغي لكم أن تُؤْذُوا رسولَ الله، وما يصلحُ ذلك لكم. «وَلا أنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْـدِهِ أبَـداً»، يقول: وما ينبغي لكم أن تنكحوا أزواجَهُ من بعدِه أبداً لأنهنَّ أمهاتكم، ولا يحلُّ للرجلِ أن يتزوّج أمه.

وذُكِرَ أنَّ ذلك نزلَ في رجلٍ كان يدخلُ قبلَ الحجاب، قال: لئن ماتَ محمدٌ لأتزوجنَّ امرأةً من نسائِه سماها، فأنزلَ الله تبارك وتعالى في ذلك: «وَما كانَ لَكُمْ أنْ تُؤْذُوا رَسُولَ الله وَلا أنْ تَنْكِحُوا أزْوَاجَهُ من بعدِه أبداً».

وقوله: «إنَّ ذَلِكُمْ كانَ عِنْدَ الله عَظِيماً»، يقول: إنَّ أذاكم رسولَ الله ﷺ ونكاحَكم أزواجَهُ من بعدِه عند الله عظيمٌ من الإثم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٥٤﴾

يقـول تعالى ذِكْرُهُ: إنْ تُظْهِرُوا بألسنتكم شيئاً أيها الناسُ من مراقبةِ النساء، أو غير ذلك مما نهاكم عنه أو أذى لرسولِ الله ﷺ بقول: لأتزوجنَّ زوجتَهُ بعد وفاتِه، «أو تُخْفُوه»، يقول: أو تخفوا ذلك في أنفسكم، «فإنَّ الله كان بكل شيءٍ عليماً»، يقول: فإنَّ الله بكل ذلك وبغيرِه من أمورِكم وأمورِ غيركم، عليمٌ لا يخفى عليه شيءٌ، وهو يُجازِيكم على جميعِ ذلك.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ

وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: لا حَرَجَ على أزواجِ رسولِ الله ﷺ في آبائهنّ ولا إثم.

ثم اختلف أهلُ التأويل في المعنى الذي وُضِعَ عنهنَّ الجناحُ في هؤلاء، فقال بعضهم: وُضِعَ عنهنّ الجناحُ في وَضْعِ جلابيبهنَّ عندهم.

وقال آخرون: وضع عنهنّ الجناحُ فيهنَّ في تركِ الاحتجاب.

وأولى القولين في ذلك بالصوابِ قولُ من قال: ذلك وضع الجناح عنهنّ في هؤلاء المسمين أنْ لا يحتجبنَ منهم، وذلك أنَّ هذه الآيةَ عقيبَ آية الحجاب، وبعد قول الله: «وَإذا سألْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فسألُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجاب» فلا يكون قوله: «لا جُناحَ عَلَيْهِنَّ في آبائهنَّ» استثناء من جملةِ الذين أمروا بسؤالهنَّ المتاعَ من وارءِ الحجابِ إذا سألوهنَّ ذلكَ أولى وأشبه من أن يكون خبر مبتدإ عن غيرِ ذلك المعنى.

فتأويل الكلام إذن: لا إثمَ على نساءِ النبيِّ ﷺ، وأمَّهاتِ المؤمنينَ في إذنهنّ لآبائهنّ، وتركِ الحجاب منهنَّ، ولا لأبنائهنَّ ولا لإخوانهنَّ، ولا لأبناء إخوانهنَّ. وعُني بإخوانهنَّ وأبناء إخوانهنّ: إخوتهنّ وأبناء إخوتهنّ. وخُرِّجَ معهم جمع ذلك مخرجَ جمع فتىً إذا جُمعَ فتيان، فكذلك جمع أخ إذا جمع إخوان. وأما إذا جمع إخوة، فذلك نظيرُ جمع فتى إذا جُمِعَ فتية، ولا أبناء إخوانهنّ، ولم يذكر في ذلك العمُّ على ما قال الشعبيُّ حَذَراً من أن يصفهنَّ لأبنائه.

وقوله: «وَلا نسائِهنَّ»، يقول: ولا جناحَ عليهنَّ أيضاً في أنْ لا يحتجبنَ من نساء المؤمنين.

وقوله: «وَاتَّقِينَ اللهَ»، يقول: وخَفْنَ الله أيها النساءُ أنْ تتعدَّيْنَ ما حَدَّ الله لَكُنَّ، فَتُبْدِينَ من زينتكُنَّ ما ليسَ لكنّ أنْ تُبْدِينَهُ، أو تتركنَ الحجابَ الذي أمركُنَّ الله بلزومِه، إلا فيما أباحَ لَكُنَّ تركه، والْزَمْنَ طاعَتَهُ. «إنَّ الله كانَ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الله شاهدٌ على ما تَفْعَلْنَهُ من احتجابكنَّ، وتَرْكِكُنَّ الحجابَ لمن أبحتُ لَكُنَّ تركَ ذلك له، وغير ذلك من أموركُنَّ؛ يقول: «فاتَّقِينَ الله» في أنفسكنَّ لا تلقين الله، وهو شاهدٌ عليكم بمعصيته، وخلافِ أمرِه ونهيه، فتهلكنَ، فإنه شاهد على كلّ شيء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ٥٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الله وملائكته يُبَرِّكُونَ على النبيِّ محمدٍ ﷺ.

وقد يحتمل أن يقال: إنَّ معنى ذلك: أنَّ الله يرحمُ النبيَّ، وتَدْعُو له ملائكتُه ويستغفرونَ، وذلك أنَّ الصلاةَ في كلامِ العربِ من غيرِ الله إنما هو دعاءٌ. وقد بيَّنا ذلك فيما مضى من كتابنا هذا فأغنى ذلك عن إعادته.

«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: يا أيها الذين آمنوا ادْعُوا لنبيِّ الله محمدٍ ﷺ «وَسَلِّمُوا عَلَيْهِ تَسْلِيماً»، يقول: وحَيُّوه تحيةَ الإِسلام.

وبنحو الذي قلنا في ذلك جاءت الآثارُ عن رسول الله ﷺ.

عن كعب بن عُجرة، قال: لما نزلت: «إنَّ الله وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلى النَّبيِّ يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً» قمتُ إليه، فقلتُ: السلامُ عليك قد عرفناه، فكيف الصلاةُ عليكَ يا رسولَ الله؟ قال: قُلِ اللَّهُمَّ صَلِّ على مُحَمَّدٍ وعلى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلى إبراهِيمَ وآلِ إبْراهِيمَ، إنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ وَبَارِكْ على مُحَمَّدٍ وَعلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَما بارَكْتَ على إبْراهِيمَ وآلِ

إبْراهيمَ إنَّكَ حَميدٌ مَجيدٌ»[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾

يعني بقوله تعالى ذِكْرُهُ: «إنَّ الَّذينَ يُؤْذُونَ الله» إنَّ الذين يُؤْذُونَ رَبَّهم بمعصيتِهم إياهُ، وركوبِهم ما حَرَّمَ عليهم.

وقوله: «لَعَنَهُمُ الله في الدُّنْيا والآخِرَةِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: أبعدهم الله من رحمتِه في الدنيا والآخرة وأعَدَّ لهم في الآخرة عذاباً يُهينُهم فيه بالخلودِ فيه.

وقوله: «وَالَّذينَ يُؤْذُونَ المُؤْمِنينَ» كان مجاهدٌ يوجِّهُ معنى قوله: «يُؤْذُونَ» إلى: يَقْفُونَ.

فمعنى الكلام على ما قال مجاهد: والذين يَقْفُونَ المؤمنينَ والمؤمناتِ، ويَعيبُونَهُمْ طَلَباً لِشَيْنِهم. «بِغَيْرِ ما اكْتَسَبُوا»، يقول: بغيرِ ما عملوا.

وقوله: «فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهتاناً وإثْماً مُبِيناً»، يقول: فقد احتملوا زوراً وكذباً وفـريةً شنيعـةً؛ والبهتان: أفحشُ الكذبِ. «وإثْما مُبِيناً»، يقول: وإثماً يبينُ لسامعِهِ أنه إثمٌ وزور.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾

(١) متفق عليه: البخاري (٣٣٧٠) و(٤٧٩٧) و(٦٣٥٧)، ومسلم (٤٠٦) وأخرجاه عن غير كعب أيضاً.

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: يا أيها النبيُّ قُلْ لأزواجكَ وبناتك ونساءِ المؤمنين، لا تَتَشَبَّهْنَ بالإمـاءِ في لبـاسهنَّ إذا هُنْ خَرَجْنَ من بيوتهنَّ لحاجتهنَّ، فَكَشَفْنَ شعورهنَّ ووجوههنَّ، ولكن لِيُدْنِينَ عليهنَّ من جلابيبهنَّ، لئلا يعرضَ لهنَّ فاسقٌ، إذا عَلِمَ أنهنَّ حرائر بأذىً من قولٍ.

ثم اختلف أهـلُ التـأويلِ في صفةِ الإدناء الذي أمرهنَّ الله به، فقال بعضهم: هو أنْ يُغطين وجوههنَّ ورؤسهنَّ، فلا يُبْدِينَ منهنَّ إلا عيناً واحدة.

وقال آخرون: بل أُمِرْنَ أنْ يشددن جلابيبهنّ على جباههنَّ.

وقوله: «ذلكَ أَدْنَى أنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إدناؤهنَّ جلابيبهنَّ إذا أَدْنَيْنَها عليهنَّ أقربُ وأحرى أنْ يُعْرَفْنَ ممن مَرَرْنَ به، ويعلموا أنهنَّ لسن بإماءٍ، فيتنكَّبُوا عن أذاهنَّ بقولٍ مكروهٍ، أو تَعَرُّضٍ بريبةٍ. «وكانَ الله غَفُوراً» لما سَلَفَ منهنّ من تركهنّ إدناءهنَّ الجلابيبَ عليهنَّ «رَحيماً» بهنَّ أنْ يعاقبهنّ بعد توبتهنَّ بإدناءِ الجلابيبِ عليهنّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾

يقـول تعالى ذِكْرُهُ: لئن لم يَنْتَهِ أهلُ النفاق، الذين يستسرُّونَ الكفرَ، ويُظهرونَ الإيمانَ «وَالَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ»، يعني: ريبةً من شهوةِ الزنا وحبُّ الفجور.

وقـوله: «وَالمُرْجِفُونَ في المَدِينةِ»، يقول: وأهلُ الإرجافِ في المدينة بالكذبِ والباطل.

وقوله: «لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ»، يقول: لَنُسَلِّطَنَّكَ عليهم ولنحرِّشَنَّك بهم.

وقوله: «ثُمَّ لا يُجَاوِرونَكَ فِيها إلَّا قَلِيلًا»، يقول: ثم لننفينهم عن مدينتك فلا يسكنونَ معك فيها إلا قليلاً من المدة والأجلِ، حتى ننفيهم عنها، فنخرجهم منها.

وقوله: «مَلْعُونِينَ أيْنَما ثُقِفُوا أُخِذوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: مطرودينَ مَنْفِيينَ أينما ثُقِفوا، يقول: حيثما لُقُوا من الأرضِ أُخِذوا وقتلوا لكفرِهم بالله تقتيلاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «سُنَّةَ الله في الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ» هؤلاء المنافقين الذين في مدينةِ رسولِ الله ﷺ معه من ضُرباء هؤلاء المنافقين، إذا هم أظهروا نفاقهم أن يُقَتِّلَهُمْ تَقْتِيلًا، ويلعنهم لَعناً كثيراً.

وقوله: «وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلًا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيهِ محمدٍ ﷺ: ولن تجدَ يا محمدُ لسنةِ الله التي سَنَّها في خَلْقِه تغييراً، فأيقِنْ أنه غير مغيرٍ في هؤلاءِ المنافقينَ سُنَّتَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يَسْأَلُكَ النَّاسُ» يا محمدُ «عَنِ السَّاعَةِ» متى هي قائمة؟ قلْ لهم: إنما علم الساعة «عِنْدَ الله» لا يعلم وقتَ قيامها غيره «وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً»، يقول: وما أشعركَ يا محمدُ لعلَّ قيامَ الساعةِ

يكونُ منك قريباً، قد قرب وقتُ قيامها، ودَنا حينُ مجيئها.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الله أبعدَ الكافرينَ به من كُلِّ خير، وأقصاهم عنه «وأعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً»، يقول: وأعدَّ لهم في الآخرةِ ناراً تَتَّقِدُ وتَتَسَعَّرُ لِيُصْلِهُمُوهَا. «خالِدِينَ فِيها أبَداً»، يقول: ماكثينَ في السعير أبداً، إلى غيرِ نهاية «لَا يجدُونَ وَلِياً» يتولاهم، فيستنقذُهم من السعيرِ التي أصلاهُمُوها الله «وَلا نَصِيراً» ينصرهم، فينجيهم من عقاب الله إياهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: لا يجد هؤلاء الكافرون ولياً ولا نصيراً في يوم «تقلب وجوههم في النار» حالاً بعد حالٍ «يَقُولُونَ» وتلك حالُهم في النار: «يالَيْتَنَا أطَعْنَا الله» في الدنيا وأطعنا رسولَهُ، فيما جاءنا به عنه من أمره ونهيه، فكنا مع أهلِ الجنةِ في الجنة، يالها حسرةً وندامةً، ما أعظمَها وأجلَّها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقال الكافرونَ يومَ القيامة في جهنم: ربنا إنَّا أطعنا

أئمتنا في الضلالةِ وكُبَراءَنَا في الشرك «فَأَضَلُّونا السَّبِيلاَ»، يقول: فأزالونا عن محجةِ الحقِّ، وطريقِ الهدى، والإيمانِ بك، والإقرارِ بوحدانيتكَ، وإخلاصِ طاعتكَ في الدنيا «رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ العَذَابِ»، يقول: عَذِّبْهُمْ من العذابِ مِثْلَي عذابنا الذي تُعَذِّبنا. «وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً»، يقول: واخْزِهم خزياً كبيراً.

واختلفوا في قراءة قوله: «لَعْناً كَبِيراً» فقرأت ذلك عامة قَرَأَةِ الأمصار بالثاء «كَثِيراً» من الكثرة، سوى عاصم، فإنه قرأه «لَعْناً كَبِيراً» من الكِبَر. والقراءة في ذلك عندنا بالثاء لإجماعِ الحجة من القَرَأَةِ عليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لأصحابِ نبيِّ الله ﷺ: يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله لا تُؤْذُوا رسولَ الله بقولٍ يكرهُه منكم، ولا بفعلٍ لا يحبُّه منكم، ولا تكونُوا أمثالَ الذين آذوا موسى نبيَّ الله، فَرَمَوْهُ بعيبٍ كذباً وباطلاً «فَبَرَّأَهُ الله مِمَّا قالُوا» فيه من الكذبِ والزورِ بما أظهرَ من البرهانِ على كذِبهم «وكانَ عَنْدَ الله وَجِيهاً»، يقول: وكان موسى عند الله مشفعاً فيما يسأل، ذا وجهٍ ومنزلةٍ عنده بطاعتِه إياه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يا أيها الذين صَدَّقُوا الله ورسوله، اتقوا الله أنْ تعصوهُ، فتستحقوا بذلك عقوبتَهُ.

وقوله: «وَقولوا قَوْلاً سَدِيداً»، يقول: قولوا في رسولِ الله والمؤمنينَ قولاً قاصداً غيرَ جائز، حقاً غير باطل.

وقوله: «يُصْلِحْ لَكُمْ أعمالَكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ للمؤمنين: اتقوا الله وقولُوا السدادَ من القولِ يوفقكم لصالحِ الأعمال، فيصلحْ أعمالكم «وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ»، يقول: ويَعْفُ لكم عن ذنوبِكم، فلا يعاقبكم عليها. «وَمَن يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ» فيعملْ بما أمره به، وينتهي عما نهاهُ، ويَقُلِ السديدَ «فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً»، يقول: فقد ظفر بالكرامةِ العُظْمى من الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾

اختلف أهلُ التأويلِ في معنى ذلك، فقال بعضُهم: معناه: إنَّ الله عرضَ طاعتَهُ وفرائِضَهُ على السمواتِ والأرضِ والجبالِ على أنها إنْ أحسنتْ أُثِيبتْ وجُوزِيَتْ، وإنْ ضَيَّعَتْ عُوقِبَتْ، فأبَتْ حملها شفقاً منها أن لا تقومَ بالواجبِ عليها، وحملها آدم «إنَّهُ كانَ ظَلُوماً» لنفسه «جَهُولاً» بالذي فيه الحظُّ له.

عُنِيَ بالأمـانـةِ في هذا المـوضـع: جميع معاني الأماناتِ في الدين، وأماناتِ الناسِ، وذلك أنَّ الله لم يخصَّ بقوله: «عَرَضْنا الأمانَةَ» بعضَ معاني الأماناتِ لما وصفنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وحملَ الإنسانُ الأمانةَ كيما يعذِّبَ الله المنافقينَ فيها الذين يُظْهِرُونَ أنهم يُؤَدُّونَ فرائضَ الله، مؤمنينَ بها، وهم مُسْتَسِرُّونَ الكفرَ بها، والمنافقاتِ والمشركينَ بالله في عبادتهم إياهُ الآلهةَ والأوثانَ، «وَالمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ الله على المُؤْمِنِينَ والمُؤْمِناتِ» يرجع بهم إلى طاعتِه، وأداءِ الأماناتِ التي ألزمهم إياها حتى يؤدُّوهَا. «وكانَ الله غَفُوراً» لذنوبِ المؤمنينَ والمؤمناتِ، بسترِهِ عليها، وتركِه عقابهم عليها. «رَحِيماً» أن يعذِّبَهُمْ عليها بعد توبتِهم منها.



بسم الله الرحمن الرحيم

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: الشكرُ الكاملُ، والحمدُ التامُّ كُلُّه للمعبودِ الذي هو مالـكُ جميعِ ما في السمواتِ السبعِ، وما في الأرضينَ السبعِ دونَ كُلِّ ما يعبدونَهُ، ودونَ كُلِّ شيءٍ سواه، لا مالكَ لشيءٍ من ذلك غيره، فالمعنى الذي هو مالـك جميعه. «وَلَهُ الحَمْدُ في الآخِرَةِ»، يقول: وله الشكرُ الكاملُ في الآخرة، كالذي هو له ذلك في الدنيا العاجلة، لأنَّ منه النعم كلها على كُلِّ مَنْ في السمواتِ والأرضِ في الدنيا، ومنه يكون ذلك في الآخرة، فالحمدُ لله خالصاً دونَ ما سواه في عاجلِ الدنيا، وآجلِ الآخرة، لأنَّ النعم كلها من قِبله لا يُشركهُ فيها أحدٌ من دونِه، وهو الحكيمُ في تدبيرِه خَلْقَهُ وصرفه إياهم في تقديره، خبيرٌ بهم وبما يصلحهم، وبما عملوا، وما هُمْ عاملونَ، محيطٌ بجميعِ ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يعلمُ ما يدخلُ الأرضَ وما يغيبُ فيها من شيءٍ من

قولهم: ولجتُ في كذا: إذا دخلتُ فيه «وَمَا يخْرُجُ مِنْها»، يقول: وما يخرجُ من الأرضِ «وَمَـا يَنْـزِل مِنَ السَّماءِ وَما يعْرُجُ فِيها»، يعني: وما يصعدُ في السماء، وذلك خبرٌ من الله أنه العالمُ الذي لا يَخْفَى عليه شيءٌ في السمواتِ والأرضِ، مما ظهرَ فيها وما بَطَنَ، «وهو الرحيمُ الغفور»، وهو الرحيمُ بأهل التوبةِ من عبادِه أنْ يعذِّبهم بعد توبتهم، الغفورُ لذنوبهم إذا تابوا منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويستعجلُكَ يا محمدُ الذين جَحَدُوا قُدْرَةَ الله على إعادةِ خَلْقِه بعد فنائِهم بهيئتهم التي كانوا بها من قبل فنائِهم من قومكَ بقيامِ الساعة، استهزاءً بوعدكَ إياهُمْ، وتكذيباً لخبرك، قُلْ لهم: بلى تأتيكم وربي، قَسَمـاً به لتأتِيَنَّكُمْ الساعةُ، ثم عاد جلَّ جلاله بعد ذِكْرِه الساعةَ على نفسِه، وتمجيدها، فقال: «عالمِ الغَيْبِ».

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأَةِ المدينة «عالِمُ الغَيْب» على مثالِ فاعل، بالرفع على الاستئنافِ، إذْ دخلَ بين قوله: «وَرَبِّي»، وبين قولـه: «عـالم الغَيْبِ» كلام حائـلٌ بينـه وبينه. وقرأ ذلك بعض قَرَأَةِ الكوفة والبصرة، عالم على مثـال فاعـل، غير أنهم خفضـوا عالم ردًّا منهم له على قوله: «وَرَبِّي» إذْ كان من صفته. وقرأ ذلك بقية عامة قَرَأَة الكوفة «عَلَّامُ الغَيْبِ» على مثال فعَّال، وبالخفضِ ردّاً لإعرابه على إعرابِ قوله: «وَرَبِّي» إذ كان من نَعْتِه.

والصـوابُ من القولِ في ذلك عندنا، أنَّ كُلَّ هذه القراءاتِ الثلاث،

قراءات مشهورات في قَرَأَةِ الأمصارِ متقاربات المعاني، فبأيتهنَّ قرأ القارىءُ فمصيبٌ، غير أنَّ أعجبَ القراءاتِ في ذلك إليَّ أنْ أقرأَ بها «عَلاَّمُ الغَيْبِ» على القراءةِ التي ذكرتها عن عامةِ قَرَأَةِ أهلِ الكوفة، فأما اختيار عَلاَّم على عالم، فلأنَّها أبلغُ في المدح. وأما الخفض فيها فلأنها من نعتِ الربِّ، وهو في موضع الجرِّ. وعنى بقوله: «عَلاَّمُ الغَيْبِ»: علام ما يغيبُ عن أبصارِ الخَلْقِ، فلا يراهُ أحدٌ، إما ما لم يُكَوِّنْه مما سيكوِّنُهُ، أو ما قد كَوَّنَهُ فلم يُطْلِعْ عليه أحداً غيره، وإنما وصفَ جَلَّ ثناؤُهُ في هذا الموضعِ نفسَهُ بعلمِه الغيبَ، إعلاماً منه خلقَهُ أنَّ الساعةَ لا يعلم وقت مجيئها أحدٌ سواه، وإنْ كانت جائيةً، فقال لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ للذين كفروا بربهم: بلى وربكم لتأتينَّكُمْ الساعةُ، ولكنه لا يعلمُ وقت مَجيئها أحدٌ سوى علام الغيوب، الذي لا يعزبُ عنه مثقال ذرّة ويعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَلا يَعْزُبُ عَنْهُ» لا يغيبُ عنه، ولكنه ظاهر له.

وقوله: «مِثْقالُ ذَرَّةٍ»، يعني: زِنَةَ ذرّةٍ في السمواتِ ولا في الأرض، يقول تعالى ذِكْرُهُ: لا يغيبُ عنه شيءٌ من زنةِ ذرّةٍ فما فوقَها فما دونَها، أين كان في السمواتِ ولا في الأرض. «وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذلكَ»، يقول: ولا يعزبُ عنه أصغر من مثقالِ ذرّةٍ «وَلا أَكْبَرُ» منه «إلاَّ في كِتابٍ مُبِينٍ»، يقول: هو مثبت في كتابٍ يبينُ للناظرِ فيه أنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ قد أَثْبَتَهُ وأَحصاهُ وعَلِمَهُ، فلم يعزبْ عن عِلْمِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أثبت ذلك في الكتابِ المبين، كي يُثيبَ الذين آمنوا بالله ورسوله، وعملوا بما أمرهم الله ورسولُه به، وانتهوا عما نهاهم عنه على طاعتهم ربهم. «أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: لهؤلاء الذين آمنوا وعملوا

الصالحات، مغفرةٌ مِن رَبِّهم لذنوبهم «وَرِزْقٌ كَرِيمٌ»، يقول: وعيشٌ هنيءٌ يومَ القيامةِ في الجنة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أثبتَ ذلك في الكتاب، ليجزي المؤمنينَ ما وصفَ، وليجزي الذين سَعَوْا في آياتنا مُعاجِزينَ، يقول: وكي يُثيبَ الذين عملوا في إبطالِ أدلتنا وحججنا معاونين، يحسبون أنهم يسبقوننا بأنفسهم فلا نقدر عليهم. «أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ»، يقول: هؤلاء لهم عذابٌ من شديدِ العذابِ الأليم، ويعني بالأليم: المُوجِع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أثبت ذلك في كتابٍ مبين، ليجزي الذين آمنوا، والذين سعوا في آياتنا ما قد بَيَّنَ لهم، وليرى الذين أُوتُوا العلم، فَيَرى في موضعِ نصبٍ عطفاً به على قوله: «يجزي»، في قوله: «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا» وَعَنى بالذين أُوتُوا العلمَ: مسلمةَ أهلِ الكتاب كعبدِالله بن سلام، ونظرائِه الذين قد قرؤوا كُتُبَ الله التي أُنزلتْ قبلَ الفرقانِ، فقال تعالى ذِكْرُهُ: وليرى هؤلاء الذين أُوتُوا العلمَ بكتابِ الله الذي هو التوراة، الكتاب الذي أُنزلَ إليك يا محمدُ من رَبِّكَ هو الحقّ.

وقيل: عنى بالذين أوتوا العلم: أصحابَ رسولِ الله ﷺ.

وقوله: «وَيَهْدِي إلى صِراطِ العَزيزِ الحَميدِ»، يقول: ويُرْشِدُ مَن اتَّبَعَهُ، وعملَ بما فيه إلى سبيلِ الله العزيزِ في انتقامه من أعدائه، الحميدِ عند خَلْقِه، فأياديه عندهم، ونعمه لديهم. وإنما يعني أنَّ الكتابَ الذي أُنزل على محمدٍ يهدي إلى الإسلام.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقال الذين كفروا بالله وبرسولِه محمدٍ ﷺ، متعجبينَ من وَعْدِه إياهم البعث بعد المماتِ بعضهم لبعض: «هَلْ نَدُلُّكُمْ» أيها الناسُ «على رَجُلٍ يُنبِّئُكُمْ إذا مُزِّقْتُم كُلَّ مُمَزَّقٍ إنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جديدٍ»، يقول: يُخبركم أنكم بعد تَقَطُّعكم في الأرضِ بلاءً وبعدَ مصيرِكم في الترابِ رُفاتاً، عائدونَ كهيئتِكم قبلَ المماتِ خَلْقاً جديداً.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن قِيلِ هؤلاء الذين كفروا به، وأنكروا البعثَ بعد المماتِ بعضهم لبعض، معجبينَ من رسولِ الله ﷺ في وعدِه إياهم ذلك: أفترى هذا الذي يَعِدُنَا أنَّا بعدَ أنْ نُمَزَّقَ كلَّ ممزَّقٍ في خلقٍ جديد على الله كذباً، فتخلق عليه بذلك باطلاً من القولِ، وتخرص عليه قولَ الزور. «أمْ بِهِ جِنَّةٌ»، يقول: أم هو مجنونٌ فيتكلمُ بما لا معنى له.

وقـوله: «بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ في العَذابِ والضَّلالِ البَعيد»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ما الأمرُ كما قالَ هؤلاء المشركونَ في محمدٍ ﷺ، وظنوا به

من أنه افترى على الله كَذِباً، أو أنَّ به جِنَّةً، ولكنَّ الذين لا يؤمنون بالآخرةِ من هؤلاء المشركينَ في عذابِ الله في الآخرةِ، وفي الذهابِ البعيدِ عن طريقِ الحقِّ، وقَصْدِ السبيل، فهم من أجلِ ذلك يقولون فيه ما يقولون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أفلم ينظر هؤلاء المكذِّبونَ بالمعادِ، الجاحدونَ البعثَ بعد المماتِ، القائلونَ لرسولنا محمدٍ ﷺ «أفْتَرَى على الله كَذِباً أمْ بِهِ جِنَّةٌ» إلى ما بينَ أيديهم وما خَلْفَهُمْ من السماءِ والأرضِ، فيعلمُوا أنهم حيثُ كانوا، فإنَّ أرضي وسمائي محيطةٌ بهم من بين أيديهم ومن خلفهم، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم، فيرتَدعُوا عن جَهْلِهم، وينزجروا عن تكذيبهم بآياتنا حَذَراً أنْ نأمرَ الأرضَ فَتُخْسَفَ بهم، أو السماء فَتُسْقِطَ عليهم قِطعاً، فإنَّا إنْ نشأ نفعلْ ذلك بهم فِعْلَنَا.

وقوله: «إنَّ في ذلكَ لآيةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنيبٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إن في إحاطةِ السماءِ والأرضِ بعبادِ الله «لآية»، يقول: لدلالةً لكلِّ عبدٍ منيب، يقول: لكلِّ عبدٍ أنابَ إلى رَبِّه بالتوبةِ، ورجع إلى معرفةِ توحيدِه، والإقرارِ بربوبيته، والاعترافِ بوحدانيته، والإذعانِ لطاعته، على أنَّ فاعل ذلك لا يمتنعُ عليه فِعْلُ شيءٍ أرادَ فِعْلَهُ، ولا يتعذَّرُ عليه فِعْلُ شيءٍ شاءه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولقد أعطينا داودَ منَّا فضلاً، وقلنا للجبالِ «أَوِّبي مَعَهُ»: سَبِّحي معه إذا سَبَّحَ. والتأويبُ عند العربِ: الرجوعُ، ومبيتُ الرجلِ في منزله وأهله.

وقوله: «والطَّيْرَ» وفي نصب الطير وجهان: أحدهما: أنَّ الطيرَ نُوديت كما نُوديت الجبالُ، فتكون منصوبة من أجل أنها معطوفة على مرفوع، بما لايحسنُ إعادةُ رافعهِ عليه، فيكون كالمُصْدَر[1] عن جهتِه، والآخر: فعل ضمير متروك استغني بدلالة الكلامِ عليه، فيكون معنى الكلام: فقلنا: يا جبال أَوِّبي معه، وسخرنا له الطيرَ[2]، وإن رفع ردّاً على ما في قوله: سَبِّحي من ذِكْرِ الجبالِ كان جائزاً، وقد يجوزُ رفع الطير وهو معطوفٌ على الجبال، وإنْ لم يحسن نداؤها بالذي نُوديت به الجبالُ[3].

وقوله: «وأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدَ»، ذُكِرَ أنَّ الحديدَ كان في يدهِ كالطينِ المبلولِ يُصَرِّفُه في يده كيف يشاء بغير إدخالِ نارٍ، ولا ضربٍ بحديد.

وقوله: «أنِ أعْمَلْ سابِغَاتٍ»، يقول: وعَهِدْنَا إليه أن اعملْ سابغاتٍ، وهي التَّوَامُّ الكواملُ من الدُّروع.

وعنى بقوله: «وَقَدِّرْ في السَّرْدِ»: وقدّر المساميرَ في حَلَقِ الدُّروع حتى يكون بمقدار لا تغلظُ المسمار، وتضيقُ الحلقة، فتفصم الحلقة، ولا تُوسِّعِ الحلقةَ، وتصغر المسامير وتدقها، فتسلس في الحلقة.

وقوله: «واعْمَلُوا صَالِحاً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: واعملْ يا داودُ أنتَ وآلكَ

---

(١) هكذا ضبطناها، لأن المقصود بها: كالمصروف عن جهته، أو كما قال الفراء في معاني القرآن (٢/٣٥٥): كالمعدول عن جهته.

(٢) يريد أن سياقَ العبارة يكون: ولقد اتينا داوّد منا فضلاً وسخرنا له الطير. (انظر معاني القرآن للفراء: ٢/٣٥٥).

(٣) هذا كله من كلام الفراء في معاني القرآن.

بطاعـةِ الله. «إنِّي بمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: إني بما تعمل أنتَ وأتباعُكَ ذُو بَصَرٍ لا يَخْفَى عليَّ منه شيءٌ، وأنا مُجازِيكَ وإياهم على جميعِ ذلك.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولقد آتينا داودَ منَّا فضلاً وسَخَّرْنَا لسليمانَ الريحَ.

وقـولـه: «غُـدُوُّها شَهْرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وسخرنا لسليمانَ الريحَ، غُدُوُّهَا إلى انتصافِ النهارِ مسيرة شهرٍ، ورواحها من انتصافِ النهار إلى الليل مسيرة شهر.

وقوله: «وأسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ»، يقول: وأَذَبْنَا له عينَ النحاسِ، وأجريناها له.

وقوله: «وَمِنَ الجنِّ مَنْ يَعْمَل بَينَ يَدَيْه بإِذْنِ رَبِّه»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومن الجنِّ مَنْ يطيعه، ويأتمرُ بأمرِهِ، وينتهي لنهيه، فيعمل بين يديه ما يأمره طاعةً له بإذنِ ربه، يقول: بأمرِ الله بذلك، وتسخيره إياهُ له. «وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أمْرِنَا»، يقول: ومَنْ يَزُلْ وَيعْدِلْ من الجنِّ عن أمرنا الذي أمرناهُ من طاعةِ سليمانَ «نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ» في الآخرة، وذلك عذابُ نارِ جهنمَ الموقدة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ يعملُ الجنُّ لسليمانَ ما يشاء من محاريب، وهي جمع محراب والمحرابُ: مُقَدَّمُ كُلِّ مسجدٍ وبيتٍ ومصلًّى.

وقوله: «وَتماثيلَ»، يعني: أنهم يعملونَ له تماثيلَ من نحاسٍ وزجاجٍ.

وقوله: «وَجِفَانٍ كالجَوَابِ»، يقول: وينحتون له ما يشاءُ من جِفانٍ كالجوابِ، وهي جمع جابية والجابية: الحوضُ الذي يُجْبَى فيه الماء.

وقوله: «وَقُدُورٍ رَاسياتٍ»، يقول: وقدورٍ ثابتاتٍ لا يحركن عن أماكنهنَّ، ولا تحوّل لِعظَمِهِنَّ.

وقوله: «اعْمَلُوا آلَ دَاودُ شُكْراً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقلنا لهم اعملوا بطاعةِ الله يا آلَ داودَ شكراً له على ما أنعمَ عليكم من النعم التي خَصَّكم بها عن سائرِ خَلْقِه مع الشكرِ له على سائرِ نعمه التي عَمَّكُمْ بها مع سائرِ خَلْقِه، وتُرِك ذِكْرُ: وقلنا لهم، اكتفاءً بدلالةِ الكلامِ على ما ترك منه، وأخرج قوله: «شُكْراً» مصدراً من قوله: «اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ» لأنَّ معنى قوله: «اعْمَلُوا» اشكروا رَبَّكم بطاعتكم إياه، وأن العملَ بالذي رضي الله، لله شُكْرٌ.

وقوله: «وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقليلٌ من عبادي المُخْلِصُو توحيدِي، والمُفْرِدُو طاعتي وشكري على نعمتي عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلما أمضينا قضاءَنا على سليمانَ بالموتِ فماتَ «ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ»، يقول: لم يدّل الجنَّ على موتِ سليمانَ «إلاَّ دَابَّةُ الأرْضِ»

وهي الأَرَضَةُ وقعتْ في عصاه، التي كان متكئاً عليها فأكلتها، فذلك قولُ الله عزَّ وجلَّ: «تَأْكُلُ مِنْسَاتَهُ».

وقوله: «فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنُّ»، يقول عزَّ وجلَّ: فلما خَرَّ سليمانُ ساقطاً بانكسارِ منسأته تبيَّنت الجنّ «أنْ لو كانوا يعلمون الغَيْبَ» الذي يَدَّعُونَ عِلْمَهُ «ما لَبِثُوا في العَذابِ المُهِينِ» المُذِلِّ حولاً كاملاً بعد موتِ سليمان، وهم يحسبونَ أنَّ سليمانَ حيٌّ.

القَوْلُ فى تَأْويل قَوْلِهِ تَعَالَى: لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: لقد كانَ لولد سبأ في مسكنهم علامةٌ بَيِّنَةٌ وحجةٌ واضحةٌ على أنه لا رَبَّ لهم إلا الذي أنعمَ عليهم النعم التي كانوا فيها.

وأما قوله: «جَنَّتانِ عَن يَمِينٍ وَشِمالٍ»، فإنه يعني: بستانان كانا بين جبلين، عن يمينِ مَنْ أتاهما وشماله.

وقوله: «كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ» الذي يرزقكم من هاتين الجنتين من زروعهما وأثمارهما، «وَاشْكُرُوا لَهُ» على ما أنعمَ به عليكم من رِزْقِه ذلك، وإلى هذا منتهى الخبر، ثم ابتدأ الخبرَ عن البلدةِ، فقيل: هذه بلدةٌ طيبةٌ: أي ليست بسبخةٍ، ولكنها لم يكن فيها شيءٌ مؤذٍ، الهَمَج[1] والدَّبيب والهوامَ. «وَرَبٌّ غَفُورٌ»، يقول: وربٌّ غفور لذنوبكم إنْ أنتم أطعتموه.

(١) الهمج - بفتحتين - جمع (همجة) وهي ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الغنم والحمير وأعينها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فأعرضت سبأ عن طاعةِ رَبِّها وصَدَّتْ عن اتباعِ ما دَعَتْهَا إليه رُسُلها من أنه خالقها.

وقوله: «فأرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ العَرِمِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فَثَقَّبْنَا عليهم حين أعرضوا عن تصديقِ رسلنا سَدَّهُمْ الذي كان يحبسُ عنهم السيولَ.

وقوله: «وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وجعلنا لهم مكانَ بساتينهم من الفواكِهِ والثمار، بساتينَ من جَني ثمرِ الأراكِ، والأراك: هو الخَمْط.

وأما الأثْلُ فإنه يقال له الطَّرْفاء: وقيل: شجرٌ شبيهٌ بالطَّرْفاء، غير أنه أعظمُ منها, وقيل: إنها السَّمُر.

وقوله: «وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ»، يقول: ذواتي أُكُل خَمْطٍ وأثْلٍ وشيءٍ من سِدْرٍ قليل.

وكان قتادة يقول في ذلك: بينما شجرُ القومِ خيرُ الشجرِ، إذ صَيَّرَهُ الله من شرِّ الشجرِ بأعمالهم.

وقوله: «ذلكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: هذا الذي فعلنا بهؤلاءِ القوم من سبأ من إرسالنا عليهم سيلَ العرم، حتى هلكتْ أموالُهم، وخَربتْ جَنَّاتُهم، جزاء منَّا على كُفْرِهم بنا، وتكذيبهم رسلنا.

وقوله: «وهل نجازي إلا الكَفُور»، معناه: كذلك كافأناهم على كفرهم بالله، وهل يُجازَى إلا الكفورُ لنعمةِ الله؟

فإن قال قائل: أوَ ما يجزي الله أهلَ الإيمانَ به على أعمالهم الصالحة، فيخصَّ أهلَ الكفرِ بالجزاء؟ فيقال وهل يُجازى إلا الكفورُ؟

قيل: إنَّ المجازاةَ في هذا الموضع: المكافأة، والله تعالى ذِكْرُهُ وَعَدَ أهلَ الإيمان به التفضُّلَ عليهم، وأنْ يجعلَ لهم بالواحدةِ من أعمالِهم الصالحةِ عشرَ أمثالها إلى مالا نهايةَ له من التضعيفِ، ووعد المسيءَ من عبادِه أنْ يجعلَ بالواحِدةِ مِن سيئاته، مِثْلَهَا مكافأةً له على جُرْمِه، والمكافأة لأهل الكبائر والكفر، والجزاء لأهل الإيمان مع التفضل، فلذلك قال جَلَّ ثناؤهُ في هذا الموضع: «وَهَلْ يُجازَى إلَّا الكَفُورُ»؟ كأنه قال جَلَّ ثناؤهُ: لا يجازَى: لا يكافأُ على عملِه إلا الكفورُ، إذا كانت المكافأةُ مثلَ المكافأ عليه، والله لا يغفرُ له من ذنوبه شيئاً، ولا يُمَحَّصُ شيءٌ منها في الدنيا. وأما المؤمنُ فإنه يَتفضَّلُ عليه على ما وصفتُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن نعمته التي كان أنعمها على هؤلاءِ القومِ الذين ظلموا أنفسهم، وجعلنا بين بلدهم وبين القُرى التي باركنا فيها وهي الشام، قُرىً ظاهرة.

وقيل: عُنِي بالقرى التي بُورِك فيها بيتُ المقدس.

وقوله: «قُرًى ظاهِرَةً»، يعني: قُرًى مُتَّصلةً، وهي قُرًى عَرَبِيَّةٌ.

وقوله: «وَقَدَّرْنا فِيها السَّيْرَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وجعلنا بين قُراهم والقرى التي باركنا فيها سيراً مُقَدَّراً من منزلٍ إلى منزلٍ، وقريةٍ إلى قرية، لا ينزلونَ

إلا في قرية، ولا يغدون إلا من قرية.

وقوله: «سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وأيَّاماً آمِنِينَ»، يقول: وقلنا لهم سيروا في هذه القرى ما بين قُراكُم، والقرى التي باركنا فيها ليالِيَ وأياماً، آمنينَ لا تخافونَ جوعاً ولا عطشاً، ولا من أحدٍ ظلماً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝١٩﴾

تأويل الكلام: فقالوا: يا رَبَّنا باعِدْ بين أسفارنا، فاجعلْ بيننا وبين الشام فَلَواتٍ ومَفاوِزَ، لنركبَ فيها الرواحلَ، ونتزوَّدَ معنا فيها الأزوادَ، وهذا من الدلالةِ على بطرِ القومِ نعمةَ الله عليهم وإحسانه إليهم، وجهلهم بمقدارِ العافيةِ، ولقد عَجَّلَ لهم رَبُّهم الإجابةَ، كما عَجَّلَ للقائلين، «إنْ كانَ هَذا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أوِ ائْتِنَا بِعَذابٍ أليمٍ» أعطاهم ما رَغِبُوا إليه فيه وطلبوا من المسألة.

وقـولـه: «فَظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ»، وكان ظُلْمُهم إياها عمَلَهُمْ بما يسخطُ الله عليهم من معاصيهِ، مما يوجبُ لهم عقابَ الله «فجعَلْنَاهُمْ أحادِيثَ»، يقول: صَيَّرْناهُمْ أحاديثَ للناسِ يضربون بهم المثل في السبِّ، فيقال: تفرَّقَ القومُ أيادِي سَبَأ، وأيدي سبأ إذا تفرَّقُوا وَتَقَطَّعُوا.

وقوله: «وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ»، يقول: وقَطَّعناهُمْ في البلاد كُلَّ مقطع.

وقوله: «إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِكُلّ صَبَّارٍ شَكُورٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ في تَمْزِيقِناهُمْ كُلَّ ممزَّقٍ لآيات، يقول: لعظةً وعِبْرةً ودلالة على واجبِ حقِّ الله على عبدِهِ من الشكرِ على نعمهِ إذا أنعم عليه، وحقه من الصبرِ على محنتِه

إذا امتحنه ببلاءٍ «لكلِّ صبارٍ شكور» على نعمه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولقد ظَنَّ إبليسُ بهؤلاء الذين بَدَّلْنَاهُمْ بجنَّتيهم جنتين ذواتي أكـل خَمْطٍ، عقوبةً منا لهم، ظناً غيرَ يقينٍ، علم أنهم يتبعونه ويطيعونه في معصيةِ الله، فَصَدَّقَ ظَنَّهُ عليهم، بإغوائِه إياهم، حتى أطاعوهُ، وعَصَوْا رَبَّهم، إلا فريقاً من المؤمنينَ بالله، فإنهم ثبتوا على طاعةِ الله ومعصيةِ إبليس.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ۝٢١﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُهُ: وما كانَ لإبليسَ على هؤلاءِ القومِ الذين وَصَفَ صِفَتَهُم من حُجَّةٍ يُضِلُّهم بها، إلا بتسليطِنَاهُ عليهم، ليُعْلَمَ حزبُنا وأولياؤُنا. «مَنْ يُؤْمِنُ بالآخِرَةِ»، يقول: مَنْ يصدِّقُ بالبعثِ والثواب والعقابِ «مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ» فلا يُوقِنُ بالمعاد، ولا يصدِّقُ بثوابٍ ولا عقاب.

وقـولـه: «وَرَبُّكَ على كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ورَبُّكَ يا محمدُ على أعمالِ هؤلاءِ الكَفَرَةِ به، وغير ذلك من الأشياء كلها «حَفِيظٌ» لا يعزبُ عنه عِلْمُ شيءٍ منه، وهو مُجازٍ جميعَهم يومَ القيامة، بِما كسبوا في الدنيا من خيرٍ وشر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فهذا فِعْلُنا بولينا ومَنْ أطاعنا، داود وسليمان الذي فعلنا بهما من إنعامِنَا عليهما النعمَ التي لا كفاءَ لها إذا شَكَرَانَا، وذاك فِعْلُنا بسَبَأ الذين فعلنا بهم، إذ بَطِرُوا نعمتنا، وكذَّبُوا رسلنا، وكفروا أيادينا، فَقُلْ يا محمدُ لهؤلاء المشركين بربهم من قومكَ، الجاحدينَ نِعَمَنَا عندهم، ادعوا أيها القومُ الذين زعمتم أنهم لله شريك من دونه، فَسَلُوهُمْ أنْ يفعلوا بكم بعضَ أفعالنا، بالذين وصفنا أمرهم من إنعامٍ أو إياس، فإنْ لم يقدروا على ذلك فاعلموا أنكم مُبْطِلُونَ، لأنَّ الشركةَ في الربوبية لا تصلحُ ولا تجوز، ثم وصف الذين يدعون من دون الله، فقال: إنهم لا يملكون مثقالَ ذرّةٍ في السموات ولا في الأرض من خيرٍ ولا شرٍّ ولا ضرٍّ ولا نفع، فكيف يكون إلهاً مَنْ كان كذلك.

وقوله: «وَما لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولا هُمْ إذ لم يكونوا يملكون مثقالَ ذرّةٍ في السمواتِ ولا في الأرضِ، منفردينَ بملكه من دون الله، يملكونه على وجهِ الشَّرِكة، لأن الأملاكَ في المملوكات، لا تكون لمالكها إلا على أحدِ وجهين: إما مقسوماً، وإما مُشَاعاً، يقول: وآلهتهم التي يدعون من دونِ الله، لايملكـون وزنَ ذَرّةٍ في السمواتِ ولا في الأرض، لا مُشاعاً ولا مقسوماً، فكيف يكونُ مَنْ كان هكذا شريكاً لمن له ملكُ جميع ذلك.

وقوله: «وَما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ»، يقول: وما لله من الآلهةِ التي يدعون من دونِه مُعينٌ على خَلْقِ شيءٍ من ذلك، ولا على حِفْظِه، إذ لم يكن لها ملكُ شيءٍ منه مُشاعاً ولا مقسوماً، فيقال: هو لكَ شريكٌ من أجلِ أنه أعانَ وإنْ لم يكن له ملكُ شيءٍ منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولا تنفع شفاعةُ شافعٍ كائناً مَنْ كان الشافعُ لمن شَفَع له، إلا أن يشفعَ لمن أذنَ الله في الشفاعة، يقول تعالى: فإذا كانت الشفاعاتُ لا تنفعُ عند الله أحداً إلا لمن أذِنَ الله في الشفاعة له، والله لا يأذنُ لأحدٍ من أوليائِه في الشفاعة لأحدٍ من الكَفَرَةِ به، وأنتم أهلُ كفرٍ به أيها المشركونَ، فكيف تعبدون مَنْ تعبدونه من دونِ الله زعماً منكم أنكم تعبدونه، ليقرِّبَكُمْ إلى الله زُلْفَى، وليشفع لكم عند ربكم، «فمن»، إذ كان هذا معنى الكلام التي في قوله: «إلَّا لِمَنْ أذِنَ لَهُ»: المشفوع له.

وقوله: «حتى إذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ»، يقول: حتى إذا جُلِيَ عن قلوبهم، وكشفَ عنهـا الفَزَعُ وذهب. وإذ كان ذلك كذلك؛ فمعنى الكلام: لا تنفعُ الشفاعةُ عنده، إلا لمن أذِنَ له أن يشفَعَ عنده، فإذا أذن الله لمن أذنَ له أن يشفع فزعَ لسماعه إذنه، حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم، فجُلِّيَ عنها، وكشَفَ الفزَعَ عنهم، قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالت الملائكة: الحقّ، «وهو العليُّ» على كل شيءٍ «الكبيرُ» الذي لا شيءَ دونه. والعربُ تستعملُ فُزِّع في معنيين، فتقولُ للشجاع الذي به تنزلُ الأمور التي يُفْزَعُ منها: هو مُفَزَّع، وتقول للجبانِ الذي يَفْزَع من كلِّ شيءٍ: إنه لمُفَزَّع، وكذلك تقولُ للرجلِ الذي يقضي له الناسُ في الأمور بالغَلَبَةِ على مَنْ نازله فيها: هو مُغَلَّب، وإذا أُريدَ به هذا المعنى كان غالباً، وتقول للرجل أيضاً الذي هو مغلوب أبداً: مُغَلَّب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ لهؤلاء المشركين بربهم الأوثانَ والأصنامَ مَنْ يرزقكُم من السمواتِ والأرضِ بإنزالِه الغيثَ عليكم منها حياةً لحروثكم، وصلاحاً لمعايشكم، وتسخيره الشمسَ والقمرَ والنجومَ لمنافعكم، ومنافع أقواتكم، والأرض بإخراجه منها أقواتكم وأقوات أنعامكم، وترك الخبر عن جوابِ القومِ استغناءً بدلالة الكلامِ عليه، ثم ذكره، وهو: فإنْ قالوا: لا ندري، فقل: الذي يرزقكُم ذلك الله، وإنَّا أو إيَّاكم أيها القومُ لعلى هُدىً، أو في ضلالٍ مبين: يقول: قل لهم: إنَّا لعلى هدى أو في ضلال، أو إنكم على ضلالٍ أو هُدىً.

وهذا عندي أمرٌ من الله لنبيهِ بتكذيبِ مَنْ أمره بخطابِه بهذا القولِ بأجملِ التكذيبِ، كما يقولُ الرجل لصاحبٍ له يخاطبه، وهو يريدُ تكذيبَهُ في خبرٍ له: أحَدُنَا كاذبٌ، وقائل ذلك يعني صاحبه، لا نفسَهُ، فلهذا المعنى صَيَّرَ الكلام بأو.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيهِ محمدٍ ﷺ: قُلْ لهؤلاء المشركينَ: أحدُ فريقينا على هُدى والآخرُ على ضلالٍ، لا تُسْألونَ أنتم عما أجرمنا نحن من جرمٍ، وركبنا من إثمٍ ولا نُسأَلُ نحن عما تعملون أنتم من عملٍ، قل لهم: «يجمعُ بيننَا ربُّنَا» يومَ القيامة عنده، «ثم يفتحُ بيننا بالحقِّ»، يقول: ثم يقضي بيننا

بالعدل، فيتبينُ عند ذلك المهتدي منا من الضالِّ. «وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ»، يقول: والله القاضي العليم بالقضاءِ بين خَلْقِه، لأنه لا تخفى عنه خافية، ولا يحتاجُ إلى شهودٍ تُعَرِّفُه المُحقَّ من المُبْطِلِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٢٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: قل يا محمدُ لهؤلاء المشركينَ بالله الآلهةَ والأصنامَ أرُوني أيُّها القومُ الَّذينَ ألحقتموهم بالله فَصَيَّرْتُموهم له شركاءَ في عبادتكم إياهم: ماذا خَلَقُوا من الأرضِ، أم لهم شِرْكٌ في السمواتِ، «كلا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: كَذَبُوا، ليس الأمرُ كما وصفوا، ولا كما جعلوا وقالوا من أنَّ لله شريكاً، «بل هو» المعبودُ الذي لا شريكَ له، ولا يصلحُ أنْ يكونَ له شريكٌ في ملكه، «العزيزُ» في انتقامه ممن أشركَ به من خَلْقِه، «الحكيمُ» في تدبيره خلقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما أرسلناكَ يا محمدُ إلى هؤلاء المشركينَ بالله من قومِكَ خاصة، ولكنا أرسلناك كافة للناس أجمعين، العرب منهم والعجم، والأحمر والأسود، بشيرا من أطاعك، ونذيرا من كذّبك، «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» أن الله أرسلك كذلك إلى جميع البشر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ

﴿صَٰدِقِينَ ۝٢٩ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٠﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُهُ: ويقول هؤلاء المشركونَ بالله إذا سمعوا وعيدَ الله الكفار وما هو فاعلٌ بهم في مَعَادِهم مما أنزلَ الله في كتابه، «مَتى هَٰذَا الوَعْدُ» جائياً، وفي أيِّ وقتٍ هو كائنٌ «إنْ كُنْتُم» فيما تَعِدُوننا من ذلك «صَادِقِينَ» أنه كائنٌ، قال الله لنبيه: «قُلْ» لهم يا محمدُ «لَكُمْ» أيها القومُ «مِيعادُ يَوْمٍ» هو آتيكم «لا تَسْتَـأْخِـرُونَ عَنْـهُ» إذا جاءكم «ساعةً» فتنظروا للتوبةِ والإنابةِ «وَلَا تستَقْدِمُونَ» قبله بالعذابِ، لأنَّ الله جعلَ لكم ذلك أجلاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝٣١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَروا» من مشركي العربِ «لَنْ نُؤْمِنَ بِهَٰذَا القُرآن» الذي جاءنا به محمدٌ ﷺ: ولا بالكتابِ الذي جاء به غيره من بين يديه.

وقـولـه: «وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ» يتلاومون، يحاوِرُ بعضُهم بعضاً، يقول المستضعفونَ: كانوا في الدنيا للذين كانوا عليهم فيها يستكبرون: لولا أنتم أيها الرؤساءُ والكبراءُ في الدنيا لَكُنَّا مؤمنينَ بالله وآياته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا» في الدنيا، فرأسوا في الضلالةِ والكفرِ باللهِ «لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا» فيها فكانوا أتباعاً لأهلِ الضلالةِ منهم، إذ قالوا لهم: «لَوْلا أنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ أنَحْنُ صَدَدْناكُم عَنِ الهُدَى» وَمَنَعْناكُمْ من اتباعِ الحقِّ «بَعْدَ إذْ جاءَكُمْ» من عندِ الله، يبينُ لكم. «بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ» فَمَنَعكُمْ إيثارُكُم الكفرَ بالله على الإيمانِ من اتِّباعِ الهدى، والإيمانِ بالله ورسوله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَقالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا» من الكَفَرَةِ باللهِ في الدنيا، فكانوا أتباعاً لرؤسائهم في الضلالة «لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا» فيها، فكانوا لهم رؤساءَ بَلْ مَكْرُكُم لنا باللَّيْلِ والنَّهارِ صَدَّنَا عن الهدى «إذْ تَأْمُرُونَنا أنْ نَكْفُرَ بالله ونَجْعَلَ لَهُ» أمثالاً وأشباهاً في العبادةِ والألوهةِ، فأضيفَ المكرُ إلى الليلِ والنهارِ. والمعنى ما ذكرنا من مكرِ المستكبرينَ بالمستضعفينَ في الليلِ والنهارِ، على اتساعِ العربِ في الذي قد عُرِف معناها فيه من منطِقها، من نقلِ صفةِ الشيءِ إلى غيرِه، فتقول للرجل: يا فلان نهارك صائم وليلك قائم، وما أشبه ذلك.

وقوله: «إذْ تَأْمُرُونَنا أنْ نَكْفُرَ بالله»، يقول: حين تأمروننا أنْ نكفرَ بالله.

وقوله: «ونجعَلَ لَهُ أنْداداً»، يقول: شركاء.

وقوله: «وأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا العَذَابَ»، يقول: ونَدِمُوا على ما فَرَّطُوا من طاعةِ الله في الدنيا حين عاينوا عذابَ الله الذي أعدَّهُ لهم.

وقوله: «وَجَعَلْنا الأَغْلالَ في أعناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا» وغُلَّت أيدي الكافرينَ بالله في جهنم إلى أعناقِهم في جوامعَ من نارِ جهنم، جزاءً بما كانوا بالله في الدنيا يكفرون، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: ما يفعل الله ذلك بهم إلا ثواباً لأعمالِهم الخبيثة التي كانوا في الدنيا يعملونها، ومكافأةً لهم عليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما بعثنا إلى أهلِ قريةٍ نذيراً يُنْذِرُهم بأسَنا أنْ ينزلَ بهم على معصيتهم إيَّانا، إلاَّ قال كُبراؤها ورؤساؤها في الضلالةِ كما قال قومُ فرعونَ من المشركينَ له: إنَّا بما أُرْسِلْتُمْ به من النِّذارةِ، وبُعثتم به من توحيدِ الله، والبراءةِ من الآلهةِ والأندادِ كافرونَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقال أهلُ الاستكبارِ على الله من كُلِّ قريةٍ أرسلنا فيها نذيراً لأنبيائنا ورسلنا، «نحنُ أكْثَرُ أمْوَالاً وأوْلاداً»، وَما نَحْنُ فِي الآخرةِ «بِمُعَذَّبِينَ»، لأنَّ الله لو لم يكن راضياً ما نحنُ عليه من الملةِ والعملِ لَمْ يُخَوِّلْنا الأموالَ والأولاد، ولم يبسطْ لنا في الرزق، وإنما أعطانا ما أعطانا من ذلك لرضاهُ أعمالَنا، وآثَرَنَا بما آثرنا على غيرنا لِفَضْلِنَا، وزلفةً لنا عنده، يقولُ الله

لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ لهم يا محمدُ «إن ربي يبسط الرزق» من المعاشِ والرياشِ في الدنيا «لمن يشاء» من خَلْقِه «ويَقْدِر» فيضيقُ على مَنْ يشاء لا لمحبةٍ فيمن يبسطُ له ذلك ولا خيرٍ فيه ولا زُلْفةٍ له، استحقَّ بها منه، ولا لبُغضٍ منه لمن قَدَرَ عليه ذلك، ولا مَقْتٍ، ولكنه يفعلُ ذلك مِحْنةً لعبادِه وابتلاءً، وأكثرُ الناسِ لا يعلمون أنَّ الله يفعلُ ذلك اختباراً لعبادِه، ولكنهم يظنون أنَّ ذلك منه محبةٌ لمن بَسَطَ له ومَقْتٌ لمن قَدَرَ عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ: وما أموالُكُم التي تفتخرونَ بها أيُّها القومُ على الناسِ، ولا أولادُكُم الذين تتكبرون بهم بالتي تُقَرِّبُكم منا قُرْبَةً.

وقوله: «إلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً»، اختلف أهلُ التأويل في معنى ذلك[1].

وأولى الأقوالِ عندنا بالصواب أنْ يقال: إن «مَن» نُصبتْ بالاستثناء، وإن شئتَ أوقَعْتَ عليه التقريب، فيكون معنى الكلام: لا تُقَرِّب الأموالُ إلا مَنْ آمن وعمل صالحاً. وقد يحتمل أنْ يكون «مَن» في موضع رفعٍ فيكون كأنه قيل: وما هو إلا مَنْ آمنَ وعمل صالحاً.

---

(١) وقع في تفسير هذا القول سقط ليس بالقليل، على أننا استطعنا أن نتبين رأي المؤلف في تفسيرها بما بقي من كلامه الذي نظن أنه تابع فيه الفرَّاء في معاني القرآن (٢/ ٣٦٣) فصغنا العبارة الآتية على طريقته وبما بقي من كلامه، والاستعانة بكلام الفرَّاء.

وقوله: «فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ»، يقول: فهؤلاء لهم من الله على أعمالِهم الصالحة الضعف من الثواب، بالواحدةِ عَشْرٌ.

وقوله: «في الغُرُفاتِ آمِنُونَ»، يقول: وهم في غرفاتِ الجناتِ آمنونَ من عذابِ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۝٣٨ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٣٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: والذين يعملون في آياتنا، يعني: في حُجَجِنَا وآيِ كتابنا، يبتغونَ إبطالَهُ، ويريدونَ إطفاءَ نوره معاونينَ، يحسبونَ أنهم يَفُوتُونَنا بأنفسهم، ويُعْجِزُونَنا «أُولَئكَ في العذاب مُحْضَرونَ» يعني في عذابِ جهنم مُحْضَرُونَ يومَ القيامة «قُلْ إنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: قل يا محمدُ إنَّ ربي يبسطُ الرزقَ لمن يشاءُ من خَلْقِه، فيوسعه عليه تكرمةً له وغيرَ تكرمةٍ، ويَقْدِرْ على مَنْ يشاء منهم فيضيقه ويقتره إهانةً له وغيرَ إهانةٍ، بل مِحنـةً واختباراً. «وما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يَخْلِفُهُ»، يقول: وما أنفقتم أيها الناسُ من نفقةٍ في طاعة الله، فإنَّ الله يخلفها عليكم.

وقوله: «وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقينَ»، يقول: وهو خيرُ مَنْ قِيلَ إنه يَرْزقُ ووُصِفَ به، وذلك أنه قد يوصفُ بذلك مَنْ دُونَهُ، فيقال: فلانٌ يَرزُق أهلَهُ وعياله.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟

﴿يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ۝٤١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويوم نحشرُ هؤلاء الكفار بالله جميعاً، ثم نقولُ للملائكة: أهؤلاء كانوا يعبدونَكُمْ من دوننا؟ فتتبرأ منهم الملائكةُ «قَالُوا سُبْحَانَكَ» رَبَّنا، تنزيهاً لك وتبرئةً مما أضافَ إليكَ هؤلاء من الشركاءِ والأندادِ «أنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ» لا نَتَّخِذُ ولياً دونكَ «بَلْ كَانوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ».

وقوله: «أكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنينَ»، يقول: أكثرهم بالجنِّ مُصَدِّقُونَ، يزعمون أنهم بنات الله، تعالى الله عما يقولون عُلُوّاً كبيراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝٤٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فاليومَ لا يملكُ بعضُكم أيها الملائكةُ للذين كانوا في الدنيا يعبدونكم نفعاً ينفعونكم به، ولا ضرًّا ينالونكم به، أو تنالونهم به. «وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا»، يقول: ونقول للذين عبدوا غيرَ الله فوضعوا العبادَة في غير موضعها، وجعلوها لغيرِ مَنْ تنبغي أنْ تكونَ له «ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ التي كُنْتُم بِها» في الدنيا «تُكَذِّبونَ» فقد وَرَدْتُمُوها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝٤٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإذا تُتْلَى على هؤلاء المشركينَ آياتُ كتابنا بيِّناتٍ، يقول: واضحاتٍ أنهنّ حقٌّ من عندنا «قالُوا ما هَذَا إلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ»، يقول: قالوا عند ذلك: لا تَتَّبِعُوا محمداً، فما هُوَ إلا رجـلٌ يريدُ أنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كان يعبدُ آباؤكم من الأوثانِ، ويغير دينَكُم ودينَ آبـائكم. «وَقـالُـوا ما هَذَا إلَّا إفْـكٌ مُفْتَرًى»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقال هؤلاء المشـركون: ما هذا الذي تَتْلُوا علينا يا محمدُ، يعنونَ القرآنَ، «إلا إفكٌ»، يقول: إلا كذِبٌ مُفترى»، يقول: مُخْتلَقٌ، مُتَحَرَّصٌ «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلحَقِّ لَمَا جاءهم إنْ هٰذَا إلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: وقال الكفارُ للحقِّ، يعني محمداً ﷺ لما جاءهم، يعني: لما بَعَثَهُ نبياً: هذا سِحْرٌ مبين. يقول: ما هذا إلا سحرٌ مبين، يبينُ لمن رآهُ وتأمَّلَهُ أنه سحرٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُهُ: وما أنزلنا على المشركينَ القائلينَ لمحمدٍ ﷺ لما جاءهم بآياتنا: هذا سحرٌ مبين بما يقولونَ من ذلك كتباً «يدرسونها»، يقول: يقرؤونها.

«وَما أرْسَلْنا إلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ»، يقول: وما أرسلنا إلى هؤلاء المشركينَ من قومِكَ يا محمدُ فيما يقولونَ ويعملون قبلكَ من نَبِيٍّ ينذرهم بأسَنا عليه.

وقوله: «وكَذَّبَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهم»، يقول: وكَذَّبَ الذين من قبلهم من الأممِ رُسُلَنا وَتَنْزِيلَنا «وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ ما آتيناهُمْ»، يقول: ولم يبلغ قومُكَ يا محمدُ عُشْرَ ما أعطينا الذين من قبلهم من الأممِ من القوَّةِ والأيدي والبطْشِ،

وغير ذلك من النعم.

«فَكَذَّبُوا رسلي فكَيْفَ كانَ نَكير»، يقول: فكذَّبُوا رسلي فيما أتوهم به من رسالتي، فعاقبناهم بتغييرنا بهم ما كُنَّا آتيناهم من النعم، فانظُرْ يا محمدُ كيف كان نكير، يقول: كيف كان تغييري بهم وعقوبتي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قُلْ يا محمدُ لهؤلا المشركينَ من قومكَ: إنما أَعِظُكم أيُّها القومُ بواحدةٍ وهي طاعة الله.

وقوله: «أنْ تقُومُوا لله مَثْنَى وَفُرَادَى»، يقول: وتلك الواحدة التي أعِظُكم بها هي أنْ تقوموا لله اثنين اثنين، «وفُرَادَى»، يقول: واحداً واحداً.

وقوله: «ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ»، يقول: لأنه ليس بمجنون.

وقوله: «إنْ هُوَ إلَّا نَذِيرٌ لَكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شديدٍ»، يقول: ما محمدٌ إلا نذيرٌ لكم يُنْذِرُكُم على كُفْرِكم بالله عقابه أمامَ عذابِ جهنمَ قبلَ أنْ تَصْلَوْها، وقوله: «هو» كناية اسم محمد ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قُلْ يا محمدُ لقومكَ المُكَذِّبيكَ، الرَّادِّينَ عليكَ ما أتيتهم به من عندِ رَبِّكَ: ما أسألكم من جُعْلٍ على إنذارِكُمْ عذابَ الله،

وتخويفكم به بأسَهُ، ونصيحتي لكم في أمري إياكم بالإيمانِ بالله، والعمل بطاعته، فهو لكم لا حاجةَ لي به، وإنما معنى الكلام: قُلْ لهم: إني لم أسألكم على ذلك جُعْلاً فتتَّهِمُوني، وتَظُنُّوا أني إنما دعوتُكم إلى اتباعي لمالٍ آخذُه منكم.

وقوله: «إنْ أجْرِيَ إلاَّ على الله»، يقول: ما ثوابي على دعائكم إلى الإيمانِ بالله، والعمل بطاعته، وتبليغكم رسالته، إلا على الله «وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ»، يقول: والله على حقيقةِ ما أقولُ لكم شهيدٌ يشهدُ لي به، وعلى غيرِ ذلك من الأشياءِ كلها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۝٤٨ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ۝٤٩﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ «قُلْ» يا محمدُ لمشركي قومك «إنَّ رَبِّي يقذِفُ بالحَقِّ» وهو الوحيُ، يقول: ينزلهُ من السماءِ، فيقذفُه إلى نبيهِ محمدٍ ﷺ «عَلَّامُ الغُيُوبِ»، يقول: علامُ ما يغيبُ عن الأبصارِ، ولا مَظْهَر لها، وما لم يكن مما هو كائنٌ، وذلك من صفةِ الربِّ، غير أنه رُفِعَ لمجيئه بعدَ الخبرِ.

«قُلْ جاءَ الحَقُّ»، يقول: قل لهم يا محمدُ: جاء القرآنُ ووحيُ الله «وَما يُبْدِئُ الباطِلُ»، يقول: وما ينشئُ الباطلُ خَلْقاً، والباطلُ هو فيما فسَّرهُ أهلُ التأويل: إبليسُ «وَما يُعِيدُ»، يقول: ولا يعيدُه حياً بعد فنائِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۝٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قُلْ يا محمدُ لقومِكَ: إنْ ضَلَلْتُ عن الهدى، فسلكتُ

غيرَ طريقِ الحقِّ، فإنما ضلالي عن الصوابِ على نفسي، يقولُ: فإنَّ ضلالي عن الهدى على نفسي ضرُّهُ. «وَإِنِ اهْتَدَيْتُ»، يقول: وإن استقمتُ على الحقِّ «فَبِمَا يُوحي إليَّ رَبِّي»، يقول: فبوحيِ اللهِ الذي يوحِي إليَّ، وتوفيقِهِ للاستقامةِ على محجةِ الحقِّ وطريقِ الهُدى.

وقوله: «إِنَّهُ سَميعٌ قَريبٌ»، يقول: إنَّ ربي سميعٌ لما أقولُ لكم، حافظٌ له، وهو المجازي لي على صدقي في ذلك، وذلك مني غير بعيد، فيتعذَّرُ عليه سماعُ ما أقولُ لكم، وما تقولونَ، وما يقولُه غيرنا، ولكنه قريبٌ من كلِّ متكلمٍ يسمعُ كُلَّ ما ينطقُ به، أقربُ إليه من حبلِ الوريد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمد ﷺ: ولو تَرى يا محمدُ إذْ فزِعُوا.

واختلف أهلُ التأويل في المَعْنِيِّينَ بهذه الآية، فقال بعضهم: عُنِي بها هؤلاء المشركونَ الذين وصفهم تعالى ذكره بقوله: «وَإِذَا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إلَّا رجُلٌ يُريدُ أنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ يعبُدُ آباؤُكُمْ»، قال: وعُنِي بقوله: «إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وأُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَريبٍ» عند نزولِ نقمةِ اللهِ بهم في الدنيا.

وقال آخرون: عُني بذلك جيش يُخْسَفُ بهم ببيداءَ من الأرضِ.

وقال آخرون: بل عُني بذلك المشركونَ إذا فَزِعُوا عند خروجِهم من قبورهم.

والـذي هو أولى بالصـوابِ في تأويل ذلك، وأشبه بما دلَّ عليه ظاهرُ

لتنزيل قولُ مَنْ قال: وعيدُ الله المشركينَ الذين كَذَّبُوا رسولَ الله ﷺ من قومه لأنَّ الآياتِ قبلَ هذه الآية جاءت بالإخبارِ عنهم وعن أسبابِهم، وبوعيدِ الله إياهم مَغَبَّته، وهذه الآيةُ في سياق تلك الآيات، فَلأَنْ يكونَ ذلك خبراً عن حالهم أشبهُ منه بأنْ يكون خبراً لما لم يَجْرِ له ذِكْرٌ. وإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: ولو ترى يا محمدُ هؤلاء المشركينَ من قومك، فتعاينهم حين فَزِعُوا من معاينتهم عذابَ الله «فَلا فَوتَ»، يقول: فلا سبيلَ حينئذٍ أنْ يفوتوا بأنفسهم، أو يُعْجِزُونَا هَرَباً، ويَنْجُوا من عذابنا.

وقوله: «وأُخِذُوا من مَكانٍ قَريبٍ»، يقول: وأَخَذَهُم الله بعذابِه من موضعٍ قريبٍ، لأنهم حيث كانوا من الله قريب لا يبعدونَ عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ۝٥٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وقال هؤلاء المشركونَ حين عايَنُوا عذابَ الله آمَنَّا به، يعني: آمنا بالله وبكتابه ورسولِه.

وقوله: «وأنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ»، يقول: ومن أيِّ وجهٍ لهم التناوشُ، يعني: وأينَ لهم التوبةُ والرجعةُ، أي قد بَعُدَتْ عنهم، فصاروا منها كموضعٍ بعيدٍ أنْ يتناولوها، وإنما وَصَفْتُ ذلك الموضعَ بالبعيدِ، لأنهم قالوا ذلك في القيامة، فقال الله: أنَّى لهم بالتوبةِ المقبولةِ، والتوبةُ المقبولةُ إنما كانت في الدنيا، وقد ذهبت الدنيا فصارتْ بعيداً من الآخرة.

وقوله: «مِنْ مَكانٍ بَعيدٍ»، يقول: من آخرتهم إلى الدنيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ

﴿بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ»، يقول: وقد كفروا بما يسألونه رَبَّهم عند نزولِ العذابِ بهم، ومعاينتهم إياهُ من الإقالةِ له، وذلك الإيمانُ بالله، وبمحمدٍ ﷺ، وبما جاءهم به من عندِ الله.

وقوله: «وَيَقْذِفُونَ بالغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ»، يقول: وهم اليوم يقذفون بالغيبِ محمداً من مكانٍ بعيد، يعني أنهم يرجمُونَهُ، وما أتاهم من كتابِ الله بالظنونِ والأوهامِ، فيقولُ بعضُهم: هو ساحرٌ وبعضهم: شاعرٌ، وغير ذلك.

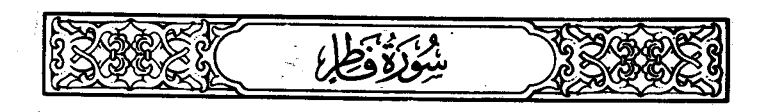
القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ۝٥٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وحِيلَ بين هؤلاء المشركينَ حين فَزِعُوا، فلا فوتَ، وأُخِذُوا من مكانٍ قريب، فقالوا آمنا به «وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ» حينئذٍ من الإيمانِ بما كانوا به في الدنيا قبلَ ذلك يكفرونَ ولا سبيلَ لهم إليه.

وقوله: «كماَ فُعِلَ بأشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ»، يقول: فعلنا بهؤلاء المشركين، فَحُلْنَا بينهم وبين ما يشتهونَ من الإيمانِ بالله عند نزولِ سَخَطِ الله بهم، ومعاينتهم بأسَهُ كما فعلنا بأشياعِهم على كُفْرِهم بالله من قَبْلِهم من كفارِ الأممِ، فلم نقبلْ منهم إيمانَهُمْ في ذلك الوقتِ، كما لم نقبلْ في مثلِ ذلك الوقتِ من ضُرَبائِهم. والأشياع: جمع شِيَع، وشِيَع: جمع شيعة، فأشياع جَمْعُ الجمع.

وقوله: «إنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وحِيلَ بين هؤلاء المشركينَ حين عاينوا بأسَ الله، وبين الإيمانِ: إنهم كانوا قبل في الدنيا في

شكٍّ من نزولِ العذابِ الذي نزلَ بهم وعايَنُوهُ، وقد أخبرهم نَبيُّهُمْ أنهم إنْ لم ينيبوا مما هم عليه مقيمونَ من الكفرِ بالله، وعبادةِ الأوثانِ أنَّ الله مُهْلِكهم، ومُحِلٌّ بهم عقوبَتَهُ في عاجلِ الدنيا، وآجلِ الآخرةِ قبلَ نزوله بهم. «مريب»، يقول: مُوجِبٌ لصاحبِهِ الذي هُوَ به ما يَريبهُ من مكروه.



سورة فاطر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: الشكرُ الكاملُ للمعبودِ الذي لا تصلحُ العبادةُ إلا له، ولا ينبغي أنْ تكونَ لغيرِه خالق السمواتِ السبعِ والأرضِ، «جاعِلِ المَلائِكَةِ رُسُلًا» إلى مَنْ يشاءُ من عبادِه، وفيما شاء من أمرِه ونهيه. «أُولي أجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاثَ وَرُباعَ»، يقول: أصحاب أجنحة: يعنى ملائكة، فمنهم مَنْ له اثنان من الأجنحةِ، ومنهم من له ثلاثةُ أجنحةٍ، ومنهم مَنْ له أربعة.

وقوله: «يَزِيدُ في الخَلْقِ ما يَشاءُ» وذلك زيادتُه تباركَ وتعالى في خَلْقِ هذا المَلَكِ من الأجنحةِ على الآخرِ ما يشاءُ، ونقصانُه عن الآخرِ ما أحبَّ، وكذلك ذلك في جميع خَلْقِه يزيدُ ما يشاءُ في خَلْقِ ما شاء منه، وينقصُ ما شاء من خَلْقِ ما شاء، له الخَلْقُ والأمرُ، وله القدرةُ والسلطانُ. «إنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ»، يقول: إنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ قديرٌ على زيادةِ ما شاء من ذلك فيما شاء، نقصان ما شاء منه ممن شاء، وغير ذلك من الأشياء كلها، لا يمتنعُ عليه فِعْلُ شيءٍ أراده سبحانه وتعالى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: مفاتيحُ الخيرِ ومغالِقُه كُلها بيدِهِ، فما يفتح الله للناسِ من خيرٍ فلا مُغْلِقَ له، ولا ممسكَ عنهم، لأنَّ ذلك أمره لا يستطيعُ أمره أحد، وكذلك ما يغلق من خيرٍ عنهم فلا يبسطُه عليهم، ولا يفتحُهُ لهم، فلا فاتحَ له سِواهُ، لأنَّ الأمور كُلَّها إليه وله.

وقوله: «وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ»، يقول: وهو العزيزُ في نِقمته ممن انتقمَ منـه من خَلْقه بحبسِ رحمتِه عنه وخيراتِه، الحكيمُ في تدبير خَلْقِه، وفتحُه لهم الرحمةَ إذا كان فتحُ ذلك صلاحاً، وإمساكُه إياه عنهم إذا كان إمساكُه حكمةً.

القَـوْلُ فِي تَأْويل قَوْلـه تَعـالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ للمشركينَ به من قومِ رسولِ الله ﷺ من قُرَيش: «يا أيُّها الناسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ الله» التي أنعمها «عَلَيْكُم» بفتحِه لكم من خيراتِه ما فتحَ وبَسْـطِه لكم من العيشِ ما بسطَ وفَكِّـرُوا فانظرُوا هَلْ من خالقٍ سوى فاطرِ السمواتِ والأرضِ الذي بيده مفاتيحُ أرزاقِكم ومغالقها «يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ والأرْضِ» فتعبدُوه دونَهُ «لا إلهَ إلاَّ هُوَ»، يقول: لا معبودَ تنبغي له العبادةُ إلا الذي فَطَرَ السمواتِ والأرضَ، القادرُ على كلِّ شيءٍ، الذي بيده مفاتيحُ الأشياءِ وخزائنها، ومغالقُ ذلك كله، فلا تعبدوا أيها الناسُ شيئاً سواه، فإنه لا يقدرُ على

نفعكم وضـرُّكُمْ سِواهُ، فله فأخْلِصُـوا العبـادةَ، وإياهُ فأفْرِدُوا بالألوهةِ. «فأنَّى تُؤْفَكُونَ»، يقول: فأيّ وجهٍ عن خالقكم ورازقكم الذي بيده نَفْعُكم وضرُّكم تصرفون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُهُ لنبيه محمـد ﷺ: وإنْ يُكَـذِّبـكَ يا محمدُ هؤلاء المشركونَ بالله من قومكَ فلا يُحْزِنَنَّكَ ذلك، ولا يَعْظُمْ عليك، فإنَّ ذلك سنة أمثالهم من كَفَرَةِ الأممِ بالله، من قَبْلِهم وتكذيبهم رُسُلَ الله التي أرسلها إليهم من قبلكَ، ولن يَعْـدُو مشـركُـو قومكَ أنْ يكونوا مِثْلَهُمْ، فَيَتَّبِعُوا في تكذيبكَ منهـاجهم، ويسلكُوا سبيلهم. «وَإلى الله تُرْجَعُ الأُمورُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإلى الله مَرْجِعُ أمركَ وأمرهم، فَمُحِلٌّ بهم العقوبةَ، إنْ هم لم يُنيبوا إلى طاعتنا في اتباعك، والإقرارِ بنبوَّتِكَ، وقبولِ ما دَعَوْتَهُمْ إليه من النصيحةِ، نظيرَ ما أحللنا بنظرائِهم من الأممِ المكذِّبةِ رُسُلَها قبلكَ، ومنجِّيكَ وأتباعكَ من ذلك، سُنَّتَنَا بمن قبلكَ في رسلنا وأوليائنا.

وقـوله: «يا أيها الناسُ إنَّ وَعْدَ الله حَقّ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ لمشركي قريش، المكَذِّبي رسولَ الله ﷺ: يا أيها الناسُ إنَّ وَعْدَ الله إياكم بأسَهُ على إصرارِكم على الكفرِ به، وتكذيبِ رسولِه محمدٍ ﷺ، وتحذيرِكُمْ نزولَ سطوتِه بكم على ذلك حقٌّ، فأيقنوا بذلك، وبادروا حلولَ عقوبتكم بالتوبةِ والإنابةِ إلى طاعةِ الله والإيمانِ به وبرسولِه. «فَلا تَغُرَّنَّكُم الحَياةُ الدُّنْيا»، يقول: فلا يَغُرَّنَّكُمْ ما أنتم فيه من العيشِ في هذه الدنيا ورياسَتِكُمْ التي تترأسون بها في ضعفائِكم فيها عن اتباعِ محمدٍ والإيمانِ «وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بالله الغَرُورُ»، يقول: ولا يَخْدَعَنَّكُمْ

بالله الشيطانُ، فَيُمَنِّيكُم الأمانيَّ، ويَعِدُكُمْ من الله العِدَاتِ الكاذبة، ويحملكم على الإصرارِ على كُفْرِكُمْ بالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «إنَّ الشَّيْطانَ» الذي نهيتُكم أيها الناسُ أن تغترُّوا بغرورِه إياكم بالله «لَكُمْ عَدُوٌّ فاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا»، يقول: فأنزلوه من أنفسكم منزلَ العدوِّ منكم، واحْذَرُوهُ بطاعةِ الله واستغشاشِكُمْ إياه، حَذَرَكُمْ من عدوِّكم الذي تخافونَ غائِلَتَهُ على أنفسكم، فلا تطيعُوه ولا تَتَّبِعُوا خُطواتِه، فإنه إنما يدعو حِزْبَهُ يعني شيعته، ومَنْ أطاعه إلى طاعته والقبول منه، والكفر بالله «لِيَكُونُوا من أصحابِ السَّعِيرِ»، يقول: ليكونوا من المخلدين في نارِ جهنم التي تَتَوَقَّدُ على أهلها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «الَّذِينَ كَفَرُوا» بالله ورسوله «لَهُمْ عَذَابٌ» من الله «شَدِيدٌ»، وذلك عذابُ النار.

وقوله: «وَالَّذِينَ آمَنُوا»، يقول: والذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ، وعملوا بما أمرهم الله، وانتهوا عما نهاهم عنه «لَهُمْ مَغْفِرَةٌ» من الله لذنوبهم «وأجْرٌ كَبِيرٌ» وذلك الجنة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ

ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أَفَمَنْ حَسَّنَ له الشيطانُ أعماله السيئة من معاصي الله والكفرِ به، وعبادةِ ما دونه من الآلهةِ والأوثانِ، فرآه حَسَناً، فَحَسِبَ سيىء ذلك حَسَناً، وظَنَّ أنّ قُبحه جميلٌ، لتزيينِ الشيطانِ ذلك له، ذهبت نفسُكَ عليهم حسراتٍ، وحذفَ من الكلام: ذهبت نفسك عليهم حسرات، اكتفاءً بدلالةِ قولِه: «فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ» منه.

وقوله: «فإنَّ الله يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيهدِي مَنْ يَشاءُ»، يقول: فإنَّ الله يخذلُ مَنْ يشاء عن الإيمانِ به واتباعكَ وتصديقكَ، فيضلُّهُ عن الرشاد الى الحقِّ في ذلك، «ويهدي من يشاء» يقول: ويوفق من يشاء للايمان به واتباعك والقبولِ منك، فتهديه إلى سبيل الرشاد، «فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ»، يقول: فلا تُهْلِك نفسَكَ حزناً على ضلالتهم وكفرهم بالله، وتكذيبهم لك.

وقوله: «إنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الله يا محمدُ ذُو عِلْمٍ بما يصنعُ هؤلاء الذين زَيَّنَ لهم الشيطانُ سوءَ أعمالهم، وهو مُحْصِيه عليهم، ومُجَازِيهم به جزاءَهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: والله الذي أرسلَ الرياحَ فتثيرُ السحابَ للحَيا والغيثِ «فَسُقْناهُ إلى بَلَدٍ مَيِّتٍ»، يقول: فسقناهُ إلى بلدٍ مُجْدب الأهلِ، مَحْلِ الأرضِ، داثرٍ لا نبتَ فيه ولا زرعَ «فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأرضَ بعدَ مَوْتِها»، يقول: فأخصبنا بغيثِ ذلك السحابِ الأرضَ التي سُقْنَاهُ إليها بعد جُدُوبِها، وأنبتنا فيها الزرعَ بعد المَحْلِ. «كَذلكَ النُّشُورُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: هكذا يُنْشِر الله

الموتى بعد بلائِهم في قبورهم، فيحييهم بعد فنائهم، كما أحيينا هذه الأرضَ بالغيثِ بعد مماته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «مَنْ كانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعاً»، فقال بعضهم: معنى ذلك: مَنْ كان يريدُ العزَّةَ بعبادةِ الآلهةِ والأوثانِ، فإنَّ العزةَ لله جميعاً،

وقال آخرون: معنى ذلك: مَنْ كان يريدُ العزة فليتعزَّزْ بطاعةِ الله.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: مَنْ كان يريدُ عِلْمَ العزَّةِ لمن هي، فإنها لله جميعاً كلها، أي كلّ وجه من العزّةِ فلله.

والذي هو أوْلى الأقوالِ بالصوابِ عندي قولُ مَنْ قال: مَنْ كان يريد العزَّةَ، فبالله فليتعزَّزْ، فلله العزّة جميعاً، دونَ كُلِّ ما دونه من الآلهة والأوثان.

وإنما قلت ذلك أوْلى بالصوابِ، لأنَّ الآياتِ التي قبلَ هذه الآية، جَرَتْ بتقريعِ الله المشركينَ على عبادَتِهم الأوثانَ، وتوبيخِه إياهم، ووعيده لهم عليها، فأوْلى بهذه أيضاً أن تكونَ من جنس الحَثِّ على فراقِ ذلك، فكانت قصتها شبيهةً بقصتها، وكانت في سياقها.

وقوله: «إلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّب»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إلى الله يصعدُ ذِكْرُ العبدِ إياهُ وثناؤه عليه. «والعَمَلُ الصَّالحُ يَرْفَعُهُ»، يقول: ويرفعُ ذِكْرَ العبدِ رَبَّهُ إليه عَمَلُه الصالح، وهو العملُ بطاعته، وأداء فرائِضه، والانتهاء إلى ما أمرَ به.

وقوله: «وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: والذين يكسبون السيئاتِ لهم عذابُ جهنمَ.

وقوله: «وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ»، يقول: وعَمَلُ هؤلاء المشركينَ يبورُ، فيبطلُ فيذهبُ، لأنه لم يَكُنْ لله، فلم ينفعْ عامِلَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَاللهُ خَلَقَكُمْ» أيها الناسُ «مِنْ تُرابٍ» يعني بذلك أنه خلقَ آباهُمْ آدم من ترابٍ، فجعلَ خَلْقَ أبيهم منه لهم خَلْقاً. «ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ»، يقول: ثم خلقكم من نطفةِ الرجلِ والمرأةِ «ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً»، يعني: أنه زوَّجَ منهم الأنثى من الذكر.

وقوله: «وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى ولا تَضَعُ إلاَّ بِعِلْمِه»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما تحملُ من أنثى منكم أيها الناسُ من حمل ولا نطفةٍ إلا وهو عالمٌ بحملها إياهُ ووضعها، وما هو؟ ذَكَرٌ أو أنثى؟ لا يَخْفَى عليه شيء من ذلك.

وقوله: «وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمرِهِ إلاَّ في كِتابٍ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: وما يعمر من معمرٍ فيطول عمره، ولا ينقصُ من عُمُر آخرَ غيره عن عُمُر هذا الذي عمّر عمراً طويلاً. «إلاّ في كِتابٍ» عنده مكتوبٌ قَبلَ أنْ تحملَ به أُمُّه، وقبل أنْ تضعه قد أحصى ذلك كُلَّهُ وعَلِمَهُ قبل أنْ يخلقه. لا يُزادُ فيما كتبَ له ولا ينقص.

وقوله: «إنَّ ذلك على الله يَسِيرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ إحصاءَ أعمارِ خَلْقِه عليه يسيرٌ سهلٌ، طويلُ ذلك وقصيره، لا يتعذَّرُ عليه شيءٌ منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما يعتدلُ البحرانِ فيستويان، أحدهما عَذْبٌ فُراتٌ، والفراتُ: هو أعذبُ العذبِ، «وهذا ملحٌ أُجاجٌ»، يقول: والآخر منهما ملحٌ أجاج، وذلك هو ماءُ البحرِ الأخضر، والأُجاج: المُرُّ، وهو أشدُّ المياهِ مُلوحةً.

وقوله: «وَمِنْ كُلٍّ تأكُلُونَ لَحْماً طَرِياً»، يقول: ومن كلِّ البحارِ تأكلون لحماً طَرِياً، وذلك السمك من عَذْبِهما الفراتُ، ومِلْحِهما الأجاجُ. «وتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها»، يعني: الدرّ والمرجان تستخرجونها من الملحِ الأجاج. وقد بيَّنا قَبْلُ وجهَ «تَسْتَخْرِجُونَ حِلْيةً»، وإنما يستخرج من الملح، فيما مضى بما أغنى عن إعادته. «وَتَرَى الفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وترى السفن في كل تلك البحار مواخرَ، تمخرُ الماءَ بصدورِهَا، وذلك خَرْقُها إياهُ إذا مَرَّتْ واحدتها ماخرة، يقال منه: مَخرت تمخُر، وتمخَر مَخْراً، وذلك إذا شقَّت الماءَ بصدورها.

وقوله: «لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ»، يقول: لتطلبوا بركوبكم في هذه البحار في الفلك من معايشكم، ولتتصرَّفُوا فيها في تجاراتكم، وتشكروا الله على تسخيرهِ ذلك لكم، وما رَزَقَكُمْ منه من طيباتِ الرزقِ، وفاخرِ الحُليِّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُولِجُ الَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي

﴿ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ 

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يدخلُ الليلَ في النهارِ، وذلك ما نقصَ من الليلِ أدخله في النهار فزاده فيه، ويولجُ النهارَ في الليلِ ، وذلك ما نقصَ من أجزاءِ النهارِ زادَ في أجزاءِ الليلِ ، فأدخله فيها.

وقوله: «وسَخَّرَ الشَّمسَ والقَمَرَ كُلٌّ يَجْري لأجَلٍ مُسَمًّى»، يقول: وأجْرى لكم الشمسَ والقمرَ نعمةً منه عليكم، ورحمةً منه بكم، لتعلموا عَدَد السنينَ والحسابَ، وتعرفوا الليلَ من النهار.

وقوله: «كُلٌّ يَجْري لأجَلٍ مُسَمًّى»، يقول: كل ذلك يجري لوقتٍ معلوم.

وقوله: «ذَلِكُمْ الله رَبُّكُمْ»، يقول: الذي يفعل هذه الأفعالُ معبودُكم أيها الناسُ الذي لاتصلحُ العبادةُ إلا له، وهو الله ربكم.

وقوله: «لَهُ المُلْكُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: له الملكُ التامُّ الذي لا شيءَ إلا وهو في مُلْكِه وسلطانه.

وقـوله: «وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: والذين تعبدون أيها الناسُ من دونِ رَبِّكم الذي هذه الصفة التي ذكرها في هذه الآيات الذي له المُلْكُ الكاملُ، الذي لا يُشبهه ملكٌ، صفته، «ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ»، يقول: ما يملكون قِشْرَ نواةٍ فما فوقَها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ

﴿مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾

قولـه: «إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ ولَوْ سَمِعُوا ما اسْتَجابُوا لَكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنْ تَدْعُوا أيها الناسُ هؤلاء الآلهةَ التي تعبدونها من دونِ الله لا يسمعـوا دعـاءكم، لأنها جمادٌ لا تفهم عنكم ما تقولون: «وَلَوْ سَمِعُوا ما اسْتَجَابُوا لَكُمْ»، يقول: ولو سمعوا دعاءكم إياهم، وفهموا عنكم أنها قولكم، بأنْ جعلَ لهم سمع يسمعون به ما استجابوا لكم، لأنها ليستْ ناطقةً، وليس كلُّ سامعٍ قولاً متيسِّراً له الجوابُ عنه، يقول تعالى ذِكْرُهُ للمشركينَ به الآلهةَ والأوثانَ: فكيف تعبدونَ من دونِ الله من هذهِ صِفَتُه، وهو لا نفعَ لكم عنده، ولا قُدرةَ له على ضُرِّكم، وتدعونَ عبادةَ الذي بيده نفعكم وضرّكم، وهو الذي خلقكم وأنعمَ عليكم.

وقوله: «وَيَوْمَ القِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ للمشركينَ من عَبَدَةِ الأوثان: ويومَ القيامة تتبرأُ آلهتُكم التي تعبدونها من دونِ الله من أنْ تكونَ كانتْ لله شريكاً في الدنيا.

وقوله: «وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولا يخبرُكَ يا محمدُ عن آلهةِ هؤلاءِ المشركينَ وما يكونُ من أمرها وأمرِ عَبَدَتِها يومَ القيامةِ، منْ تَبَرُّئها منهم، وكُفْرِهَا بهم، مثل ذي خبرةٍ بأمرها وأمرهم، وذلك الخبيرُ هو الله الذي لا يَخْفَى عليه شيءٌ كان أو يكون سبحانه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يا أيها الناسُ أنتم أُولُوا الحاجةِ والفقرِ إلى رَبِّكم،

فإياهُ فاعبدُوا، وفي رضاهُ فسارعوا يغنكم من فقركم، وتُنْجَح لديه حوائِجُكُم «وَاللهُ هُوَ الغَنِيُّ» عن عبادتكم إياه، وعن خدمتكم، وعن غير ذلك من الأشياء، منكم ومن غيركم، «الحَمِيدُ» يعني: المحمودُ على نِعَمِه، فإنَّ كُلَّ نعمةٍ بكم وبغيركم فمنه، فلهُ الحمدُ والشكرُ بكلِّ حال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنْ يشأ يُهْلككم أيها الناسُ رَبُّكم، لأنه أنشأكم من غيرِ ما حاجـةٍ به إليكم «وَيأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ»، يقـول: ويأتِ بخلقٍ سواكم يُطيعونَهُ، ويأتمرونَ لأمرِه، وينتهونَ عما نهاهم عنه.

وقوله: «وَما ذَلكَ على الله بِعَزيزٍ»، يقول: وما إذهابُكم والإتيانُ بخلقٍ سواكم على الله بشـديدٍ، بل ذلـك عليه يسيرٌ سهلٌ، يقول: فاتقوا الله أيها الناسُ، وأطيعوهُ قبلَ أنْ يفعلَ بكم ذلك.

وقوله: «وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولا تحملُ آثمةٌ إثمَ أخرى غيرها. «وَإنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إلى حِمْلِها لا يُحْمَل مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى»، يقول تعالى: وإنْ تسأل ذاتُ ثِقْلٍ من الذنوبِ مَنْ يحملُ عنها ذنوبَها، وتطلب ذلك لم تجدْ مَنْ يحمل عنها شيئاً منها، ولو كان الذي سألته ذا قرابةٍ من أبٍ أو أخٍ.

وقوله: «إنَّما تُنْذِرُ الَّذينَ يَخْشَونَ رَبَّهُمْ بالغَيْبِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيهِ محمدٍ ﷺ: إنما تنذرُ يا محمدُ الذين يخافونَ عقابَ الله يومَ القيامةِ من غيرِ

معاينةٍ منهم لذلك، ولكنْ لإيمانهم بما أتيتهم به، وتصديقهم لكَ فيما أنبأتهم عن الله، فهؤلاءِ الذين ينفعهم إنذارُكَ، ويَتَّعِظُونَ بمواعظِكَ، لا الذين طَبَع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون.

وقوله: «وأقامُوا الصَّلاةَ»، يقول: وأدَّوا الصلاةَ المفروضةَ بحدودها على ما فَرَضَها الله عليهم.

وقوله: «وَمَنْ تَزَكَّى فإنَّما يَتَزكَّى لِنَفْسِه»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومَنْ يتطهَّرْ من دَنَسِ الكفرِ والذنوبِ بالتوبةِ إلى الله، والإيمانِ به، والعمل بطاعته، فإنما يتطهَّرْ لنفسِه، وذلك أنه يُثيبُهَا به رِضَا الله، والفوزَ بجنانه، والنجاةَ من عقابهِ، الذي أعَدَّهُ لأهلِ الكفر به.

وقوله: «وإلى الله المَصِيرُ»، يقول: وإلى الله مصيرُ كلِّ عاملٍ منكم أيها الناسُ، مؤمنكم وكافركم، وبَرِّكُم وفاجركم، وهو مُجَازٍ جميعَكُم بما قَدَّمَ من خيرٍ أو شرٍّ على ما أَهَلَّ منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ٢١ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ٢٢ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ٢٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وما يَسْتَوي الأعْمَى» عن دينِ الله الذي ابتعثَ به نبيه محمداً ﷺ «والبصيرُ» الذي قد أبصرَ فيه رُشْدَهُ، فاتبع محمداً وصَدَّقَهُ، وقبلَ عن الله ما ابتعثَهُ به. «وَلا الظُّلُماتُ»، يقول: وما تستوي ظلماتُ الكفر، ونورُ الإيمانِ. «وَلا الظِّلُّ»، قِيلَ: ولا الجنة. «وَلا الحَرُورُ»، قيل: النار، كأنَّ معناه عندهم: وما تستوي الجنةُ والنارُ، والحَرُور بمنزلةِ السَّموم، وهي الرياحُ الحارَّةُ. وذكر أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى، عن رُؤْبة بن العَجَّاج، أنه كان يقول: الحَرور

بالليلِ ، والسَّمُوم بالنهار. وأما أبو عبيدة فإنه قال: الحَرور في هذا الموضع والنهار مع الشمس. وأما الفراء فإنه كان يقول: الحَرُور يكون بالليلِ والنهارِ، والسَّموم لا يكونُ بالليلِ إنما يكون بالنهار[1].

والقول في ذلك عندي، أن الحَرور يكونُ بالليلِ والنهار، غير أنه في هذا الموضع بأنْ يكون كما قال أبو عبيدة: أشبه مع الشمس، لأنَّ الظلَّ إنما يكونُ في يوم شمسٍ ، فذلك يدلُّ على أنه أُريدَ بالحَرور: الذي يوجد في حالِ وجودِ الظلِّ.

وقـوله: «وَما يَسْتَوِي الأحْياءُ ولا الأمْواتُ»، يقول: وما يستوي الأحياءُ القلوبِ بالإيمانِ بالله ورسولِه، ومعرفةِ تنزيلِ الله، والأمواتُ القلوبِ لغلَبَةِ الكفرِ عليها، حتى صارتْ لاتعقلُ عن الله أمْرَهُ ونَهْيَهُ، ولا تعرفُ الهدى من الضلال، وكلُّ هذه أمثالٌ ضَرَبَها الله للمؤمنِ والإيمانِ، والكافرِ والكفر.

وقوله: «إنَّ الله يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ وَما أنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي القُبُورِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: كما لا يقدرُ أنْ يُسْمِعَ مَنْ في القبورِ كتابَ الله، فيهديهم به إلى سبيلِ الرشاد، فكذلك لا يقدرُ أنْ ينفعَ بمواعِظ الله، وبيانِ حُججه، مَنْ كان مَيِّتَ القلبِ من أحياءِ عبادِه، عن معرفةِ الله، وفهم كتابه وتنزيله، وواضح حججه.

وقوله: «إنْ أنْتَ إلاَّ نَذِيرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: ما أنتَ إلا نذيرٌ تُنذرُ هؤلاءِ المشركينَ بالله، الذين طبعَ الله على قلوبهم، ولم يُرْسِلْكَ رَبُّكَ إليهم إلا لتبلغهم رسالته. ولم يُكَلِّفْكَ من الأمرِ ما لاسبيلَ لكَ إليه، فأما اهتداؤهم وقبولهم منك ما جئتهم به، فإنَّ ذلك بيدِ الله لا بيدكَ، ولا بيدِ غيركَ

---

(١) انظر معاني القرآن: ٢/٣٦٩.

من الناس، فلا تذهبْ نفسُك عليهم حَسَراتٍ إنْ هُمْ لم يستجيبوا لك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: «إنَّا أرْسَلْناكَ» يا محمدُ «بالحَقِّ» وهو الإيمـانُ بالله وشرائع الدين التي افترضها على عباده «بَشِيراً»، يقول: مُبشِّراً بالجنة مَنْ صَدَّقَكَ وقَبِلَ منكَ ما جئتَ به من عندِ الله من النصيحة «وَنَذِيراً» تُنذر الناسَ مَنْ كذَّبكَ وردَّ عليك ما جئتَ به من عندِ الله من النصيحةِ «وَإنْ مِنْ أُمَّةٍ إلاَّ خَلا فِيها نَذِيرٌ»، يقول: وما من أمةٍ من الأممِ الدائنةِ بملةٍ إلاَّ خَلاَ فيها من قَبْلِكَ نذيرٌ ينذرهم بأسنا على كفرهم بالله.

وقـوله: «وَإنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ مسلياً نبيه ﷺ فيما يلقى من مشركي قومه من التكذيب، وإنْ يكذّبك يا محمدُ مشركو قومك، فقد كذَّبَ الذين من قبلهم من الأممِ الذين «جاءتهم رُسُلهم بالبيناتِ»، يقول: بحججٍ من الله واضحة، «وبالزُّبُر»، يقول: وجاءتهم بالكتبِ من عندِ الله.

وقوله: «وَبالكتابِ المُنِير»، يقول: وجاءهم من الله الكتاب المنير لمن تأمَّله وتدبَّرة أنه الحقُّ.

وقوله: «ثُمَّ أخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كانَ نَكِير»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ثم أهلكنا الذين جحدوا رسالةَ رُسُلِنَا، وحقيقةَ ما دَعَوْهُمْ إليه من آياتنا، وأصَرُّوا على جحودهم «فكَيْفَ كانَ نَكِيرِ»، يقول: فانظر يا محمدُ كيف كان تغييري

بهم، وحلول عقوبتي بهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُهُ: ألم تَرَ يا محمـدُ أنَّ الله أنزلَ من السماء غيثاً، «فـأخـرجنـا به ثمـراتٍ مختلفاً ألوانُها»، يقول: فسقيناه أشجاراً في الأرض، فأخرجنا به من تلك الأشجارِ ثمراتٍ مختلفاً ألوانها، منها الأحمر، ومنها الأسود والأصفر، وغير ذلك من ألوانها «وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بيضٌ وَحُمْرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومن الجبالِ طرائق، وهي الجددُ، وهي الخططُ تكونُ في الجبالِ بِيضٌ وحمرٌ وسودٌ، كالطرقِ: واحِدَتُهَا جُدَّة.

وقوله: «مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُها»، يعني: مختلفٌ ألوانُ الجُدُد «وَغَرابِيبُ سُود»، وذلك من المُقَدَّمِ الذي هو بمعنى التأخير، وذلك أنَّ العربَ تقول: هو أسود غربيب، إذا وصفوه بشدّةِ السواد، وجعل السواد ههنا صفة للغرابيب.

وقوله: «وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ» كما من الثمراتِ والجبالِ مختلفٌ ألوانُه بالحُمرةِ والبياضِ والسوادِ والصُّفْرَةِ، وغير ذلك.

وقـوله: «إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنما يخافُ الله فيتقي عقابَهُ بطاعتِه العلماءُ، بقدرتِه على ما يشاءُ من شيءٍ، وأنه يفعلُ ما يريد، لأنَّ مَنْ علم ذلك أيقنَ بعقابِه على معصيته، فخافَهُ ورهبه خشياً منه أن يعاقبه.

وقوله: «إنَّ الله عَزيزٌ غَفُورٌ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الله عزيزٌ في انتقامِه مِمَّنْ كفرَ به، غفورٌ لذنوبِ مَنْ آمَن به وأطاعه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الذين يقرؤون كتابَ الله الذي أنزله على محمدٍ ﷺ. «وأقامُوا الصَّلاةَ»، يقول: وأدّوا الصلاةَ المفروضةَ لمواقيتها بحدودها وقال: وأقاموا الصلاة بمعنى: ويقيموا الصلاةَ.

وقـولـه: «وأنْفَقُـوا مِمَّـا رَزَقْنـاهُمْ سِرّاً وعَـلانِيَةً»، يقـول: وتَصَدَّقُوا بما أعطيناهم من الأموالِ سرّاً في خفاءٍ، وعلانية: جهاراً. وإنما معنى ذلك أنهم يؤدُّونَ الزكاةَ المفروضةَ، ويتطوَّعونَ أيضاً بالصدقة منه بعد أداءِ الفرضِ الواجبِ عليهم فيه.

وقوله: «يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: يَرْجُونَ بفعلهم ذلك تجارةً لن تبور: لَنْ تكسدَ ولن تهلكَ، من قولهم: بارتِ السوقُ: إذا كسدت، وبارَ الطعامُ.

وقوله: «لِيُوَفِّيهُمْ أُجُورَهُمْ»، يقول: ويُوَفِّيهم الله على فِعْلِهم ذلك ثوابَ أعمالهم التي عملوها في الدنيا. «وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ»، يقول: وكي يَزِيدَهُمْ على الوفاءِ من فضلِه ما هُوَ له أهلٌ.

وقـولـه: «إنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ»، يقول: إنَّ الله غفورٌ لذنوبِ هؤلاءِ القومِ الذين هذه صفتهم، شكورٌ لحسناتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَالَّذِي أَوْحَينا إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ» يا محمدُ، وهو هذا القرآن الذي أنزله الله عليه «هُوَ الحَقُّ»، يقول: هو الحقُّ عليك وعلى أمتكَ أنْ تعملَ به، وتتَّبعَ ما فيه دونَ غيرِه من الكتبِ التي أُوحيتْ إلى غيرك «مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ»، يقول: هو يصدِّق ما مضى بين يديه، فصار أمامه من الكتبِ التي أنزلتها إلى مَنْ قبلكَ من الرسلِ.

وقوله: «إنَّ الله بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الله بعبادِه لذو عِلْمٍ وخبرةٍ بما يعملون بصير بما يصلحهم من التدبير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى الكتابِ الذي ذكر الله في هذه الآية أنه أورثَهُ الذين اصطفاهم من عبادِه، ومَن المُصْطَفُونَ من عبادِه، والظالمُ لنفسِه، فقال بعضهم: الكتاب: هو الكتبُ التي أنزلها الله من قبل الفُرقانِ، والمصطفون من عباده: أمةُ محمدٍ ﷺ، والظالمُ لنفسه: أهلُ الإجرام منهم.

وقال آخرون: الكتابُ الذي أورثَ هؤلاءِ القومَ، هو شهادةُ أنْ لا إله إلا الله، والمصطفونَ هم أمةُ محمدٍ ﷺ، والظالمُ لنفسه منهم هو المنافقُ، وهو في النار، والمقتصدُ، والسابقُ بالخيراتِ في الجنة.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصواب تأويلُ مَنْ قال: عَنَى بقوله: «ثُمَّ أَوْرَثْنا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا» الكتب التي أُنزلتْ من قبلِ الفرقان.

فإنْ قال قائل: وكيف يجوز أن يكون ذلك معناه: وأمةُ محمدٍ ﷺ لا يَتْلُونَ غير كتابهم، ولا يعملونَ إلا بما فيه من الأحكامِ والشرائع؟ قيل: إنَّ معنى ذلك على غيرِ الذي ذهبتَ إليه، وإنما معناه: ثم أورثنا الإيمانَ بالكتابِ الـذين اصطفينا، فمنهم مؤمنونَ بكلِّ كتابٍ أنزله الله من السماء قبلَ كتابهم وعاملونَ به، لأنَّ كُلَّ كتابٍ أنزل من السماء قبل الفرقان، فإنه يأمرُ بالعملِ بالفرقانِ عند نزولِه، وباتباع مَنْ جاء به، وذلك عَمَلُ مَنْ أقرَّ بمحمدٍ ﷺ، وبما جاءَ به، وعَمِلَ بما دعاهُ إليه بما في القرآن، وبما في غيره من الكتب التي أُنزلتْ قبلَهُ.

وإنما قيل: عنى بقوله: «ثُمَّ أَوْرَثْنا الكتابَ» الكتبَ التي ذكرنا لأنَّ الله جَلَّ ثنـاؤُهُ قال لنبيه محمدٍ ﷺ. «والَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ هُوَ الحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيهِ» ثم أتبع ذلك قوله: «ثُمَّ أَوْرَثْنا الكِتابَ الَّذِينَ اصْطفَيْنا» فكان معلوماً إذ كان معنى الميراث إنما هو انتقالُ معنى من قومٍ إلى آخرينَ ولم تَكُنْ أمةٌ على عهدِ نبينا ﷺ انتقلَ إليهم كتابٌ من قومٍ كانوا قبلهم غير أمته أن ذلك معناه: وإذْ كان ذلك كذلك، فبين أنَّ المصطفينَ من عبادِه هم مؤمنُو أمتِه، وأما الظالمُ لنفسه، فإنه لأنْ يكونَ من أهلِ الذنوبِ والمعاصي التي هي دونَ النفاقِ والشرك عندي أشبهُ بمعنى الآية من أنْ يكونَ المنافق أو الكافر، وذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ أتبعَ هذه الآيةَ قوله: «جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها» فَعَمَّ بدخولِ الجنةِ جميعَ الأصنافِ الثلاثة.

فإنْ قال قائل: فإنَّ قوله: «يَدْخُلُونَها» إنما عَنَى به المقتصدَ والسابقَ؟ قيل له: وما برهانُكَ على أنَّ ذلك كذلك من خبرٍ أو عقلٍ، فإنْ قال: قيامُ الحجة أنَّ الظالمَ من هذه الأمة سيدخُل النار، ولو لم يدخل النارَ من هذه الأصنافِ

الثلاثة أحدٌ وَجَبَ أنْ لا يكونَ لأهلِ الإيمانِ وعيدٌ؟ قيل: إنه ليس في الآيةِ خبرٌ أنهم لا يدخلونَ النار، وإنما فيها إخبارٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ أنهم يدخلون جناتِ عَدْنٍ، وجائزٌ أن يدخلها الظالمُ لنفسه بعد عقوبةِ الله إياهُ على ذنوبه التي أصابها في الدنيا، وظُلْمِه نَفْسَهُ فيها بالنار، أو بما شاء من عقابه، ثم يُدخله الجنةَ، فيكون مِمَّنْ عَمَّهُ خبرُ الله جَلَّ ثناؤهُ بقوله: «جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخلونَها».

وقوله: «ذلكَ هُوَ الفَضْلُ الكَبِيرُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: سبوق هذا السابق مَن سَبْقِه بالخيراتِ بإذنِ الله، هو الفضلُ الكبير الذي فضل به مَنْ كان مقصِّراً عن منزلته في طاعةِ الله من المقتصد والظالم لنفسه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: بساتينُ إقامةٍ يدخلونها هؤلاء الذين أورثناهم الكتابَ، الذين اصْطَفَيْنا من عبادِنا يومَ القيامة «يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ» يلبسونَ في جناتِ عدنٍ أسورةً من ذهب «وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ»، يقول: ولباسهم في الجنة حريرٌ.

وقوله: «وَقالُوا الحَمْدُ لله الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ»، اختلف أهلُ التأويلِ في الحَزَنِ الذي حَمِدَ الله على إذهابِه عنهم هؤلاء القومُ، فقال بعضهم: ذلك الحَزَنُ الذي كانوا فيه قبل دخولهم الجنةَ من خوفِ النار، إذ كانوا خائفين أن يدخلوها.

وقال آخرون: عنى به الموت.

وقال آخرون: عنى به حزن الخبز[1].

وقال آخرون: عنى بذلك: الحَزَن من التعبِ الذي كانوا فيه في الدنيا.

وقال آخرون: بل عنى بذلك الحزن الذي ينالُ الظالمَ لنفسِه في موقفِ القيامة.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ أخبرَ عن هؤلاء القومِ الذين أكرمهم بما أكرمهم به أنهم قالوا حين دخلوا الجنةَ «الحَمْدُ لله الَّـذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ»، وخوفُ دخولِ النار من الحَزَن، والجزَعُ من الموتِ من الحزن، والجزعُ من الحاجةِ إلى المطعم من الحزن، ولم يخصص الله إذْ أخبر عنهم أنهم حمدوه على إذهابه الحزنَ عنهم نوعاً دونَ نوع ، بل أخبر عنهم أنهم عَمُّوا جميعَ أنواعِ الحزنِ بقولهم ذلك، وكذلك ذلك، لأنَّ من دخلَ الجنةَ فلا حَزَنَ عليه بعد ذلك، فحمدهم على إذهابِه عنهم جميع معاني الحزن.

وقوله: «إنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن قِيلِ هذه الأصنافِ الذين أخبرَ أنه اصطفاهم من عبادِه عند دخولهم الجنةَ: إنَّ رَبَّنَا لغفورٌ لذنوبِ عبادِه الذي تابوا من ذنوبهم، فَسَاتِرُهَا عليهم بعفوه لهم عنها، شكورٌ لهم على طاعتهم إياه، وصالحِ ما قَدَّمُوا في الدنيا من الأعمالِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ٣٥﴾

(١) لَعَلَّهُ يريد بالخبز: هَمّ العيش في الدنيا والتعب الحاصل للإنسان من طَلَبِه خبزه، يعني: معاشه.

يقـول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن قِيلِ الذين أُدخلوا الجنة «إنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذي أحَلَّنا دَارَ المُقَامَةِ»: أي ربنا الذي أنزلنا هذه الدار، يعنونَ الجنةَ، فدارُ المُقامةِ: دارُ الإقامة التي لا نُقْلَةَ معها عنها، ولا تحوّلَ، والميم إذا ضُمَّتْ من المُقامة، فهي من الإقامة، فإذا فتحت فهي من المجلس، والمكان الذي يُقام فيه.

وقوله: «لَايَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ»، يقول: لا يُصيبنا فيها تَعَبٌ ولا وَجَعٌ «ولا يمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ»، يعني باللغوب: العَنَاءَ والإعياء.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا» بالله ورسوله «لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ»، يقول: لهم نار جهنم مُخَلَّدينَ فيها، لا حَظَّ لهم في الجنة ولا نعيمها.

«وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها»، يقول: ولا يخفف عنهم من عذابِ نارِ جهنمَ بإماتتهم، فيخفف ذلك عنهم.

وقوله: «كَذَلك نَجْزي كُلَّ كَفُورٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: هكذا يُكافىء كُلَّ جَحُودٍ لنعمِ ربه يومَ القيامة، بأنْ يُدخلهم نارَ جهنم بسيئاتهم التي قدّموها في الدنيا.

وقوله: «وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها، رَبَّنا أخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غيرَ الَّذِي كُنَّا نعمـلُ»، يقـول تعـالى ذِكْرُهُ: هؤلاء الكفار يستغيثون، ويضجُّونَ في النار،

يقولون: يا ربنا أخرجنا نعملْ صالحاً: أي نعملْ بطاعتك «غَيرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ» قَبْلُ من معاصيك.

وقولـه: «يَصْطَرِخُونَ» يفتعلون من الصُّراخ، حُوِّلَتْ تاؤها طاء لقرب مخرجها من الصاد لما ثُقُلت.

وقوله: «أوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ»، يقول: أو لم نُعمركم يا معشرَ المشركينَ بالله من قُرَيش من السنين، ما يتذكرُ فيه مَنْ تَذَكَّرَ، من ذوي الألبابِ والعقولِ، واتَّعَظَ منهم مَنِ اتعظَ، وتابَ مَنْ تاب، وجاءكم من الله منذرٌ يُنذركم ما أنتم فيه اليومَ من عذابِ الله، فلم تتذكَّرُوا مواعظَ الله، ولم تقبلوا من نذيرِ الله الذي جاءكم ما أتاكم به من عند ربكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «فَذُوقُوا» نارَ عذابِ جهنمَ الذي قد صَليتُموه أيها الكافرونَ بالله «فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ»، يقول: فما للكافرينَ الذين ظلموا أنفسهم فأكسَبُوها غضبَ الله بكفرهم بالله في الدنيا من نصيرٍ ينصرهم من الله ليستنقذهم من عقابه.

وقوله: «إنَّ الله عالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ والأرْضِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الله عالِمُ ما تُخْفُون أيها الناسُ في أنفسكم وتُضمرونه، وما لم تُضْمِرُوه ولم تنوُوه مما ستنوُونه، وما هو غائبٌ عن أبصارِكم في السمواتِ والأرض، فاتقوه أنْ يَطَّلِعَ عليكم، وأنتم تضمرون في أنفسكم من الشكِّ في وحدانيةِ الله، أو في نبوّةِ محمدٍ ﷺ، غير الذي تبدونه بألسنتكم، «إنَّه عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: الله الذي جعلكم أيها الناسُ خلائفَ في الأرض من بعد عادٍ وثمود، ومَنْ مضى من قبلكم من الأمم فجعلكم تخلفونهم في ديارهم ومساكنهم.

وقوله: «فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فمن كفر بالله منكم أيها الناسُ، فعلى نفسه ضُرُّ كُفْرِه، لا يضرُّ بذلك غير نفسه، لأنه المعاقَبُ عليه دونَ غيره.

وقوله: «وَلا يَزِيدُ الكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مقتاً»، يقول تعالى: ولا يزيد الكـافرين كُفْرُهُمْ عند ربهم إلا بعداً من رحمة الله «ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خَسارا»، يقول: ولا يزيد الكافرين كفرهم بالله إلا هلاكاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ «قُلْ» يا محمدُ لمشركي قومك «أرأيْتُمْ» أيها القومُ «شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله أرُونِي ماذَا خَلَقُوا مِنَ الأرْضِ»، يقول: أروني أيّ شيءٍ خلقوا من الأرض «أمْ لَهُمْ شِرْكٌ في السَّمَوَاتِ»، يقول: أم لشركائكم شركٌ مع الله في السموات، إنْ لم يكونوا خَلَقوا من الأرض شيئاً «أمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً فَهُمْ عَلى بَيِّنَة مِنْهُ»، يقول: أم آتينا هؤلاء المشركينَ كتاباً أنزلناه

عليهم من السماء بأنْ يشركوا بالله الأوثانَ والأصنامَ، فهم على بيِّنةٍ منه، فهم على برهانٍ مما أمرتهم فيه من الإشراك بي.

وقوله: «بَلْ إنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إلاَّ غُرُوراً» وذلك قولُ بعضِهم لبعضٍ «مـا نَعْبُـدُهُمْ إلا لِيُقَرِّبُونا إلى الله زُلْفى» خداعاً من بعضِهم لبعضٍ وغروراً، وإنما تُزْلِفُهم آلهتُهم إلى النار، وتُقْصِيهم من الله ورحمتِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُهُ: «إنَّ الله يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ» لئلا تزولا من أمـاكنهمـا «وَلَئِنْ زَالَتَا»، يقول: ولو زالتا «إنْ أمْسَكَهُمَا مِنْ أحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ»، يقول: ما أمسكهما أحدٌ سواهُ، ووضعت «لئن» في قوله «وَلَئِنْ زَالَتَا» في موضع «لو» لأنهما يُجَابان بجوابٍ واحدٍ، فيتشابهان في المعنى، ونظير ذلك قوله: «وَلَئِنْ أرْسَلْنا ريحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يكْفُرُونَ» [الروم: ٥١] بمعنى: ولو أرسلنا ريحاً، وكما قال: «ولئن أتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ» [البقرة: ١٤٥] بمعنى: لو أتيتَ، وقد بيَّنا ذلك فيما مضى بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

وقوله: «إنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ الله كان حليماً عَمَّنْ أشركَ وكفرَ به من خَلْقِه في تركه تعجيلَ عذابِه له، غفوراً لذنوبِ مَنْ تاب منهم، وأنابَ إلى الإيمانِ به، والعمل بما يرضيه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ

﴿نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأقسمَ هؤلاء المشركونَ بالله جَهْدَ أيمانهم، يقول: أشدَّ الأيمانِ، فبالغوا فيها، لئن جاءهم من الله مُنذرٌ ينذرهم بأسَ الله «لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إحْدَى الأُمَمِ »، يقول: ليكونُنَّ أسلكَ لطريقِ الحقِّ، وأشدَّ قبولاً لِمَا يأتيهم به النذيرُ من عند الله، من إحدى الأمم التي خَلَتْ من قبلهم؛ «فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ» يعني بالنذيرِ: محمداً ﷺ، يقول: فلما جاءهم محمدٌ ينذرهم عقابَ الله على كفرهم.

وقوله: «ما زَادَهُمْ إلاَّ نُفُوراً»، يقول: ما زادهم مجيءُ النذيرِ من الإيمانِ بالله واتباعِ الحقِّ، وسلوكِ هدى الطريق، إلا نفوراً وهَرَباً.

وقوله: «اسْتِكْبـاراً في الأَرْضِ »، يقول: نفروا استكباراً في الأرض، وخدْعة سيئة، وذلك أنهم صَدُّوا الضعفاءَ عن اتباعه مع كفرهم به. والمكرُ هاهنا: هو الشركُ.

وقولـه: «وَلا يَحِيقُ المَكْـرُ السَّيِّءُ إلاَّ بأهْلِهِ»، يقول: ولا ينزلُ المكرُ السيء إلا بأهله، يعني بالذين يمكرونه، وإنما عَنَى أنه لايحلُّ مكروهُ ذلك المكرِ الذي مَكَرَهُ هؤلاء المشركون إلا بهم.

وقوله: «فَهَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ سُنَّةَ الأوَّلِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فهل ينتظرُ هؤلاء المشركونَ من قومكَ يا محمدُ إلا سنةَ الله بهم في عاجلِ الدنيا على كفرهم به أليمَ العقاب. يقول: فهل ينتظرُ هؤلاء إلا أن أُحِلَّ بهم من نقمتي

على شِرْكِهم بي وتكذيبهم رسولي مثل الذي أحللتُ بمن قبلهم من أشكالهم من الأمم.

«فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً»، يقول: فلن تَجِدَ يا محمدُ لسنةِ الله تغييراً.

وقوله: «وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَحْوِيلاً»، يقول: ولن تجدَ لسنةِ الله في خَلْقِه تبديلاً، يقول: لن يغير ذلك، ولا يبدّله، لأنه لا مَرَدَّ لقضائه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُهُ: أو لم يَسِرْ يا محمدُ هؤلاء المشركون بالله، في الأرضِ التي أهلكنا أهلَها بكفرهم بنا وتكذيبهم رسلنا، فإنهم تجار يسلكون طريقَ الشام «فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» من الأمم التي كانوا يمرونَ بها أَلَمْ نُهلكهم ونخربْ مساكِنَهُمْ ونجعلْهم مَثَلاً لمن بعدهم، فَيَتَّعِظُوا بهم، وينزجروا عما هُمْ عليه من عبادةِ الآلهةِ بالشركِ بالله، ويعلموا أنَّ الذي فعل بأولئك ما فعل «وكانُوا أشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَبَطْشاً» لن يَتَعذَّرَ عليه أنْ يفعلَ بهم مثل الذي فعل بأولئك من تعجيلِ النقمة، والعذابِ لهم.

وقوله: «وَما كَانَ الله لِيُعْجِزهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ»، يقول تعـالى ذِكْرُهُ: ولن يعجزنا هؤلاء المشركونَ بالله من عَبَدَةِ الآلهة، المكذِّبونَ محمداً فيسبقونا هَرَباً في الأرض، إذا نحنُ أردنا هلاكهم، لأنَّ الله لم يكن ليعجزه شيءٌ يُريدُه في السمواتِ ولا في الأرض، ولن يقدر هؤلاء المشركون أنْ ينفُذوا من أقطارِ السمواتِ والأرض.

وقـوله: «إِنَّهُ كانَ عَلِيماً قَدِيراً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إن الله كان عليماً

بخلقه، وما هو كائن، ومَن هو المستحقُّ منهم تعجيل العقوبة، ومَن هو عن ضلالتِه منهم راجعٌ إلى الهدى آئبٌ، قديرٌ على الانتقامِ ممن شاء منهم، وتوفيق مَنْ أرادَ منهم للإيمان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولو يؤاخذُ الله الناسَ، يقول: ولو يعاقبُ الله الناسَ، ويكافئهم بما عملوا من الذنوبِ والمعاصي، واجترحوا من الآثامِ، ما تَرَك على ظهرها من دابةٍ تدبُّ عليها «وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إلى أَجَلٍ مُسَمًّى»، يقول: ولكن يُؤَخِّرُ عقابَهم ومؤاخذتَهم بما كَسَبُوا إلى أجلٍ معلومٍ عنده، محدودٍ لايقصرون دونه، ولا يجاوزُونَهُ إذا بلغوه.

وقوله: «فإِذَا جاءَ أَجَلُهُمْ فإنَّ الله كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فإذا جاء أجلُ عقابِهم، فإنَّ الله كان بعباده بصيراً مَنِ الذي يستحقُّ أنْ يُعاقَبَ منهم، ومَنِ الذي يستوجبُ الكرامةَ، ومَنِ الذي كان منهم في الدنيا له مطيعاً، ومَنْ كان فيها به مشركاً، لا يَخْفَى عليه أحدٌ منهم، ولا يعزبُ عنه علم شيءٍ من أمرهم.

سُورَةُ يسٓ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾

اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: «يسٓ»، فقال بعضهم: هو قَسَمٌ أقسمَ الله به، وهو من أسماء الله.

وقال آخرون: معناه: يا رجل.

وقال آخرون: هو مفتاحُ كلامٍ افتتحَ الله به كلامَهُ.

وقال آخرون: بل هو اسمٌ من أسماء القرآن.

وقد بيَّنا القولَ فيما مضى في نظائرِ ذلك من حروفِ الهجاء بما أغنى عن إعادته وتكريره في هذا الموضع.

وقوله: «والقُرآنِ الحَكِيمِ»، يقول: والقرآن المُحْكَم بما فيه من أحكامه، وبيِّناتِ حُجَجِه «إنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ مُقْسِماً بوحيِهِ وتنزيلِه لنبيِهِ محمدٍ ﷺ: إنك يا محمدُ لمن المرسلين بوحي الله إلى عباده.

وقوله: «عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ»، يقول: على طريقٍ لا اعوجاجَ فيه من الهدى، وهو الإسلام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾

إختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «تَنْزِيلُ العَزِيزِ الرَّحِيمِ» فقرأته عامة قَرَأَةِ المدينة والبصرة «تَنْزِيلُ العَزِيزِ» برفع تنزيل، والرفع في ذلك يتجه من وجهين: أحدهما: بأن يُجعل خبراً، فيكون معنى الكلام: إنه تنزيل العزيزِ الرحيم. والآخر: بالابتداء، فيكون معنى الكلام حينئذٍ: إنك لمن المرسلين، هذا تنزيلُ العزيز الرحيم. وقرأته عامة قَرَأَة الكوفة وبعض أهل الشام «تَنْزِيلَ» نصباً على المصدر من قوله: «إِنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ» لأنَّ الإرسالَ إنما هو عن التنزيل، فكأنه قيل: لمنزل تنزيل العزيز الرحيم حقاً.

والصوابُ من القولِ في ذلك عندي أنهما قراءتان مشهورتان في قَرَأَة الأمصار، متقاربتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيبُ الصوابَ. ومعنى الكلام: إنك لمن المرسلين يا محمدُ إرسالَ الربّ العزيز في انتقامِه من أهلِ الكفرِ به، الرحيم بمن تابَ إليه، وأنابَ من كُفْرِهِ وفُسُوقِه أنْ يعاقبه على سالفِ جُرْمِه بعد توبتِه له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾

اختلف أهلُ التأويلِ في تأويلِ قوله: «لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ»، فقال بعضهم: معناه: لتنذر قوماً ما أنذرَ الله من قبلهم من آبائهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك لتنذر قوماً ما أُنذر آباؤهم[1].

وقال بعضهم: لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم: أي هذه الأُمةُ لم يأتهم نذيرٌ،

---

(١) أي: لم يُنْذَرْ آباؤهم.

حتى جاءهم محمدٌ ﷺ.

واختلف أهلُ العربية في معنى «ما» التي في قوله: «ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ» إذا وُجِّه معنى الكلام إلى أن آباءهم قد كانوا أُنذروا، ولم يُرَدْ بها الجحد، فقال بعض نحويي البصرة: معنى ذلك: إذا أُريد به غير الجحدِ لتنذرهم الذي أُنذر آبـاؤهم «فَهُمْ غافِلُونَ». وقال: فدخول الفاء في هذا المعنى لا يجوز، والله أعلم. قال: وهـو على الجحـدِ أحسن، فيكـون معنى الكـلام: إنـك لمن المرسلين إلى قومٍ لم يُنْذَرْ آباؤهم، لأنهم كانوا في الفترة.

وقال بعضُ نحويّي الكوفة: إذا لم يُرَدْ بما الجحدُ، فإنَّ معنى الكلام: لتنـذرهم بما أنذر آباؤهم، فَتُلْقَى الباءُ، فتكون «ما» في موضع نصب «فَهُمْ غافِلُونَ»، يقول: فهم غافلون عَمَّا الله فاعلٌ بأعدائِه المشركينَ به، من إحلالِ نقمته، وسطوته بهم.

وقوله: «لَقَدْ حَقَّ القَوْلُ على أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: لقد وَجَبَ العقابُ على أكثرهم، لأنَّ الله قد حتم عليهم في أمِّ الكتابِ أنهم لا يؤمنون بالله، ولا يصدِّقُونَ رسولَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُهُ: إنا جعلنا أيمانَ هؤلاءِ الكفارِ مغلولةً إلى أعناقهم بالأغلالِ، فلا تُبْسَطُ بشيءٍ من الخيرات.

وقوله: «إلى الأذْقانِ»، يعني: فأيمانُهم مجموعةٌ بالأغلالِ في أعناقهم، فكُني عن الأيمـان، ولم يَجْرِ لها ذِكْرٌ لمعرفةِ السامعينَ بمعنى الكلام، وأنَّ

الأغلال إذا كانت في الأعناق لم تكنْ إلا وأيدي المغلولين مجموعة بها إليها فاستغنى بذكر كونِ الأغلالِ في الأعناق من ذِكْرِ الأيمان[١].

وقوله: «فَهُمْ مُقْمَحُون» والمُقْمَح: هو المقنع، وهو أن يحدر الذقنَ حتى يصيرَ في الصدر، ثم يرفع رأسه في قولِ بعضِ أهلِ العلمِ بكلامِ العربِ من أهل البصرة. وفي قول بعض الكوفيين: هو الغاضُّ بَصَرَهُ، بعد رفعِ رأسه.

وقوله: «وَجَعَلْنا مِنْ بَينِ أيْدِيهِمْ سَداً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وجعلنا من بين أيدي هؤلاء المشركين سدّاً، وهو الحاجزُ بين الشيئين، إذا فُتِحَ كان من فعلِ بني آدم، وإذا كان من فعلِ الله كان بالضمِّ، وبالضمِّ قرأ ذلك عامة قَرَأَةِ المدينة والبصرة وبعض الكوفيين. وقَرَأَهُ بعض المكيين وعامة قَرَأَة الكوفيين بفتح السين «سَدّاً» في الحرفين كلاهما، والضمُّ أعجبُ القراءتين إليَّ في ذلك، وإنْ كانت الأخرى جائزة صحيحة.

وعنى بقوله: «وَجَعَلْنا مِنْ بينِ أيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً» أنه زَيَّنَ لهم سوءَ أعمالهم، فهم يَعْمَهُونَ، ولا يبصرون رشداً، ولا يتنبهون حقاً.

وقوله: «فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ»، يقول: فأغشينا أبصارَ هؤلاء: أي جعلنا عليها غشاوةً فهم لا يبصرون هدى ولا ينتفعون به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وسواء يا محمدُ على هؤلاء الذين حقَّ عليهم القولُ،

(١) هذا كلام الفراء في معاني القرآن: ٢/٣٧٢.

أيّ الأمرين كان منكَ إليهم الإنذارُ، أو ترك الإنذار، فإنهم لا يؤمنون، لأنَّ الله قد حكم عليهم بذلك.

وقوله: «إنَّمَا تُنْذِر مَنِ اتَّبَعَ الذّكْرَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنما ينفعُ إنذارُكَ يا محمد مَنْ آمَن بالقرآن، واتَّبَعَ ما فيه من أحكامِ الله «وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ»، يقول: وخافَ الله حين يغيبُ عن أبصارِ الناظرين، لا المنافق الذي يستخفُّ بدينِ الله إذا خلا، ويظهر الإيمان في الملأ، ولا المشرك الذي قد طبع الله على قلبه.

وقوله: «فَبشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ»، يقول: فَبَشِّرْ يا محمدُ هذا الذي اتبعَ الذِّكْرَ وخشيَ الرحمنَ بالغيبِ بمغفرةٍ من الله لذنوبه. «وأجْرٍ كَرِيمٍ»، يقول: وثواب منه له في الآخرة كريم، وذلك أنْ يعطيه على عمله ذلك الجنةَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «إنَّا نحْنُ نُحْيِي المَوْتى» من خَلْقِنَا «وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا» في الدنيا من خيرٍ وشرٍّ، وصالحِ الأعمال وسَيِّئها.

وقوله: «وآثَارَهُمْ»، يعني: وآثارَ خُطاهم بأرجلهم، وذكر أنَّ هذه الآيةَ نزلتْ في قومٍ أرادوا أن يقربوا من مسجدِ رسول الله ﷺ، ليقرب عليهم.

وقوله: «وكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْناهُ في إمامٍ مُبينٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكل شيءٍ كان أو هو كائنٌ أحصيناه، فأثبتناه في أمِّ الكتابِ، وهو الإمامُ المبين. وقيل: «مُبين»، لأنه يبينُ عن حقيقةِ جميعِ ما أُثْبِتَ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا

﴿ٱلْمُرْسَلُونَ ١٣ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومثِّلْ يا محمدُ لمشركي قومكَ مثلاً أصحابَ القرية: ذُكر أنها أنطاكية. «إِذْ جاءَها المُرْسَلُونَ»، اختلف أهلُ العلم في هؤلاء الرسل، وفيمن كان أرسلهم إلى أصحابِ القرية: فقال بعضهم: كانوا رُسُلَ عيسى بن مريم، وعيسى الذي أرسَلَهُمْ إليهم.

وقال آخرون: بل كانوا رسلاً أرسلهم الله إليهم.

وقوله: «إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: حين أرسلنا إليهم اثنين يَدْعُوانِهم إلى الله فكذَّبُوهما فَشَدَدْناهُمَا بثالثٍ، وقَوَّيناهما به.

وقوله: «فَقالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُرْسَلُونَ»، يقول: فقال المُرْسَلُونَ الثلاثة لأصحابِ القرية: إنَّا إليكم أيها القومُ مرسلون، بأن تُخْلِصوا العبادةَ لله وحده، لا شريكَ له، وتتبرَّؤوا مما تعبدونَ من الآلهةِ والأصنام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ١٥ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ١٦ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال أصحابُ القريةِ للثلاثةِ الذين أُرسلوا إليهم حينَ أخبروهم أنهم أُرسلوا إليهم بما أُرسلوا به: ما أنتم أيها القومُ إلا أُناسٌ مثلنا، ولو كنتم رسلاً كما تقولون، لكنتم ملائكةً «وما أنْزلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ»، يقول: قالوا: وما أنزلَ الرحمنُ إليكم من رسالةٍ ولا كتابٍ ولا أمركم فينا بشيء «إنْ

أَنْتُمْ إِلَّا تَكْـذِبُونَ» في قِيلِكُمْ إنكم إلينا مُرْسَلُون. «قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ»، يقول: قال الرسلُ: رَبُّنَا يعلمُ إنَّا إليكم لمرسلون فيما دَعَوْنَاكُمْ إليه، وإنَّـا لصـادقون «وَما عَلَينا إلَّا البلاغُ المُبينُ»، يقول: وما علينا إلا أنْ نبلغكم رسالةَ الله التي أرسلنا بها إليكم بلاغاً يبينُ لكم أنَّا أبْلَغْنَاكُمُوها، فإنْ قبلتموها فَحَظَّ أنفسِكُمْ تُصيبونَ، وإنْ لم تقبلوها فقد أدَّيْنَا ما علينا، والله وليُّ الحكمِ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُهُ: قال أصحابُ القرية للرسلِ: «إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ»، يعنون: إنَّا تشاءمنا بكم، فإنْ أصابنا بَلاءٌ فمن أجلكم.

وقوله: «لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ»، يقول: لئن لم تنتهوا عما ذكرتم من أنكم أُرسلتم إلينا بالبراءةِ من آلهتنا، والنهي عن عبادتنا لنرجُمَنَّكُمْ، قِيلَ: عنى بذلك لنرجُمَنَّكم بالحجارةِ.

«وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ»، يقول: وَلَيَنالَنَّكُمْ منا عذابٌ مُوجِع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قالت الرسلُ لأصحابِ القرية: «طائِرُكُمْ مَعَكُمْ أئِنْ ذُكِّرْتُمْ»، يقولون: أعمالكم وأرزاقكم وحظُّكم من الخيرِ والشرِّ مَعكم، ذلك كله

في أعناقكم، وما ذلك من شؤمنا إنْ أصابكم سوءٌ فبما كُتِبَ عليكم، وَسَبَقَ لكم من الله.

وقوله: «بَل أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ»، يقول: قالوا لهم: ما بكم التَطيُّرُ بنا، ولكنكم قومٌ أهلُ معاصٍ لله وآثامٍ، قد غلبتْ عليكم الذنوبُ والآثام.

وقوله: «وَجاءَ مِنْ أَقْصَى المَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى»، يقول: وجاء من أقصى مدينةِ هؤلاءِ القومِ الذين أرسلت إليهم هذه الرسلَ رجلٌ يسعى إليهم، وذلك أنَّ أهلَ المدينة هذه عَزَمُوا، واجتمعتْ آراؤهم على قَتْلِ هؤلاء الرسلِ الثلاثة فيما ذُكِر، فبلغَ ذلك هذا الرجلَ، وكان منزلهُ أقصَى المدينة، وكان مؤمناً، وكان اسمه فيما ذُكر «حبيب بن مرى».

وقوله: «قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا المُرْسَلِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال الرجلُ الذي جاء من أقصى المدينة لقومِه يا قومِ اتبعوا المرسلينَ الذين أرسلهم الله إليكم، واقبلوا منهم ما أتوكم به.

وذُكر أنه لما أتى الرسلَ سألهم: هل يطلبونَ على ما جاؤوا به أجراً؟ فقالت الرسلُ: لا، فقال لقومه حينئذٍ: اتَّبِعُوا مَنْ لا يسألُكم على نصيحتهم لكم أجراً.

وقـوله: «وَهُمْ مُهْتَدُونَ»، يقول: وهم على استقامةٍ من طريقِ الحقِّ، فاهتدوا أيها القومُ بِهُدَاهُم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن قِيلِ هذا الرجلِ المؤمنِ «وَما لِي لا أعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي»: أي: وأيّ شيء لي لا أعبد الربَّ الذي خلقني. «وإلَيْهِ تُرْجَعُونَ»، يقول: وإليه تصيرون أنتم أيها القومُ وتُرَدُّون جميعاً، وهذا حين أبدى لقومِه إيمانَهُ بالله وتوحيده.

وقوله: «أأتَّخِذُ مِنْ دُونِه آلِهَةً»، يقول: أأعبدُ من دونِ الله آلهةً، يعني معبوداً سواه «إنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ»، يقول: إذ مسني الرحمنُ بضرٍّ وشدّةٍ «لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً»، يقول: لا تغني عني شيئاً بكونها إليَّ شفعاء، ولا تقدرُ على دفعِ ذلك الضرِّ عني. «وَلا يُنْقِذُونِ»، يقول: ولا يخلصوني من ذلك الضرِّ إذا مَسَّني.

وقوله: «إنِّي إذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ»، يقول: «إني» إن اتخذتُ من دونِ الله آلهةً هذه صِفَتُها «إذاً لفي ضلال مبين» لمن تأمله، جوره عن سبيل الحقّ.

وقوله: «إنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فاسْمَعُونِ»، فاختلف في معنى ذلك، فقال بعضهم: قال هذا القول هذا المؤمن لقومِه يُعلِمُهم إيمانَهُ بالله.

وقال آخرون: بل خاطبَ بذلك الرسلَ، وقال لهم: اسمعوا قولي لتشهدوا لي بما أقولُ لكم عند ربي، وأني قد آمنتُ بكم واتبعتكم، فذكر أنه لما قال هذا القول، ونصح لقومِه النصيحةَ التي ذكرها الله في كتابه وثبوا به فقتلوه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال الله له إذْ قتلوه كذلك فَلَقِيَهُ: «ادْخُلِ الجَنَّة» فلما دَخلَها وعاينَ ما أكرمه الله به لإيمانِه وصبرِه فيه «قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لي رَبِّي»، يقول: يا ليتهم يعلمون أن السببَ الذي من أجله غفرَ لي ربي

ذنـوبي، وجعلني من الذين أكرمهم الله بإدخالِه إياهُ جَنَّتَهُ، كانَ إيماني بالله وصبري فيه، حتى قتلت، فيؤمنوا بالله ويستوجبوا الجنةَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۝٢٨ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ۝٢٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما أنزلنا على قومِ هذا المؤمنِ الذي قَتَلَهُ قومُه لدعائِه إياهم إلى الله ونصيحته لهم «مِنْ بَعْدِهِ»، يعني: من بَعْدِ مَهْلِكِه «مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ».

واختلف أهلُ التأويل في معنى الجند الذي أخبرَ الله أنه لم ينزلْ إلى قومِ هذا المؤمنِ بعد قَتْلِهُمُوه، فقال بعضهم: عُنِي بذلك أنه لم ينزل الله بعد ذلك إليهم رسالةً، ولا بعثَ إليهم نبياً.

وقال آخرون: بل عنى بذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ لم يبعثْ لهم جنوداً يقاتلهم بها، ولكنه أهلكهم بصيحةٍ واحدة.

وهذا القولُ الثاني أوْلى القولين بتأويلِ الآية، وذلك أنَّ الرسالةَ لا يقال لها جُنْدٌ إلا أنْ يكونَ أرادَ مجاهدٌ بذلك الرُّسُلَ، فيكون وجهاً، وإن كان أيضاً من المفهـومِ بظاهرِ الآيةِ بعيداً، وذلك أن الرسُلَ من بني آدم لاينزلون من السماءِ، والخبر في ظاهرِ هذه الآيةِ عن أنه لم يُنْزِلْ من السماءِ بعد مَهْلِك هذا المؤمنِ على قومه جنداً وذلك بالملائكة أشبه منه ببني آدم.

وقوله: «إنْ كانَتْ إلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فإذَا هُمْ خامِدُونَ»، يقول: ما كانت هَلَكَتهم إلا صيحةً واحدة أنزلها الله من السماءِ عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يا حسرةً من العبادِ على أَنْفُسِهَا وتَنَدُّماً وتلهفاً في استهزائهم برسلِ الله «ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ» من الله «إلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝٣١ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٣٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ألم ير هؤلاء المشركونَ بالله من قومكَ يا محمدُ كم أهلكنا قبلهم بتكذيبهم رسلنا، وكفرهم بآياتنا من القرونِ الخالية «أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ»، يقول: ألم يَرَوا أنهم إليهم لايرجعون.

وقوله: «وإنْ كُلٌّ لَمَّا جَميعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإن كل هذه القرونِ التي أهلكناها والذين لم نُهْلِكهم وغيرهم عندنا يومَ القيامة جميعهم مُحْضَرُون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۝٣٣ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ۝٣٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ودلالة لهؤلاء المشركين على قُدرةِ الله على ما يشاء، وعلى إحيائِه مَنْ مات من خَلْقِه وإعادتِه بعد فنائه، كهيئته قبل مماته إحياؤُه

الأرضَ الميتةَ، التي لا نبتَ فيها ولا زرعَ بالغيثِ الذي ينزله من السماءِ حتى يخرج زَرْعها، ثم إخراجُه منها الحبَّ الذي هو قوتٌ لهم وغذاء، فمنه يأكلون.

وقوله: «وَجَعَلنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وأعْنابٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وجعلنا في هذه الأرضِ التي أحييناها بعد موتها بساتين من نخيلٍ وأعناب «وَفَجَّرْنَا فِيها مِنَ العُيُون»، يقول: وأنبعنا فيها من عيونِ الماء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أنشأنا هذه الجنات في هذه الأرضِ ليأكلَ عبادي من ثمره، وما عملتْ أيديهم، يقول: ليأكلوا من ثمرِ الجناتِ التي أنشأنا لهم، وما عملت أيديهم مما غَرَسُوا هُمْ وَزَرَعُوا.

وقوله: «أَفَلا يَشْكُرُونَ»، يقول: أفلا يشكر هؤلاء القوم الذين رزقناهم هذا الرزقَ من هذه الأرضِ الميتة التي أحييناها لهم مَنْ رَزَقَهُمْ ذلك وأَنْعَمَ عليهم به؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ تنزيهاً وتبرئةً للذي خلقَ الألوانَ المختلفةَ كلها من نباتِ الأرض، «ومن أنفسهم»، يقول: وخلق من أولادهم ذكوراً وإناثاً، ومما لا يعلمونَ أيضاً من الأشياء التي لم يطلعهم عليها، خلق كذلك أزواجاً مما يضيفُ إليه هؤلاء المشركون، ويَصِفُونَهُ به من الشركاءِ وغير ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝٣٧ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ودليل لهم أيضاً على قدرةِ الله على فِعْلِ كُلِّ ما شاء «اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ»، يقول: ننـزعُ عنه النهار. ومعنى «منه» في هذا الموضع: عنه، كأنه قيل: نسلَخ عنه النهار، فنأتي بالظلمة ونذهبُ بالنهار، ومنه قوله: «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نبأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آياتِنَا فانْسَلَخَ مِنْها» [الأعراف:١٧٥]: أي خرج منها وتركها، فكذلك انسلاخُ الليل من النهار.

وقوله: «فإذَا هُمْ مُظْلِمُونَ»، يقول: فإذا هم قد صاروا في ظلمةٍ بمجيءِ الليل.

وقـولـه: «والشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: والشمسُ تجري لموضعِ قرارها، بمعنى: إلى موضعِ قرارها.

وقوله: «ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيز العَلِيم»، يقول: هذا الذي وصفنا من جري الشمس لمستقـرٍّ لها، تقدير العزيز في انتقامِه من أعدائه، العليم بمصالحِ خَلْقِه، وغير ذلك من الأشياء كلها، لا يَخْفَى عليه خافيةٌ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠﴾

تأويلُ الكلام: وآية لهم: تقديرنا القمرَ منازلَ للنقصانِ بعد تناهيهِ وتمامه

واستوائِه، حتىٰ عاد كالعرجون القديمِ، والعرجون: من العِذْقِ من الموضعِ النـابتِ في النخلة إلى موضـعِ الشماريخ، وإنما شَبَّهَهُ جَلَّ ثناؤُهُ بالعرجونِ القديم، والقديمُ هو اليابسُ، لأنَّ ذلك من العِذْق، لا يكادُ يُوجَدُ إلا متقوّساً منحنياً إذا قدم ويَبِسَ، ولا يكـادُ أن يُصـاب مستوياً معتدلاً، كأغصانِ سائرِ الأشجارِ وفروعها، فكذلك القمرُ إذا كان في آخرِ الشهر قبل استسرارِه، صار في انحنائه وتَقَوُّسِه نظيرَ ذلك العرجون.

وقوله: «لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أنْ تُدْرِكَ القَمَرَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: لا الشمسُ يصلحُ لها إدراكُ القمرِ، فيذهب ضَوْءُهَا بضوئِه، فتكون الأوقات كلها نهاراً لا ليلَ فيها، «وَلا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولا الليلُ بفائت النهار حتى تذهب ظُلْمَتُه بضيائِه، فتكون الأوقات كلها ليلاً.

وقـوله: «وكُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ»، يقول: وكلٌّ ما ذكرنا من الشمسِ والقمرِ والليلِ والنهار في فلكٍ يَجْرُون.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ودليلٌ لهم أيضاً، وعلامةٌ على قُدرتنا على كلِّ ما نشاءُ حَمْلُنَا ذُرِّيتَهُمْ، يعني مَنْ نجا من ولدِ آدمَ في سفينةِ نوحٍ، وإياها عَنَى جَلَّ ثناؤُهُ بالفُلْكِ المشحون، والفلك: هي السفينةُ، والمشحون: المملوءُ المُوقَرُ.

وقـوله: «وَخَلقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وخلقنا لهؤلاء المشركينَ المُكَذِّبيكَ يا محمدُ، تَفَضُّلاً منا عليهم، من مثل ذلك الفلكِ

الذي كنا حملنا من ذريّةِ آدمَ مَنْ حملنا فيه الذي يركبونه من المراكب.

ثم اختلف أهلُ التأويل في الذي عَنَى بقوله: «ما يَرْكَبُونَ»، فقال بعضهم: هي السفن.

وقال آخرون: بل عنى بذلك الإبلَ.

وأشبه القولين بتأويلِ ذلك قول مَن قال: عُنِي بذلك السفن، لدلالة قوله: «وَإِنْ نَشأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ» على أنَّ ذلك كذلك، وذلك أنَّ الغرقَ معلومٌ أنه لايكونُ إلا في الماء، ولا غَرَقَ في البرِّ.

وقوله: «وَإِنْ نَشأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ» يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإنْ نشأ نغرق هؤلاء المشركينَ إذا ركبوا الفُلْكَ في البحر «فَلا صَرِيخَ لَهُمْ»، يقول: فلا مُغِيثَ لهم إذا نحنُ غَرَّقناهم يُغِيثُهم، فينجيهم من الغرق.

وقوله: «وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ»، يقول: ولا هو يُنقذهم من الغرقِ شيءٌ إنْ نحن أغرقناهم في البحر، إلا أنْ نُنقذَهُمْ نحنُ رحمةً منا لهم، فننجيهم منه.

وقوله: «وَمَتاعاً إلى حينٍ»، يقول: ولنمتعهم إلى أجلٍ هم بالغوه، فكأنه قال: ولا هم يُنْقذُونَ، إلا أنْ نرحمَهُمْ فَنُمَتِّعَهُمْ إلى أجلٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإذا قيل لهؤلاء المشركين بالله، المكذِّبينَ رسولَهُ محمداً ﷺ: احذروا ما مضى بين أيديكم من نِقَمِ الله ومَثُلاتِه بمن حَلَّ ذلك به من الأمم قَبْلَكُمْ أنْ يحلَّ مِثله بكم بِشِرْكِكُمْ وتكذيبكم رسولَهُ. «وما

خَلْفَكُمْ»، يقول: وما بعدَ هلاككم مما أنتم لا قُوةَ إنْ هلكتم على كُفْرِكُمْ الذي أنتم عليه. «لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»، يقول: ليرحمكم رَبُّكم إنْ حذرتم ذلك، واتقيتُموه بالتوبةِ من شركِكم والإيمانِ به، ولزومِ طاعتهِ فيما أوجبَ عليكم من فرائضه.

وقوله: «وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيةٍ من آياتِ رَبِّهم إلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضينَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما تجيء هؤلاء المشركينَ من قريشٍ آيةٌ، يعني حجةٌ من حُجَج الله، وعلامةٌ من علاماته على حقيقةِ توحيدِه، وتصديقِ رَسُولِه، إلا كانوا عنها مُعْرِضينَ، لا يتفكَّرونَ فيها، ولا يتدبَّرُونَها، فيعملوا بها ما احتجَّ الله عليهم بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وإذا قيل لهؤلاء المشركينَ بالله: أنفقوا من رزقِ الله الذي رزقكم، فأدُّوا منه ما فَرَضَ الله عليكم فيه لأهلِ حاجتكم ومسكنتكم، قال الذين أنكروا وحدانيةَ الله، وعبدوا مَنْ دونه للذين آمنوا بالله ورسولِه، أَنُطْعِمُ أموالَنا وطعامنا مَنْ لو يشاءُ الله أطعَمَهُ.

وفي قوله: «إنْ أنتُمْ إلَّا في ضَلالٍ مُبين» وجهان: أحدهما: أنْ يكونَ من قِيلِ الكفار للمؤمنين، فيكون تأويلُ الكلامِ حينئذٍ: ما أنتم أيها القومُ في قِيلكم لنا: أنفقوا مما رزقكُمُ الله على مساكينكم، إلا في ذهابٍ عن الحقِّ، وجَوْرٍ عن الرشدِ مُبينٌ لمن تأمَّلَهُ وتَدَبَّرَهُ، أنه في ضلال، وهذا أولى وَجْهَيهِ بتأويله. والوجه الآخر: أنْ يكون ذلك من قِيلِ الله للمشركينَ، فيكون تأويله حينئذٍ: ما أنتم أيها الكافرونَ في قِيلِكم للمؤمنين: أنطعمُ مَنْ لو يشاء الله أطعمه إلا في ضلالٍ مبين، عن أنَّ قِيلَكُمْ ذلكَ لهم ضلالٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٨﴾



يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويقول هؤلاء المشركونَ المكذِّبونَ وعيدَ الله، والبعثَ بعد المماتِ، يستعجلون رَبَّهم بالعذاب «مَتى هَذَا الوَعْدُ»: أي الوعدُ بقيامِ الساعة «إنْ كُنْتُمْ صادِقينَ» أيها القومُ، وهذا قولُهم لأهلِ الإيمانِ بالله ورسوله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝٤٩ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ۝٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ما ينتظرُ هؤلاء المشركون الذين يستعجلونَ بوعيدِ الله إياهم، إلا صيحةً واحدةً تأخذهم، وذلك نفخةُ الفَزَعِ عند قيامِ الساعة.

وقوله: «فَلا يَسْتَطِيعونَ تَوْصيةً»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلا يستطيع هؤلاء المشركون عند النفخِ في الصُّورِ أنْ يُوصُوا في أموالهم أحداً. «وَلا إلى أهْلِهِم يَرْجِعونَ»، يقول: ولا يستطيعُ مَنْ كان منهم خارجاً عن أهله أنْ يرجعَ إليهم، لأنهم لا يُمْهَلُونَ بذلك، ولكن يُعَجَّلُونَ بالهلاك.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٢ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «ونُفِخَ في الصُّورِ»، وقد ذكرنا اختلافَ المختلفين، والصواب من القولِ فيه فيما مضى قبل بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع، ويُعْنَى بهذِه النفخةِ، نفخةَ البعث.

وقوله: «فإذَا هُمْ مِنَ الأجْداثِ»، يعني: من أجداثهم، وهي قبورهم، واحدها: جَدَث.

وقوله: «إلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ»، يقول: إلى رَبِّهم يخرجونَ سِراعاً، والنَّسَلان، الإسراعُ في المشي.

وقوله: «قالوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذا ما وَعدَ الرحمنُ وصدقَ المُرسلونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: قال هؤلاء المشركونَ لما نُفخ في الصور نفخة البعث لموقفِ القيامة فَرُدَّتْ أرواحُهم إلى أجسامهم، وذلك بعد نومةٍ ناموها. «يا ويلَنا مَنْ بَعثنا مِنْ مَرقَدِنا»، وقد قيل: إنَّ ذلك نومة بين النفختين.

ويعني بقوله: «مِنْ مَرقَدِنا هذا» مَنْ أيقظَنَا من منامنا، وهو من قولهم: بعثَ فلانٌ ناقَتَهُ فانبعثتْ، إذا أثارها فثارتْ.

وقد اختلف أهلُ التأويلِ في الذي يقول حينئذٍ: «هذا ما وعَدَ الرحمن»، فقال بعضهم: يقول ذلك أهلُ الإيمانِ بالله.

وقال آخرون: بل كلا القولين، أعني «يا ويلنا مَنْ بعثنا مِنْ مَرقدِنا هذا ما وعد الرحمنُ وصدق المرسلون»: من قولِ الكفار.

والقولُ الأوّلُ أشبهُ بظاهرِ التنزيل، وهو أن يكونَ من كلامِ المؤمنين، لأنَّ الكفارَ في قِيلِهم «مَنْ بعثَنا مِنْ مَرْقَدِنا» دليلٌ على أنهم كانوا بِمَنْ بَعَثهم من مَرْقَدهم جُهَّالاً، ولذلك مِنْ جَهْلِهم اسْتَثْبَتُوا، ومحالٌ أنْ يكونوا استثبتوا ذلك إلَّا من غيرهم، ممن خالفتْ صفتُه صفتَهم في ذلك.

وقـوله: «إنْ كانتْ إلاَّ صَيحةً واحدةً فإذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَينا مُحضَرونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنْ كانت إعادتهم أحياءً بعد مماتِهم إلا صيحة واحدة، وهي النفخة الثالثة في الصور. «فإذا هُمْ جَمِيعٌ لدينَا مْحضرونَ»، يقول: فإذا هم مجتمعون لدينا قد أُحْضِرُوا، فأُشْهِدُوا موقفَ العَرْضِ والحساب، لم يتخلف عنه منهم أحدٌ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «فاليَوْمَ» يعني يومَ القيامة «لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شيئاً» كذلك ربنا لايظلمُ نفساً شيئاً، فلا يُوفيها جزاءَ عملها الصالح، ولا يحمل عليها وِزْرَ غيرِهَا، ولكنه يوفي كُلَّ نفسٍ أجرَ ما عملت من صالح، ولا يعاقبها إلا بما أجترمتْ واكتسبت من شيء. «وَلا تُجْزَوْنَ إلاَّ ما كُنْتُمْ تَعملونَ»، يقول: ولا تكافئون إلا مكافأة أعمالِكم التي كنتم تعملونها في الدنيا.

وقوله: «إنَّ أصحابَ الجَنَّةِ اليومَ في شُغُلٍ فاكِهُونَ»، اختلف أهلُ التأويل في معنى الشغـل الـذي وصف الله جَلَّ ثنـاؤُهُ أصحابَ الجنةِ أنهم فيه يوم القيامة، فقال بعضهم: ذلك افتضاضُ العذارَى.

وقال آخرون: بل عُنِي بذلك: أنهم في نعمة.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنهم في شُغُلٍ عما فيهِ أهلُ النار.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ أنْ يقالَ كما قال الله جَلَّ ثناؤُهُ: «إنَّ أصحابَ الجنَّةِ» وهم أهلُها «في شُغُلٍ فاكِهُونَ» بنعمٍ تأتيهم في شغلٍ، وذلك

الشغلُ الذي هم فيه نعمةٌ، وافتضاضُ أبكارٍ، ولهوٌ ولذَّةٌ، وشغلٌ عما يَلْقى أهلُ النار.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾

يعني تعالى بقوله: «هُمْ» أصحابُ الجنة «وأزْوَاجُهُمْ» من أهلِ الجنةِ في الجنة.

وقوله: «هُمْ وأزْوَاجُهُمْ في ظِلالٍ»، قال: حَلاَئِلُهم في ظُلَل.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك، فقرأه بعضهم «فِي ظُلَلٍ» بمعنى: جمع ظُلَّة. كما تُجمع الحُلَّةُ حُلَلاً. وقرأه آخرون: «في ظِلالٍ»، وإذا قرئَ ذلك كذلك كان له وجهان: أحدهما: أنْ يكون مُراداً به جمع الظُّلَل الذي هو بمعنى الكِنّ، فيكون معنى الكلمة حينئذٍ: هُمْ وأزواجُهم في كِنٍّ لا يَضْحَونْ لشمسٍ كما يَضْحَى لها أهلُ الدنيا، لأنه لا شمسَ فيها. والآخر: أنْ يكون مراداً به جمع ضُلّة. فيكون وجه جمعها كذلك نظير جمعهم الخُلّة في الكَثْرة: الخِلال، والقُلَّة: قِلال.

وقوله: «عَلى الأرائِكِ مُتَّكِئُونَ»، والأرائك: هي الحِجالُ فيها السُّرُورُ والفُرُشُ: واحدتها: أريكة.

وقوله: «سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيم»، «سلامٌ» خبر لقوله: «وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ»، فيكون معنى ذلك: ولهم فيها ما يَدَّعُونَ، وذلك هو سلامٌ من الله عليهم، بمعنى: تسليم من الله، ويكون سلام ترجمة عما يَدَّعون، ويكون القول خارجاً من قوله: سلام.

وقوله: «مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ»، يعني: رحيمٌ بهم إذْ لم يعاقبهم بما سَلَفَ لهم من جُرْمٍ في الدنيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ: وتَمَيَّزُوا من المؤمنينَ اليومَ أيها الكافرونَ بالله، فإنكم واردونَ غيرَ مورِدِهم، داخلونَ غير مُدْخَلِهم.

وقوله: «أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ»، وفي الكلام متروكٌ استغني بدلالةِ الكلامِ عليه منه، وهو ثُمَّ يقال: ألم أعهد إليكم يا بني آدم، يقول: ألم أُوصِكُمْ وآمركم في الدنيا أنْ لا تعبدوا الشيطانَ فتطيعوهُ في معصيةِ الله «إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ»، يقول: وأقولُ لكم: إنَّ الشيطانَ لكم عدوٌّ مبين، قد أبان لكم عَداوته بامتناعهِ من السجودِ، لأبيكم آدم، حسداً منه له، على ما كان الله أعطاهُ من الكرامة، وغُروره إياه، حتى أخرجه وزوجته من الجنة.

وقوله: «وأنِ اعْبُدُونِي هَذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ»، يقول: وألم أعهدْ إليكم أنِ اعبدوني دونَ كُلِّ ما سواي من الآلهة والأنداد، وإياي فأطيعوا، فإنَّ إخلاصَ عبادتي، وإفرادَ طاعتي، ومعصيةَ الشيطان، هو الدينُ الصحيح، والطريق المستقيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا

تَعۡقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٦٤﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً»: ولقد صدَّ الشيطانُ منكم خَلْقاً كثيراً عن طاعتي، وإفرادي بالألوهةِ حتى عبدوه، واتخذوا من دوني آلهةً يعبدونها.

وقوله: «أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ»، يقول: أفلم تكونوا تعقلونَ أيها المشركونَ، إذْ أطعتم الشيطانَ في عبادةِ غيرِ الله، أنه لاينبغي لكم أنْ تُطيعوا عدوَّكُمْ وعدوَّ الله، وتعبدوا غيرَ الله.

وقوله: «هَذِهِ جَهَنَّم التي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ»، يقول: هذه جهنمُ التي كنتم تُوعَدُونَ بها في الدنيا على كفركم بالله، وتكذيبكم رسله. فكنتم بها تُكَذِّبُونَ. وقيل: إنَّ جهنمَ أوّل بابٍ من أبواب النار.

وقوله: «اصْلَوْها اليَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ»، يقول: احترقُوا بها اليوم ورِدُوها، يعني باليوم: يوم القيامة «بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُون»، يقول: بما كنتم تَجْحدونها في الدنيا، وتكذّبون بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «اليَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أفْوَاهِهِمْ»: اليومَ نَطْبعُ على أفواهِ المشركين، وذلك يوم القيامة «وَتُكَلِّمُنا أيْدِيهِمْ» بما عملوا في الدنيا من معاصي الله «وَتَشْهَدُ أرْجُلُهُمْ»، قيل: إنَّ الذي ينطقُ من أرجلهم: أفخاذُهُمْ من الرجلِ اليُسرى «بِمَا كانُوا يَكْسِبُونَ» في الدنيا من الآثام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويلِ قوله: «وَلَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا على أعْيُنِهِمْ فاسْتَبَقُوا الصِّراطَ»، فقال بعضهم: معنى ذلك: ولو نشاءُ لأعميناهم عن الهدى، وأضللناهم عن قصدِ المَحَجَّةِ، وهو قول ابن عباس.

وقال آخرون: معنى ذلك: ولو نشاء لتركناهم عُمْياً، وهو قولُ الحسن وقتادة.

وهذا القول الذي ذكرناه عن الحسن وقتادة أشبهُ بتأويلِ الكلام، لأنَّ الله إنما تَهَدَّدَ به قوماً كفاراً، فلا وجهَ لأنْ يقال: وهم كفار، لو نشاءُ لأضللناهم وقد أضلهم، ولكنه قال: لو نشاءُ لعاقبناهُمْ على كُفْرِهم، فطمسنا على أعينهم فصيرناهم عمياً لا يبصرونَ طريقاً، ولا يهتدون له، والطَّمْسُ على العين: هو أنْ لا يكونَ بين جفني العين غرٌّ، وذلك هو الشقُّ الذي بين الجفنين، كما تطمسُ الريحُ الأثَرَ، يقال: أعمى مطموس وطميس.

وقوله: «فاسْتَبَقُوا الصِّراطَ»، يقول: فابتدروا الطريقَ.

وقوله: «فَأَنَّى يُبْصِرُونَ»، يقول: فأيّ وجه يبصرون أنْ يسلكوه من الطرق، وقد طمسنا على أعينهم.

وقوله: «وَلَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ على مَكانَتِهِمْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولو نشاءُ لأقعدنا هؤلاء المشركينَ من أرجُلِهم في منازلهم «فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِياً وَلا يَرْجِعُونَ»، يقول: فلا يستطيعون أنْ يمضوا أمامهم، ولا أن يرجعوا وراءهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ۝٦٨ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝٧٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «وَمَنْ نُعَمِّرْهُ» فنمُدُّ له في العمر «نُنَكِّسْهُ في الخَلْقِ» نردُّهُ إلى مثلِ حالِه في الصبا من الهَرَمِ والكبر، وذلك هو النكسُ في الخلق، فيصير لا يعلم شيئاً بعد العلم الذي كان يعلمه.

ويعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «أفَلا يَعْقِلُونَ»: أفلا يعقلُ هؤلاء المشركونَ قُدْرَةَ الله على ما يشاء بمعاينتهم ما يعاينونَ من تصريفِهِ خَلْقَهُ فيما شاءَ وأحبَّ من صغرٍ إلى كبرٍ، ومن تنكيسٍ بعدَ كبرٍ في هرم.

وقوله: «وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما علَّمنا محمداً الشعرَ، وما ينبغي له أن يكون شاعراً.

وقوله: «إنْ هُوَ إلَّا ذِكْرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: ما هو إلا ذِكْرٌ، يعني بقوله: «إنْ هُوَ»: أي محمدٌ إلا ذِكْرٌ لكم أيها الناسُ ذكركم الله بإرسالِه إياهُ إليكم، ونَبَّهَكُمْ به على حَظِّكم «وَقُرآنٌ مُبِينٌ»، يقول: وهذا الذي جاءكم به محمدٌ: قرآنٌ مبين، يقول: يَبِينُ لمن تدبَّرَهُ بعقلٍ ولبّ، أنه تنزيلٌ من الله أنزله إلى محمدٍ، وأنه ليس بشعرٍ ولا سَجْعِ كاهن.

وقوله: «لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيّاً»، يقول: إن محمد إلا ذكر لكم لِينذرَ منكم أيها الناسُ مَنْ كان حيَّ القلبِ، يعقلُ ما يقالُ له، ويفهم ما يُبَيَّنُ له، غير ميتِ الفؤادِ بليد.

وقوله: «وَيحِقَّ القَوْلُ على الكافِرِينَ»، يقول: ويحقّ العذابُ على أهلِ الكفر بالله، المولِّينَ عن اتباعه، المعرضينَ عما أتاهم به من عند الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: أَوَ لَمْ يَرَ هؤلاء المشركون بالله الآلهةَ والأوثانَ «أنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أيْدِينا»، يقول: مما خلقنا من الخلق «أنْعاماً» وهي المواشي التي خلقها الله لبني آدم، فسخَّرها لهم من الإبل والبقر والغنم، «فَهُمْ لَهَا مالِكُونَ»، يقول: فهم لها مُصَرِّفُونَ كيف شاؤوا بالقهر منهم لها والضبط.

وقوله: «وَذَلَّلْناها لَهُمْ»، يقول: وذللنا لهم هذه الأنعامَ «فَمِنْها رَكُوبُهُمْ»، يقول: فمنها ما يركبون كالإبلِ يسافرون عليها، يقال هذه دابةٌ رَكُوب، والرُّكوب بالضمّ: هو الفعل، «وَمِنها يأكُلونَ» لحومها.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ولهم في هذه الأنعام منافعُ، وذلك منافع في أصوافها وأوبارها وأشعارها باتخاذهم من ذلك أثاثاً ومتاعاً، ومن جلودها أكناناً، ومشارب يشربون ألبانها.

وقوله: «أفَلا يشكُرُونَ»، يقول: أفلا يشكرون نعمتي هذه، وإحساني إليهم بطاعتي، وإفراد الألوهيةِ لي والعبادة، وترك طاعةِ الشيطانِ وعبادةِ الأصنام.

قوله: «واتَّخذوا مِنْ دونِ الله آلهةً»، يقول: واتخذ هؤلاء المشركونَ من دونِ الله آلهةً يعبدونها «لَعَلَّهُمْ يُنْصَرونَ»، يقول: طمعاً أنْ تنصرهم تلك الآلهةُ من عقابِ الله وعذابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ۝٧٥ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: لا تستطيع هذه الآلهةُ نَصْرَهُمْ من الله إنْ أراد بهم سوءاً، ولا تدفع عنهم ضرّاً.

وقوله: «وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ»، يقول: وهؤلاء المشركون لآلهتهم جُنْدٌ مُحْضَرون.

واختلف أهلُ التأويلِ في تأويلِ قوله: «مُحْضَرونَ» وأين حضورهم إياهم، فقال بعضهم: عنى بذلك: وهم لهم جُنْدٌ محضرون عند الحساب.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وهُمْ لهم جُنْدٌ محضَرون في الدنيا يغضبون لهم.

والقول الثاني أوْلى القولين عندنا بالصواب في تأويل ذلك، لأن المشركينَ عند الحسابِ تتبرأ منهم الأصنامُ، وما كانوا يعبدونه، فكيف يكونون لها جنداً حينئذٍ، ولكنهم في الدنيا لهم جُندٌ يغضبون لهم، ويقاتلون دونهم.

وقوله تعالى: «فَلا يحزنكَ قَوْلُهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: فلا يحزُنك يا محمدُ قول هؤلاء المشركينَ بالله من قومكَ لك: إنك شاعرٌ، وما جئتنا به شعرٌ، ولا تكذيبهم بآياتِ الله وجحودهم نبوَّتك.

وقوله: «إنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وما يُعْلِنونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنا نعلم أنَّ الذي يدعوهم إلى قِيل ذلك الحسدُ، وهم يعلمونَ أنَّ الذي جئتهم به ليس بشعرٍ، ولا يشبهُ الشعرَ، وأنك لست بكذّابٍ، فنعلم ما يُسِرُّونَ من معرفتهم بحقيقةِ ما تدعوهم إليه، وما يعلنون من جحودهم ذلك بألسنتهم علانية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾

يقول جل شأنه: أو لم يَرَ هذا الإنسانُ الذي يقول: «مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِي رَمِيمٌ» أنَّا خلقناهُ من نطفةٍ فسوَّيناهُ خلقاً سَوِيًّا. «فإِذَا هو خَصِيمٌ»، يقول: فإذا هوَ ذُو خصومةٍ لربه، يخاصمهُ فيما قال له رَبُّه إني فاعل، وذلك إخبارٌ الله إياهُ أنه مُحْيِي خَلْقَهُ بعد مماتِهم، فيقول: مَنْ يحيي هذه العظامَ وهي رميمٌ؟ إنكاراً منه لقُدرة الله على إحيائها.

وقوله: «مُبِينٌ»، يقول: يبينُ لمن سمع خُصومته وقِيلَهُ ذلك أنه مخاصمٌ رَبَّهُ الذي خَلَقَهُ.

وقوله: «وَضَرَبَ لنا مَثلاً وَنَسيَ خَلْقَهُ»، يقول: ومثَّل لنا شبهاً بقوله: «مَنْ يُحيي العِظامَ وهيَ رَمِيمٌ» إذ كان لا يقدرُ على إحياءِ ذلك أحدٌ، يقول: فَجَعَلَنا كَمَنْ لا يقدرُ على إحياءِ ذلك من الخَلْق. «وَنَسيَ خلقَهُ»، يقول: ونسي خَلْقَنا إياهُ كيف خلقناه، وأنه لم يكنْ إلا نطفةً، فجعلناها خلقاً سَوِيًّا ناطقاً، يقول: فلم يفكـر في خَلْقِنـاهُ، فيعلم أنَّ مَنْ خلقـه من نطفةٍ حتى صار بشراً سوياً ناطقـاً متصرِّفاً، لا يعجزُ أنْ يعيدَ الأمواتَ أحياء، والعظامَ الرَّميم بشراً كهيئتهم التي كانوا بها قبلَ الفناء، يقولُ الله لنبيه محمد ﷺ: «قُلْ» لهذا المشركِ القائل لكَ: مَنْ يُحيي العظام وهي رميمٌ «يُحييها الَّذي أنشأَهَا أَوَّلَ مرَّةٍ»، يقول: يحييها الذي ابتدع خَلقَها أوَّل مرَّةٍ ولم تكن شيئاً. «وَهُوَ بِكُلِّ خَلقٍ عليمٌ»، يقول: وهو بجميعِ خَلْقِهِ ذُو علمٍ كيف يُميتُ، وكيف يحيي، وكيف يُبْدِئُ، وكيف يُعيدُ، لا يخفى عليه شيءٌ من أمر خلقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قُلْ يُحْيِيهَا الذي أنشأها أوّلَ مرّة «الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأخضَر ناراً»، يقول: الذي أخرج لكم من الشجر الأخضر ناراً تُحرق الشجرَ، لا يمتنعُ عليه فِعْلُ ما أراد، ولا يعجز عن إحياء العظامِ التي قد رَمَّتْ، وإعادتها بشَراً سوياً، وخَلْقاً جديداً، كما بدأها أوّلَ مرّة.

قوله: «فإذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدونَ»، يقول: فإذا أنتم من الشجرِ تُوقِدُونَ النار.

وقوله: «أوَ لَيْسَ الَّـذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأرض بقادِرٍ على أنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ مُنَبِّهاً هذا الكافرَ الذي قال: «مَنْ يُحيي العِظامَ وهي رَميمٌ» على خطأ قوله، وعظيمِ جهله «أوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّموات» السبع «والأرضَ بقادِرٍ على أنْ يَخلُقَ» مثلكم، فإنَّ خَلْقَ مثلكم من العظامِ الرميمِ ليس بأعظمَ من خلقِ السمواتِ والأرض، يقول: فَمَنْ لم يتعذَّرْ عليه خَلْقُ ما هو أعظم من خَلْقِكم، فكيف يتعذَّرُ عليه إحياءُ العظامِ بعدما قد رَمَّتْ وبلِيَت؟

وقوله: «بَلى وَهُوَ الخلاَّقُ العَليمُ»، يقول: بلى هو قادرٌ على أنْ يخلقَ مِثْلَهُم وهو الخلاقُ لما يشاء، الفعَّالُ لما يريد، العليمُ بكلِّ ما خلقَ ويخلقُ، لا يخفى عليه خافية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾

كان قتادة يقول في ذلك: «أوَ ليسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ بقادرٍ

على أنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى وَهو الخلاق العليمُ»، قال: هذا مِثْل «إنما أمْرُهُ إذا أراد شيئاً أنْ يقولَ له كُنْ فيكون»، قال: ليس من كلام العربِ شيءٌ هو أخفُّ من ذلك، ولا أهون، فأمرُ الله كذلك.

وقوله: «فَسُبحانَ الَّذي بِيدِهِ مَلكُوتُ كُلِّ شَيءٍ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: فتنزيهُ الذي بيدِه مُلْكُ كُلِّ شيءٍ وخزائنه.

وقوله: «وَإليهِ تُرجعونَ»، يقول: وإليه تُرَدُّونَ وتَصيرونَ بعد مماتكم.

سُورَةُ الصَّافَّات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣﴾

أقسم الله تعالى ذِكْرُه بالصَّافاتِ، والزاجرتِ، والتالياتِ ذِكْراً؛ فأما الصَّافات: فإنها الملائكةُ الصافاتُ لربِّها في السماء وهي جمع صافَّة. فالصافات: جَمْعُ جَمْعٍ.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «فالزَّاجِرَاتِ زَجْراً»، فقال بعضهم: هي الملائكة تزجرُ السحابَ تَسُوقُه.

وقال آخرون: بل ذلك آي القرآن التي زجر الله بها عما زَجر بها عنه في القرآن.

والذي هو أوْلى بتأويلِ الآيةِ عندنا مَنْ قال هُم الملائكةُ، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه، ابتدأ القسم بنوعٍ من الملائكة، وهم الصافُّونَ بإجماعٍ من أهل التأويل، فَلأَنْ يكونَ الذي بعده قسماً بسائرِ أصنافهم أشبهُ.

وقوله: «فالتَّالياتِ ذِكْراً»، يقول: فالقارئاتِ كتاباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ

شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «إنَّ إلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ» والصافاتِ صفاً إنَّ معبودَكم الذي يستوجبُ عليكم أيها الناسُ العبادةَ، وإخلاص الطاعةِ منكم له لواحدٌ لا ثانيَ له ولا شريكَ. يقول: فأَخْلِصُوا العبادةَ، وإياه فأفردوا بالطاعةِ، ولا تجعلوا له في عبادتكم إياهُ شريكاً.

وقـولـه: «رَبُّ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وما بَيْنَهُما»، يقول: هو واحدٌ خالقُ السمواتِ السبعِ وما بينهما من الخلق، ومالِكُ ذلك كله، والقَيِّمُ على جميع ذلـك، يقول: فالعبادةُ لا تصلحُ إلا لمن هذه صِفَتُه، فلا تعبدوا غيرَهُ، ولا تشركوا معه في عبادتكم إياهُ مَنْ لا يضرُّ ولا ينفع، ولا يخلق شيئاً ولا يُفْنِيه.

وقـولـه: «وَرَبُّ المَشـارِقِ»، يقول: ومُدَبِّرُ مشارقِ الشمسِ في الشتاء والصيف ومغـاربهـا، والقيِّمُ على ذلك ومُصْلِحُه، وترك ذِكْرَ المغاربِ لدلالةِ الكلامِ عليه، واستغني بذكر المشارق من ذكرها، إذْ كان معلوماً أنَّ معها المغارب.

وقـولـه: «إنَّا زَيَّنا السَّماءَ الدنيا بزينَةِ الكَوَاكِبِ» اختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «بِـزِينَةِ الكَوَاكِبِ» فقرأته عامة قَرَأة المدينة والبصرة وبعض قَرَأة الكوفة «بزينةِ الكـواكبِ» بإضـافـةِ الزينةِ إلى الكواكب، وخفض الكواكب «إنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا» التي تليكم أيها الناسُ، وهي: الدنيا، إليكم بتزيينها الكواكبُ: أي بأنَّ زينتها الكواكب. وقرأ ذلك جماعة من قَرَأةِ الكوفة «بزِينَةٍ الكَواكبِ» بتنوين زينة، وخفض الكواكب ردّاً لها على الزينة، بمعنى: إنَّا زينا السماء الدنيا بزينةٍ هي الكواكبُ، كأنه قال: زيناها بالكواكبِ.

وأما القراءة فأعجبها إليَّ بإضافة الزينةِ إلى الكواكبِ وخفضِ الكواكب لصحةِ معنى ذلك في التأويل والعربية، وأنها قراءة أكثر قَرَأةِ الأمصار وإن كان التنوين في الزينة وخفض الكواكب عندي صحيحاً أيضا.

وقوله: «وَحِفْظاً»، يقول تعالى ذكره: وَحِفْظاً للسماءِ الدنيا زَيَّنَّاها بزينة الكواكب.

وتأويل الكلام: وحفظاً لها من كل شيطانٍ عاتٍ خبيثٍ زيناها.

وقوله: «لا يَسَّمَّعُونَ إلى المَلإِ الأعْلَى» اختلفت القَرَأةُ في قراءة قوله: «لا يسمعون»، فقرأ ذلك عامة قَرَأة المدينة والبصرة، وبعض الكوفيين: «لا يَسْمَعُونَ» بتخفيف السين من يسمعون، بمعنى أنهم يَتَسَمَّعُونَ ولا يسمعون. وقرأ ذلك عامة قَرَأة الكوفيين بعد لا يسمعون، بمعنى: لا يَتَسَمَّعون، ثم أدغموا التاء في السين فشدَّدُوهَا.

وأولى القراءتين في ذلك عندي بالصوابِ قراءةُ من قرأه بالتخفيف، لأنَّ الأخبارَ الواردةَ عن رسولِ الله ﷺ وعن أصحابه، أنَّ الشياطينَ قد تَتَسَمَّعُ الوحيَ، ولكنها تُرْمى بالشُّهُبِ لئلا تسمع[1].

فإنْ ظنَّ ظانٌّ أنه لما كان في الكلام «إلى»، كان التسمع أولى بالكلام من السمع، فإنَّ الأمرَ في ذلك بخلافِ ما ظَنَّ، وذلك أن العربَ تقول: سمعتُ فلاناً يقول كذا، وسمعت إلى فلانٍ يقول كذا، وسمعت من فلان.

---

(١) حديث الزهري عن علي بن الحسين، عن ابن عباس (وروي عن ابن عباس عن رجالٍ من الأنصار). أخرجه المؤلف، وهو عند الترمذي (٢٢٢٤) وقال: حسن صحيح. وحديث عائشة الذي ساقه المؤلف من رواية ابن وهب عن ابن لهيعة، عن أبي الأسود عن عروة، وهي رواية قوية على الرغم من ضعف ابن لهيعة لأنها من رواية ابن وهب عنه (انظر: تهذيب الكمال: ١٥/٤٩٤). كما ساق المؤلف عدداً من اقوال ابن عباس بهذا المعنى..

وتأويلُ الكلام: إنَّا زَيَّنَّا السماءَ الدنيا بزينة الكواكب. وحفظاً من كلِّ شيطانٍ مارد أنْ لا يسَّمَّع إلى الملإِ الأعلى، فحذفت «إن» اكتفاء بدلالة الكلام عليها.

ويعني بقوله: «إلى المَلإِ»: إلى جماعةِ الملائكةِ التي هم أعلى مِمَّنْ هُمْ دونَهم.

وقوله: «وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ دُحُوراً» ويُرْمَوْن من كلِّ جانبٍ من جوانبِ السماء دُحُوراً، والدحور: مصدر من قولك: دَحَرْتُه أدحَرُه دَحْراً ودُحوراً، والدَّحْر: الدَّفْعُ والإِبعادُ، يقال منه: ادْحَرْ عنكَ الشيطانَ: أي ادْفَعْهُ عنك وأبعده.

وقوله: «ولَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولهذه الشياطين المُسْتَرِقةِ السمعَ عذابٌ من الله «واصبٌ»، يقول: دائم خالص.

وقوله: «إلاَّ مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ»، يقول: إلا مَنِ استرقَ السمعَ منهم «فأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ»، يعني: مضيءٌ مُتَوَقِّدٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: فاستفتِ يا محمدُ هؤلاء المشركينَ الذين يُنكرون البعثَ بعد المماتِ والنشورَ بعد البلاءِ: يقول: فَسَلْهُمْ: أَهُمْ أشدُّ خَلْقاً؟ يقول: أخلقُهم أشدُّ؟ أم خَلْقُ مَنْ عَدَدْنا خَلْقَهُ من الملائكةِ والشياطين والسموات والأرض.

وقـولـه: «إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ»، يقول: إنا خلقناهم من طينٍ لاصق. وإنما وصفه جلّ ثناؤه باللُّزوبِ، لأنه ترابٌ مخلوطٌ بماء، وكذلك خَلْقُ ابنِ آدمَ من ترابٍ وماء ونار وهواء؛ والترابُ إذا خُلِطَ بماء صار طيناً لازباً.

وقوله: «بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ»، اختلفت القَرَأة في قراءة ذلك. فقرأته عامة قَرَأة الكوفة: «بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ» بضم التاء من عجبتَ، بمعنى: بل عَظُمَ عندي وكَبُرَ اتخاذُهم لي شريكاً، وتكذيبهم تنزيلي وهم يسخرون. وقرأ ذلـك عامـة قَرَأةِ المدينة والبصرة وبعض قَرَأة الكوفة «بَلْ عَجِبْتَ» بفتح التاء بمعنى: بل عجبتَ أنتَ يا محمدُ ويسخرون من هذا القرآنِ.

والصوابُ من القولِ في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان في قَرَأةِ الأمصارِ، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب.

فإن قال قائل: وكيف يكون مصيباً القارئُ بهما مع اختلافِ معنييهما؟ قيل: إنهمـا وإنْ اختلفَ مَعْنَيَاهُمَا فكلُّ واحدٍ من معنييه صحيحٌ، قد عجبَ محمدٌ مما أعطاهُ الله من الفضلِ، وسخرَ منه أهلُ الشركِ بالله، وقد عَجِبَ رَبُّنَا من عظيمِ ما قاله المشركونَ في الله، وسَخِر المشركونَ بما قالوه.

فإن قال: أكانَ التنزيلُ بإحداهما أو بكلتيهما؟ قيل: التنزيلُ بكلتيهما. فإنْ قال: وكيف يكونُ تنزيلُ حرف مَرَّتين؟ قيل: إنه لم ينزل مَرَّتين، إنما أنزل مرّةً، ولكنه أمر ﷺ أن يقرأ بالقراءتين كلتيهما، ولهذا مَوضع سنستقصي إنْ شاء الله فيه البيانَ عنه بما فيه الكفاية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ



يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا ذُكِّرَ هؤلاء المشركونَ حُجَجَ الله عليهم ليعتبروا

ويتفكروا، فَيُنِيبُوا إلى طاعةِ الله «لا يذكرون»، يقول: لا ينتفعونَ بالتذكيرِ فيتذكَّرُوا.

وقوله: «وَإِذَا رأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ»، يقول: وإذا رأوا حُجَّةً من حججِ الله عليهم، ودلالةً على نبوّةِ نبيه محمدٍ ﷺ يستسخرون: يقول: يسخرون ويستهزئون.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال هؤلاء المشركونَ من قُرَيش بالله لمحمد ﷺ: ما هذا الذي جئتنا به «إلّا سحرٌ مبينٌ»، يقول: يبينُ لمن تأمَّلَهُ ورآهُ أنه سحرٌ. «أئِذَا مِتْنا وكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ»، يقولون: منكرينَ بعثَ الله إياهم بعد بلائهم، أئنا لمبعوثونَ أحياءً مَن قبورنا بعد مماتنا، ومصيرنا تراباً وعظاماً، قد ذهبَ عنها اللحومُ «أوَ آباؤُنا الأوَّلُونَ» الذين مضوا مِنْ قَبْلِنَا، فبادوا وهلكوا. يقول الله لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ لهؤلاء: نعم أنتم مبعوثونَ بعد مصيرِكم تراباً وعظاماً أحياء كما كنتم قبل مماتكم، وأنتم داخرون.

وقوله: «وأنْتُم داخِرُونَ»، يقول تعالى ذكره: وأنتم صَاغِرُونَ أشدَّ الصَّغَر من قولهم: صاغر داخر.

وقوله: «فإنَّما هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فإذَا هُمْ يَنْظُرُونَ»، يقول تعالى ذكره: فإنما هي صيحة واحدة، وذلك هو النفخ في الصور «فاذَا هُمْ يَنْظُرُونَ»، يقول: فإذا هم شاخصةٌ أبصارهم ينظرون إلى ما كانوا يُوعَدُونَهُ من قيامِ الساعةِ ويعاينونه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝٢٠ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢١﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: وقال هؤلاء المشركون المكذِّبونَ إذا زُجِرَتْ زجرةً واحدة، ونُفِخَ في الصور نفخةً واحدة: «يَاوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ»، يقولون: هذا يومُ الجزاء والمحاسبة.

وقوله: «هَذَا يَوْمُ الفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بهِ تُكَذِّبُونَ»، يقول تعالى ذكره: هذا يومُ فصلِ اللهِ بين خَلْقِه بالعدلِ من قضائهِ الذي كنتم به تُكَذِّبُونَ في الدنيا فتنكرونه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝٢٣﴾

وفي هذا الكلام متروكٌ استغني بدلالةِ ما ذُكِرَ عما تُرِكَ، وهو: فيقال: احشروا الذين ظلموا، ومعنى ذلك اجْمَعُوا الذين كفروا بالله في الدنيا وعَصَوْه وأزواجَهم وأشياعَهم على ما كانوا عليه من الكفرِ بالله وما كانوا يعبدونَ من دونِ الله من الآلهة.

وقوله: «ومَا كانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فاهْدُوهُمْ إلى صِراطِ الجَحِيمِ»، يقول تعالى ذكره: احشروا هؤلاء المشركينَ وآلهتهم التي كانوا يعبدونها من دونِ الله، فوجِّهُوهم إلى طريقِ الجحيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ۝٢٤ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ۝٢٦ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَقِفُوهُمْ»: احبسوهم: أي احبسوا أيها الملائكةُ هؤلاء المشركينَ الذين ظلموا أنفسَهم وأزواجَهم، وما كانوا يعبدونَ من دونِ الله من الآلهة. «إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ»، فاختلف أهل التأويل في المعنى الذي يأمرُ الله تعالى ذِكْرُه بوقفِهم لمسألتِهم عنه، فقال بعضهم: يسألهم: هل يُعجبهم وُرُودُ النارِ.

وقال آخرون: بل ذلك للسؤال عن أعمالهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وقِفُوا هؤلاء الذين ظَلَمُوا أنفسَهم وأزواجَهم إنهم مسئولون عما كانوا يعبدون من دون الله.

وقوله: «ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ»، يقول: مالكم أيها المشركونَ بالله لا ينصرُ بعضُكم بعضاً. «بَلْ هُمُ اليَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ»، يقول: بل هم اليوم مستسلمون لأمرِ الله فيهم وقضائه، مُوقِنونَ بعذابه.

وقوله: «وأقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ»، قيل: معنى ذلك: وأقبلَ الإنسُ على الجنِّ يتساءلون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى ذكره: قالت الإنسُ للجنِّ: إنكم أيها الجنُّ كنتم تأتوننا من قِبَلِ الدينِ والحقِّ فتخدَعُونَنَا بأقوى الوجوه، واليمينُ: القوةُ والقدرةُ في كلام العرب.

وقوله: «قالُوا بَلْ لَمْ تكونُوا مُؤْمِنِينَ. ومَا كانَ لنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ»،

يقول تعالى ذِكْرُه: قالت الجنُّ للإنسِ مجيبةً لهم: بل لم تكونوا بتوحيدِ الله مُقِرِّينَ وكنتم للأصنامِ عابدين «وَمَا كانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ»، يقول: قالوا: وما كانَ لنا عليكم من حُجَّةٍ، فنصدَّكم بها عن الإيمان. ونحول بينكم من أجلها وبين اتباعِ الحقِّ «بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ»، يقول: قالوا لهم: بل كنتم أيها المشركونَ قوماً طاغينَ على الله، متعدِّينَ إلى ما ليسَ لكم التعدِّي إليه من معصيةِ الله وخلافِ أمره.

القَــوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِــهِ تَعَــالَى: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ۝٣١ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ۝٣٢ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝٣٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فحقَّ علينا قولُ رَبِّنَا، فَوَجَبَ علينا عذابُ ربنا، إنا لذائقونَ العذابَ نحنُ وأنتم بما قَدَّمْنَا من ذنوبنا ومعصيتنا في الدنيا، فهذا خبرٌ من الله عن قيلِ الجنِّ والإنس.

وقوله: «فأغْوَيْناكُمْ إنَّا كُنَّا غاوِينَ»، يقول: فأضللناكم عن سبيلِ الله والإيمانِ به إنَّا كنا ضالين، وهذا أيضاً خبرٌ من الله عن قِيلِ الجنِّ والإنسِ، قال الله: «فإنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي العَذَابِ مُشْتَرِكُونَ»، يقول: فإنَّ الإنسَ الذين كفروا بالله وأزواجهم، وما كانوا يعبدون من دون الله، والَّذين أَغْوَوا الإنس من الجنِّ يومَ القيامةِ في العذابِ مشتركونَ جميعاً في النار، كما اشتركوا في الدنيا في معصية الله.

«إنَّا كذلكَ نَفْعَلُ بالمُجْرِمينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنا هكذا نفعلُ بالذين اختاروا معاصيَ الله في الدنيا على طاعته، والكفرَ به على الإيمانِ، فنذيقهم العذابَ الأليم، ونجمع بينهم وبين قرنائِهم في النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونِۭ ۝٣٦ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإنَّ هؤلاء المشركينَ بالله الذين وَصَفَ صفتهم في هذه الآياتِ كانوا في الدنيا إذا قِيلَ لهم: قولوا: «لا إلهَ إلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ»، يقـول: يتعظَّمُونَ عن قِيلِ ذلك ويتكبرون، وترك من الكلام: قُولُوا، اكتفاءً بدلالةِ الكلامِ عليه من ذكره.

وقوله: «وَيَقُولُونَ أئِنَّا لتارِكُو آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ويقول هؤلاء المشركونَ من قريش: أنتركُ عبادةَ آلهتنا لشاعرٍ مجنون، يقول: لاتباعِ شاعرٍ مجنون، يعنون بذلك نبيَّ الله ﷺ، ونقول: لا إله إلا الله.

وقوله: «بَلْ جاءَ بالحَقِّ» وهذا خبرٌ من الله مكذِّباً للمشركينَ الذين قالوا للنبيِّ ﷺ: شاعـرٌ مجنـون، كَذَبُـوا، ما محمـدٌ كما وصَفُوهُ به من أنه شاعرٌ مجنون، بل هو لله نبيٌّ جاء بالحقِّ من عنده، وهو القرآن الذي أنزله عليه، «وصَدَّقَ المرسلين» الذين كانوا من قَبْلِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ۝٣٨ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ۝٤١﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه لهؤلاء المشركين من أهلِ مكة، القائلينَ لمحمدٍ: شاعـرٌ مجنون «إنَّكُمْ» أيها المشركونَ «لَذائِقُو العَذَابِ الأليمِ» الموجعِ في الآخرة «ومَا تُجْزَوْنَ»، يقول: وما تُثابون في الآخرة إذا ذقتم العذابَ الأليمَ فيها «إلَّا» ثوابَ «ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» في الدنيا، معاصيَ الله.

وقوله: «إلَّا عِبادَ الله المُخْلَصِينَ»، يقول: إلا عباد الله الذين أخلصهم يومَ خَلَقَهُمْ لرحمتـهِ، وكتبَ لهم السعـادةَ في أمِّ الكتـاب فإنهم لا يذوقـون العذابَ، لأنهم أهلُ طاعةِ الله، وأهلُ الإيمان به.

وقوله: «أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ»، يقول: هؤلاء هم عبادُ الله المخلَصُونَ لهم رزقٌ معلوم وذلك الرزقُ المعلوم: هو الفواكهُ التي خلقها اللهُ لهم في الجنة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾

قوله: «فَوَاكِهُ» ردّاً على الرزقِ المعلومِ تفسيراً له، ولذلك رفعت.

وقوله: «وَهُمْ مُكْرَمُونَ»، يقول: وهم مع الذي لهم من الرزقِ المعلومِ في الجنـة، مكـرمونَ بكرامةِ الله التي أكرمَهُمُ اللهُ بها «فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ»، يعني: في بسـاتين النعيم. «على سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ»، يعني: أنَّ بعضَهم يقابلُ بعضاً، ولا ينظر بعضهم في قفا بعضٍ.

وقـولـه: «يُطافُ عَلَيْهِمْ بكأسٍ مِنْ مَعِينٍ»، يقول تعالى ذكره: يطوفُ الخَدَم عليهم بكأسٍ من خمرٍ جاريةٍ ظاهرةٍ لأعينهم غير غائرة.

وقوله: «بَيْضَاءَ لَذَّةٍ للشَّارِبِينَ»، يعني بالبيضاء: الكأس، ولتأنيثِ الكأسِ أُنِّثَتِ البيضاءُ.

وقوله: «لَذَّةٍ للشَّارِبِينَ»، يقول: هذه الخمرُ لذّة يَلْتَذُّهَا شارِبُوها.

وقوله: «لا فِيها غَوْلٌ»، يقول: لا في هذه الخمرِ غَوْلٌ، وهو أنْ تغتالَ

عقولهم: يقول: لا تذهب هذه الخمرُ بعقولِ شاربيها. كما تذهبُ بها خمورُ أهلِ الدنيا إذا شربوها فأكثروا منها.

وقد يحتمل قوله: «لا فِيها غَوْلٌ» أن يكون معنياً به: ليس فيها ما يُؤْذِيهم من مكروه، وذلك أنَّ العربَ تقولُ للرجل يصابُ بأمرٍ مكروهٍ، أو يُنَالُ بداهيةٍ عظيمة: غالَ فلاناً غُولٌ.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «وَلا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ» فقرأته عامة قَرَأَة المدينة والبصرة وبعض قَرَأَة الكوفة «يُنْزَفُونَ» بفتح الزاي، بمعنى: ولا هُمْ عن شُرْبها تُنْزَف عقولهم. وقرأ ذلك عامة قَرَأَة الكوفة «وَلا هُمْ عَنْها يُنْزِفُونَ» بكسر الزاي، بمعنى: ولا هم عن شربها يَنْفَد شرابُهم.

والصواب من القولِ في ذلك أنهما قراءتان معروفتان صحيحتا المعنى غير مُخْتَلِفَتَيْه، فبأيتهما قرأ القارئُ فمصيبٌ، وذلك أنَّ أهلَ الجنة لا ينفدُ شرابهم، ولا يُسْكِرُهم شربهم إياه، فيُذهِب عقولَهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ۝٤٨ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ۝٤٩ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٥٠﴾

يقول تعالى ذكره: وعند هؤلاء المخلَصين من عبادِ الله في الجنة قاصراتُ الطرفِ، وهُنَّ النساءُ اللواتي قَصَرْن أطرافهنَّ على بُعُولتهنَّ، ولا يُرِدْن غيرهم، ولا يَمْدُدْن أبصارهنَّ إلى غيرهم.

وقوله: «عِينٌ»، يعني بالعِين: النُّجْلَ العيونِ عِظامُها، وهي جمع عيناء، والعيناءُ: المرأةُ الواسعةُ العينِ عظيمتها، وهي أحسنُ ما تكون من العيون.

وقوله: «كأنَّهُنَّ بَيضٌ مَكْنُونٌ»، اختلف أهلُ التأويلِ في الذي به شُبِّهْنَ من البيض بهذا القول، فقال بعضهم: شُبِّهْنَ ببطنِ البيضِ في البياض، وهو

الذي داخل القِشْرِ، وذلك أن ذلك لم يمسَّه شيءٌ.

وقال آخرون: بل شُبهن بالبيض الذي يحضنه الطائرُ، فهو إلى الصفرةِ، فشبه بياضهنَّ في الصفرة بذلك.

وقال آخرون: بل عنى بالبيض في هذا الموضع: اللؤلؤ، وبه شُبِّهْنَ في بياضِه وصفائه.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصوابِ عندي قولُ مَنْ قال: شبهن في بياضهن، وأنهنَّ لم يَمَسَّهُنَّ قبلَ أزواجهنَّ إنسٌ ولا جانٌّ ببياضِ البيضِ الذي هو داخل القشر، وذلك هو الجلدةُ المُلْبَسة المُخّ قبل أنْ تمسه يَدٌ أو شيءٌ غيرها، وذلك لا شكَّ هو المكنونُ؛ فأما القشرة العليا فإنَّ الطائرَ يمسها، والأيدي تُباشِرُهَا، والعُشُّ يلقاها. والعربُ تقول لكلِّ مَصُونٍ مكنونٌ ما كان ذلك الشيءُ لؤلؤاً كانَ أو بيضاً أو متاعاً.

وقوله: «فأقبلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فأقبلَ بعضُ أهلِ الجنة على بعضٍ يتساءلون، يقول: يسأل بعضُهم بعضاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قالَ قائلٌ من أهلِ الجنة إذْ أقبلَ بعضُهم على بعض يتساءلون «إني كانَ لي قَرِينٌ». وكان ذلك القرينُ شيطاناً أو شريكاً كانَ له من بني آدم، أو صاحباً، وهو الذي كان يقولُ له: «أئنَّكَ لَمِنَ المُصَدِّقينَ»، يعني: أتصدقُ بأنك تُبعثُ بعدَ مماتكَ، وتُجْزَى بعملك، وتحاسب؟[1].

---

(١) لا نشك أنه وقع سقط كبير من كلام المؤلف في تفسير هذه الآية، ولكننا عرفنا اختياره مما بقي منه فأثبتناه.

وقـولـه: «أَئِنَّا لَمَدِينُونَ»، يقول: أَئِنَّا لمحاسبون ومجزيُّون بعد مصيرنا عظاماً ولحومنا تراباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾

يقول تعالى ذكره: قال هذا المؤمنُ الذي أُدخلَ الجنةَ لأصحابه: «هل أنتم مُطَّلِعـون» في النـار، لعلِّي أرى قريني الذي كان يقول لي: إنك لمن المصَدِّقينَ بأنَّا مبعوثونَ بعد المماتِ.

وقوله: «فاطَّلَعَ فَرآهُ فِي سَوَاءِ الجَحِيمِ»، يقول: فاطلع في النارِ فرآه في وسَط الجحيم. وفي الكلام متروكٌ استغني بدلالةِ الكلامِ عليه من ذكره، وهو فقالوا: نعم.

وقوله: «تاللهِ إنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ»، يقول: فلما رأى قرينَهُ في النار قال: تالله إنْ كدت في الدنيا لتهلكني بصدِّكَ إيايَ عن الإيمانِ بالبعثِ والثوابِ والعقاب.

وقوله: «وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبّي لَكُنْتُ مِنَ المُحْضَرِينَ»، يقول: ولولا أنَّ اللهَ أنعمَ عليَّ بهدايته، والتوفيق للإيمانِ بالبعثِ بعد الموتِ، لكنتُ من المحضَرين معكَ في عذاب الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ هذا المؤمنِ الذي أعطاهُ الله ما أعطاهُ من كرامتـهِ في جنته سروراً منه بما أعطاهُ فيها «أفَمَا نَحْنُ بمَيِّتِينَ إلاَّ مَوْتَتَنا الأُولى»، يقـول: أفمـا نحن بميتين غيرَ موتتنا الأولى في الدنيا، «ومَا نَحْنُ بِمُعَـذَّبِينَ»، يقـول: وما نحن بمعذّبين بعد دخولنا الجنةَ «إنَّ هَذا لَهُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ»، يقول: إنَّ هذا الذي أعطانَاهُ اللهُ من الكرامةِ في الجنة، أنَّا لا نُعَذَّبُ ولا نموتُ، لهو النَّجاءُ العظيم مما كنا في الدنيا نَحْذَرُ من عقابِ الله، وإدراكِ ما كنا فيها، نُؤَمِّلُ بإيماننا، وطاعتنا رَبَّنا.

وقـوله: «لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ العامِلونَ»، يقول تعالى ذكره: لمثل هذا الـذي أعْـطَيتُ هؤلاء المؤمنينَ من الكـرامـةِ في الآخـرة، فليعملْ في الدنيا لأنفسِهم العاملونَ، ليدركوا ما أدركَ هؤلاء بطاعةِ رَبِّهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝٦٢ إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ ۝٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۝٦٥ فَإِنَّهُمْ لَـَٔاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٦٦﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: أهذا الذي أعطيتُ هؤلاء المؤمنين الذين وصفتُ صِفَتَهم من كرامتي في الجنة، ورزقتهم فيها من النعيمِ خيرٌ، أو ما أعددتُ لأهلِ النارِ من الزَّقُّوم. وعُنِي بالنزل: الفضل.

وقوله: «أمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ» ذُكِرَ أنَّ الله تعالى لما أنزلَ هذه الآيةَ قال المشركونَ: كيف ينبتُ الشجرُ في النار، والنار تُحْرِقُ الشجرَ؟ فقال الله: «إنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً للظَّالِمينَ»، يعني لهؤلاء المشركينَ الذين قالوا في ذلك ما قالوا، ثم أخبرهم بصفةِ هذه الشجرة فَقالَ: «إنَّها شَجَرَة تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الجَحِيمِ».

وقوله: «طَلْعُها كأنَّهُ رُؤوسُ الشَّياطِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: كأنَّ طَلْعَ هذه

الشجرةِ، يعني شجرةَ الزقومِ في قُبحِهِ وسماجتهِ رؤوس الشياطين في قُبحها.

فإنْ قال قائل: وما وجهُ تشبيهه طَلْعَ هذه الشجرةِ برؤوسِ الشياطين في القُبْحِ، ولا عِلْمَ عندنا بمبلغِ قُبْحِ رؤوسِ الشياطين، وإنما يمثَّلُ الشيءُ بالشيءِ تعريفاً من المُمثِّل المُمثَّل له قربَ اشتباهِ الممثَّل أحدهما بصاحبِهِ مع معرفة المُمَثَّل له الشيئينِ كِلَيْهِمَا، أو أحدهما، ومعلومٌ أنَّ الذين خُوطِبُوا بهذه الآيةِ من المشركينَ، لم يكونوا عارفينَ شَجَرةَ الزقوم، ولا برؤوسِ الشياطين، ولا كانوا رأوهما، ولا واحداً منهما؟

قيل له: أما شجرةُ الزقوم فقد وصفها الله تعالى ذِكْرُه لهم وبَيَّنَهَا حتى عَرَفُوهَا ما هي وما صفتها، فقال لهم: «شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الجَحِيمِ طَلْعُها كأنَّـهُ رُؤُوسُ الشَّياطِينِ» فلم يتـركهم في عَمـاءٍ منها، وأما في تمثيله طَلْعَها برؤوسِ الشياطين، فأقولُ لكلٍّ منها وجهٌ مفهوم: أحدها: أن يكونَ مَثَّلَ ذلك برؤوسِ الشياطين على نحو ماقد جَرَى به استعمالُ المخاطبين بالآية بينهم، وذلك أنَّ استعمالَ الناس قد جرى بينهم في مبالغتهم إذا أراد أحدهم المبالغةَ في تقبيحِ الشيءِ، قال: كأنه شيطانٌ، فذلك أحدُ الأقوال. والثاني: أن يكون مُثِّل برأسِ حيةٍ معروفةٍ عند العربِ تسمى شيطاناً، وهي حية لها عُرْفٌ فيما ذُكر قبيحُ الوجهِ والمنظر.

والثـالث: أنْ يكون مثَلَ نبتٍ معروفٍ برؤوس الشياطين ذُكِر أنه قبيحُ الـرأس. «فإنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها فَمالِئُونَ منها البُطُونَ»، يقول تعالى ذكره: فإنَّ هؤلاء المشـركين الـذين جعـل الله هذه الشجرةَ لهم فتنةً، لآكلونَ من هذه الشجرةِ التي هي شجرةُ الزَّقوم، فمالئونَ من زَقُّومها بطونَهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعـالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ

﴿يُهۡرَعُونَ ۝٧٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ثُمَّ إنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ» ثم إنَّ لهؤلاءِ المشركينَ على ما يأكلون من هذه الشجرةِ شجرةِ الزقوم شَوْباً، وهو الخَلْط من قولِ العربِ: شابَ فلانٌ طعامَهُ فهو يشوبه شَوْباً وشياباً «مِنْ حَمِيمٍ» والحميم: الماءُ المحموم، وهو الذي أُسْخِنَ فانتهى حَرُّهُ، وأصله مفعول صُرف إلى فعيل.

وقوله: «ثُمَّ إنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإلى الجَحِيمِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ثم إنَّ مآبَهُمْ ومصيرَهُمْ لإلى الجحيم.

وقوله: «إنَّهُمْ ألْفَوْا آباءَهُمْ ضَالينَ»، يقول: إنَّ هؤلاء المشركين الذين إذا قيل لهم: قولـوا لا إلـه إلا الله يستكبـرون، وجدوا آباءهم ضُلاَّلاً عن قصدِ السبيل، غير سالكين مَحَجَّـةَ الحقِّ. «فَهُمْ على آثـارِهِمْ يُهْرَعُونَ»، يقول: فهؤلاء يُسْرع بهم في طريقهم، ليقتفوا آثارهم وسنتهم، يقال منه: أُهْرِع فلان: إذا سار سيراً حثيثاً فيه شبه بالرعدة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٧١ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ۝٧٢ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ۝٧٣ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٧٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد ضلَّ يا محمدُ عن قَصْدِ السبيل ومَحجة الحقِّ قبل مشركي قومكَ من قريش أكثرُ الأممِ الخاليةِ مِنْ قَبْلِهم «وَلَقَدْ أرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ»، يقول: ولقد أرسلنا في الأمم التي خلت من قبل أمتك، ومن قبلِ قومكَ المُكَذِّبيكَ منذرينَ تنذرهم بأسَنا على كُفْرِهم بنا، فَكَذَّبوهم ولم يقبلوا منهم نصـائحهم، فأحللنـا بهم بأسَنـا وعقـوبتنـا. «فـانْـظُرْ كيْفَ كانَ عاقبـةُ

المُنْـذَرِينَ»، يقول: فتأملْ وتَبَيَّنْ كيف كان غِبُّ أمرِ الذين أنْذَرَتْهُمْ أنبياؤُنا، وإلاَمَ صار أمْرُهُمْ، وما الذي أعقبهم كُفْرُهُمْ بالله، ألم نُهْلكهم فَنُصَيِّرَهُمْ للعبادِ عِبرةً ولِمَنْ بعدَهُمْ عِظة؟

وقوله: «إلَّا عِبادَ اللهِ المُخْلَصِينَ»، يقول تعالى: فانظر كيف كان عاقبةُ المُنْذَرينَ، إلا عبادَ الله الذين أخلصناهم للإيمانِ بالله وبرسله، واستثنى عبادَ الله من المنذَرين، لأنَّ معنى الكلام: فانظر كيف أهلكنا المنذَرينَ إلا عبادَ الله المؤمنين، فلذلك حسن استثناؤهم منهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ۝٧٥ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٦ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ۝٧٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لقد نادانا نوحٌ بمسألته إيَّانا هلاكَ قومِهِ، فقال: «رَبِّ إنِّي دَعَوْتُ قَوْمي لَيْلاً ونهاراً، فَلَمْ يَزِدْهُم دُعائي إلَّا فِراراً»... إلى قوله: «ربِّ لا تَذَرْ على الأرْضِ مِنَ الكافِرِينَ دَيَّاراً».

وقـولـه: «فَلَنِعْمَ المُجِيبُونَ»، يقول: فَلَنِعْمَ المجيبونَ كُنَّا له إذ دعانا، فأجَبْنَا له دعاءَهُ، فأهلكنا قومَهُ. «ونَجَّيْناهُ وأهْلَهُ»، يعني: أهلَ نوحٍ الذين ركبوا معه السفينة.

وقوله: «مِنَ الكَرْبِ العَظِيمِ»، يقول: من الأذى والمكروهِ الذي كان فيه من الكافرينَ، ومن كربِ الطُّوفانِ والغرقِ الذي هَلَكَ به قومُ نوح.

وقوله: «وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الباقِينَ»، يقول: وجعلنا ذرِّيةَ نوحٍ هم الذين بقوا في الأرض بعدَ مَهْلِكِ قومه، وذلك أنَّ الناس كلهم من بعد مَهْلِك نوح إلى اليوم إنما هم ذرِّيةُ نوح.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ۝٧٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٩ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٠ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨١ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ۝٨٢﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ» وأبقينا عليه، يعني على نوحٍ ذكراً جميلاً، وثناء حسناً في الآخِرين، يعني: فيمن تأخَّرَ بعده من الناسِ يذكرونه به.

وقوله: «سَلامٌ عَلى نُوحٍ في العَالمينَ»، يقول: أَمَنَةً من اللهِ لنوحٍ في العالمين أن يَذْكُره أحدٌ بسوء.

وقوله: «إنَّا كَذلكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ»، يقول تعالى ذكره: إنَّا كما فعلنا بنوحٍ مجازاةً له على طاعتنا وصبره على أذى قومهِ في رِضَانا «فأَنْجَيْناهُ وأَهْلَهُ مِنَ الكَرْبِ العَظِيمِ، وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الباقِينَ»، وأبقينا عليه ثناءً في الآخرين «كَذلكَ نَجْزِي» الذين يُحْسنون فيطيعوننا، وينتهون إلى أمرنا، ويصبرونَ على الأذى فينا.

وقوله: «إنَّهُ مِنْ عِبادِنا المُؤْمِنِينَ»، يقول: إنَّ نوحاً من عبادنا الذين آمنوا بنا، فَوَحَّدُونَا، وأَخْلَصُوا لنا العبادةَ، وأفردونا بالألوهةِ.

وقوله: «ثُمَّ أغْرَقْنا الآخَرِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ثم أغرقنا حين نجَّينا نوحاً وأهله من الكربِ العظيم مَنْ بَقِيَ من قومه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ۝٨٣ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٤ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۝٨٥ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإنَّ من أشياعِ نوحٍ على مِنهاجه ومِلَّتِهِ لإبراهيمَ خليلَ الرحمن.

وقوله: «إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إذ جاء إبراهيمُ ربَّهُ بقلبٍ سليمٍ من الشرك، مُخْلِصٍ له التوحيدَ.

وقوله: «إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ماذَا تَعْبُدُونَ»، يقول حين قال: يعني إبراهيمُ لأبيهِ وقومه: أيّ شيءٍ تعبدون.

وقوله: «أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ؟»، يقول: أكَذِباً معبوداً غيرَ الله تُريدون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قيلِ إبراهيمَ لأبيهِ وقومه: «فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ العَالمينَ»؟ يقول: فأي شيءٍ تظنون أيها القومُ أنه يصنعُ بكم إنْ لقيتموه وقد عَبَدْتُمْ غيرَهُ.

وقوله: «فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقالَ إنّي سَقِيمٌ» ذُكِرَ أنَّ قومه كانوا أهلَ تنجيمٍ، فرأى نجماً قد طلع، فَعَصَبَ رأسَهُ وقال: إني مَطْعُونٌ، وكان قومُه يهربُون من الطاعونِ، فأرادَ أنْ يتركوه في بيت آلهتهم، ويخرجوا عنه، ليخالفهم إليها فيكسرها.

وقوله: «فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرينَ»، يقول: فتولوا عن إبراهيمَ مُدْبِرينَ عنه، خوفاً من أن يعدِيَهُم السقمُ الذي ذُكِرَ أنه بهِ.

وقوله: «فَرَاغَ إلى آلِهَتِهِمْ»، يقول تعالى ذكره: فمالَ إلى آلهتهم بعدما خَرَجُوا عنه وأدبروا، ورأى أنَّ أصلَ ذلك من قولهم: راغَ فلانٌ عن فلان: إذا حادَ عنه، فيكون معناه إذا كان كذلك: فَرَاغَ عن قومِهِ والخروجِ معهم إلى آلهتهم. أما أهلُ التأويل فإنهم فَسَّرُوه بمعنى: فمالَ.

وقوله: «فَقَالَ ألا تَأكُلُونَ. مالَكُمْ لا تَنْطِقُونَ» هذا خبرٌ من اللهِ عن قِيلِ إبراهيمَ للآلهةِ، وفي الكلامِ محذوفٌ استغني بدلالةِ الكلام عليه من ذكره، وهو: فَقَرَّبَ إليها الطعامَ فلم يَرَهَا تأكل، فقال لها: «ألا تَأْكُلُونَ» فلما لم يَرَهَا تأكـلُ قال لهـا: مالكم لا تأكلونَ، فلم يَرَهَـا تنـطقُ، فقال لها: «مالَكُمْ لا تَنْطِقُونَ» مستهزئاً بها، وكذلك ذُكِرَ أنه فعل بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ۝٩٣ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ۝٩٤ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فمالَ على آلهةِ قومهِ ضرباً لها باليمينِ بفأسٍ في يده يكسرهنَّ.

وقـولـه: «فـأَقْبَلُوا إلَيْهِ يَزِفُّـونَ»، اختلف أهـلُ التأويل في معناه، فقال بعضهم: معناه: فأقبل قوم إبراهيم إلى إبراهيم يَجْرُون.

وقال آخرون: أقبلوا إليه يَمْشُون.

وقال آخرون: معناه: فأقبلوا يستعجلون.

وقوله: «قالَ أتَعْبُدونَ ما تَنْحِتُونَ»، يقول تعالى ذكره: قال إبراهيمُ لقومه: أتعبدون أيها القومُ ماتنحتون بأيديكم من الأصنام.

وقـوله: «وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ إبراهيمَ لقومهِ: واللهُ خلقكم أيها القوم وما تعملون.

وفي قوله: «وَمَا تَعْمَلُونَ» وجهان: أحدهما: أن يكون قوله «ما» بمعنى المصدر، فيكون معنى الكلام حينئذٍ: والله خلقكم وعملكم. والآخر: أنْ يكون بمعنى الذي، فيكون معنى الكلام عند ذلك: والله خلقكم والذي تَعْمَلُونه: أي والذي تعملونَ منه الأصنامَ، وهو الخشبُ والنحاسُ والأشياءُ التي كانوا ينحِتُونَ منها أصنامَهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ۝٩٧ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ۝٩٨ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٩٩ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۝١٠٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال قومُ إبراهيمَ لما قالَ لهم إبراهيمُ: «أتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ واللهُ خَلَقَكُمْ ومَا تَعْمَلُونَ» ابْنُوا لإبراهيمَ بُنياناً، ذُكِرَ أنهم بنوا له بنياناً يشبه التَّنُور، ثم نَقَلُوا إليه الحطبَ، وأوقدوا عليه «فألْقُوهُ في الجَحِيمِ» والجحيمُ عند العرب: جَمْرُ النارِ بعضهُ على بعضٍ، والنارُ على النار.

وقوله: «فأَرَادُوا بِهِ كَيْداً»، يقول تعالى ذكره: فأراد قومُ إبراهيمَ بإبراهيمَ كيداً، وذلك ما كانوا أرادوا من إحراقهِ بالنار، يقول الله: «فَجَعَلْناهُم» أي: فجعلنا قومَ إبراهيم «الأسْفَلِين»، يعني: الأذلِّينَ حُجَّة، وغَلَّبنا إبراهيمَ عليهم بالحجةِ، وأنقذناه مما أرادوا به من الكيد.

وقوله: «وقَالَ إنّي ذَاهِبٌ إلى رَبّي سَيَهْدِينِ»، يقول: وقال إبراهيم لما أفْلَجَه اللهُ على قومه ونَجَّاهُ من كيدهم «إني ذاهِبٌ إلى رَبّي»، يقول: إني مهاجِرٌ من بلدةِ قومي إلى الله: أي إلى الأرضِ المقدَّسةِ ومُفَارِقُهم، فمعتزِلُهم لعبادةِ الله.

وقوله: «رَبِّ هَبْ لي مِنَ الصَّالِحِينَ» وهذا مسألةُ إبراهيمَ رَبَّهُ أنْ يرزقه

ولداً صالحاً، يقول: قال: يارِبِّ هَبْ لي منك ولداً يكونُ من الصالحينَ الذين يطيعونكَ، ولا يعصُونكَ، ويصلحون في الأرض، ولا يفسدون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٠٢﴾

يقول تعالى ذكره: فبشَّرْنَا إبراهيمَ بغلامٍ حليم، يعني بغلامٍ ذي حِلْم إذا هو كَبِرَ، فأما في طفولته في المهد، فلا يُوصَفُ بذلك، وذُكر أنَّ الغلامَ الذي بَشَّر الله به إبراهيم إسحاق[1].

---

(١) هذا رأي تبناه المؤلف وقال به متابعة لِنَقَلَةِ الإسرائيليات، وفيه نظرٌ شديد، فقد رَدَّهُ شيخُ الإسلام الإمام ابن تيمية وذكر أن هذا القول متلقىً من أهل الكتاب مع أنه باطلٌ في كتابهم، فإنَّ فيه أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه البكر، وفي لفظ: «وحيده» وقد حَرَّفُوا ذلك في التوراة التي بأيديهم. ورَدَّهُ أيضاً تلميذهُ العلامةُ ابن قيِّم الجوزية في كتابه «الهدي النبوي» وقال: إسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومَن بعدهم، وأما القول بأنه إسحاق فمردودٌ بأكثر من عشرين وجهاً.

وقال تلميذه الآخر العلامة ابن كثير في تفسيره عند تفسير هذه الآية: وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام، فإنه أول ولدٍ بُشِّرَ به إبراهيمُ عليه السلام، وهو أكبر من اسحاق باتفاقِ المسلمين، وأهلِ الكتابِ. وقال: بل في نَصِّ كتابهم أنَّ إسماعيلَ عليه السلام ولد ولإبراهيمَ عليه السلام ستٌّ وثمانون سنة، ووُلِد إسحاق وعمرُ إبراهيم عليه الصلاة والسلام تسعٌ وتسعون سنة. قال: وإنما أقحموا (يعني: اليهود) إسحاق لأنه أبوهم، وإسماعيل أبو العرب، فحسدوهم، فزادوا ذلك، وحرفوا «وحيدك» بمعنى «الذي ليس عندك غيره» ـ فإن إسماعيل كان ذُهِبَ به وبأمه إلى مكة ـ وهو تأويلٌ وتحريفُ باطل، فإنه لا يقال «وحيدك» إلا لمن ليس له غيره.

وقال أيضاً: «وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو اسحاق وحُكي =

وقوله: «فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ»، يقول: فلما بلغَ الغلامُ الذي بُشِّرَ به إبراهيمُ معَ إبراهيم العملَ، وهو السعي، وذلك حين أطاقَ معونته على عمله.

وقوله: «قالَ يا بُنَيَّ إنِّي أرَى فِي المَنامِ أنّي أذْبَحُكَ»، يقول تعالى ذكره: قالَ إبراهيمُ خليلُ الرحمن لابنه: «يا بُنَيَّ إنِّي أرَى فِي المَنامِ أنّي أذْبَحُكَ»، وكان فيما ذكر أنَّ إبراهيمَ أنذر حين بشَّرته الملائكةُ بإسحاقَ ولداً أنْ يجعله إذا ولدته سارّة للهِ ذبيحاً؛ فلما بلغ إسحاقُ مع أبيه السَّعْيَ أُرِيَ إبراهيمُ في المنام، فقيلَ له: أوفِ للهِ بنذركَ، ورؤيا الأنبياءِ يقينٌ، فلذلك مضى لما رأى في المنام، وقال له ابنه إسحاق ما قال.

قوله: «فانْظُرْ ماذَا تَرَى»، يعني: ماذا ترى من الرأي.

فإنْ قال قائلٌ: أَوَ كانَ إبراهيمُ يُؤَامِرُ ابنه في المُضِيِّ لأمرِ الله، والانتهاءِ

= ذلك عن طائفة من السلف، حتى نُقِل عن بعض الصحابة أيضاً. ثم قال: وليس ذلك في كتاب ولا سنة، وما أظن ذلك تُلُقِّيَ إلا عن أحبارِ أهلِ الكتاب، وأُخذ ذلك مُسَلَّماً من غير حجةٍ... وهذا كتابُ الله شاهدٌ ومرشد إلى أنه إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بغلام حليم، وذكر أنه الذبيح، ثم قال بعد ذلك «وبشرناه باسحاقَ نبياً من الصالحين»، ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا: «إنا نبشرك بغلام عليم».

وقال العلامة ابن كثير في قوله تعالى عن امرأة ابراهيم عليه السلام فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب (هود: ٧١) أي: بولدٍ لها يكون له ولَدٌ وعقب ونسلٌ، فإنَّ يعقوب ولد إسحاق... ومن ها هنا استدل من استدل بهذه الآية على أنَّ الذبيح إنما هو إسماعيل، وأنه يمتنعُ أنْ يكون هو إسحاق، لأنه وقعت البشارةُ به، وأنه سيولد له يعقوب. قال: فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ولم يولد له بعدُ يعقوب الموعود بوجوده، ووعدُ الله حَقٌّ لا خُلْفَ فيه؟ قال: فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه. قال: فتعيَّنَ أنْ يكون هو إسماعيل. وهذا من أحسنِ الاستدلال وأَصَحِّهِ وأَبْيَنِه.

وقد رَدَّ المؤلف الطبري على بعض هذا فيما يأتي من تفسيره، لكن أكثر المفسرين لم يذهبوا مذهبه.

إلى طاعته؟ قيل: لم يكن ذلك منه مشاورةً لابنه في طاعةِ الله، ولكنه كان منه ليعلمَ ما عندَ ابنه من العَزْمِ: هل هو من الصبرِ على أمرِ الله على مِثْلِ الذي هو عليه، فيسرّ بذلك أم لا، وهو في الأحوال كلها ماضٍ لأمرِ الله.

وقوله: «قالَ يا أبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ»، يقول تعالى ذكره: قال إسحاقُ لأبيهِ: يا أبتِ افعـلْ ما يأمـرك به رَبُّـكَ من ذبحي. «سَتَجِدُنِي إنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ»، يقول: ستجدني إنْ شاء الله صابراً من الصابرينَ لما يأمرنا به رَبُّنَا، وقال: افعلْ ما تؤمر، ولم يَقُلْ: ما تؤمرُ بهِ، لأنَّ المعنى: افعلِ الأمرَ الذي تُؤمَرُهُ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾

يقول تعالى ذكره: فلما أسلما أَمْرَهُمَا للهِ وفَوَّضَاهُ إليه واتفقا على التسليمِ لأمرهِ والرضا بقضائهِ.

وقوله: «وَتَلَّهُ للْجَبِينِ»، يقول: وصَرَعَهُ للجَبين، والجبينانِ ما عن يمينِ الجبهةِ وعن شمالها، وللوجه جبينان، والجبهةُ بينهما.

وقـوله: «ونَادَيْناهُ أنْ يا إبْراهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرؤْيا»، وهذا جواب قوله: «فَلَمَّا أسْلَما»، ومعنى الكلام: فلما أسلما وتَلَّهُ للجبينِ. وناديناه أنْ يا إبراهيم.

ويعني بقوله: «قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا» التي أريناكَهَا في منامكَ بأمْرِنَاكَ بذبحِ ابنكَ.

وقوله: «إنَّا كَذلكَ نَجْزي المُحْسِنِينَ»، يقول: إنا كما جَزَيْنَاكَ بطاعتنا يا إبراهيم، كذلك نجزي الذين أحسنوا، وأطاعوا أمرَنَا، وعملوا في رِضَانا.

وقوله: «إِنَّ هَذَا لَهُوَ البَلاءُ المُبِينُ»، يقول تعالى ذكره: إنَّ أمرنَا إياكَ يا إبراهيمُ بذبحِ ابنك إسحاق، «لَهُوَ البلاءُ»، يقول: لهو الاختبارُ الذي يبينُ لمن فكَّرَ فيه أنه بلاءٌ شديدٌ ومِحْنةٌ عظيمة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝١٠٧ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْأَخِرِينَ ۝١٠٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١١٠ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١١﴾

وقوله: «وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ»، يقول: وفدينا إسحاقَ بذبحٍ عظيمٍ، والفديةُ: الجزاءُ، يقول: جزيناه بأنْ جعلنا مكانَ ذبحهِ ذبحَ كبشٍ عظيم، وأنقذناهُ من الذبح.

واختلف أهلُ التأويل في المَفْدِيِّ من الذَّبح من ابني إبراهيم، فقال بعضهم: هو إسحاق.

وقال آخرون: الذي فُدِيَ بالذِّبحِ العظيمِ من بني إبراهيم: إسماعيل.

وأوْلى القولين بالصواب في المفْدِيِّ من ابني إبراهيم خليل الرحمن على ظاهرِ التنزيل قولُ مَنْ قال: هو إسحاق، لأنَّ الله قال: «وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ» فذكر أنه فَدَى الغلامَ الحليمَ الذي بُشِّرَ به إبراهيمُ حين سأله أنْ يَهَبَ له ولداً صالحاً من الصالحين، فقال: «رَبِّ هَبْ لي مِنَ الصَّالِحِينَ» فإذا كان المفديُّ بالذبح من ابنيه هو المبشّرُ به، وكان الله تبارك اسمه قد بَيَّنَ في كتابه أنَّ الذي بُشِّر به هو إسحاق، ومن وراءِ إسحاقَ يعقوب، فقال جَلَّ ثناؤه: «فَبَشَّرْنَاهُ بإسحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إسحَاقَ يَعْقُوبَ» وكان في كل موضعٍ من القرآن ذِكر تبشيره إياه بولدٍ، فإنما هو معنيٌّ به إسحاق، كان بيِّناً أنَّ تبشيرَهُ إياه بقوله: «فَبَشَّرْنَاهُ بغُلامٍ حَلِيمٍ» في هذا الموضع نحو سائرِ أخبارِه في غيرِه من آياتِ القرآن.

وبعد: فإنَّ الله أخبر جَلَّ ثناؤه في هذه الآيةِ عن خليلهِ أنه بَشَّرَهُ بالغلامِ الحليمِ عن مسألتهِ إياهُ أنْ يَهَبَ له من الصالحينَ، ومعلومٌ أنه لم يسأله ذلك إلا في حالٍ لم يكنْ له فيه ولدٌ من الصالحينَ لأنه لم يكن له من ابنيه إلا إمامُ الصالحين، وغير موهومٍ منه أن يكونَ سألَ رَبَّهُ في هِبَة ماقد كان أعطاهُ ووهبـه له. فإذْ كان ذلك كذلك، فمعلومٌ أن الذي ذكر تعالى ذِكْرُه في هذا الموضع هو الذي ذُكِرَ في سائر القرآنِ أنه بَشَّرَهُ به وذلك لاشَكَّ أنه إسحاق، إذْ كان المفديُّ هو المبشَّرُ به. وأما الذي اعتلَّ به مَنِ اعتلَّ في أنه إسماعيل أن الله قد كان وَعَدَ إبراهيمَ أنْ يكونَ له من إسحاقَ ابنُ ابنٍ، فلم يكن جائزاً أنْ يأمره بذبحهِ مع الوعدِ الذي قد تَقَدَّمَ، فإنَّ الله إنما أمره بذبحهِ بعد أنْ بلغَ معه السعيَ، وتلك حالٌ غير ممكنٍ أنْ يكونَ قد وُلد لإسحاقَ فيها أولادٌ، فكيف الواحد؟ وأما اعتلالُ مَنِ اعتلَّ بأن الله أتبع قصة المفديِّ من ولد إبراهيم بقوله: «وَبَشَّرْناهُ بإسحَاقَ نَبِياً» ولو كان المفديُّ هو إسحاقَ لم يُبَشَّرْ به بعد، وقد وُلِدَ، وبلغ معـه السعيَ، فإنَّ البشارة بنبوَّةِ إسحاقَ من الله فيما جاءت به الأخبارُ جاءت إبراهيمَ وإسحاقَ بعد أن فُدِيَ تكرمةً من اللهِ له على صبرهِ لأمرِ ربه فيما امتحنَهُ به من الذبح.

وقوله: «وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ»، يقول تعالى ذكره: وأبقينا عليه فيمن بعده إلى يومِ القيامة ثناءً حسناً.

وقوله: «سَلامٌ على إبْرَاهِيمَ»، يقول تعالى ذكره: أَمَنَةً من اللهِ في الأرضِ لإبراهيمَ أنْ لا يُذْكَرَ من بعدهِ إلا بالجميلِ من الذِّكْرِ.

وقوله: «كَذلكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ»، يقول كما جزينا إبراهيمَ على طاعتهِ إيانا وإحسانهِ في الانتهاء إلى أمرنا، كذلك نجزي المحسنين. «إنَّهُ مِنْ عِبادِنا المُؤْمِنِينَ»، يقول: إنَّ إبراهيمَ من عبادنا المخلِصين لنا الإيمانَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وبشَّرنا إبراهيمَ بإسحاقَ نبياً شكراً له على إحسانِه وطاعته.

وقوله: «وبَارَكْنَا عَلَيْهِ وعَلَى إسحَاقَ»، يقول تعالى ذكره: وباركنا على إبراهيمَ وعلى إسحاقَ «وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ»، يعني بالمحسن: المؤمن المطيع لله، المحسن في طاعته إياه «وظَالِمٌ لنَفْسِهِ مُبِينٌ»، ويعني بالظالم لنفسه: الكافر بالله، الجالب على نفسِه بكفرِه عذابَ الله وأليم عقابه. «مبين»، يعني الذي قد أبان ظلمَه نفسَه بكفرِه بالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد تَفَضَّلْنَا على موسى وهارون ابني عمران، فجعلناهما نَبِيَّيْنِ، ونَجَّيْنَاهُمَا وقومَهما من الغَمِّ والمكروهِ العظيم الذي كانوا فيه من عُبودةِ آلِ فرعونَ، ومما أهلكنا به فرعون وقومَهُ من الغرقِ.

وقوله: «وَنَصَرْناهُمْ»، يقول: ونصرنا موسى وهارون وقومهما على فرعون وآلِهِ بتغريقنَاهُمْ، «فَكانُوا هُمُ الغالِبِينَ» لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾﴾

وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾

يقول تعالى ذكره: وآتينا موسى وهارونَ الكتابَ: يعني التوراة.

وقوله: «وَهَدَيْناهُما الصِّراطَ المُسْتَقِيمَ»، يقول تعالى ذكره: وهدينا موسى وهارونَ الطريقَ المستقيمَ، الذي لا اعوجاجَ فيه وهو الإسلامُ دينُ الله، الذي ابتعثَ به أنبياءَهُ.

وقوله: «وَتَرَكْنا عَلَيْهِما فِي الآخِرِينَ»، يقول: وتركنا عليهما في الآخرين بعدهم الثناءَ الحَسَنَ عليهما.

وقوله: «سَلامٌ على مُوسَى وهَارُونَ»، يقول: وذلك أنْ يقالَ: سلامٌ على موسى وهارون.

وقوله: «إنَّا كَذلكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ»، يقول: هكذا نجزي أهلَ طاعتنا، والعاملينَ بما يرضينا عنهم.

«إنَّهُما مِنْ عِبادِنا المُؤْمِنِينَ»، يقول: إن موسى وهارونَ من عبادنا المخلصينَ لنا الإيمانَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾

قوله: «لَمِنَ المُرْسَلِينَ»، يقول جَلَّ ثناؤه: لَمُرْسَلٌ من المرسلينَ «إذْ قالَ لِقَوْمِهِ ألا تَتَّقُونَ»، يقول حين قال لقومه من بني إسرائيل: ألا تتقونَ الله أيها القـومُ، فتخـافونَهُ، وتحذرونَ عقوبته على عبادتكم رباً غيرَ الله، وإلهاً سواه «وَتَذَرُونَ أحْسَنَ الخالِقِينَ»، يقول: وتَدَعُونَ عبادةَ أحسن مَن قيلَ له خالقٌ.

وللبَعْل في كلامِ العربِ أوجه: يقولون لربِّ الشيء هو بَعْلُه، يقال: هذا بَعْلُ هذه الدارِ، يعني رَبُّها، ويقولون لزوج المرأةِ بعلُها، ويقولون: لِما كان من الغُـروسِ والـزروعِ مُسْتَغْنِياً بمـاءِ السمـاء، ولم يكنْ سَقياً بَلْ هو بعلٌ، وهو العَذْي. وذُكِرَ أنَّ الله بعثَ إلى بني إسرائيل إلياسَ بعد مهلكِ حِزْقيل بن يوزا.

وقـولـه: «اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبائِكُمُ الأوَّلِينَ»، يعني: ذلك معبودكم أيها النـاسُ الـذي يستحقُّ عليكم العبـادةَ: ربكم الـذي خلقكم، وربّ آبـائكم الماضينَ قبلكم، لا الصنم الذي لا يخلق شيئاً، ولا يضرُّ ولا ينفع.

وقوله: «فَكَذَّبُوهُ فإنَّهُمْ لَمُحْضَرونَ»، يقول: فكَذَّبَ إلياسَ قومُهُ، «فإنهم لمحضرونَ»، يقول: فإنهم لمحضرون في عذابِ الله فيشهدونه.

«إلاَّ عِبادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ»، يقول: فإنهم يُحْضَرونَ في عذابِ الله، إلا عبـادَ الله الذين أخلصهم من العذابِ. «وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ»، يقول: وأبقينا عليه الثناءَ الحَسَنَ في الآخرين من الأمم بعده.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

يقول تعالى ذكره: أمنةٌ من اللهِ لآلِ ياسين.

واختلفت القَرَأة في قراءة قوله: «سَلامٌ عَلى إلْياسِينَ» فقرأته عامة قَرَأةِ مكة والبصرة والكوفة: «سَلامٌ عَلى إلياسِينَ» بكسر الألف من إلياسين، فكان بعضهم

يقول: هو اسم إلياس، ويقول: إنه كان يُسمى باسمين: إلياس، وإلياسين مثل إبراهيم، وإبراهام؛ يُستشهد على ذلك أنَّ ذلك كذلك بأنَّ جميعَ ما في السورة من قوله: «سَلامٌ» فإنه سلام على النبيِّ الذي ذُكِرَ دونَ آلهِ، فكذلك إلياسين، إنما هو سلام على إلياسَ دونَ آلهِ.

وقرأ ذلك عامة قَرَأة المدينة «سَلامٌ عَلى آل ياسِينَ» بقطعِ آل من ياسين، فكان بعضُهم يتأوَّلُ ذلك بمعنى: سلامٌ على آلِ محمد.

والصوابُ من القراءة في ذلك عندنا قراءةُ من قرأه «سَلامٌ عَلى إلْياسِينَ» بكسرِ ألفها على مثالِ إدراسين، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه إنما أخبر عن كلِّ موضعٍ ذكرَ فيه نبياً من أنبيائهِ صلواتُ الله عليهم في هذه السورة بأنَّ عليه سلاماً لا على آله، فكذلك السلامُ في هذا الموضع ينبغي أنْ يكونَ على إلياسَ كسلامهِ على غيرهِ من أنبيائه، لا على آله، على نحو ما بيَّنا من معنى ذلك.

فإنْ ظنّ ظانٌّ أنَّ إلياسين غير إلياس، فإنَّ فيما حكينا من احتجاجِ من احتجَّ بأنَّ إلياسينَ هو إلياس غِنىً عن الزيادةِ فيه.

وقوله: «إنَّا كَذلكَ نَجْزي المُحْسِنِينَ»، يقول تعالى ذكره: إنا هكذا نجزي أهلَ طاعتنا والمحسنينَ أعمالاً.

وقوله: «إنَّه مِنْ عِبادِنا المُؤْمِنِينَ»، يقول: إنَّ إلياسَ عبدٌ من عبادنا الذين آمنوا، فوحَّدُونَا، وأطاعونا، ولم يُشركوا بنا شيئاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾

يقول تعالى ذكره: وإنَّ لوطاً لمرسلٌ من المرسلينَ «إذْ نَجَّيْناهُ وأهْلَهُ أجمَعِينَ»، يقول: إذْ نَجَّينا لوطاً وأهلَهُ أجمعينَ من العذابِ الذي أحللناهُ بقومه، فأهلكناهم به «إلَّا عَجُوزاً فِي الغَابِرِينَ»، يقول: إلا عجوزاً في الباقين، وهي امرأةُ لوط، وقد ذكرنا خَبَرَهَا فيما مضى.

وقوله: «ثُمَّ دَمَّرْنا الآخَرِينَ»، يقول: ثم قذفناهم بالحجارةِ من فوقهم، فأهلكناهم بذلك.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٣٨﴾

يقول تعالى ذكره لمشركي قريش: وإنكم لتمرُّونَ على قومِ لوطٍ الذين دمَّرناهم عند إصباحِكم نهاراً وبالليلِ.

وقوله: «أفَلا تَعْقِلُونَ»، يقول: أفليسَ لكم عقولٌ تتدبرونَ بها وتتفكَّرونَ، فتعلمونَ أنَّ مَنْ سلكَ من عبادِ الله في الكفرِ به، وتكذيبِ رُسُلِه، مسلكَ هؤلاءِ الذينَ وصف صِفَتَهُمْ من قومِ لوطٍ، نازلٌ بهم من عقوبةِ الله، مثل الذي نزلَ بهم على كُفْرِهم بالله، وتكذيب رسوله، فَيَزْجُرَكُمْ ذلك عَمَّا أنتم عليه من الشركِ بالله، وتكذيبِ محمدٍ عليه الصلاة والسلام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ۝١٤١ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝١٤٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإنَّ يُونُسَ لمرسلٌ من المرسلينَ إلى أقوامِهم «إذْ أبقَ

إلى الفُلْكِ المَشْحُون»، يقول حين فَرَّ إلى الفُلك، وهو السفينة، المشحون: وهو المملوءُ من الحمولة المُوقَر.

وقوله: «فَساهَمَ»، يقول: فقارَعَ.

وقوله: «فَكانَ مِنَ المُدْحَضِينَ» يعني: فكان من المسهومينَ المغلوبينَ، يقال منه: أدحضَ اللهُ حُجَّةَ فلانٍ فدحضتْ: أي أبطلها فبطلت، والدَّحْضُ: أصله الزلقُ في الماء والطين، وقد ذُكر عنهم: دَحَض الله حُجَّتَهُ، وهي قليلة.

وقوله: «فالْتَقَمَهُ الحُوتُ»، يقول: فابتلعه الحوتُ، وهو افتعل من اللَّقْم.

وقوله: «وَهُوَ مُلِيمٌ»، يقول: وهو مكتسبُ اللومَ، يقال: قد ألامَ الرجل؛ إذا أتى ما يُلامُ عليه من الأمرِ وإنْ لم يُلَمْ، كما يقال: أصبحتَ مُحْمِقاً مُعْطِشاً: أي عندك الحمقُ والعطشُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾

يقول تعالى ذكره: «فَلَوْلا أنَّهُ» يعني يونس «كانَ مِنَ» المُصَلِّينَ للهِ قبلَ البلاءِ الذي ابتُليَ به من العقوبةِ بالحبسِ في بطنِ الحوتِ «لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ»، يقول: لبقي في بطنِ الحوتِ إلى يومِ القيامة، يوم يبعثُ الله فيه خَلْقَه محبوساً، ولكنه كان من الذاكرينَ الله قبلَ البلاءِ، فذكره الله في حالِ البلاء، فأنقذَهُ ونجَّاهُ.

وقوله: «فَنَبَذْناهُ بالعَرَاءِ»، يقول: فقذفناه بالفضاء من الأرضِ، حيثُ لا يُوارِيه شيءٌ من شجرٍ ولا غيره.

وقوله: «وَهُوَ سَقِيمٌ»، يقول: وهو كالصبيِّ المنفوس: لحمٌ نِيْءٌ.

وقوله: «وأَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ»، يقول تعالى ذكره: وأنبتنا على يُونُسَ شجرةً من الشجر التي لا تقومُ على ساقٍ، وكُلُّ شجرةٍ لا تقومُ على ساقٍ كالدُّباء والبِطِّيخ والحَنْظَل ونحو ذلك، فهي عند العرب يَقْطِين.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأرسلنا يونسَ إلى مئةِ ألفٍ من الناسِ، أو يزيدونَ على مئةِ ألفٍ. وذُكر عن ابن عباس أنه كان يقول: معنى قوله «أوْ»: بَلْ يَزِيدُونَ.

وقوله: «فَآمَنُوا»، يقول: فَوَحَّدُوا اللهَ الذي أرسلَ إليهم يونس: وصَدَّقُوا بحقيقةِ ما جاءهم به يونسُ من عندِ الله.

وقوله: «فَمَتَّعْناهُمْ إلى حِينٍ»، يقول: فأخَّرْنا عنهم العذابَ، ومَتَّعناهم إلى حينٍ بحياتهم إلى بلوغِ آجالهم من الموتِ.

وقوله: «فاسْتَفْتِهِمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيهِ محمدٍ ﷺ: سَلْ يا محمدُ مشركي قومكَ من قريش.

وقوله: «أَلِرَبِّكَ البَناتُ ولَهُمُ البَنُونَ»: ذُكر أنَّ مشركي قريش كانوا يقولون: الملائكةُ بنات الله، وكانوا يعبدونها، فقال الله لنبيه محمدٍ عليه الصلاة والسلام: سَلْهُمْ، وقُلْ لهم: ألربي البناتُ ولكمُ البَنُونَ؟

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه: أمْ شهدَ هؤلاءِ القائلونَ من المشركين: الملائكة بناتُ الله خَلْقِي الملائكةَ وأنا أَخْلُقُهم إناثاً، فشهدوا هذه الشهادةَ، ووصَفُوا الملائكة بأنها إناثٌ.

وقوله: «ألا إنَّهُمْ مِنْ إفْكِهِمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ألا إنَّ هؤلاء المشركين من كَذِبهم «لَيَقُولونَ وَلَدَ اللهُ وإنَّهُمْ لَكاذِبونَ» في قِيلِهم ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾

يقـول تعـالى ذكره موَبِّخاً هؤلاء القائلينَ للهِ البنات من مشركي قريش «أَصْطَفَى» اللهُ أيها القومُ «البَنات عَلى البَنِينَ»، والعربُ إذا وَجَّهُوا الاستفهامَ إلى التوبيخ أثبتوا ألفَ الاستفهام أحياناً وطرحوها أحياناً.

وقوله: «مالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ»، يقول: بِئْسَ الحكمُ تَحكمون أيها القومُ أنْ يكونَ للهِ البنات ولكم البنون، وأنتم لا ترضونَ البناتِ لأنفسكم، فتجعلونَ له ما لاتَرْضَوْنَهُ لأنفسكم؟

وقوله: «أفَلا تَذَكَّرُونَ»، يقول: أفلا تتدبرونَ ما تقولونَ؟ فتعرفوا خَطَأَهُ فتنتهوا عن قِيلهِ.

وقـوله: «أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ»، يقول: ألكم حجةٌ تَبَيَّنَ صِحَّتُها لِمَنْ سمعها بحقيقةِ ما تقولون.

وقوله: «فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ»، يقول: فَأْتُوا بحجتكم من كتابٍ جاءكم من عندِ الله بأنَّ الذي تقولون من أنَّ له البنات ولكمُ البنينَ كما تقولون.

وقوله: «إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»، يقول: إنْ كنتم صادقين أنَّ لكم بذلك حُجَّة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وجعل هؤلاء المشركونَ بينَ اللهِ وبين الجِنَّةِ نَسَباً.

واختلف أهلُ التأويل في معنى النسب الذي أخبر الله عنهم أنهم جعلوهُ لله تعالى، فقال بعضهم: هو أنهم قالوا أعداءُ الله: إنَّ الله وإبليسَ أَخَوانِ.

وقال آخرون: هو أنهم قالوا: الملائكةُ بناتُ الله، وقالوا: الجِنَّةُ: هي الملائكة.

وقوله: «وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ»، اختلف أهلُ التأويلِ في معنى ذلك، فقال بعضهم: معناه: ولقد علمت الجِنَّةُ إنهم لَمُشْهدون الحسابَ.

وقال آخرون: معناه: إنَّ قائلي هذا القول سيُحْضَرُونَ العذابَ في النار.

وأَوْلى القَــولين في ذلــك بالصـوابِ قولُ مَنْ قال: إنهم لمحضَـرُونَ العذابَ، لأنَّ سائرَ الآياتِ التي ذُكر فيها الإحضارُ في هذه السورة، إنما عُنِيَ به الإحضارُ في العذابِ، فكذلك في هذا الموضع.

وقوله: «سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: تنزيهاً لله، وتبرئةً له مما يضيفُ إليه هؤلاء المشركونَ به، ويفترونَ عليه، ويصفونه، من أنَّ له بناتٍ، وأنَّ له صاحبةً.

وقوله: «إلَّا عِبادَ اللهِ المُخْلَصِينَ»، يقول: ولقد علمتِ الجِنَّةُ أنَّ الذين قالوا: إنَّ الملائكةَ بناتُ الله لَمُحْضَرُونَ العذاب، إلا عبادَ الله الذين أخلَصَهُمْ لرحمتهِ، وخلقهم لجنته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ١٦١ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ١٦٢ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ١٦٣ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ١٦٤﴾

يقول تعالى ذكره: «فإنَّكُمْ» أيها المشركون بالله «ومَا تَعْبُدُونَ» من الآلهةِ والأوثانِ «ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بفاتِنِينَ»، يقول: ما أنتم على ما تعبدونَ من دونِ الله بفاتنينَ: أي بِمُضِلِّينَ أحداً «إلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الجَحِيمِ»، يقول: إلا أحداً سَبَقَ في علمي أنه صال الجحيم.

وقوله: «ومَا مِنَّا إلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ»، وهذا خبرٌ من الله عن قِيْلِ الملائكةِ أنهم قالوا: وما مِنَّا معشر الملائكة إلا مَنْ لَهُ مقامٌ في السماء معلوم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ١٦٦ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ١٦٧ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ١٦٨ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ١٦٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قيلِ ملائكته: «وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ» للهِ لعبادته «وَإِنَّا لَنَحْنُ المُسَبِّحُونَ» له، يعني بذلك المصلونَ له.

وقوله: «وَإنْ كانُوا لَيَقُولُونَ. لَوْ أنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الأوَّلِينَ، لَكُنا عبادَ اللهِ المُخْلَصين»، يقول تعالى ذِكْرُه: وكان هؤلاء المشركونَ من قريش يقولون قبل أنْ يُبْعَثَ إليهم محمدٌ ﷺ نبياً، «لَوْ أنَّ عنْدَنا ذِكْراً مِنَ الأوَّلِينَ»، يعني: كتاباً أُنزلَ من السماء كالتوراةِ والإنجيل، أو نبيٌّ أتانا مثل الذي أتي اليهودَ والنصارى «لَكُنَّا عِبادَ اللهِ» الذين أخلَصهم لعبادته، واصطفاهم لجنته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ١٧٠ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما جاءهم الذِّكرُ من عندِ الله كفروا به، وذلك كفرهم بمحمدٍ ﷺ وبما جاءهم به من عندِ الله من التنزيلِ والكتابِ، يقول الله: فسوف يعلمون إذا وردوا عليَّ ماذا لهم من العذاب بكفرهم بذلك.

وقوله: «وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعبادِنا المُرْسَلينَ. إنَّهُمْ لَهُمُ المَنْصُورُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد سَبَقَ منا القولُ لرسلنا إنهم لهم المنصورون: أي مضى بهذا منا القضاءُ والحكمُ في أمِّ الكتاب، وهو أنهم لهم النُّصرةُ والغَلَبَةُ بالحجج.

وقوله: «وإنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الغالِبُونَ»، يقول: وإنَّ حزبنا وأهلَ ولايتنا لَهُمُ الغالبون، يقول: لهم الظَّفَرُ والفلاحُ على أهلِ الكفرِ بنا، والخلاف علينا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ١٧٤ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ١٧٥ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ١٧٦ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ١٧٧﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتى حِينٍ»: فأعْرِضْ عنهم إلى حينِ مجيء عذابنا ونزولهِ بهم.

وقوله: «وأبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ»: وأنْظِرْهُمْ فسوفَ يَرَوْنَ ما يحلُّ بهم من عقابنا.

وقوله: «أفَبِعَذَابِنا يَسْتَعْجِلُونَ»، يقول: فبنزولِ عذابنا بهم يستعجلونَكَ يا محمدُ، وذلك قولُهم للنبيِّ ﷺ: «مَتى هَذَا الوَعْدُ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

وقوله: «فإذَا نَزَلَ بساحَتِهِمْ»، يقول: فإذا نزلَ بهؤلاء المشركين المستعجلينَ بعذابِ الله العذاب، والعرب تقول: نزل بساحةِ فلانٍ العذابُ والعقوبةُ، وذلك إذا نزلَ به؛ والساحةُ: هي فناءُ دارِ الرجلِ، «فَساءَ صَباحُ المُنْذَرِينَ»، يقول: فبِئْسَ صباحُ القومِ الذين أنذرهم رسولُنا نزولَ ذلك العذابِ بهم فلم يُصَدِّقُوا به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝١٧٨ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۝١٧٩ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وأعرض يا محمدُ عن هؤلاء المشركينَ، وخَلِّهم وفِرْيَتَهُمْ على رَبِّهم «حتى حِينٍ»، يقول: إلى حينِ يأذنُ اللهُ بهلاكِهم. «وأبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ»، يقول: وأنْظِرْهُمْ فسوفَ يرَوْن ما يحلُّ بهم من عقابنا في حين لا تنفَعُهُم التوبةُ، وذلك عند نزولِ بأسِ الله بهم.

وقوله: «سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ»، يقول تعالى ذكره: تنزيهاً لربك يا محمدُ وتبرئةً له. «ربِّ العزّة»، يقول: ربِّ القوّةِ والبطشِ. «عَمَّا يَصِفُونَ»، يقول: عَمَّا يَصِفُ هؤلاء المفترونَ عليه من مشركي قريش، من قولهم: ولد الله، وقولهم: الملائكة بنات الله، وغير ذلك من شِرْكِهم وفِرْيتهم على رَبِّهم.

وقوله: «وَسَلامٌ على المُرْسَلِينَ»، يقول: وأَمَنَةً من الله للمرسلينَ الذين أرسلَهُمْ إلى أممهم الذين ذكرهم في هذه السورة وغيرهم من فَزَعِ يومِ العذابِ الأكبر، وغيرِ ذلك من مكروه أنْ ينالهم من قِبَلِ الله تبارك وتعالى.

«والحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالِمينَ»، يقول تعالى ذكره: والحمدُ لله ربِّ الثَّقَلين الجِنِّ والإنس، خالصاً دونَ ماسواه، لأنَّ كُلَّ نعمةٍ لعبادِه فمنه، فالحمدُ له خالصٌ لا شريكَ له، كما لا شريكَ له في نعمهِ عندهم، بَلْ كلها من قِبَلِه، ومِنْ عِنْدِه.

سُورَةُ صٓ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى قول الله عزَّ وجلَّ «صٓ»، فقال بعضهم: هو من المُصَاداةِ، مِنْ صاديتُ فلاناً، وهو أمر من ذلك، كأن معناه عندهم: صادِ بعملك القرآنَ: أي عارضه به، ومَنْ قال هذا تأويله، فإنه يقرؤه بكسرِ الدالِ، لأنه أمرٌ.

وقال آخرون: هي حرف هجاء.

وقال آخرون: هو قَسَمٌ أقسمَ اللهُ به.

وقال آخرون: هو اسمٌ من أسماءِ القرآنِ أقسمَ اللهُ به.

وقال آخرون: معنى ذلك: صدق الله.

واختلفت القَرَأة في قراءة ذلك، والصوابُ من القراءةِ في ذلك عندنا السكون في كل ذلك، لأنَّ ذلك القراءةُ التي جاءت بها قَرَأَةُ الأمصار مستفيضة فيهم، وأنها حروفُ هجاءٍ لأسماءِ المسمياتِ، فيعربن إعرابَ الأسماءِ والأدواتِ والأصواتِ، فيسلك بهنَّ مسالكهن، فتأويلها إذْ كانت كذلك تأويل نظائرها التي قد تقدم بَيَانُنَاهَا قَبْلُ فيما مضى.

وقـولـه: «والقُرآنِ ذِي الذِّكْرِ»، وهذا قَسَمٌ أقسمه اللهُ تبارك وتعالى بهذا القرآن فقال: «والقُرآن ذِي الذِّكْرِ»، أي: ذي التذكير لكم.

وقوله: «بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وشِقاقٍ»، يقول تعالى ذكره: بل الذين كفروا باللهِ من مشركي قريش في حميةٍ ومشاقةٍ، وفراقٍ لمحمدٍ وعداوةٍ، وما بهم أنْ لا يكونوا أهلَ علم، بأنه ليس بساحر ولا كذّاب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾

يقول تعالى ذكره: كثيراً أهلكنا من قبل هؤلاء المشركين من قريش الذين كَذَّبُوا رسولَنا محمداً ﷺ فيما جاءهم به من عندنا من الحقِّ «مِنْ قَرْنٍ»، يعني: من الأمم الذين كانوا قبلهم، فسلكوا سبيلهم في تكذيبِ رُسُلِهم فيما أتوهم به من عند الله «فَنادَوْا»، يقول: فَعَجُّوا إلى رَبِّهم وضَجُّوا واستغاثوا بالتوبةِ إليه، حين نزلَ بهم بأسُ الله وعاينوا به عذابهُ فراراً من عقابه، وهَرَباً من أليمِ عذابه. «ولاتَ حِينَ مَناصٍ»، يقـول: وليس ذلك حِين فرارٍ ولا هربٍ من العذابِ بالتوبة، وقد حقَّتْ كلمةُ العذابِ عليهم، وتابوا حين لا تنفعهم التوبةُ، واستقالوا في غيرِ وقتِ الإقالة.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾

يقول تعالى ذكره: وعجبَ هؤلاء المشركونَ من قريش أنْ جاءهم منذر ينـذرهم بأسَ الله على كفـرهم به من أنفسهم، ولم يأتهم مَلَكٌ من السماء

بذلك. «وقَالَ الكافِرُونَ هَذا ساحِرٌ كذَّابٌ»، يقول: وقال المنكرون وحدانيةَ الله «هذا» يعنونَ محمداً ﷺ «ساحرٌ كذّاب».

وقوله: «أجَعَلَ الآلهةَ إلهاً وَاحِداً»، يقول: وقال هؤلاء الكافرونَ الذين قالوا: محمدٌ ساحرٌ كذّاب، أجعلَ محمدٌ المعبوداتِ كلها واحداً، يسمعُ دعاءنا جميعَنَا، ويعلمُ عبادةَ كُلِّ عابدٍ عبدَه منا. «إنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجابٌ»، أي: إنَّ هذا لشيء عجيب.

وكان سبب قِيلِ هؤلاء المشركينَ ما أخبرَ اللهُ عنهم أنهم قالوه، من ذلك، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال لهم: «أسْأَلُكُمْ أنْ تُجِيبُونِي إلى وَاحِدَة تَدِينُ لَكُمْ بِها العَرَبُ، وتعطيكُمْ بِها الخراج العجم. فقالوا: ما هي؟ فقال: تقولون: لا إله إلا الله»[1] فعند ذلك قالوا: أجعلَ الآلهة إلهاً واحداً تعجباً منهم من ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ 

يقـول تعـالى ذِكْرُه: وانطلقَ الأشرافُ من هؤلاء الكافرين من قريش، القائلينَ: «أجَعَلَ الآلهةَ إلهاً وَاحِداً» بأنِ امضُوا فاصبرُوا على دينكم وعبادةِ آلهتكم.

وقوله: «إنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ»، أي: إنَّ هذا القولَ الذي يقول محمد، ويَدْعُونَا إليه، من قولِ لا إله إلا الله، شيءٌ يريدُه منا محمدٌ يَطْلُبُ به الاستعلاءَ علينا، وأنْ نكونَ له فيه أتباعاً ولسنا مُجِيبيه إلى ذلك.

---

(١) حديث حسن. أخرجه المؤلف من حديث ابن عباس، وأحمد: ١/٣٦٢، والترمذي (٣٢٣٢)، والنسائي في تفسيره (٤٥٦).

وقـولـه: «ما سَمِعْنا بِهَذَا فِي المِلَّةِ الآخِرَةِ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معناه: ماسمعنا بهذا الذي يَدْعُونَا إليه محمدٌ من البراءةِ من جميعِ الآلهةِ إلا من الله تعالى ذِكْرُه، وبهذا الكتابِ الذي جاء به في الملَّة النصرانية، قالوا: وهي الملةُ الآخرة.

وقيل: إنَّ الملأ الذين انطلقوا نَفَرٌ من مشيخةِ قريش، منهم: أبو جهل، والعاصُ بن وائل، والأسودُ بن عبد يغوث.

وقوله: «إنْ هَذَا إلاَّ اخْتِلاقٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ هؤلاء المشركينَ في القرآن: ماهذا القرآنُ إلا اختلاقٌ: أي كَذِبٌ اختلَقَهُ محمدٌ وتَخَرَّصَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِىۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ هؤلاء المشركينَ من قريش: أَأُنْزِلَ على محمدٍ الذِّكْرُ من بيننا فَخُصَّ به، وليس بأشرفَ منا حَسَباً.

وقـولـه: «بَـلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما بهؤلاء المشركينَ أنْ لا يكونوا أهلَ علم بأنَّ محمداً صادقٌ، ولكنهم في شكٍّ من وَحْيِنَا إليه، وفي هذا القرآنِ الذي أنزلناهُ إليه أنه من عندنا. «بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ»، يقـول: بل لم ينزل بهم بأسنا، فيذوقوا وبالَ تكذِيبهم محمداً، وشَكِّهم في تنزيلنا هذا القرآنَ عليه، ولو ذاقوا العذابَ على ذلك علموا وأيقنوا حقيقةَ ما هُمْ به مكذِّبون، حينَ لا ينفعهم عِلْمُهم. «أمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ العَزِيزِ الوَهَّابِ»، يقول تعالى ذكره: أم عندَ هؤلاءِ المشركينَ المنكرين وحيَ اللهِ إلى محمـدٍ خزائن رحمـةِ رَبِّـكَ، يعني مفاتيح رحمة ربك يا محمدُ، العزيز في

سلطانه، الوهاب لمنْ يشاءُ من خَلْقِه، ما يشاء من مُلكٍ وسلطانٍ ونبوّة، فيمنعوكَ يا محمدُ، ما مَنَّ اللهُ به عليكَ من الكرامةِ، وفضَّلكَ به من الرسالة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ۝١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أمْ لهؤلاءِ المشركين الذين هُمْ في عزّةٍ وشِقاق «مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأرْضِ ومَا بَيْنَهُما» فإنه لا يُعازُّني ويُشاقُّني مَنْ كان في مُلكي وسلطاني.

وقـولـه: «فَلْيَرتَقُوا فِي الأسْبابِ»، يقول: وإنْ كان لهم مُلكُ السمواتِ والأرضِ وما بينهما، فليصعدوا في أبوابِ السماء وطرقها، فإنَّ مَنْ كان له مُلكُ شيءٍ لم يتعذَّرْ عليه الإشرافُ عليه، وتفقُّدُه وتعهُّدُه.

وقـوله: «جُنْدٌ مَّا هنالكَ مَهزُومٌ مِنَ الأحْزَابِ»، يقول تعالى ذكره: هُمْ «جُنْدٌ» يعني الذين في عِزَّةٍ وشقاق هنالك، يعني: ببدر مهزوم.

وقوله: «هُنالِكَ» من صلة مهزوم.

وقـولـه: «مِنَ الأحْـزَابِ» يعني من أحـزابِ إبليسَ وأتباعهِ الذين مَضَوْا قَبْلَهم، فأهلكَهُم اللهُ بذنوبهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ۝١٢ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ۝١٣ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤﴾

يقـول تعالى ذكره: كَذَّبَتْ قَبلَ هؤلاء المشركين من قريش، القائلينَ: أجعلَ الآلهةَ إلهاً واحداً، رُسُلَهَا، قومُ نوحٍ وعادٌ وفرعونُ ذو الأوتاد.

واختلف أهلُ العلم في السبب الذي من أجله قِيلَ لفرعون ذو الأوتاد، فقال بعضهم: قِيلَ ذلك له لأنه كانتْ له ملاعبُ من أوتادٍ، يُلْعَبُ له عليها.

وقال آخرون: بل قيل ذلك له كذلك لتعذيبهِ الناسَ بالأوتاد.

وقال آخرون: معنى ذلك: ذُو البنيانِ، قالوا: والبنيانُ: هو الأوتادُ.

وأشبه الأقوال في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: عُنِي بذلك الأوتاد، إما لتعذيبِ الناس، وإما للعبِ، كان يُلْعَبُ له بها، وذلك أنَّ ذلك هو المعروف من معنى الأوتاد، «وثمودُ وقومُ لوط»، وقد ذكرنا أخبار كلِّ هؤلاء فيما مضى قَبْلُ من كتابنا هذا. «وأصحَابُ الأَيْكَةِ»، يعني: وأصحاب الغَيْضة[1].

وقوله: «أُولَئِكَ الأَحْزَابُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاء الجماعاتُ المجتمعةُ، والأحزابُ المتحزِّبةُ على معاصي الله والكفر به، الذين منهم يا محمدُ مشركُو قومكَ، وهُمْ مَسْلُوكٌ بهم سبيلهم. «إنْ كُلٌّ إلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ»، يقول: ما كلُّ هؤلاء الأمم إلَّا كذَّبَ رُسُلَ الله، «فَحَقَّ عِقابِ»، يقول: فوجب عليهم عقاب الله إياهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ومَا يَنْظُرُ هَؤُلاءِ» المشركونَ بالله من قُريشٍ «إلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً» يعني بالصيحة الواحدة: النفخة الأولى في الصُّورِ. «مالَهَا مِنْ فَوَاقٍ»، يقول: ما لِتِلْكَ الصيحةِ من فَيْقَةٍ، يعني من فُتورٍ ولا انقطاع.

---

(١) الغيضة: الأجمة، وهي مغيضُ ماءٍ يجتمع فينبت فيه الشجر، والجمع: غياض وأغياض.

وقوله: «وقَالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لنَا قِطَّنا قَبْلَ يوْم الحِساب»، يقول تعالى ذِكْرُه: وقال هؤلاء المشركونَ بالله من قريش، يا رَبَّنَا عَجِّلْ لنا كَتْبَنَا قبلَ يوم القيامة. والقِطُّ في كلام العرب: الصحيفةُ المكتوبةُ.

ومعنى الكلام: أنَّ القومَ سألوا رَبَّهم تعجيلَ صِكاكهم بحظوظِهم من الخيرِ أو الشرِّ الذي وَعَدَ اللهُ عبادَهُ أنْ يُؤْتِيَهُمُوهَا في الآخرةِ قبلَ يومِ القيامة في الدنيا استهزاءً بوعيدِ الله.

وإنما قلنا إنَّ ذلك كذلك، لأنَّ القطَّ هو ما وصفتُ من الكتبِ بالجوائزِ والحظوظِ، وقد أخبر الله عن هؤلاء المشركين أنهم سألوه تعجيلَ ذلك لهم، ثم أتبعَ ذلك قولَهُ لنبيهِ «اصْبِرْ على ما يَقُولُونَ» فكان معلوماً بذلك أنَّ مسألتَهم ما سألوا النبيَّ ﷺ لو لم تكن على وجهِ الاستهزاءِ منهم لم يكنْ بالذي يتبع الأمر بالصبرِ عليه، ولكن لما كان ذلك استهزاء، وكان فيه لرسولِ الله ﷺ أذىً، أمرهُ اللهُ بالصبرِ عليه منهم حتى يأتيه قضاؤُه فيهم، ولما لم يكن في قوله: «عَجِّلْ لنَا قِطَّنا» بيان أيِّ القطوطِ إرادتهم، لم يكنْ لنا توجيهُ ذلك إلى أنه معنيٌّ به القُطوط ببعض معاني الخيرِ أو الشرِّ، فلذلك قلنا إنَّ مسألتَهم كانت بما ذكرتُ من حظوظِهم من الخيرِ والشرِّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: اصبرْ يا محمدُ على ما يقولُ مشركو قومِكَ لكَ مما تكره قِيلَهُمْ لكَ فإنَّا مُمْتَحِنُوكَ بالمكارهِ امتحاننا سائرَ رسلنا قبلكَ، ثم جاعلُو العلوِّ والرفعةِ والظفرِ لكَ على مَنْ كَذَّبكَ وشاقَّكَ سُنَّتَنا في الرسل الذين أرسلناهم إلى عبادنا قبلكَ فمنهم عَبْدنا أيوب وداود بن إيشا،

فاذْكُرْهُ ذَا الأَيْدِ، ويعني بقوله: «ذَا الأَيْدِ» ذَا القوَّةِ والبطشِ الشديدِ في ذاتِ الله والصبرِ على طاعته.

وقوله: «إِنَّهُ أَوَّابٌ»، يقول: إنَّ داود رَجَّاعٌ لما يكرهه اللهُ إلى ما يرضيه أَوَّابٌ، وهو من قولهم: آبَ الرجلُ إلى أهلِه: إذا رجع.

وقوله: «إِنَّا سَخَّرْنا الجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بالعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ»، يقول تعالى ذكره: إنا سخرنا الجبالَ يُسَبِّحْنَ مع داودَ بالعشيِّ، وذلك من وقتِ العصرِ إلى الليلِ، والإشراق، وذلك بالغداة وقت الضحى. ذُكِرَ أنَّ داودَ كان إذا سَبَّحَ سَبَّحَتْ معه الجبالُ.

وقوله: «والطَّيْرَ مَحْشُورَةً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وسَخَّرْنَا الطيرَ يُسَبِّحْنَ معه محشورة بمعنى: مجموعة له، ذُكِرَ أنه ﷺ كان إذا سَبَّحَ أجابته الجبالُ، واجتمعتْ إليه الطيرُ، فسبحت معه، واجتماعها إليه كان حشرها. وقد ذكرنا أقوالَ أهلِ التأويلِ في معنى الحشر فيما مضى، فكرهنا إعادته.

وقوله: «كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ»، يقول: كل ذلك له مطيعٌ رجَّاعٌ إلى طاعتهِ وأمرِه. ويعني بالكلِّ: كلَّ الطيرِ.

وقوله: «وَشَدَدْنا مُلْكَهُ»، اختلف أهلُ التأويل في المعنى الذي به شدّد ملكه، فقال بعضهم: شدّد ذلك بالجنودِ والرجالِ، فكان يحرسه كلَّ يومٍ وليلة أربعةُ آلاف، أربعةُ آلاف.

وقال آخرون: كان الذي شدد به ملكه، أن أُعْطِيَ هيبةً من الناسِ له لقضيةٍ كان قضَاها.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ أن يقال: إنَّ الله تبارك وتعالى أخبرَ أنه شَدَّدَ مُلْكَ داود، ولم يحصر ذلك من تشديده على التشديدِ بالرجالِ والجنودِ دونَ الهيبةِ من الناسِ له ولا على هيبةِ الناس له دون الجنود. وجائزٌ أنْ يكونَ

تشديده ذلك كان ببعض ما ذكرنا، وجائزٌ أن يكون كان بجميعها، ولا قول أوْلى في ذلك بالصحةِ من قولِ الله، إذ لم يحصُرْ ذلك على بعض معاني التشديد خبر يجبُ التسليمُ له.

وقوله: «وآتَيْناهُ الحِكْمَةَ»، اختلف أهلُ التأويل في معنى الحكمة في هذا الموضع، فقال بعضهم: عَنَى بها النبوَّةَ.

وقال آخرون: عنى بها أنه علم السنن.

وقوله: «وَفَصْلَ الخِطابِ»، اختلف أهلُ التأويلِ في معنى ذلك، فقال بعضهم: عَنَى به أنه علمُ القضاءِ والفهمُ به.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وفصل الخطاب، بتكليفِ المدَّعي البيِّنَةَ، واليمين على المدعى عليه.

وقال آخرون: بل هو قولُ: أما بعد.

وأوْلى الأقـوال في ذلك بالصواب أن يقال: إنَّ الله أخبرَ أنه آتى داودَ صلواتُ الله عليه فصـلَ الخـطاب، والفصـلُ: هو القـطعُ، والخـطابُ هو المخـاطبةُ، ومن قطع مخاطبة الرجلِ الرجلَ في حال احتكامِ أحدهما إلى صاحبـهِ قُطِع المحتكم إليه الحكم بين المحتكم إليه وخصمـه بصـوابٍ من الحكم، ومَنْ قطع مخاطبته أيضاً صاحبه إلزام المخاطب في الحكم ما يجب عليه إنْ كان مدعياً، فإقامة البيِّنة على دَعْوَاه وإنْ كان مُدَّعىً عليه فتكليفُه اليمينَ إنْ طلب ذلك خصمه. ومن قطع الخطاب أيضاً الذي هو خطبة عند انقضاءِ قصةٍ وابتداءٍ في أخرى الفصل بينهما بأمَّا بَعْدُ. فإذْ كان ذلك كله محتملاً ظاهر الخبر ولم تكن في هذه الآية دلالة على أيِّ ذلك المرادُ، ولا وَرَدَ به خبرٌ عن الرسولِ ﷺ ثابت، فالصوابُ أنْ يعم الخبر، كما عَمَّهُ الله، فيقال: أُوتيَ داودُ فَصْلَ الخطابِ في القضاءِ والمحاورةِ والخطب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وهل أتاكَ يا محمدُ نبأُ الخصم وقيل: إنه عَنَى بالخصمِ في هذا الموضعِ مَلَكان، وخرج في لفظِ الواحدِ، لأنه مصدرٌ مثل الزور والسفر، لا يُثَنَّى ولا يُجمع.

وقوله: «إِذْ تَسَوَّرُوا المِحْرَابَ»، يقول: دخلوا عليه من غيرِ بابِ المحراب، والمحرابُ مُقَدَّمُ كُلِّ مجلسٍ وبيتٍ وأشرفه.

وقوله: «إِذْ دَخَلُوا عَلى دَاوُدَ» فكرَّرَ إِذْ مرتين، وكان بعضُ أهلِ العربية يقول في ذلك: قد يكون معناهما كالواحد، كقولك: ضربتكَ إِذْ دخلتَ عليَّ إذ اجترأتَ، فيكون الدخولُ هو الاجتراءُ، ويكون أنْ تجعل إحداهما على مذهب لما، فكأنه قال: إِذْ تَسَوَّرُوا المحرابَ لما دخلوا، قال: وإنْ شئت جعلتَ لما في الأوّل، فإذا كان لما أوّلاً أو آخراً، فهي بعد صاحبتها، كما تقول: أعطيته لما سألني، فالسؤال قبل الإعطاء في تَقَدُّمِه وتأخُّرِه.

وقوله: «فَفَزِعَ مِنْهُمْ»، يقول القائل: وما كان وجه فزعه منهما وهما خصمان، فإنَّ فزعه منهما كان لدخولهما عليه من غيرِ البابِ الذي كان المَدْخَلَ عليه، فراعَهُ دخولُهما كذلك عليه. وقيل: إنَّ فَزَعَهُ كان منهما، لأنهما دخلا عليه ليلاً في غيرِ وقتِ نَظَرِه بين الناسِ، قالوا: «لا تَخَفْ»، يقول تعالى ذكره: قال له الخصم: لا تَخَفْ يا داودُ، وذلك لمَّا رأياه قد ارتاعَ من دخولهما عليه من غير الباب.

وقوله عزّ وجلّ: «بَغَى بَعْضُنا على بَعْضٍ»، يقول: تَعَدَّى أحدنا على

صاحبِه بغيرِ حقٍّ «فـاحْكُمْ بَيْنَنـا بالحَقِّ»، يقـول: فاقضِ بيننا بالعدْلِ «ولاَ تُشْطِطْ»، يقول: ولا تَجُرْ، ولا تُسْرِفْ في حكمك، بالميلِ منك مع أحدنا على صاحبه.

وقوله: «وَاهْدِنا إلى سَوَاءِ الصِّراطِ»، يقول: وأرشدنا إلى قَصْدِ الطريقِ المستقيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ۝٢٣﴾

وهذا مَثَلٌ ضربه الخصمُ المُتَسَوِّرُونَ على داودَ محرابَهُ له، وذلك أنَّ داودَ كانت له فيما قيل: تسعٌ وتسعون امرأةً، وكانت للرجل الذي أغزاه حتى قُتِلَ، امرأةٌ واحدة؛ فلما قُتل نكحَ ـ فيما ذُكِرَ ـ داودُ امرأتَهُ، فقال له أحدهما: «إنَّ هَذَا أخي»، يقول: أخي على ديني.

وقوله: «فقالَ أكْفِلْنِيها»، يقول: فقال لي: انزلْ عنها لي وضُمَّهَا إليَّ.

وقوله: «وَعَزَّنِي فِي الخِطاب»، يقول: وصار أعزّ مني في مخاطبتهِ إيايَ، لأنه إنْ تَكَلَّمَ فهو أبينُ مني، وإنْ بطشَ كان أشدّ مني فقهرني.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ۝٢٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال داودُ للخصمِ المُتَظَلِّمِ من صاحبِه: لقد ظلمكَ صاحِبُكَ بسؤالِه نعجتَكَ إلى نعاجِه.

وإنما يعني: لقد ظُلِمْتَ بسؤالِ امرأتِكَ الواحدة إلى التسع والتسعين من نسائِه.

وقوله: «وَإنَّ كَثيراً مِنَ الخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ»، يقول: وإنَّ كثيراً من الشركاء ليتعدّى بعضُهم على بعضٍ «إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا» بالله «وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ»، يقول: وعملوا بطاعةِ الله، وانتهوا إلى أمرِه ونهيه، ولم يتجاوزوه. «وَقَليلٌ ما هُمْ»، يقول: وقليلٌ ما تجدهم.

وقوله: «وَظَنَّ دَاوُدُ أنَّما فَتَنَّاهُ»، يقول: وعَلِمَ داودُ أنما ابتليناهُ.

وقوله: «فاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ»، يقول: فسأل داودُ رَبَّهُ غفرانَ ذنبِهِ «وَخَرَّ رَاكِعاً»، يقول: وخَرَّ ساجداً لله «وأنابَ»، يقول: ورجعَ إلى رِضا رَبِّه، وتابَ من خطيئته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فَغَفَرْنا لَهُ ذلكَ» فعفونا عنه، وصفحنا له عن أن نؤاخذه بخطيئتِهِ وذَنْبِهِ ذلك «وإنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفَى»، يقول: وإنَّ له عندنا لَلْقُرْبَةَ منا يومَ القيامة.

وقوله: «وَحُسْنَ مآبٍ»، يقول: مَرْجع ومنقَلَب ينقلبُ إليه يوم القيامة.

وقوله: «يا دَاوُدُ إنَّا جَعَلْناكَ خَليفَةً فِي الأرْضِ»، يقول تعالى ذكره: وقلنا لداودَ: يا داودُ إنَّـا استخلفناكَ في الأرضِ من بعد مَنْ كان قبلكَ من رُسُلِنا

حكماً بين أهلها.

«فـاحْكُمْ بينَ النَّـاس بالحَقِّ»، يعني: بالعـدلِ والإنصاف. «ولاَ تَتَّبِعِ الهَـوَى»، يقول: ولا تُؤْثِرْ هواكَ في قضائك بينهم على الحقِّ والعدلِ فيه، فتجور عن الحقِّ «فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبيلِ الله»، يقول: فيميل بك اتباعُكَ هواكَ في قضـائِـك على العدلِ والعملِ بالحقِّ عن طريقِ الله الذي جعلَهُ لأهلِ الإيمانِ فيه، فتكون من الهالكينَ بضلالك عن سبيلِ الله.

وقوله: «إنَّ الَّذينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِساب»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين يميلونَ عن سبيلِ الله، وذلك الحقّ الذي شَرَعَهُ لعبادِهِ، وأمرهم بالعملِ به، فيجورون عنه في الدنيا، لهم في الآخرة يومَ الحسابِ عذابٌ شديدٌ على ضلالهم عن سبيلِ الله بما نَسُوا أمرَ الله، يقول: بما تركوا القضاءَ بالعدلِ، والعملَ بطاعةِ الله.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ومَا خَلَقْنا السَّماءَ والأرْضَ ومَا بَيْنَهُما» عَبَثاً ولهواً، ما خلقنـاهمـا ليُعْمَلَ فيهما بطاعتنا، ويُنْتَهَى إلى أمرِنَا ونَهْيِنَا، «ذلكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا»، يقول: أي ظَنُّ أنَّا خَلَقْنا ذلك باطلاً ولعباً، ظَنّ الذين كفروا بالله فلم يُوَحِّدُوهُ، ولم يعرفوا عظمَتَهُ، وأنه لا ينبغي أنْ يَعْبَث، فيتيقنوا بذلك أنه لا يخلقُ شيئاً باطلاً. «فَوَيْلٌ للَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ»، يعني: من نار جهنم.

وقـولـه: «أمْ نَجْعَـلُ الَّـذِينَ آمَنُـوا وعَمِلُوا الصَّـالِحاتِ كالمُفْسِدِينَ فِي

الأَرْضِ »، يقـول: أنجعلُ الذين صدَّقُوا اللهَ ورسولَهُ وعملوا بما أمر الله به، وانتهوا عما نهاهم عنه «كالمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ »، يقول: كالذين يشركون بالله ويعصُونه ويخالفونَ أمرَهُ ونهيه. «أمْ نَجْعَلُ المُتَّقِينَ»، يقول: الذين اتقوا الله بطاعتهِ وراقبوه، فحذروا معاصيه «كالفُجَّارِ» يعني: كالكفارِ المُنْتَهكينَ حُرُماتِ الله.

وقوله: «كِتابٌ أنْزَلْناهُ إلَيْكَ»، يقول تعالى ذكره: لنبيه محمدٍ ﷺ: وهذا القـرآنُ «كِتَابٌ أنْزَلْنَاهُ إلَيْكَ» يا محمدُ «مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ»، يقول: ليتدبَّروا حُجَجَ الله التي فيه، وما شرعَ فيه من شرائعهِ، فَيَتَّعِظُوا ويعملوا به.

«وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الألْبابِ»، يقول: وليعتبرَ أُولُو العقولِ والحِجَا ما في هذا الكتاب من الآياتِ، فيرتدعوا عما هُمْ عليه مقيمينَ من الضلالةِ، وينتهوا إلى مادَلَّهُمْ عليه من الرشادِ وسبيلِ الصواب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: «وَوَهَبْنا لدَاوُدَ سُلَيْمانَ» ابنه ولداً. «نِعْمَ العَبْدُ»، يقول: نعم العبدُ سليمان «إنَّهُ أوَّابٌ»، يقول: إنه رَجَّاعٌ إلى طاعةِ الله تَوَّابٌ إليه مما يكرهه منه. وقيل: إنه عُنِيَ به أنه كثيرُ الذِّكْرِ لله والطاعة.

وقوله: «إذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بالعَشِيِّ الصَّافِناتُ الجِيادُ»، يقول تعالى ذكره: إنه توَّابٌ إلى الله من خطيئته التي أخطأها، إذ عُرِضَ عليه بالعشيِّ الصافنات، والصافنات: جمع الصافن من الخيلِ، والأنثى: صافنة، والصافنُ منها عند

بعض العرب: الذي يجمع بين يديه، ويثني طَرَفَ سُنْبكِ إحدى رجليه، وعند آخرين: الذي يجمع يديه. وزعم الفراء أنَّ الصافن: هو القائم[1].

ويعني بقوله: «فقالَ إنّي أحْبَبْتُ حُبَّ الخَيْرِ»، أي: أحببتُ حباً للخير، ثم أُضيفَ الحبُّ إلى الخير، وعنى بالخيرِ في هذا الموضع الخيلَ، والعربُ فيما بلغني تسمي الخيلَ الخير، والمالُ أيضاً يسمونه الخير.

وقوله: «عَنْ ذِكْرِ رَبّي»، يقول: إني أحببتُ حُبَّ الخيرِ حتى سهوتُ عن ذِكْرِ ربي وأداء فريضته.

وقوله: «حتى تَوَارَتْ بالحِجابِ»، يقول: حتى توارت الشمسُ بالحجاب، يعني: تغيبت في مغيبها.

وقوله: «رُدُّوها عَليَّ»، يقول: رُدُّوا عليَّ الخيلَ التي عُرِضَتْ عليَّ، فشغلتني عن الصلاةِ فكروها عليَّ.

وقوله: «فَطَفِقَ مَسْحاً بالسُّوقِ والأعْناقِ»، يقول: فجعلَ يمسحُ منها السوقَ، وهي جمع الساق، والأعناق، بيده حباً لها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد ابتَلينا سليمانَ وألقينا على كرسيه جَسَداً شيطاناً متمثلاً بإنسان.

(١) انظر معاني القرآن: ٢/٤٠٥.

وقوله: «ثُمَّ أنابَ» سليمان، فرجعَ إلى مُلْكِه من بعد ما زالَ عنه مُلكه فذهب.

قوله: «قالَ رَبِّ اغْفرْ لي»، يقول تعالى ذكره: قال سليمانُ راغباً إلى ربه: ربِّ استر عليَّ ذنبي الذي أذنبتُ بيني وبينكَ، فلا تعاقبني به «وَهَبْ لي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأحَدٍ مِنْ بَعْدِي» لا يَسْلُبنيه أحدٌ كما سَلَبَنِيه قَبْلُ هذا الشيطانُ.

وقوله: «إنَّكَ أنْتَ الوَهَّابُ» يقول: إنك وهابُ ما تشاءُ لمن تشاءُ بيدكَ خزائنُ كلِّ شيءٍ تفتح من ذلك ما أردتَ لمن أردتَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ۝٣٨ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٩ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٤٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فاستجبنا له دُعَاءه، فأعطيناهُ مُلكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده «فَسَخَّرنَا لَهُ الرِّيحَ» مكانَ الخيلِ التي شغلته عن الصلاة «تَجْري بأمْرِهِ رُخاءً»، يعني: رِخوةً لينةً، وهي من الرخاوة.

وقوله: «حَيْثُ أصَابَ»، يقول: حيث أراد، من قولهم: أصابَ اللهُ بك خيراً: أي: أراد الله بكَ خيراً.

وقوله: «والشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وغَوَّاصٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وسخرنا له الشياطينَ فَسَلَّطْنَاهُ عليها مكانَ ما ابتليناهُ بالذي ألقينا على كُرْسِيِّهِ منها يستعملها فيما شاء من أعماله من بنّاء وغوّاص، فالبُناةُ منها يصنعون محاريبَ وتماثيلَ والغَاصَةُ يستخرجونَ له الحُلِيَّ من البحارِ، وآخرون ينحتون له جِفاناً وقدوراً، والمَرَدة في الأغلال مُقَرَّنون.

وقوله: «هَذَا عَطاؤُنا فامْنُنْ أوْ أمْسِك بغَيْرِ حِسابٍ»، يقول: هذا الذي أعطيناكَ من الملك، وتسخيرنا ما سخرنا لك عطاؤنا، وَوَهَبْنَا لكَ ما سألْتَنا أنْ نَهَبَهُ لكَ من الملكِ الذي لا ينبغي لأحدٍ من بعدكَ.

«فامْنُنْ أوْ أَمْسِكْ بغَيْرِ حِسابٍ»، يقول: فأعطِ مَنْ شئت من المُلك الذي آتيناكَ، وامنعْ مَنْ شئتَ منه ما شئتَ، لا حسابَ عليك في ذلك.

وقوله: «وَإنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مآبٍ»، يقول: وإنَّ لسليمانَ عندنا لقُـرْبـةً بإنابتهِ إلينا وتوبتهِ وطاعتهِ لنا، «وحُسْنَ مآب»، يقول: وحُسْنَ مرجعٍ ومصيرٍ في الآخرة.

فإن قال لنا قائل: وما وجه رغبةِ سليمان إلى ربه في الملك، وهو نبيٌّ من الأنبياء، وإنما يرغبُ في الملك أهلُ الدنيا المؤثِرونَ لها على الآخرةِ؟ أمْ ما وجه مسألته إياه، إذْ سأله ذلك مُلكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده، وما كان يضرُّهُ أنْ يكون كلُّ مَنْ بَعْدَهُ يُؤْتَى مثلَ الذي أُوتيَ من ذلك؟ أكانَ به بُخْلٌ بذلك، فلم يكنْ من مُلكِه، يُعطى ذلك مَنْ يُعطاه، أم حَسَدٌ للناس؟

قيل: أما رغبته إلى رَبِّه فيما يرغبُ إليه من المُلك، فلم تكنْ إن شاء الله به رغبةٌ في الدنيا، ولكن إرادةٌ منه أنْ يعلمَ منزلتَهُ من الله في أجابته فيما رغبَ إليه فيه، وقبوله توبتَهُ، وإجابته دعاءَهُ.

وأما مسألته ربه مُلكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده، فإنَّا قد ذكرنا فيما مضى قبلُ قولَ مَنْ قال: إنَّ معنى ذلك: هَبْ لي مُلكاً لا أُسْلَبُه كما سُلِبْتُه قَبْلُ. وإنما معناه عند هؤلاء: هب لي مُلكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي أن يسلُبنيه. وقد يتجه ذلك أن يكون بمعنى: لا ينبغي لأحدٍ سوايَ من أهلِ زماني، فيكون حجةً وعَلَماً لي على نبوّتي وأني رسولُكَ إليهم مبعوثٌ، إذْ كانت الرسلُ لابدَّ لها من أعلامٍ تُفارِقُ بها سائرَ الناسِ سواهم، ويتجه أيضاً لأنْ يكون معناه: وهَبْ لي

مُلكاً تَخُصُّنِي به، لا تعطيه أحداً غيري تشريفاً منكَ لي بذلك، وتكرمةً، لتبين منزلتي منكَ به من منازلِ مَنْ سِوايَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ «وَاذْكُرْ» أيضاً يا محمدُ «عَبْدَنا أيُّوبَ إذْ نادَى رَبَّـهُ» مستغيثـاً به فيمـا نزلَ به من البلاءِ: يا ربِّ «إنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ»، كأنَّ معنى النُّصب في هذا المـوضـع: العلة التي نالته في جسده والعناء الذي لاقى فيه، والعذاب: في ذهابِ ماله.

وقوله: «ارْكُضْ بِرِجْلِكَ»، ومعنى الكلام: إذْ نادى ربه مستغيثاً به، أني مَسَّنيَ الشيطانُ ببلاءٍ في جسدي، وعذابٍ بذهابِ مالي وولدي، فاستجبنا له، وقلنا له: اركضْ برجلك الأرضَ: أي حَرِّكْهَا وادفعها برجلك، والركض: حركةُ الرِّجْلِ، يقال منه: رَكَضَتِ الدابةُ، ولا تركض ثوبكَ برجلك.

وقوله: «هَذَا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وشَرَابٌ» ذُكر أنه نَبَعَتْ له حين ضربَ برجلهِ الأرضُ عينان، فشرب من إحداهما، واغتسلَ من الأخرى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾

تأويل الكلام: فاغتسلَ وشربَ، فَفَرَّجْنَا عنه ما كانَ فيه من البلاءِ، ووهبنا له أهلَهُ، من زوجةٍ وولد «وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا» له ورأفةً «وَذِكْرَى»، يقول: وتذكيراً لأولي العقول، ليعتبروا بها فيتعظوا.

وقد حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهْب، قال: أخبرني نافع بن يزيد، عن عُقَيْل، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ نبيَّ اللهِ أيُّوبَ لَبِثَ بِهِ بَلاؤهُ ثَمانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً، فَرَفَضَهُ القَرِيبُ والبَعِيدُ، إلاَّ رَجُلانِ مِنْ إخْوانِهِ كانا مِنْ أخصِّ إخْوَانِهِ بِهِ، كانا يَغْدوَانِ إلَيْهِ ويَرُوحانِ، فَقالَ أحَدُهُما لِصَاحِبِهِ: تَعْلَمُ وَاللهِ لَقَدْ أذْنَبَ أيُّوبُ ذَنْباً ما أذْنَبَهُ أحَدٌ مِنَ العَالمينَ، قال لَهُ صَاحِبُهُ: وَمَا ذَاكَ؟ قال: من ثَمانِي عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرْحَمْهُ اللهُ فَيَكْشِفَ ما بِهِ، فَلَمَّا رَاحا إلَيْهِ لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حتى ذَكَرَ ذلكَ لَهُ، فَقالَ أيُّوبُ: لا أدْرِي ما تَقُولُ، غيرَ أنَّ اللهَ يَعْلَمُ أنِّي كُنْتُ أمُرُّ عَلى الرَّجُلَيْنِ يَتَنازَعانِ فَيَذْكُرانِ اللهَ، فأرْجِعُ إلى بَيْتِي فَأُكَفِّرُ عَنْهُما كَرَاهِيَةَ أنْ يُذْكَرَ اللهُ إلاَّ فِي حَقٍّ؛ قال: وكانَ يَخْرُجُ إلى حاجَتِهِ، فإذَا قَضَاها أمْسَكَتِ امْرَأتُهُ بِيَدِهِ حتى يَبْلُغَ فَلَما كانَ ذاتَ يَوْمٍ أبْطأَ عَلَيْهـا، وَأوحِيَ إلى أيُّوبَ فِي مَكـانِهِ: «أنِ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ»، فاسْتَبْطأتْهُ، فَتَلَقَّتْهُ تَنْظُرُ، فأقْبَلَ عَلَيْها قَدْ أذْهَبَ اللهُ مابِهِ مِنَ البَلاءِ، وَهُوَ عَلى أحْسَنِ ما كانَ؛ فَلَمَّا رَأتْهُ قالَتْ: أيْ بارَكَ اللهُ فِيكَ، هَلْ رأيْتَ نَبيَّ اللهِ هَذَا المُبْتَلى، فَوَاللهِ على ذلكَ مارأيْتُ أحَداً أشْبَهَ بِهِ مِنْكَ إذْ كانَ صَحِيحا؟ قالَ: فإنِّي أنا هُوَ؛ قال: وكانَ لَهُ أنْدَرَانِ: أنْدَرٌ لِلْقَمْحِ، وأنْدَرٌ للشَّعِيرِ، فَبَعَثَ اللهُ سَحَابَتَيْنِ، فَلَمَّا كانَتْ إحْداهُما على أنْدَرِ القَمْحِ، أفْرَغَتْ فِيهِ الذَّهَبَ حتى فاضَ، وأفرَغَتِ الأُخْرَى في أنْدَرِ الشَّعِيرِ الوَرِقَ حتى فاضَ»[1].

وقوله: «وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً»، يقول: وقلنا لأيوب: خذ بيدك ضغثاً، وهو ما يجمع من شيء مثل حزمة الرُّطْبة، وكملءِ الكفِّ من الشجرِ أو الحشيشِ والشماريخِ ونحو ذلك مما قامَ على ساقٍ.

---

(١) إسناده صحيح، يونس هو ابن عبدالأعلى الصدفي، وابن وهب، هو عبدالله، ونافع ابن يزيد هو الكـلاعي، وهم مصريون ثقات، وعُقيل ـ بضم العين ـ هو ابن خالد الأيلي ثقة، سكن المدينة ثم الشام ثم مصر، وهو من تلامذة الزهري النُّجب، وهذا إسناد مصري معروف.

وقوله عَزّ وجلّ «إنَّا أخْلَصْناهُمْ بِخالصَةٍ»، يقول تعالى ذكره: إنا خَصَصْنَاهُمْ بخاصة: ذكرى الدار.

وقوله: «فاضْرِبْ بِهِ»، يقول: فاضربْ زوجتَك بالضِّغْثِ، لتَبرَّ في يمينكَ التي حلفتَ بها عليها أنْ تَضْرِبَها «وَلا تَحْنَثْ»، يقول: ولا تحنَثْ في يمينك.

وقوله: «إنَّا وَجَدْناهُ صَابِراً نِعْمَ العَبْدُ»، يقول: إنا وجدنا أيوبَ صابراً على البلاء، لا يحملُه البلاءُ على الخروجِ عن طاعةِ الله، والدخولِ في معصيته «نِعْمَ العَبْدُ إنَّهُ أوَّابٌ»، يقول: إنه إلى طاعة الله مُقبِلٌ، وإلى رضاه رَجَّاعٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾

اختلفت القرَأةُ في قراءة قوله: «عِبادَنا» فقرأته عامة قَرَأة الأمصار «وَاذْكُرْ عِبادَنا» على الجماع غير ابن كثير، فإنه ذكر عنه أنه قرأه «وَاذْكُرْ عَبْدَنا» على التوحيدِ، كأنه يوجه الكلامَ إلى أنَّ إسحاقَ ويعقوبَ من ذرِّيةِ إبراهيمَ، وأنهما ذُكِرا من بعده.

والصواب عندنا من القراءة في ذلك، قراءةُ من قرأه على الجماعِ، على أنَّ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ بيان.

يقول جل شأنه: واذكر يا محمدُ عبادنا إبراهيمَ ووَلَدَه إسحاقَ ويعقوب[1].

وقوله: «أُولي الأَيْدي والأَبْصارِ» ويعني بالأيدي: القوّة، يقول: أهل القوّة

---

(١) هذه العبارة مستخلصة من كلام له ذكر فيه اختلاف القرأة في قراءة هذه الآية، وهي على طريقته في التفسير.

على عبادةِ الله وطاعته. ويعني بالأبصار: أنهم أهلُ أبصار القلوبِ، يعني به: أُولِي العقولِ للحق[١].

فإن قال لنا قائل: وما الأيدي من القوّةِ، والأيدي إنما هي جَمْعُ يَدٍ، واليدُ جارحةٌ، وما العقولُ من الأبصارِ، وإنما الأبصارُ جمع بَصَرٍ؟ قيل: إن ذلك مَثَل، وذلك أنَّ باليدِ البطش، وبالبطشِ تُعرف قوّةُ القويِّ، فلذلك قيل للقويّ: ذُو يَدٍ؛ وأما البَصَر، فإنه عَنَى به بصرَ القلبِ، وبه تُنال معرفةُ الأَشياء، فلذلك قيل للرجل العالم بالشيء: بصيرٌ به. وقد يُمكن أن يكون عَنى بقوله: «أولي الأَيْدي»: أولي الأيدي عند الله بالأعمالِ الصالحة، فجعل الله أعمالهم الصالحةَ التي عملوها في الدنيا أيدياً لهم عند الله تمثيلاً لها باليد، تكونُ عند الرجل الآخر.

وقوله عز وجل «إنا أخلصناهم بخالصة»، يقول تعالى ذكره: إنا خصصناهم بخاصة ذكرى الدار. وهي ذكرى الدار الآخرةِ، فعملوا لها في الدنيا، فأطاعوا اللهَ وراقبُوه، وقد يدخلُ في وصفهم بذلك أن يكونَ من صفتهم أيضاً الدعاءُ إلى اللهِ وإلى الدارِ الآخرةِ، لأنَّ ذلك من طاعةِ الله، والعمل للدار الآخرة، غير أن معنى الكلمة ما ذَكَرْت.

وقوله: «وإنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ المُصْطَفَينَ الأَخْيارِ»، يقول: وإنَّ هؤلاء الذين ذكرنا عندنا لَمِنَ الذين اصطفيناهم لذكرى الآخرةِ. «الأخيار»، الذين اخترناهم لطاعتنا ورسالتنا إلى خَلْقنا.

---

(١) استشكلت العبارة على ناشر المطبوعة، فقال: «لعل العبارة قد سقط منها كلمة «الابصار» كما يفهم مما قبله ومما يجيء».

قلنا: العبارة سليمة، فقد فسّر الأبصار بأنها هي العقول التي تعقل الحق، كما سيأتي بيانه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: واذكُرْ يا محمدُ إسماعيلَ واليسعَ وذَا الكِفْلِ، وما أَبلَوْا في طاعةِ الله، فتأسَّ بهم، واسلكْ منهاجَهم في الصبر على ما نالكَ في الله، والنفاذِ لبلاغِ رسالته.

وقوله: «هَذَا ذِكْرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هذا القرآنُ الذي أنزلناه إليك يا محمدُ ذِكْرٌ لكَ ولقومكَ، ذكرناك وإياهم به.

وقوله: «وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مآبٍ»، يقول: وإنَّ للمتقين الذين اتَّقَوْا الله فخافوهُ بأداءِ فرائضهِ، واجتنابِ معاصيه، لَحُسْنَ مَرْجعٍ يرجعونَ إليه في الآخرة، ومَصِيرٍ يصيرون إليه، ثم أخبر تعالى ذكره عن ذلك الذي وعدهم من حُسْنِ المآب ما هُوَ؟ فقال: «جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾﴾ ۞

قوله تعالى ذِكْرُه: «جَنَّاتِ عَدْنٍ»: بيانٌ عن حُسْنِ المآب، وترجمةٌ عنه، ومعناه: بساتينُ إقامةٍ.

وقوله: «مُفَتَّحَةً لهُمُ الأَبْوَابُ»، يعني: مفتحة لهم أبوابها.

فإنْ قال لنا قائل: وما في قوله: «مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأبْوَابُ» من فائدةِ خبرٍ حتى ذكر ذلك؟ قيل: فإنَّ الفائدة في ذلك إخبار الله تعالى عنها أنَّ أبوابَها تُفتحُ لهم بغيرِ فتحِ سُكَّانِهَا إياها، بمعاناةٍ بيدٍ ولا جارحةٍ، ولكنْ بالأمرِ فيما ذُكِرَ.

وقوله: «مُتَّكِئِينَ فِيها يَدْعُونَ فِيها بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرابٍ»، يقول: متكئين

في جناتِ عدنٍ، على سُرُرٍ يدعون فيها بفاكهةٍ، يعني بثمارٍ من ثمارِ الجنة كثيرة، وشرابٍ من شرابها.

القَــوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِــهِ تَعَــالَى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ۝٥٢ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝٥٣ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ۝٥٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: عند هؤلاء المتقين الذين أكرمهم اللهُ بما وصفَ في هذه الآية من إسكانِهم جنات عدن «قاصِراتُ الطَّرْفِ»، يعني: نساء قصرت أطرافهنَّ على أزواجهنَّ، فلا يَرِدْنَ غيرهم، ولا يَمْدُدْنَ أعينهنَّ إلى سواهم.

وقوله: «أتْرَابٌ» يعني: أسنان واحدة.

وقوله: «هَذَا ما تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الحِسَابِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي يَعِدُكُم اللهُ في الدنيا أيها المؤمنونَ به من الكرامةِ لمن أدخلَهُ اللهُ الجنةَ منكم في الآخرة.

وقوله: «إنَّ هَذَا لَرِزْقُنا مالَهُ مِنْ نَفادٍ»، يقول تعالى ذكره: إنَّ هذا الذي أعطينا هؤلاء المتقين في جنَّاتِ عدنٍ من الفاكهةِ الكثيرةِ والشرابِ، والقاصرات الطرف، ومَكَّنَّاهُمْ فيها من الوصولِ إلى اللذّاتِ وما اشتهتْهُ فيها أنفسُهم لرزقنا، رزقناهم فيها كرامةً منا لهم. «مالَهُ مِنْ نَفادٍ»، يقول: ليس له عنهم انقطاعٌ ولا له فناء، وذلك أنهم كلما أخذوا ثمرةً من ثمارِ شجرةٍ من أشجارها، فأكلوها، عادتْ مكانَها أُخرى مثلها، فذلك لهم دائم أبداً، لا ينقطعُ انقطاعَ ما كان أهلُ الدنيا أُوتُوه في الدنيا، فانقطعَ بالفناء، ونَفِذَ بالإِنفاد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ۝٥٥ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝٥٦ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ

﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «هَذَا»: الذي وصفتُ لهؤلاء المتقينَ. ثم استأنفَ جلَّ وعزَّ الخبرَ عن الكافرينَ به الذين طَغَوْا عليه وبَغَوا، فقال: «وإنَّ للطَّاغِينَ» وهم الذين تمرَّدُوا على رَبِّهم، فعصَوْا أمره مع إحسانهِ إليهم «لَشَرَّ مآبٍ»، يقول: لشرَّ مرجعٍ ومصيرٍ يصيرونَ إليه في الآخرةِ بعد خروجهم من الدنيا. ثم بَيَّنَ تعالى ذِكْرُه، ما ذلك الذي إليه ينقلبونَ ويصيرونَ في الآخرة، فقال: «جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها» فترجم عن جهنم بقوله: «لَشَرَّ مآبٍ»، ومعنى الكلام: إنَّ للكافرين لشرَّ مَصِيرٍ يصيرونَ إليه يومَ القيامة، لأنَّ مصيرَهم إلى جهنم، وإليها مُنْقَلَبُهُمْ بعدَ وفاتهم «فَبِئْسَ المِهادُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فبئسَ الفراشُ الذي افترشوه لأنفسهم جهنم.

وقوله: «هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ»، يقول تعالى ذكره: هذا حميمٌ، وهو الذي قد أُغْلِيَ حتى انتهى حَرُّه، وغساقٌ فليذوقوه، ومعناه: يُسْقَونَ الحميم، وما يَسيلُ من صديدهم.

وقوله: «وآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أزْواجٌ»، يعني: هذا حميمٌ وغَسَّاقٌ فليذوقوه، وعذابٌ آخرُ من نحوِ الحميمِ ألوانٌ وأنواعٌ، كما يقال: لك عذابٌ من فلان: ضروبٌ وأنواع، وقيل: إنه الزمهرير.

وقوله: «هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ»، يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «هَذَا فَوْجٌ»: هذا فرقةٌ وجماعةٌ مقتحمةٌ معكم أيها الطاغونَ النارَ، وذلك دخول أمةٍ من الأمم الكافرةِ بعد أمةٍ، لا مرحباً بهم، وهذا خبرٌ من الله عن قِيلِ الطاغينَ الذين كانوا قد دخلوا النارَ قبلَ هذا الفوج المقتحِمِ للفوجِ المقتحَم فيها عليهم، لا مرحباً بهم، ولكنَّ الكلام اتَّصلَ فصار كأنه قولٌ واحد، كما قيل: «يُرِيدُ أنْ

يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ» فاتصل قولُ فرعونَ بقولِ مَلَئِه، وهذا كما قال تعالى ذكره مخبراً عن أهل النار: «كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها».

ويعني بقولهم: «لا مَرْحَباً بِهِمْ» لا اتَّسعت بهم مداخِلُهم.

وقوله: «إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ»، يقول: إنهم وَارِدُو النارِ وداخِلُوها. «قالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَبا بِكُمْ» يقول: قال الفوجُ الواردونَ جهنمَ على الطاغينَ الذين وَصَفَ جلّ ثناؤه صفتهم لهم: بَلْ أنتم أيها القومُ لا مرحباً بكم: أي لا اتسعت بكم أماكنكم، «أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لنَا»، يعنون: أنتم قدمتم لنا سُكنى هذا المكان، وصِليَّ النارِ بإضلالِكم إيَّانَا، ودُعائِكم لنا إلى الكفرِ بالله، وتكذيب رُسله، حتى ضَلَلْنَا باتباعكم، فاستوجبنا سُكْنى جهنمَ اليوم، فذلك تقديمهم لهم ما قَدَّمُوا في الدنيا من عذابِ الله لهم في الآخرة «فَبِئْسَ القَرارُ»، يقول: فبئسَ المكان يُسْتَقرُّ فيه جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ۝٦١﴾

وهذا أيضاً قولُ الفوجِ المقتحم على الطاغينَ، وهم كانوا أتباعَ الطاغينَ في الدنيا، يقول جلَّ ثناؤه: وقال الأتباعُ: «رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هَذَا»، يعنون: مَنْ قَدَّمَ لهم في الدنيا بدعائهم إلى العملِ الذي يوجب لهم النارَ التي وردوها، وسُكنى المنـزلِ الذي سكنوه منها. ويعنون بقولهم: «هَذَا»: العذاب الذي وردناه «فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً في النَّارِ»، يقولون: فأضْعِفْ له العذابَ في النار على العذابِ الذي هُوَ فيه فيها، وهذا أيضاً من دعاءِ الأتباعِ للمتبوعين.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ

﴿ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَـٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال الطاغُونَ الذين وَصَفَ جلّ ثناؤه صفتهم في هذه الآيات، وهُمْ فيما ذُكِرَ أبو جهلٍ والوليدُ بن المُغيرة وذَوُوهما. «مالَنا لا نَرى رِجالًا»، يقول: ما بالنا لا نرى معنا في النار رجالًا «كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الأشْرارِ»، يقول: كنا نَعُدُّهُمْ في الدنيا من أشرارنا، وعنوا بذلك فيما ذُكِرَ صُهَيْباً وخَبَّاباً وبِلَالاً وسَلْمان[1].

وقوله: «اتخذناهُم سخرياً»، معناه: وقال الطاغون: مالنا لا نرى سَلْمان وبِلَالاً وخَبَّاباً الذين كُنَّا نَعُدُّهم في الدنيا أشراراً، أتخذناهم فيها سُخرياً نهزأ بهم فيها معنا اليوم في النارِ، أزاغت عنهم أبصارُنا وهم معنا؟

وقوله: «إنَّ ذلكَ لَحَقٌّ»، يقول تعالى ذكره: إنَّ هذا الذي أخبرتُكم أيها الناسُ من الخبرِ عن تراجعِ أهلِ النار، ولَعْنِ بعضِهم بعضاً، ودعاءِ بعضِهم على بعضٍ في النـار لحقٌّ يقينٍ، فلا تشكُّـوا في ذلـك، ولكن استيقنـوه. «تخاصُمُ أهلِ النار» وقوله: «تَخاصُمُ» ردٌّ على قوله: «لَحَقٌّ»، ومعنى الكلام: إنَّ تخاصمَ أهل النار الذي أخبرتُكم به لحقٌّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ﴿٦٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ» يا محمدُ لمشركي قومك: «إنَّما

---

(١) يعني: صهيب الرومي، وخباب بن الأرتّ، وبلال بن رباح، وسلمان الفارسي، رضي الله عنهم.

أنـا مُنْـذِرٌ» لكم يا معشرَ قريشٍ بين يدي عذابٍ شديد، أُنذركُمْ عذابَ الله وسخطه أنْ يحلَّ بكم على كُفْرِكُمْ به، فاحذروه وبادروا حُلُولَهُ بكم بالتوبة. «ومَا مِنْ إلَهٍ إلَّا اللهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ»، يقول: وما من معبودٍ تصلحُ له العبادةُ، وتنبغي له الربوبيةُ، إلا الله الذي يدينُ له كلُّ شيءٍ، ويعبدهُ كُلُّ خَلْقٍ، الواحدُ الذي لا ينبغي أنْ يكونَ له في ملكه شريكٌ، ولا ينبغي أنْ تكونَ له صاحبةٌ، القهارُ لكلِّ ما دونَهُ بقدرتِهِ، «ربُّ السمواتِ والأرضِ»، يقول: مالكُ السمواتِ والأرض «وما بينهما» من الخلق، يقول: فهذا الذي هذه صِفَتُه، هو الإلهُ الذي لا إله سواه، لا الذي لا يملكُ شيئا، ولا يضرُّ، ولا ينفعُ.

وقـوله: «العَزيزُ الغفَّارُ»، يقول: العزيزُ في نقمته من أهلِ الكفرِ به، المُدَّعينَ معه إلهاً غيرَهُ، الغفَّارُ لذنوبِ مَنْ تابَ منهم ومِنْ غيرِهم من كفرِه ومعاصيه، فأنابَ إلى الإيمانِ به، والطاعةِ له بالانتهاءِ إلى أمرِه ونهيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ» يا محمدُ لقومكَ المُكَذِّبيكَ فيما جِئْتَهُمْ به من عندِ اللهِ من هذا القرآن، القائلينَ لكَ فيه: إنْ هذا إلا اختلاق. «هُوَ نَبأٌ عَظِيمٌ»، يقول: هذا القرآن خبرٌ عظيم.

وقوله: «أنْتُمْ عَنهُ مُعْرِضُونَ»، يقول: أنتم عنه منصرفون لا تعملون به، ولا تُصَدِّقُونَ بما فيه من حججِ الله وآياته.

وقوله: «ما كانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بالمَلإِ الأَعْلَى»، يقول لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ لمشركي قومك: «ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذْ يَخْتَصِمُونَ» في شأنِ آدمَ من قبل أنْ يُوحي إليَّ رَبِّي فيعلمني ذلك، يقول: ففي إخباري

لكم عن ذلك دليلٌ واضحٌ على أنَّ هذا القرآنَ وحيٌ من اللهِ وتنزيلٌ من عنده، لأنكم تعلمونَ أنَّ علمَ ذلك لم يكن عندي قبلَ نزولِ هذا القرآن، ولا هو مما شاهدته فعايَنْتُه، ولكني علمتُ ذلك بإخبارِ اللهِ إيايَ به.

وقوله: «إنْ يُوحَى إليَّ إلاَّ أنَّمَا أنا نَذيرٌ مُبينٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: قُلْ يا محمدُ لمشركي قريش: ما يُوحي اللهُ إليَّ عِلْمَ مالا علمَ لي به، من نحوِ العلمِ بالملأ الأعلى واختصامهم في أمرِ آدمَ إذْ أراد خَلْقَهُ، إلا لأني إنما أنا نذيرٌ مبين.

وقوله: «إلا أنما أنا نَذيرٌ مُبينٌ»، يقول: إلا أني نذيرٌ لكم مُبِينٌ لكم إنذارَهُ إياكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٧٣ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٤﴾

وقوله: «إذْ قالَ رَبُّكَ» من صلة قوله: «إذْ يَخْتَصِمُونَ»، وتأويلُ الكلام: ما كان لي من علمٍ بالملأ الأعلى إذْ يختصمونَ حين قال رَبُّكَ: يا محمدُ «للْمَلائِكَةِ إنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ» يعني بذلك خلق آدم.

وقوله: «فإذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحي» يقول تعالى ذكره: فإذا سوّيتُ خَلْقَهُ، وعَدَّلْتُ صورتَهُ، ونفختُ فيه من روحي، قيل: عَنَى بذلك: ونفختُ فيه من قُدرتي.

«فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ»، يقول: فاسجدوا له وخِرُّوا له سُجَّداً.

وقوله: «فَسَجَدَ المَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أجمَعُونَ»، يقول تعالى ذكره: فلما سوَّى اللهُ خَلْقَ ذلك البشرِ، وهو آدم، ونفخَ فيه من روحِهِ، سجدَ له الملائكةُ كُلُّهم

أجمعون، يغني بذلك: الملائكةُ الذين هم في السموات والأرض «إلَّا إبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ»، يقول: غيرَ إبليس، فإنه لم يسجدْ، استكبرَ عن السجودِ له تَعَظُّماً وتكبراً «وكانَ مِنَ الكافِرينَ»، يقول: وكان بتعظُّمِه ذلك، وتكبره على رَبِّه ومعصيته أمرَهُ، ممن كفرَ في علمِ الله السابقِ، فجحدَ ربوبيته، وأنكرَ ما عليه الإقرارُ له به من الإذعانِ له بالطاعة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «قالَ» اللهُ لإبليسَ، إذْ لم يسجد لآدمَ، وخالفَ أمره: «يا إبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أنْ تَسْجُدَ»، يقول: أيّ شيء منعكَ من السجودِ «لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ»، يقول: لِخَلْقِ يديّ يخبر تعالى ذِكْرُه بذلك أنه خَلَقَ آدمَ بيديه.

وقوله: «أسْتَكْبَرْتَ»، يقول لإبليس: تعظَّمتَ عن السجودِ لآدمَ، فتركتَ السجودَ له استكباراً عليه، ولم تكن من المتكبرينَ العالينَ قبلَ ذلك. «أمْ كُنْتَ مِنَ العالِينَ»، يقول: أم كنتَ كذلك من قبل ذا علوٍّ وتكُّبرٍ على رَبِّك. «قالَ أنا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ»، يقول جلّ ثناؤه: قال إبليسُ لربه: فعلتُ ذلك فلم أسجدْ للذي أمرتني بالسجودِ له لأني خيرٌ منه وكنتُ خيراً لأنك خلقتني من نارٍ وخلقته من طينٍ والنارُ تأكلُ الطينَ وتُحرقُه، فالنارُ خيرٌ منه، يقول: لم أفعل ذلك استكباراً عليك، ولا لأني كنتُ من العالينَ ولكني فعلتُه من أجل أني أشرفُ منه.

وهذا تقريعٌ من الله للمشركينَ الذين كفروا بمحمدٍ ﷺ، وأبَوا الانقيادَ له، واتباع ما جاءهم به من عند الله استكباراً عن أنْ يكونوا تَبَعاً لرجلٍ منهم حين

قالـوا: «أأنْـزلَ عَلَيْهِ الـذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا» [ص:٨]، و«هَلْ هَذَا إلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ» [الأنبياء: ٣] فقصَّ عليهم تعـالى ذكـره قصـةَ إبليس وإهلاكه باستكبارِه عن السجودِ لآدمَ بدعواه أنه خيرٌ منه، من أجلِ أنه خُلِقَ من نارٍ، وخُلِقَ آدمُ من طين، حتى صار شيطاناً رجيماً، وحَقت عليه من الله لعنته، مُحذِّرهم بذلك أنْ يستحقوا باستكبارهم على محمدٍ، وتكذيبهم إياهُ فيما جاءَهُمْ به من عندِ الله حسداً، وتعظماً من اللعنِ والسخطِ ما استحقه إبليسُ بتكبرِه عن السجودِ لآدم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٧٧ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٧٨ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٧٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لإبليس: «فاخْرُجْ مِنْها» يعني من الجنة «فإنَّكَ رَجيمٌ»، يقول: فإنك مرجومٌ بالقوم، مشتومٌ ملعونٌ.

وقوله: «وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي»، يقول: وإنَّ لك طردي من الجنة «إلى يَوْمِ الدِّين» يعني: إلى يوم مجازاةِ العبادِ ومحاسبتهم. «قال: رَبِّ فأنْظِرْني إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال إبليسُ لربه: ربِّ فإذْ لَعَنْتَني، وأخْرَجْتَني سن جنتك «فأنْظِرْني»، يقولُ: فأخِّرْني في الأجل، ولا تُهْلِكْني «إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ»، يقول: إلى يوم تَبْعَثُ خَلْقَكَ من قبورهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٨٠ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٨١ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال اللهُ لإبليس: فإنكَ مِمَّنْ أنظرتُه إلى يوم الوقتِ المعلوم، وذلك الوقتُ الذي جعله الله أجلاً لهلاكِه.

وقـال: «فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أجمعِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال إبليسُ: «فَبِعِـزَّتِـكَ»، أي بقـدرتـكَ وسلطانكَ وقهركَ مادونَكَ من خَلْقِكَ. «لأُغْوِيَنَّهُمْ أجمَعِينَ»، يقـول: لأُضِلَّنَّ بني آدم أجمعين «إلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِينَ»، يقول: إلا من أخلصتَهُ منهم لعبادتك، وعصمتَهُ من إضلالي، فلم تجعلْ لي عليه سبيلاً، فإني لا أقدرُ على إضلالهِ وإغوائه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ۝٨٤ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٥ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦﴾

قوله: «قالَ فالحَقُّ والحَقَّ أقُولُ»، يعني: أنا الحق وأقول الحق.

وقوله: «لأمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ»، يقول لإبليس: لأملأنَّ جهنمَ منكَ وممنْ تبعكَ منَ بني آدم أجمعين.

وقوله: «قُلْ ما أسألُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أجْرٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ قُلْ يا محمـد لمشـركي قومك، القائلينَ لك «أأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا» ما أسألكم على هذا الذكر وهو القرآنُ الذي أتيتكُم به من عندِ اللهِ أجراً، يعني: ثواباً وجـزاء «ومَـا أنـا مِنَ المُتَكَلِّفينَ»، يقول: وما أنا ممن يتكلفُ تَخَرُّصَهُ وافتراءَهُ، فتقولون: «إنْ هَذَا إلَّا إفْكٌ افتَراه» و: «إنْ هَذَا إلَّا اخْتِلَاقٌ».

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٨٧ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينِۭ ۝٨٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قل لهؤلاء المشركينَ من قومكَ: «إنْ

هُوَ»، يعني: ماهذا القرآنُ «إلَّا ذِكْرٌ» يقول: إلا تذكيرٌ من الله «لِلْعَالِمِينَ» من الجنِّ والإنس، ذَكَّرَهُمْ رَبُّهم إرادةَ استنقاذِ مَنْ آمنَ به منهم من الهَلَكة.

وقوله: «وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ»، يقول: ولتعلمُنَّ أيها المشركون بالله من قُرَيش نبأه، يعني: نبأ هذا القرآن، وهو خَبَرُه، يعني حقيقة ما فيه من الوعدِ والوعيدِ بعد حِين.



سورة الزمر

بسم الله الرحمن الرحيم

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ﴾

يقول تعالى ذكره: «تَنْزِيلُ الكِتابَ» الذي نَزَّلْناهُ عليكَ يا محمدُ «مِنَ اللهِ العَزيزِ» في انتقامه من أعدائه «الحَكِيم» في تدبيره خَلْقَهُ، لا من غيره، فلا تكونَنَّ في شكٍّ من ذلك، ورفع قوله «تَنْزِيلُ» بقوله: «مِنَ اللهِ». وتأويل الكلام: من الله العزيز الحكيم تنزيلُ الكتاب.

وقوله: «إِنَّا أنزَلْنا إِلَيْكَ الكِتابَ بالحَقِّ»، يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: إنَّا أنزلنا إليك يا محمدُ الكتابَ، يعني بالكتاب: القرآن «بالحقِّ»، يعني: بالعدل، يقول: أنزلنا إليكَ هذا القرآنَ يأمرُ بالحقِّ والعدل، ومن ذلك الحقّ والعدل أنْ تعبدَ الله مخلِصاً له الدين، لأنَّ الدينَ له لا للأوثانِ التي لا تملك ضرّاً ولا نفعاً.

وقوله: «فاعْبُدِ الله مُخْلِصاً لَهُ الدّينَ»، يقول تعالى ذكره: فاخشع للهِ يا محمدُ بالطاعة، وأخلص له الألوهةَ، وأفْرِدْهُ بالعبادة، ولا تجعلْ له في عبادتك إياه شريكاً، كما فَعَلَتْ عَبَدَةُ الأوثانِ.

وقوله: «أَلا للهِ الدِّينُ الخالِصُ»، يقول تعالى ذكره: ألا للهِ العبادةُ والطاعةُ وحده لا شريكَ له، خالصة لا شِرك لأحدٍ معه فيها، فلا ينبغي ذلك لأحدٍ، لأنَّ كل مادونه ملكه، وعلى المملوكِ طاعةُ مالكهِ لا مَنْ لا يملكُ منه شيئاً.

وقوله: «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلى اللهِ زُلْفى»، يقول تعالى ذكره: والذين اتخذوا من دونِ الله أولياء يَتَوَلَّوْنَهُمْ، ويعبدونهم من دونِ الله، يقولون لهم: ما نعبدكم أيها الآلهةُ إلا لتقربونا إلى الله زُلْفى، قربةً ومنزلةً، وتشفعوا لنا عنده في حاجاتنا.

وقوله: «إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ»، يقول تعالى ذكره: إنَّ الله يفصلُ بين هؤلاء الأحزابِ الذين اتخذوا في الدنيا من دونِ الله أولياء يومَ القيامة، فيما هُمْ فيه يختلفون في الدنيا من عبادتهم ما كانوا يعبدون فيها، بأنْ يُصْلِيَهم جميعاً جهنمَ، إلا مَنْ أخلصَ الدينَ لله، فوحَّدَهُ، ولم يشركْ به شيئاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي» إلى الحقِّ ودينهِ الإسلام، والإقرارِ بوحدانيته، فيوفِّقهُ له «مَنْ هُوَ كاذِبٌ» مفترٍ على الله، يتقوَّلُ عليه الباطلَ، ويضيفُ إليه ما ليس من صفته، ويزعمُ أنَّ له ولداً افتراءً عليه، كَفَّارٍ لنعمه، جَحُودٍ لربوبيته.

وقوله: «لَوْ أَرادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً»، يقول تعالى ذكره: لو شاء اللهُ اتخاذَ

ولدٍ، ولا ينبغي له ذلك، «لاصطفى مما يخلقُ ما يشاء»، يقول: لاختارَ من خَلْقِه ما يشاء.

وقوله: «سُبْحانَهُ هُوَ اللهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ»، يقول: تنزيهاً لله عن أنْ يكونَ له ولدٌ، وعما أضافَ إليه المشركونَ به من شركهم. «هُوَ اللهُ»، يقول: هو الذي يَعْبده كلُّ شيءٍ، ولو كان له ولَدٌ لم يكن له عبداً، يقول: فالأشياءُ كلها له ملك، فأنَّى يكون له ولدٌ، وهو الواحدُ الذي لا شريكَ له في مُلكِه وسلطانه، والقهارُ لخلقِه بقدرته، فكل شيءٍ له متذلِّلٌ، ومن سطوتِه خاشعٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ﴿٥﴾

يقول تعالى ذكره واصفاً نفسه بصفتها «خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأرْضَ بالحَقّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ على النَّهارِ وَيُكَوِّرُ النَّهارَ على اللَّيْلِ»، يقول: يغشِّي هذا على هذا، وهذا على هذا، كما قال: «يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ، وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ» [الحج: ٦١].

وقوله: «وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والقَمَرَ»، يقول تعالى ذكره: وسخر الشمسَ والقمرَ لعبادِه، ليعلموا بذلك عَدَدَ السنين والحساب، ويعرفوا الليلَ من النهار لمصلحةِ معاشهم «كُلٌّ يَجْري لأَجَلٍ مُسَمًّى»، يقول: كُلّ ذلك يعني: الشمسَ والقمرَ «يَجْري لأَجَلٍ مُسَمًّى»، يعني إلى قيام الساعة، وذلك إلى أنْ تُكَوَّرَ الشمسُ، وتنكدرَ النجومُ. وقيل: معنى ذلك: أنَّ لكلّ واحدٍ منهما منازل، لا تَعْدُوهُ ولا تقصرُ دونَهُ. «ألا هُوَ العَزيزُ الغَفَّارُ»، يقول تعالى ذكره: ألا إنَّ الله الذي فعلَ هذه الأفعالَ وأنعم على خَلْقِه هذه النعم هو العزيزُ في انتقامه ممن عاداه، الغفارُ لذنوبِ عباده التائبينَ إليه منها بعفوِه لهم عنها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾

يقول تعالى ذكره: «خَلَقَكُمْ» أيها الناسُ «مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ» يعني من آدم «ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها»، يقول: ثم جعل من آدمَ زوجَهُ حواء، وذلك أنَّ الله خلقها من ضِلَعٍ من أضلاعه.

وقوله: «وأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأنْعامِ ثَمانِيَةَ أزْوَاجٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وجعلَ لكم من الأنعـامِ ثمـانيةَ أزواجٍ من الإبلِ زوجين، ومن البقرِ زوجين، ومن الضأنِ اثنين، ومن المعْزِ اثنين، كما قال جلّ ثناؤه: «ثَمانِيَةَ أزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْن وَمِنَ المَعْزِ اثْنَيْن».

وقوله: «يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ»، يقول تعالى ذكره: يبتدىء خَلْقَكم أيها الناسُ في بطونِ أمهاتكم خلقاً من بعد خلق، وذلك أنـه يحدثُ فيها نطفةً، ثم يجعلها علقةً، ثم مضغة، ثم عظاماً، ثم يكسو العظام لحماً، ثم يُنْشئه خلقاً آخر، تباركَ اللهُ وتعالى، فذلك خَلْقُه إياهُ خلقاً بَعدَ خَلْقٍ.

وقوله: «في ظُلُماتٍ ثَلاثٍ»، يعني: في ظلمة البطْنِ، وظلمةِ الرَّحِم، وظُلْمة المَشيِمَة.

وقوله: «ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ»، يقول تعالى ذكره: هذا الذي فعلَ هذه الأفعالَ أيها الناسُ هو رَبُّكم، لا مَنْ لا يجلبُ لنفسه نفعاً، ولا يدفع عنها ضرّاً، ولا يسوقُ إليكم خيراً، ولا يدفعُ عنكم سوءً من أوثانِكم وآلهتكم.

وقوله: «لَهُ المُلْكُ»، يقول جلَّ وعزَّ: لِرَبِّكم أيها الناسُ الذي صِفَتُه ما وصفَ لكم، وقُدرته ما بيَّنَ لكم المُلْكُ، مُلْكُ الدنيا والآخرة وسلطانهما لا لغيره؛ فأما ملوكُ الدنيا فإنما يملكُ أحدهم شيئاً دونَ شيءٍ، فإنما له خاص من المُلك. وأما المُلكُ التامُ الذي هو المُلكُ بالإطلاقِ فلله الواحد القهار.

وقوله: «لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لا ينبغي أنْ يكون معبودٌ سواه، ولا تصلحُ العبادةُ إلا له «فأنَّى تُصْرَفُونَ»، يقول تعالى ذكره: فأنَّى تصرفون أيها الناسُ فتذهبون عن عبادةِ رَبِّكم، الذي هذه الصفة صفته، إلى عبادةِ مَنْ لا ضر عنده لكم ولا نفع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «إِنْ تَكْفُرُوا فإنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ، وَلا يَرْضَى لعِبادِهِ الكُفْرَ»، فقال بعضهم: ذلك لخاص من الناسِ، ومعناه: إنْ تكفُروا أيها المشركونَ بالله، فإنَّ الله غنيٌّ عنكم، ولا يرضى لعبادِه المؤمنينَ الذين أخلصهم لعبادتِه وطاعته، الكفرَ.

وقـال آخـرون: بل ذلك عامٌّ لجميعِ الناسِ، ومعناه: أيها الناسُ إنْ تكفروا، فإنَّ الله غنيٌّ عنكم، ولا يرضى لكم أنْ تكفروا به.

والصوابُ من القول في ذلك ما قال الله جلَّ وعزَّ: إنْ تكفُروا بالله أيها الكفارُ به، فإنَّ الله غنيٌّ عن إيمانكم وعبادتكم إياه، ولا يرضى لعبادِه الكفرَ، بمعنى: ولا يرضى لعباده أنْ يكفُروا به، كما يقال: لست أحبُّ الظلمَ، وإنْ

أحببتُ أنْ يَظلمَ فلانٌ فلاناً فيعاقب.

وقـولـه: «وَإنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ»، يقول: وإنْ تُؤمنوا بربكم وتطيعوهُ يَرْضَ شُكْرَكُمْ له، وذلك هو إيمانُهم به وطاعتهم إياه، فكنى عن الشكر ولم يُذْكر، وإنما ذَكَرَ الفعلَ الدالَّ عليه، وذلك نظير قوله: «الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُم إيماناً» [آل عمران: ١٧٣] بمعنى: فزادهم قولُ الناسِ لهم ذلك إيماناً.

وقوله: «وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى»، يقول: لا تأثَمُ آثمةٌ إثم آثمةٍ أخرى غيرَها، ولا تؤاخذ إلا بإثمِ نفسها، يُعْلم عزّ وجلّ عباده أنَّ على كلِّ نفسٍ ما جَنَتْ، وأنها لا تؤاخذ بذنبِ غيرها.

وقوله: «ثُمَّ إلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»، يقول تعالى ذكره: ثم بعد اجتراحكم في الدنيا ما اجترحتم من صالح وسيىءٍ، وإيمانٍ وكفرٍ أيها الناسُ، إلى رَبِّكم مصيرُكم من بعدِ وفاتِكم، «فينبئكم»، يقول: فيخبركم بما كنتم في الدنيا تعملونه من خيرٍ وشرٍّ، فيجازيكم على كلِّ ذلك جزاءكم، المحسنَ منكم بإحسانهِ، والمسيءَ بما يستحقه، يقول عزَّ وجلَّ لعباده: فاتقوا أنْ تلقوا رَبَّكم وقد عملتم في الدنيا بما لا يرضاهُ منكم فتهلكوا، فإنه لا يَخْفَى عليه عملُ عاملٍ منكم.

وقوله: «إنَّهُ عَلِيمٌ بذاتِ الصُّدُورِ»، يقول تعالى ذكره: إنَّ الله لا يَخْفَى عليه ما أضمرَتْهُ صُدورُكم أيها الناسُ مما لا تُدركه أعينكم، فكيف بما أدركته العيونُ ورأته الأبصارُ. وإنما يعني جلّ وعزّ بذلك الخبر عن أنه لا يَخْفَى عليه شيءٌ، وأنـه مُحْصٍ على عبـاده أعمـالهم، ليجازيهم بها كي يتقوه في سِرِّ أمورِهم وعلانيتها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى ذكره: وإذا مَسَّ الإنسانَ بلاءٌ في جسده من مرض، أو عاهةٍ، أو شدّةٍ في معيشته، وجهدٍ وضيقٍ «دعَا رَبَّهُ»، يقول: استغاثَ بربه الذي خلقه من شدّةِ ذلك، ورَغِبَ إليه في كشفِ ما نزلَ به من شدّة ذلك.

وقوله: «مُنِيباً إلَيْهِ»، يقول: تائباً إليه مما كان من قبل ذلك عليه من الكفرِ به، وإشراكِ الآلهةِ والأوثانِ به في عبادته، راجعاً إلى طاعته.

وقوله: «ثُمَّ إذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ»، يقول تعالى ذكره: ثم إذا منحه رَبُّه نعمةً منه، يعني عافية، فكشفَ عنه ضُرَّهُ، وأبدلَهُ بالسقمِ صحةً، وبالشدةِ رخاءً. والعربُ تقولُ لكلِّ مَنْ أعطى غيره من مالٍ أو غيره: قد خَوَّلَهُ.

وقوله: «نَسِيَ ما كانَ يَدْعُو إلَيْهِ مِنْ قَبْلُ»، يقول: تركَ دعاءه الذي كان يدعو إلى اللهِ من قَبْلُ أنْ يكشفَ ما كان به من ضُرٍّ «وَجَعَلَ للهِ أنْدَاداً» يعني: شركاء.

وقوله: «لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ»، يقول: ليزيلَ مَنْ أراد أنْ يُوحِّدَ الله ويؤمنَ به عن توحيده، والإقرار به، والدخول في الإسلام.

وقوله: «قُلْ تَمَتَّعْ بكُفْركَ قَليلاً»، يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ لفاعلِ ذلك: تَمَتَّعْ بكفركَ باللهِ قليلاً إلى أنْ تستوفي أجلكَ، فتأتيكَ مَنِيَّتُكَ. «إنَّكَ مِنْ أصحَابِ النَّارِ»: أي إنكِ من أهلِ النار الماكثينَ فيها.

وقوله: «تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ»: وعيدٌ من الله وتهدُّدٌ.

الزمر: ٩

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾

اختلفت القَرَأة في قراءة قوله: «أمَّنْ» فقرأ ذلك بعض المكيين وبعض المدنيين وعامة الكوفيين «أمَنْ» بتخفيف الميم، ولقراءتهم ذلك كذلك وجهان: أحدهما أنْ يكون الألف في «أمَن» بمعنى الدعاء، يُرادُ بها: يامَنْ هو قانتٌ آناءَ الليل، والعربُ تنادي بالألفِ كما تنادى بيا، فتقول: أزيدٌ أَقْبِلْ، ويا زيدُ أقبل؛ وإذا وجهت الألف إلى النداء كان معنى الكلام: قُلْ تَمَتَّعْ أيها الكافرُ بكفرِكَ قليلاً، إنكَ من أصحابِ النار، ويا مَنْ هو قانتٌ آناءَ الليل ساجداً وقائماً إنك من أهلِ الجنة، ويكون في النار عَمَّا للفريقِ الكافرِ عندَ اللهِ من الجزاءِ في الآخـرة، الكفـايةُ عن بيان ما للفريقِ المؤمن، إذْ كان معلوماً، اختلافُ أحوالهما في الدنيا، ومعقولاً أنَّ أحدهما إذا كان من أصحابِ النار لكفرِه بربه أنَّ الآخرَ من أصحابِ الجنة، فحذف الخبرَ عَمَّا له، اكتفاءً بفهمِ السامعِ المراد منه من ذِكْرِ، إذْ كان قد دَلَّ على المحذوفِ بالمذكورِ. والثاني: أنْ تكون الألف التي في قوله «أمَنْ» ألف استفهام، فيكون معنى الكلام: أهَذَا كالذي جعلَ للهِ أنداداً ليضلَّ عن سبيله، ثم اكتفى بما قد سبق من خبرِ اللهِ عن فريقِ الكفرِ به من أعدائه، إذْ كان مفهوماً المراد بالكلام وقرأ ذلك بعض قَرَأة المدينةِ والبصـرة وبعض أهـل الكـوفـة: «أمَّنْ» بتشديد الميم، بمعنى: أم من هو؟ ويقولون: إنما هي «أمَّنْ» استفهام اعترض في الكلام بعد كلامٍ قد مضى، فجاء بأم، فعلى هذا التأويل يجبْ أنْ يكونَ جوابُ الاستفهام متروكاً من أجلِ أنه قد جرى الخبرُ عن فريقِ الكفر، وما أعدَّ له في الآخرة، ثم أتبع الخبر عن فريقِ الإيمان، فعلم بذلك المراد، فاستغني بمعرفة السامع بمعناه من ذِكْرِه، إذْ كان معقولاً أن معناه هذا أفضل أم هذا؟

والقول في ذلك عندنا أنهما قراءتان قرأ بكلٍّ واحدةٍ علماءُ من القَرَأةِ مع صحة كلٍّ واحدةٍ منهما في التأويل والإعراب، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيبٌ.

وقوله: «آناءَ اللَّيْلِ» يعني: ساعات الليل.

وقوله: «ساجِداً وقَائماً»، يقول: يقنت ساجداً أحياناً، وأحياناً قائماً، يعني: يطيعُ، والقنوتُ عندنا الطاعةُ، ولذلك نصب قوله: «ساجِداً وقَائماً» لأنَّ معناه: أمَّنْ هو يقنتُ آناءَ الليلِ ساجداً طوراً، وقائماً طوراً، فهما حالٌ من قانت.

وقوله: «يَحْذَرُ الآخِرَةَ ويَرْجو رحمةَ رَبِّهِ»، يقول: يَحْذَرُ عذابَ الآخرة، ويرجو أن يرحمه الله فيدخله الجنة.

وقوله: «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ»، يقول تعالى ذكره: قل يا محمدُ لقومكَ: هل يستوي الذين يعلمونَ ما لهم في طاعتهم لربِّهم من الثوابِ، وما عليهم في معصيتهم إياهُ من التبعاتِ، والذين لا يعلمون ذلك، فهم يخبطون في عشواء، لا يرجونَ بحسن أعمالهم خيراً، ولا يخافون بسيِّئها شراً، يقول: ماهذان بمتساويين.

وقوله: «إنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الألْبابِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنما يعتبرُ حججَ الله، فيتعظ، ويتفكر فيها، ويتدبرها أهلُ العقولِ والحجى، لا أهلُ الجهلِ والنقصِ في العقول.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: «قُلْ» يا محمدُ لعبادي الذين آمنوا: «يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا» بالله، وصدقوا رسوله «اتَّقوا رَبَّكُمْ» بطاعتِهِ واجتنابِ معاصيه «لِلَّذِينَ أحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ».

ثم اختلف أهلُ التأويلِ في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: للذين أطاعوا الله حسنة في هذه الدنيا، وقال: «في» من صلة حسنة، وجعل معنى الحسنة: الصحة والعافية.

وقال آخرون: «في» من صلة أحسنوا، ومعنى الحسنة: الجنة.

وقوله: «وأرْضُ الله وَاسِعَةٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأرضُ الله فسيحةٌ واسعة، فهاجروا من أرضِ الشركِ إلى دارِ الإسلام.

وقوله: «إنَّمَا يُوَفَّى الصَّابُرونَ أجْرَهُمْ بغَيرِ حسابٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنما يُعطي الله أهلَ الصبرِ على ما لقوا فيه في الدنيا أجرهم في الآخرة «بغيرِ حسابٍ»، يقول: ثوابهم بغير حساب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ لمشركي قومك: إنَّ الله أمرني أنْ أعبده مُفْرداً له الطاعةَ، دونَ كلِّ ماتدعون من دونه من الآلهة والأنداد «وأُمِرْتُ لأَنْ أكُونَ أوَّلَ المُسْلمينَ»، يقول: وأمرني ربي جلَّ ثناؤه بذلك، لأنْ أكونَ بفعلِ ذلك أوَّلَ مَنْ أسلم منكم، فخضعَ له بالتوحيدِ، وأخلصَ له العبادة، وبرئَ من كلِّ مادونه من الآلهة.

وقوله تعالى: «قُلْ إنّي أخافُ إنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ»، يقول تعالى ذكره: قُلْ يا محمدُ لهم إني أخاف إنْ عصيتُ ربي فيما أمرني به من عبادته،

مخلصاً له الطاعةَ، ومُفْرِدَهُ بالربوبية. «عذابَ يومٍ عَظِيم»، يعني عذاب يوم القيامة، ذلك هو اليوم الذي يعظم هَوْلُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ۝١٤ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ۝١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمد لمشركي قومك: اللهَ أعبدُ مخلصاً، مُفْرِداً له طاعتي وعبادتي، لا أجعلُ له في ذلك شريكاً، ولكني أُفرده بالألوهةِ، وأبرأُ مما سواه من الأندادِ والآلهةِ، فاعبدوا أنتم أيها القومُ ماشئتم من الأوثانِ والأصنامِ، وغير ذلك مما تعبدونَ من سائرِ خلقه، فستعلمون وبالَ عاقبةِ عبادتكم ذلك إذا لقيتم ربَّكم.

وقوله: «قُلْ إنَّ الخاسِرينَ الَّذينَ خَسِرُوا أنْفُسَهُمْ»، يقول تعالى ذكره: قُلْ يا محمد لهم: إنَّ الهالكينَ الذين غَبَنُوا أنفسهم، وهلكتْ بعذابِ الله أهلُوهم مع أنفسهم، فلم يكنْ لهم إذْ دخلوا النارَ فيها أهل، وقد كان لهم في الدنيا أهلون.

وقوله: «ألا ذلكَ هُوَ الخُسْرانُ المُبِينُ»، يقول تعالى ذكره: ألا إنَّ خسرانَ هؤلاء المشركينَ أنفسهم وأهليهم يومَ القيامة، وذلك هلاكُها هو الخسرانُ المبين، يقول تعالى ذِكْرُه: هو الهلاكُ الذي يبينُ لمن عاينه وعلمه أنه الخسران.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ۝١٦ وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا

وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاء الخاسرين يوم القيامة في جهنم «مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّار»، وذلك كهيئةِ الظلل المبنيةِ من النار. «وَمِنْ تَحتهمْ ظُلَلٌ»، يقول: ومن تحتهم من النارِ ما يَعْلُوهم، حتى يصيرَ ما يعلوهم منها من تحتهم ظللاً، وذلـك نظير قولـهِ جلَّ ثنـاؤه: «لَهُمْ مِنْ جَهَنَمَ مِهـادٌ، وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ» [الأعراف: ٤١] يغشاهم مما تحتهم فيها من المهاد.

وقوله: «ذلكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عبادَهُ، يا عبادِ فاتَّقُونِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي أخبرتكم أيها الناسُ به، مما للخاسرينَ يومَ القيامةِ من العذابِ، تخويفٌ من رَبِّكم لكم، يُخَوِّفُكم به لتحذروه، فتجتنبوا معاصيه، وتُنِيبُوا من كفركم إلى الإيمانِ به، وتصديقِ رسوله، واتباعِ أمرِه ونهيه، فتنجوا من عذابِهِ في الآخرة «فاتَّقُونِ»، يقول: فاتقونِ بأداءِ فرائضي عليكم، واجتنابِ معاصي، لتنجوا من عذابي وسخطي.

وقوله: «وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ»: أي اجتنبوا عبادةَ كُلِّ ما عُبدَ من دونِ الله من شيء. ومعنى الطاغـوت في هذا الموضع: الشيطانُ، وهو في هذا الموضع وغيره بمعنى واحدٍ عندنا.

وقـولـه: «وأنـابُوا إلى اللهِ»، يقول: وتابوا إلى اللهِ ورجعوا إلى الإقرارِ بتوحيدِه، والعملِ بطاعته، والبراءةِ مما سواهُ من الآلهةِ والأنداد.

وقوله: «لَهُمُ البُشْرَى» يقول: لهم البشرى في الدنيا بالجنة في الآخرة «فَبَشِّـرْ عِبـاد الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ» يقول جلَّ ثناؤه لنبيه محمدٍ ﷺ: فَبَشِّرْ يا محمدُ عبادي الذين يستمعون القولَ من القائلين، فيتبعونَ أرشَدَهُ وأهداه،

وأدَلَّهُ على توحيدِ الله، والعمل بطاعته، ويتركون ما سوى ذلك من القولِ الذي لا يدلُّ على رشادٍ، ولا يهدي إلى سداد.

وقوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللهُ»، يقول تعالى ذكره: الذين يستمعونَ القولَ فيتبعونَ أحسنه الذين هداهم الله، يقول: وفَّقَهُم اللهُ للرشادِ وإصابة الصواب، لا الذين يُعْرِضون عن سماع الحقِّ، ويعبدون ما لا يضرُّ، ولا ينفع.

وقوله: «وأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الألْبابِ»، يعني: أُولُوا العقولِ والحجا.

وذُكر أنَّ هذه الآيـة نزلتْ في رهطٍ معروفينَ وَحَّدَوا الله، وبرئوا من عبادةِ كُلِّ ما دون الله قبل أن يُبعث نبيّ الله، فأنزل الله هذه الآيةَ على نبيه يمدحهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «أفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ العَذَابِ»: أفمن وَجَبَتْ عليه كلمةُ العذاب في سابقِ علم رَبِّكَ يا محمدُ بكفره به.

وقوله: «أفَأنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: أفأنتَ تنقذُ يا محمدُ مَنْ هو في النار مَنْ حقَّ عليه كلمةُ العذاب، فأنتَ تُنقذه؟

وقوله: «لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ»، يقول تعالى ذكره: لكنِ الذين اتقوا رَبَّهم بأداءِ فرائضِه واجتنابِ محارمه، لهم في الجنة غرفٌ من فوقها غرفٌ مبنيةٌ علاليٌّ بعضُها فوقَ بعض «تَجْري مِنْ تَحْتِها الأنهارُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: تجري من تحتِ أشجارِ جناتها الأنهارُ.

وقوله: «وَعدَ اللهُ»، يقول جلّ ثناؤه: وَعَدَنا هذه الغرفَ التي من فوقها غرفٌ مبنيةٌ في الجنة، هؤلاء المتقينَ.

«لا يُخْلفُ اللهُ المِيعادَ»، يقول جلّ ثناؤه: واللهُ لا يُخْلِفُهم وَعْدَهُ، ولكنه يوفي بوعده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: «أَلَمْ تَرَ» يا محمدُ «أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً» وهو المطرُ «فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الأَرْضِ»، يقول: فأجراه عيوناً في الأرض، واحدها ينبوع، وهو ما جاشَ من الأرض. قال: ثم أنبتَ بذلك الماء الذي أنزله من السماء فجعلَهُ في الأرض عيوناً «زرعاً مختلفاً أَلْوَانُهُ» يعني: أنواعاً مختلفة من بين حنطة وشعير وسمسم وأرز، ونحو ذلك من الأنواع المختلفة «ثُمَّ يَهِيجُ فَتراهُ مُصْفَرّاً»، يقول: ثم يَيْبَسُ ذلك الزرعُ من بعد خُضرته، يقال للأرضِ إذا يبسَ ما فيها من الخضرة وذَوَى: هاجتِ الأرضُ، وهاجَ الزرعُ.

وقوله: «فَتَرَاه مُصْفَرّاً»، يقول: فتراه من بعد خُضْرَتِهِ ورطوبته قد يَبِسَ فصار أصفر، وكذلك الزرعُ إذا يبس اصفرَّ. «ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً» والحُطام: فتاتُ التبنِ والحشيشِ، يقول: ثم يجعل ذلك الزرع بعد ما صار يابساً فُتاتاً مُتَكَسِّراً.

وقوله: «إِنَّ فِي ذلكَ لَذِكْرَى لأُولي الأَلْباب»، يقول تعالى ذكره: إنَّ في فعلِ اللهِ ذلك كالذي وصف لذكرى وموعظةً لأهلِ العقول والحجا يتذكرون به، فيعلمونَ أنَّ مَنْ فعلَ ذلك فلن يتعذَّرَ عليه إحداثُ ما شاء من الأشياء، وإنشاء ما أرادَ من الأجسام والأعراض، وإحياء مَنْ هلكَ من خَلْقِه من بعد مماتِه وإعادتِه من بعد فنائِه، كهيئتِه قبلَ فَنائِه، كالذي فُعِلَ بالأرضِ التي أنزل عليها

من بعد موتها الماء، فأنبتَ بها الزرعَ المختلفَ الألوانِ بقدرته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى ذكره: أفمن فَسَح الله قلبه لمعرفته، والإقرارِ بوحدانيته، والإذعانِ لربوبيته، والخضوعِ لطاعته «فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ»، يقول: فهو على بصيرةٍ مما هو عليه ويقين، بتنويرِ الحقِّ في قلبِهِ، فهو لذلك لأمر اللهِ مُتَّبِعٌ، وعَمَّا نَهاهُ عنه مُنْتَهٍ فيما يرضيه، كمن أقسى اللهُ قَلْبَهُ، وأخلاهُ من ذِكْرِه، وضَيَّقَهُ عن استماعِ الحق، واتباعِ الهدى، والعملِ بالصواب، وتَرَكَ ذِكْر الذي أقسى الله قلبَهُ، وجوابَ الاستفهام اجتزاءً بمعرفةِ السامعينَ المراد من الكلام، إذ ذكر أحد الصنفين، وجعل مكانَ ذكر الصنف الآخر الخبر عنه بقوله: «فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ».

قولـه: «فَوَيْلٌ للقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ»، يقول تعالى ذكره: فويلٌ للذين جَفَتْ قلوبُهم ونَأَتْ عن ذكرِ الله وأعرضتْ، يعني عن القرآنِ الذي أنزله تعالى ذِكْرُه، مُذَكِّراً به عبادَهُ، فلم يؤمنْ به، ولم يصدِّقْ بما فيه. وقيل «مِنْ ذِكْرِ اللهِ»، والمعنى: عن ذكرِ الله، فوضعت مِنْ مكان عَنْ، كما يقال في الكلام: أُتخمتُ من طعامٍ أكلته، وعن طعامٍ أكلته بمعنى واحد.

وقولـه: «أُولَئِكَ في ضَلالٍ مُبِينٍ»، يقول تعالى ذكره: هؤلاء القاسية قلوبهم من ذكرِ الله في ضلالٍ مُبين، لمن تأمَّله وتدبَّره بفهمٍ أنه في ضلالٍ عن الحقِّ جائر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا

﴿مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٢٣﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: «اللهُ نَزَّلَ أحْسَنَ الحَديثِ كِتاباً»، يعني به القرآنَ «مُتَشابِهاً»، يقول: يشبه بعضُه بعضاً، لا اختلافَ فيه، ولا تضادَّ.

وقوله: «مَثانِيَ»، يقول: تُثَنَّى فيه الأنباءُ والأخبارُ والقضاءُ والأحكامُ والحُجَج.

وقوله: «تَقْشَعِر مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: تقشعرُّ من سَمـاعـهِ إذا تُلِيَ عليهم جلودُ الـذين يخافون رَبَّهم. «ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ اللهِ» يعني إلى العمل بما في كتابِ الله، والتصديقِ به.

وذُكر أنَّ هذه الآية نزلتْ على رسولِ الله ﷺ من أجلِ أنَّ أصحابَهُ سألوه الحديثَ.

«ذلكَ هُدَى اللهِ يَهدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي يصيبُ هؤلاء القوم الذين وصفتُ صِفَتَهم عند سماعِهم القرآنَ من اقشعرارِ جلودهم، ثم لِينُها ولينُ قلوبهم إلى ذِكْرِ الله من بعد ذلك، «هُدَى اللهِ»، يعني: توفيق الله إياهم وفَّقهم له «يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ»، يقول: يهدي تبارك وتعالى بالقرآنِ مَنْ يشاءُ من عباده.

وقد يتوجَّه معنى قوله: «ذلكَ هُدَى» إلى أنْ يكونَ ذلك من ذِكْرِ القرآن، فيكون معنى الكلام: هذا القرآنُ بيانُ الله يهدي به مَنْ يشاء، يوفق للإيمانِ به من يشاء.

وقوله: «وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هادٍ»، يقول تعالى ذكره: ومَنْ يخذلْهُ

الله عن الإيمانِ بهذا القرآنِ والتصديقِ بما فيه، فيضله عنه، «فما لَهُ من هادٍ»: يقول: فما له من مُوَفِّقٍ له، ومسددٍ يُسَدِّدُه في اتباعه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

اختلف أهلُ التأويلِ في صفةِ اتقاء هذا الضالِّ بوجههِ سُوءَ العذاب، فقال بعضهم: هو أنْ يُرْمى به في جهنم مكبوباً على وجهه، فذلك اتقاؤه إياه.

وقال آخرون: هو أنْ ينطلقَ به إلى النار مكتوفاً، ثم يُرْمَى به فيها، فأوّل ما تمسُّ النارُ وجهه.

وهذا أيضاً مما ترك جوابه استغناء بدلالةِ ماذكر من الكلام عليه عنه. ومعنى الكلام: أَفَمَنْ يَتَّقي بوجههِ سوءَ العذابِ يومَ القيامة خيرٌ، أم من ينعم في الجنان؟

وقـولـه: «وقِيلَ للظَّالِمِينَ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ»، يقول: ويقال يومئذٍ للظالمينَ أنفسهم بإكسابِهم إياها سخطَ الله، ذُوقُوا اليومَ أيها القومُ وبالَ ما كنتم في الدنيا تكسبون من معاصي الله.

وقوله: «كَذَّبَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: كَذَّبَ الذين من قبل هؤلاء المشركين من قُريش من الأممِ الذين مضوا في الدهور الخالية رسلهم «فَـأتـاهُمُ العَـذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُـرونَ»، يقول: فجاءهم عذابُ اللهِ من الموضعِ الذي لا يشعرون: أي لا يعلمونَ بمجيئهِ منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ

ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى ذكره: فَعَجَّلَ اللهُ لهؤلاء الأمم الذين كَذَّبُوا رسلهم الهوانَ في الدنيا، والعذابَ قبل الآخرة، ولم يُنْظِرْهُم إذ عَتَوْا عن أمرِ رَبِّهم. «وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ»، يقول: ولعذابُ الله إياهم في الآخرة إذا أدخلهم النارَ، فعذَّبهم بها، أكبر من العذابِ الذي عَذَّبهم به في الدنيا، «لو كانوا يعلمون»، يقول: لو عَلِمَ هؤلاء المشركونَ من قريش ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى ذكره: ولقد مَثَّلْنَا لهؤلاء المشركينَ بالله من كُلِّ مَثَلٍ من أمثالِ القرون للأممِ الخالية، تخويفاً مِنَّا لهم وتحذيراً. «لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ»، يقول: ليتذكَّرُوا فينزجروا عما هُمْ عليه مقيمونَ من الكفر بالله.

وقوله: «قُرآناً عَرَبياً»، يقول تعالى ذكره: لقد ضربنا للناسِ في هذا القرآنِ من كُلِّ مَثَلٍ قرآناً عربياً «غيرَ ذِي عِوَجٍ» يعني: ذي لَبْسٍ.

وقوله: «لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ»، يقول: جعلنا قرآناً عربياً إذْ كانوا عرباً، ليفهموا ما فيه من المواعظِ، حتى يتقوا ما حذَّرهم الله فيه من بأسِهِ وسطوته، فَيُنِيبُوا إلى عبادتهِ وإفرادِ الأُلوهةِ له، ويتبرَّؤوا من الأندادِ والآلهة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مَثَّلَ اللهُ مثلاً للكافرِ بالله الذي يعبدُ آلهةً شَتَّى، ويطيع جماعةً من الشياطين، والمؤمن الذي لا يعبدُ إلا الله الواحد، يقول تعالى ذِكْرُه: ضَرَب اللهُ مثلاً لهذا الكافر «رجلاً فيه شركاء»، يقول: هو بين جماعةٍ مالكينَ متشاكسينَ، يعني مختلفينَ متنازعينَ، سيئة أخلاقهم، من قولهم: رَجُلٌ شَكِسٌ: إذا كان سيئَ الخُلُقِ وكل واحدٍ منهم يستخدمه بقدرِ نصيبهِ ومِلْكِه فيه، «ورجلاً سَلَماً لرجل»، يقول: ورجلاً خُلُوصاً لرجلٍ يعني المؤمن المُوَحِّدَ الذي أخلصَ عبادتَهُ لله، لا يعبدُ غيره ولا يَدِينُ لشيءٍ سواه بالربوبية.

وقوله: «هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: هل يستوي مِثْلُ هذا الذي يخدمُ جماعةَ شركاء سيئة أخلاقهم مختلفة فيه لخدمتهِ مع منازعتهِ شركاءه فيه، والذي يخدم واحداً لا ينازعُه فيه منازعٌ إذا أطاعه عرفَ له موضعَ طاعتهِ وأكرمه، وإذا أخطأ صَفَحَ له عن خطئهِ، يقول: فأيُّ هذين أحسنُ حالاً وأروحُ جسماً وأقلُّ تعباً ونَصَباً.

وقوله: «الحَمْدُ للهِ»، يقول: الشكرُ الكاملُ، والحمدُ التامُّ لله وحده دونَ كلِّ معبودٍ سواه.

وقوله: «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ»، يقول جل ثناؤه: وما يستوي هذا المُشْتَرَكُ فيه، والذي هو مُنْفَرِدُ مُلْكِه لواحدٍ، بل أكثر هؤلاء المشركين بالله لا يعلمون أنهما لا يستويان، فهم بجهلِهم بذلك يعبدونَ آلهةً شَتَّى من دونِ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٣٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: إنك يا محمدُ ميتٌ عن قليل، وإنَّ

هؤلاء المُكَذِّبيكَ من قومكَ والمؤمنينَ منهم ميتون. «ثُمَّ إنَّكُمْ يَوْمَ القِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ»، يقول: ثم إن جميعكم المؤمنينَ والكافرينَ يومَ القيامة عند رَبِّكم تختصمونَ فيأخذ للمظلومِ منكم من الظالمِ، ويفصلُ بين جميعِكم بالحقِّ.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: عَنَى به اختصامَ المؤمنينَ والكافرينَ، واختصامَ المظلومِ والظالم.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك اختصام أهلِ الإسلام.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ أنْ يقال: عَنَى بذلك: إنك يا محمدُ ستموتُ، وإنكم أيها الناسُ ستموتون، ثم إنَّ جميعكم أيها الناسُ تختصمونَ عند ربكم، مؤمنكم وكافركم، ومُحِقُّوكم ومُبْطِلُوكم، وظالموكم ومظلوموكم، حتى يؤخذَ لكلٍّ منكم، مِمَّنْ لصاحبِهِ قِبَلَهُ حَقٌّ، حَقُّه.

وإنما قلنا هذا القولَ أَوْلى بالصوابِ لأنَّ الله عَمَّ بقوله: «ثُمَّ إنَّكُمْ يَوْمَ القِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ» خطابَ جميعِ عبادِه، فلم يخصصْ بذلك منهم بعضاً دونَ بعضٍ، فذلك على عمومه على ماعَمَّهُ اللهُ به، وقد تنزل الآية في معنى، ثم يكون داخلاً في حكمها كلُّ ما كان في معنى ما نزلتْ به.

وقوله: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلى اللهِ، وكَذَّبَ بالصِّدْقِ إذْ جاءَهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فَمن مِن خَلْقِ الله أعظمُ فِريةً ممن كذبَ على الله، فادَّعى أنَّ له ولداً وصاحبةً، أو أنه حرَّم ما لم يحرمه من المطاعم. «وكَذَّبَ بالصِّدْقِ إذْ جاءَهُ»، يقول: وكذَّبَ بكتابِ الله إذْ أنزله على محمدٍ، وابتعثه اللهُ به رسولاً، وأنكر قولَ لا إله إلا الله.

وقوله: «أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكافِرِينَ»، يقول تبارك وتعالى: أليسَ في النارِ مأوى ومسكن لمن كَفَرَ بالله، وامتنعَ من تصديقِ محمدٍ ﷺ، واتِّباعِهِ على

ما يَدْعُوه إليه مما أتاه به من عند الله من التوحيدِ، وحُكْمِ القرآن.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في الذي جاء بالصِّدْقِ وصَدَّقَ به، وما ذلك؛ فقال بعضهم: الذي جاء بالصدق رسولُ الله ﷺ، قالوا: والصِّدْقُ الذي جاء به: لا إله إلا الله، والذي صَدَّقَ به أيضاً، هو رسولُ الله ﷺ.

وقال آخرون: الذي جاء بالصدقِ: رسولُ الله ﷺ، والذي صَدَّقَ به: أبو بكرٍ رضي الله عنه.

وقال آخرون: الذي جاء بالصدق: رسولُ الله ﷺ، والصِّدْقُ: القرآنُ، والمصدقون به: المؤمنون.

وقال آخرون: الذي جاء بالصدق جبريلُ، والصدق: القرآنُ الذي جاء به من عندِ الله، وصدَّقَ به رسولُ الله ﷺ.

وقال آخرون الذي جاء بالصدق: المؤمنونَ، والصدقُ: القرآنُ، وهم المصدِّقونَ به.

والصواب من القول في ذلك أنْ يقالَ: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه عَنَى بقوله: «وَالَّذِي جاءَ بالصِّدْقِ وَصَدَّق بِهِ» كلُّ مَنْ دعا إلى توحيدِ الله، وتصديقِ رُسُلهِ، والعمل بما ابتعثَ به رسولَهُ ﷺ من بين رسلِ الله وأتباعِهِ والمؤمنينَ به، وأنْ يقال الصدق: هو القرآنُ، وشهادةُ أنْ لا إله إلا الله، والمصدِّقُ به: المؤمنونَ بالقرآنِ، من جميعِ خَلْقِ الله كائناً مَنْ كان من نبيٍّ الله وأتباعه.

وإنما قلنا ذلك أوْلى بالصواب، لأنَّ قوله تعالى ذِكْرُه: «وَالَّذِي جاءَ بالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ» عُقيبَ قوله: «فَمَنْ أظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ على اللهِ، وَكَذَّبَ بالصِّدْقِ إذْ جاءَهُ»، وذلك ذَمٌّ من الله للمفترينَ عليه، المكذِّبينَ بتنزيلِه ووحيِه، الجاحدينَ وحدانيتَهُ، فالواجبُ أنْ يكونَ عقيبَ ذلك مدحُ من كان بخلافِ صفةِ هؤلاء المذمومينَ، وهم الذين دعوهم إلى توحيدِ الله، ووصفه بالصفةِ التي هو بها، وتصديقهم بتنزيلِ اللهِ ووحيِهِ، والذين هُمْ كانوا كذلك يوم نزلتْ هذه الآيةُ، رسولُ الله ﷺ وأصحابهُ ومَنْ بعدهم، القائمونَ في كل عصرٍ وزمانٍ بالدعاءِ إلى توحيدِ الله، وحكمِ كتابِهِ، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه لم يخصَّ وصفه بهذه الصفةِ التي في هذه الآية على أشخاصٍ بأعيانِهم، ولا على أهلِ زمانٍ دونَ غيرهم، وإنما وصفهم بصفةٍ، ثم مدحهم بها، وهي المجيء بالصدقِ والتصديقِ به، فكل مَنْ كان كذلك وَصْفُه فهو داخلٌ في جملةِ هذه الآية إذا كان من بني آدم.

وقوله: «أُولَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ»، يقول جلّ ثناؤه: هؤلاء الذين هذه صِفَتُهم، هُم الذين اتقوا الله بتوحيدِهِ والبراءةِ من الأوثانِ والأندادِ، وأداءِ فرائضِه، واجتنابِ معاصيه، فخافوا عقابه.

وقوله: «لَهُمْ ما يَشاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لهم عند رَبِّهم يومَ القيامة، ما تشتهيه أنفسُهم، وتَلَذُّهُ أعينُهم. «ذلكَ جَزاءُ المُحْسِنِينَ»، يقول تعالى ذكره: هذا الذي لهم عند ربهم، جزاءُ مَنْ أحْسَنَ في الدنيا فأطاعَ الله فيها، وأتَمَرَ لأمرِه، وانتهى عما نَهاهُ فيها عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وجَزَى هؤلاء المحسنينَ رَبُّهم بإحسانِهم، كي يُكَفِّرَ عنهم أسوأَ الذي عملوا في الدنيا من الأعمالِ، فيما بينهم وبين رَبِّهم، بما كانَ منهم فيها من توبةٍ وإنابةٍ مما اجترحوا من السيئات فيها. «ويَجْزِيهُم أجْرَهُمْ»، يقول: ويثيبهم ثوابهم «بأحْسَنِ الَّذِي كانُوا» في الدنيا «يَعْمَلُونَ» مما يرضى الله عنهم دون أسوئها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾

اختلفت القَرَأة في قراءة: «ألَيْسَ اللهُ بكافٍ عَبْدَهُ» فقرأ ذلك بعض قَرَأة المدينة وعامة قَرَأة الكوفة «ألَيْسَ الله بكافٍ عِبادَهُ» على الجماع، بمعنى: أليس الله بكافٍ محمداً وأنبياءه من قبله ما خَوَّفَتْهُمْ أُممهم من أنْ تنالَهم آلهتُهم بسوءٍ، وقرأ ذلك عامةُ قَرَأة المدينة والبصرة، وبعض قَرَأة الكوفة «بِكافٍ عَبْدَهُ» على التوحيد، بمعنى: أليس الله بكافٍ عبده محمداً.

والصوابُ من القول في ذلك أنهما قراءتان مشهورتان في قَرَأةِ الأمصار. فبأيتهما قرأ القارئُ فمصيبٌ لصحةِ مَعْنَيَيْهَا واستفاضةِ القراءةِ بهما في قَرَأةِ الأمصار.

وقوله: «ويُخَوِّفُونَكَ بالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ويخوِّفُكَ هؤلاء المشركون يا محمدُ بالذين من دونِ الله من الأوثانِ والآلهةِ أنْ تصيبكَ بسوء، ببراءتك منها، وعيبكَ لها، والله كافيكَ ذلك.

وقوله: «وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هاد»، يقول تعالى ذكره: ومَنْ يخذلهُ الله فيضلُّهُ عن طريقِ الحقِّ وسبيلِ الرشد، فما له سواه من مرشدٍ ومسدِّدٍ إلى

طريقِ الحقِّ، وموفَّقٍ للإيمان بالله، وتصديق رسوله، والعمل بطاعته «وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ»، يقول: ومَنْ يوفِّقهُ الله للإيمانِ به، والعمل بكتابه، «فما لَهُ من مُضِلٍّ»، يقول: فما له من مُزِيغٍ يُزيغُه عن الحقِّ الذي هو عليه إلى الارتدادِ إلى الكفرِ. «أَلَيسَ اللهُ بعَزيزٍ ذِي انْتِقام»، يقول جل ثناؤه: أليسَ اللهُ يا محمدُ بعزيزٍ في انتقامهِ من كَفَرَةِ خَلْقِه، ذي انتقامٍ من أعدائه الجاحدينَ وحدانيته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: ولئن سألتَ يا محمدُ هؤلاء المشركينَ العادلينَ بالله الأوثانَ والأصنامَ مَنْ خلقَ السمواتِ والأرضَ ليقولُنَّ: الذي خَلَقَهُنَّ اللهُ، فإذا قالوا ذلك، فقلْ: أفرأيتم أيها القومُ هذا الذي تعبدونَ من دونِ الله من الأصنامِ والآلهة «إنْ أرادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ»، يقول: بشدة في معيشتي هل هُنَّ كاشفاتٌ عني ما يُصيبني به ربي من الضر. «أوْ أرادَنِي بِرَحْمَةٍ»، يقول: إنْ أرادني ربي أنْ يصيبني سعة في معيشتي، وكثرة مالي، ورخاء وعافية في بدني، هل هُنَّ ممسكاتٌ عني ما أرادَ أنْ يصيبني به من تلك الرحمة؟ وترك الجواب لاستغناءِ السامعِ بمعرفةِ ذلك، ودلالة ما ظهرَ من الكلام عليه. والمعنى: فإنهم سيقولون: لا، فَقُلْ: حسبيَ اللهُ مما سواه من الأشياء كلها، إياهُ أعبدُ، وإليه أفزعُ في أموري دونَ كلِّ شيءٍ سواه، فإنه الكافي، وبيده الضرُّ والنفعُ، لا إلى الأصنامِ والأوثانِ التي لا تضرُّ ولا تنفع، «عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ»، يقول: على الله يتوكل مَنْ هو متوكلٌ، وبه فليثِقْ لا بغيرِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قل يا محمد لمشركي قومكَ، الذين اتخذوا الأوثانَ والأصنامَ آلهةً يعبدونها من دونِ الله، اعملوا أيها القومُ على تمكنكم من العملِ الذي تعملون ومنازلكم.

وقوله: «مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ»، يقول تعالى ذكره: مَنْ يأتيه عذابٌ يخزيه، ما أتاهُ من ذلك العذاب، يعني يُذله ويُهينه. «ويَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ»، يقول: وينزلُ عليه عذابٌ دائمٌ لا يفارقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: إنا أنزلنا عليكَ يا محمدُ الكتابَ تبياناً للناسِ بالحقِّ. «فَمَن اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ»، يقول: فمن عمل بما في الكتابِ الذي أنزلناهُ إليكَ واتبعه فلنفسِه، يقول: فإنما عملَ بذلك لنفسه، وإياها بَغَى الخيرَ لا غيرَها، لأنه أكسَبها رضا اللهِ والفوزَ بالجنة، والنجاةَ من النارِ «وَمَنْ ضَلَّ»، يقول: ومَنْ جارَ عن الكتابِ الذي أنزلناهُ إليكَ، والبيان الذي بيَّناهُ لك، فَضَلَّ عن قصدِ المحجةِ، وزالَ عن سواءِ السبيلِ، فإنما يجورُ على نفسه، وإليها يسوقُ العَطَبَ والهلاكَ، لأنه يكسبها سخطَ الله، وأليمَ عقابِه، والخِزْيَ الدائم. «ومَا أنْتَ عَلَيْهِمْ بوَكِيل»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما أنتَ يا محمدُ على مَنْ أرسلتك

إليه من النـاسِ برقيبٍ ترقبُ أعمـالهم، وتحفظ عليهم أفعـالهم، إنما أنت رسول، وإنما عليك البلاغ، وعلينا الحساب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى ذكره: ومن الدلالةِ على أنَّ الأُلوهةَ للهِ الواحدِ القهار خالصةٌ دونَ كلِّ ماسواه، أنه يميتُ ويُحيي، ويفعلُ ما يشاء، ولا يقدرُ على ذلك شيءٌ سواه، فجعل ذلك خبراً نَبَّههم به على عظيمِ قُدْرته، فقال: «اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها» فيقبضها عند فناء أجلها، وانقضاءِ مدة حياتها، ويتوفى أيضاً التي لم تَمُتْ في منامها، كما التي ماتت عند مماتها «فَيُمْسِكُ التي قَضَى عَلَيْها المَوْتَ» ذكر أن أرواح الأحياءِ والأموات تلتقي في المنامِ، فيتعارف ما شاء الله منها، فإذا أراد جميعها الرجوع إلى أجسادها أمسكَ اللهُ أرواحَ الأمواتِ عنده وحبسها، وأرسلَ أرواحَ الأحياءِ حتى ترجعَ إلى أجسادها إلى أجلٍ مسمى وذلك إلى انقضاء مدة حياتها.

وقوله: «إنَّ فِي ذلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتفَكَّرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنَّ فِي قبضِ اللهِ نفسَ النـائمِ والميت وإرساله بعدُ نفسَ هذا ترجعُ إلى جسمها، وحَبْسهُ لغيرِها عن جسمها لعبرةً وعظةً لمن تَفَكَّرَ وتدبر، وبياناً له أنَّ الله يحيي مَنْ يشاء من خَلْقِه إذا شاء، ويميتُ مَنْ شاء إذا شاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ

مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أم اتَّخَذَ هؤلاء المشركونَ باللهِ من دونه آلهتهم التي يعبدونها شفعاءَ تشفعُ لهم عند الله في حاجاتهم.

وقوله: «قُلْ أَوَلَوْ كانُوا لا يَمْلِكونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ لهم: أتتخذونَ هذه الآلهةَ شفعاءَ كما تزعمونَ ولو كانوا لا يملكون لكم نفعاً ولا ضرّاً، ولا يعقلون شيئاً قل لهم: إنْ تكونوا تعبدونها لذلك، وتشفع لكم عندَ اللهِ، فأخلِصُوا عبادتكم لله، وأفردوه بالألوهةِ، فإنَّ الشفاعةَ جميعاً له، لا يشفعُ عنده إلا مَنْ أذنَ له، ورضيَ له قولاً، وأنتم متى أخلصتم له العبادةَ، فَدَعَوْتُموهُ، شفعكم. «لهُ ملكُ السمواتِ والأرض»، يقول: له سلطانُ السمواتِ والأرضِ ومُلكها، وما تعبدونَ أيها المشركونَ من دونهِ مُلْكٌ له: يقول: فاعبدوا الملك لا المملوكَ الذي لا يملكُ شيئاً. «ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»، يقول: ثم إلى الله مصيركم، وهو مُعَاقِبُكم على إشراكِكم به، إنْ متم على شِرْكِكُمْ.

ومعنى الكلام: لله الشفاعة جميعا، له مُلك السموات والأرض، فاعبدوا المالك الذي له مُلك السموات والأرض، الذي يقدر على نفعكم في الدنيا، وعلى ضرّكم فيها، وعند مرجعكم إليه بعد مماتكم، فإنكم إليه ترجعون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا أُفرِدَ اللهُ جلَّ ثناؤه بالذِّكْرِ، فَدُعيَ وحده، وقِيلَ:

لا إله إلا الله، اشمأزّتْ قلوبُ الذين لايؤمنونَ بالمعادِ والبعثِ بعد المماتِ. وعنى بقوله: «اشْمأَزَّتْ»: نفرت من توحيدِ الله، «وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ»، يقول: وإذا ذُكِرَ الآلهةُ التي يدعونها من دونِ الله مع الله، فقيل: تلك الغرانيقُ العُلَى، وإنَّ شفاعتها لَتُرْتَجَى، إذِ الذينَ لا يؤمنونَ بالآخرةِ يستبشرون بذلك ويفرحون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قل يا محمدُ، اللهُ خالقُ السمواتِ والأرض. «عالمَ الغَيْبِ والشَّهادَةِ» الذي لا تراهُ الأبصارُ، ولا تُحسُّه العيونُ، «والشهادةِ» الذي تَشْهَدُهُ أبصارُ خَلْقِه، وتراه أعينهم «أَنْتَ تَحْكُمُ بينَ عِبادِكَ» فتفصلُ بينهم بالحقِّ يوم تجمعهم لفصلِ القضاء بينهم. «فِيما كانُوا فِيهِ» في الدنيا «يَخْتَلِفُونَ» من القولِ فيكَ، وفي عظمتك وسلطانك، وغيرِ ذلك من اختلافهم بينهم، فتقضي يومئذٍ بيننا وبين هؤلاء المشركينَ الذين إذا ذُكِرَتْ وحدكَ اشمأزّتْ قلوبهم، وإذا ذُكِرَ مَنْ دونَكَ استبشروا بالحقِّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولو أنَّ لهؤلاءِ المشركينَ بالله يوم القيامة، وهم الذين ظلموا أنفسهم «ما في الأرْضِ جَمِيعاً» في الدنيا من أموالها وزينتها «وَمِثْلَهُ مَعَهُ» مُضاعَفاً، فقبل ذلك منهم عِوَضاً من أنفسِهم، لفدوا بذلك كُلِّه أنفسَهم عِوَضاً منها، لينجو من سوءِ عذابِ الله، الذي هو مُعَذِّبُهم به يومئذٍ. «وَبَدَا لَهُمْ مِنَ

اللهِ»، يقول: وظهرَ لهم يومئذٍ من أمرِ الله وعذابِه، الذي كان أعدَّهُ لهم، ما لم يكونوا قبلَ ذلك يحتسبون أنه أعدَّهُ لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وظهر لهؤلاء المشركين يوم القيامة «سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا» من الأعمال في الدنيا، إذ أعطوا كتبهم بشمائلهم «وَحاقَ بِهِمْ ما كانوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ» ووجب عليهم حينئذٍ، فَلَزِمَهُمْ عذابُ الله الذي كان نبيُّ الله ﷺ في الدنيا يَعِدُهُمْ على كفرهم بربهم، فكانوا به يَسْخَرونَ، إنكاراً أن يصيبهم ذلك، أو ينالهم تكذيباً منهم به، وأحاط ذلك بهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فإذا أصابَ الإنسانَ بؤسٌ وشِدَّةٌ دعانا مستغيثاً بنا من جهة ما أصابَهُ من الضرِّ، «ثُمَّ إذَا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا»، يقول: ثم إذا أعطيناه فرجاً مما كان فيه من الضُرِّ، بأنْ أبدلناهُ بالضرِّ رخاءً وسَعَةً، وبالسقمِ صحةً وعافية، فقال: إنما أُعطيتُ الذي أُعطيتُ من الرخاءِ والسعةِ في المعيشة، والصحةِ في البدن والعافية، على عِلْمٍ عندي، يعني على علمٍ من الله بأني له أهلٌ لشرفي ورِضَاهُ بعملي عندي، يعني فيما عندي، كما يقال: أنت محسنٌ في هذا الأمر عندي: أي فيما أظنّ وأحسب.

وقوله: «أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ»، أي على شرفٍ أعطانيه.

وقوله: «بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ»، يقول تعالى ذكره: بل عَطِيَّتُنَا إياهم تلك النعمةَ من بعد الضُرِّ الذي كانوا فيه فتنةٌ لهم: يعني بلاءٌ ابتليناهم به، واختباراً اختبرناهم به. «وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ» لجهلهم، وسوءِ رأيهم «لا يَعْلَمُونَ» لأي سببٍ أُعْطُوا ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٥٠ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قد قال هذه المقالةَ، يعني قولهم: لنعمة الله التي خَوَّلَهم وهم مشركونَ: أُوتيناهُ على علمٍ عندنا «الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» يعني: الذين من قبل مشركي قُرَيش من الأممِ الخاليةِ لرسلها، تكذيباً منهم لهم، واستهزاءً بهم.

وقوله: «فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ»، يقول: فلم يُغْنِ عنهم حين أتاهم بأسُ الله على تكذيبهم رسلَ اللهِ واستهزائِهم بهم ما كانوا يكسبونَ من الأعمال، وذلك عبادتهم الأوثانَ يقول: لم تنفعهم خدمتهم إياها، ولم تشفعْ آلهتُهم لهم عندَ الله حينئذٍ، ولكنها أَسْلَمَتْهُمْ وتَبَرَّأَتْ منهم.

وقوله: «فأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ ما كَسَبُوا»، يقول: فأصابَ الذين قالوا هذه المقالَةَ من الأممِ الخالية، وبالُ سيئاتِ ما كسبوا من الأعمالِ، فَعُوجلُوا بالخزي في دار الدنيا، وذلك كقارون الذي قال حين وُعِظَ: «إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدي» [القصص: ٧٨]، فَخَسَفَ اللهُ بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ، «فَمَا كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كانَ مِنَ المُنْتَصِرِينَ» [القصص: ٨١]، يقول الله جل ثناؤه: «وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاَءِ»، يقول لنبيه محمد ﷺ: والذين كفروا

باللهِ يا محمدُ من قومكَ، وظلموا أنفسهم وقالوا هذه المقالةَ سَيُصيبُهُمْ أيضاً وبال «سيِّئات مَا كَسَبُوا» كما أصابَ الذين من قبلهم بقِيلِهِمُوهَا «ومَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ»، يقول: وما يفوتون ربهم ولا يسبقونه هرباً في الأرض من عذابهِ إذا نزل بهم، ولكنه يصيبهم «سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَةِ اللهِ تَبْدِيلاً» [الأحزاب: ٦٢] ففعل ذلك بهم، فأحلَّ بهم خزيه في عاجلِ الدنيا فقتلهم بالسيفِ يومَ بدر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٥٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أو لم يعلم يا محمدُ هؤلاء الذين كشفنا عنهم ضُرَّهم، فقالوا: إنما أُوتيناهُ على علمٍ منا أنَّ الشدةَ والرخاءَ والسعةَ والضِيقَ والبلاءَ بيدِ الله، دونَ كلِّ مَنْ سواه يبسطُ الرزقَ لمن يشاء، فيوسعه عليه، ويَقْدِرُ ذلك على مَنْ يشاء من عباده، فيُضَيِّقُه، وأنَّ ذلك من حجج الله على عباده، ليعتبروا به ويتذكَّروا، ويعلمُوا أنَّ الرغبةَ إليه والرهبةَ دونَ الآلهةِ والأندادِ «إنَّ فِي ذلك لآياتٍ»، يقول: إن في بسط الله الرزقَ لمن يشاء، وتقتيره على مَنْ أرادَ «لآياتٍ»، يعني: دلالات وعلامات. «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»، يعني: يُصَدِّقُونَ بالحقّ، فيقرّون به إذا تَبَيَّنُوه وعلموا حقيقتَهُ أنَّ الذي يفعلُ ذلك هو الله دون كلِّ ما سواه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾

اختلف أهلُ التأويل في الذين عُنُوا بهذه الآية، فقال بعضهم: عُنيَ بها

الزمر: ٥٣

قومٌ من أهلِ الشرك، قالوا لما دُعُوا إلى الإيمان بالله: كيف نؤمنُ وقد أشركنا وزَنَيْنا، وقتلنا النفسَ التي حرَّمَ اللهُ، واللهُ يَعِدُ فاعلَ ذلك النارَ، فما ينفعنا مع ماقد سَلَفَ منا الإيمان، فنزلت هذه الآية.

وقال آخرون: بل عُني بذلك أهل الإسلام، وقالوا: تأويل الكلام: إنَّ الله يغفرُ الذنوبَ جميعاً لمن يشاء، قالوا: وهي كذلك في مصحف عبدالله، وقالوا: إنما نزلتْ هذه الآيةُ في قوم صَدَّهُم المشركونَ عن الهجرةِ وفتنوهم، فأشفقوا أنْ لا يكونَ لهم توبة.

وقال آخرون: نزل ذلك في قومٍ كانوا يرون أهلَ الكبائرِ من أهلِ النار، فأعلمهم اللهُ بذلك أنه يغفرُ الذنوبَ جميعاً لمن يشاء.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قولُ مَنْ قال: عنى تعالى ذكره بذلك جميعَ مَنْ أسرفَ على نفسه من أهل الإيمانِ والشرك، لأنَّ الله عمَّ بقوله: «يا عِبادِيَ الَّذِينَ أسْرَفُوا على أنْفُسِهِمْ» جميعَ المسرفينَ، فلم يخصصْ به مسرفاً دونَ مسرف.

فإن قال قائل: فيغفرُ اللهُ الشركَ؟ قيل: نعم إذا تابَ منه المشركُ. وإنما عَنَى بقوله: «إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذنُوبَ جَميعاً» لمن يشاء، كما قد ذكرنا قَبْلُ، أنَّ ابنَ مسعودٍ كان يقرؤه، وأنَّ الله قد استثنى منه الشركَ إذا لم يَتُبْ منه صاحبهُ، فقال: «إنَّ الله لا يغفر أنْ يُشْرَكَ به، ويغفرُ مادون ذلك لمن يشاء» [النساء: ٤٨]، فأخبر أنه لا يغفرُ الشركَ إلا بعد توبةٍ بقوله: «إلَّا مَنْ تابَ وآمَنَ وعَمِلَ صَالِحاً» [مريم: ٦٠] فأما ما عَدَاهُ فإنَّ صاحبه في مشيئة ربه، إنْ شاء تَفَضَّلَ عليه، فَعَفَا له عنه، وإنْ شاء عدل عليه فجازاه به.

وأما قوله: «لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ»، فإنه يعني: لا تيأسوا من رحمةِ الله.

وقوله: «إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً»، يقول: إنَّ الله يسترُ على الذنوب كُلِّها بعفوِهِ عن أهلها وتركِهِ عقوبتَهم عليها إذا تابوا منها. «إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» بهم، أنْ يعاقبهم عليها بعد توبتهم منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأقبلوا أيها الناسُ إلى رَبِّكم بالتوبةِ، وارجعوا إليه بالطاعةِ له، واستجيبوا له إلى ما دعاكم إليه من توحيده، وإفرادِ الألوهةِ له، وإخلاصِ العبادة له.

وقوله: «وأَسْلِمُوا لَهُ»، يقول: واخضعوا له بالطاعةِ والإقرارِ بالدين الحنيفي «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ العَذابُ» من عندِه على كُفْرِكم به. «ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ»، يقول: ثم لا ينصركم ناصرٌ، فينقذكم من عذابِهِ النازل بكم.

وقوله: «وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: واتبعوا أيها الناسُ ما أمركم به رَبُّكم في تنزيلِهِ، واجتنبوا ما نهاكم فيه عنه، وذلك هو أحسنُ ما أُنزلَ إلينا من رَبِّنا.

فإن قال قائل: ومن القرآنِ شيءٌ هو أحسنُ من شيءٍ، قيل له: القرآنُ كله حسن، وليس معنى ذلك ما توهَّمْتَ، وإنما معناه. واتَّبِعُوا مما أُنزلَ إليكم رَبُّكم من الأمرِ والنهي والخبرِ، والمَثَلِ، والقَصَصِ، والجدل، والوعدِ، والوعيدِ أَحْسَنَهُ، وأَحْسَنُهُ أنْ تأتَمِرُوا لأمره، وتنتهوا عما نهى عنه، لأنَّ النهي مما أنزل في الكتاب، فلو عملوا بما نُهُوا عنه كانوا عاملينَ بأقبحهِ، فذلك وجهه.

وقوله: «مِنْ قَبْلِ أنْ يَأْتِيَكُمُ العَذابُ بَغتَةً»، يقول: من قبل أنْ يأتيكم عذابُ الله فجأةً «وأنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ»، يقول: وأنتم لا تعلمون به حتى يغشاكم فجأة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأنيبوا إلى رَبِّكم، وأسلموا له «أنْ تَقُولَ نَفْسٌ» بمعنى: لئلا تقولَ نَفْسٌ: «يا حَسْرَتا على ما فَرَّطْتُ في جَنْبِ اللهِ»، وهو نظيرُ قوله: «وألْقَى فِي الأرْضِ رَواسِيَ أنْ تَمِيدَ بِكُمْ» [النحل: ١٥، ولقمان: ١٠] بمعنى: أنْ لا تميدَ بكم.

وقوله: «يا حَسْرَتا» يعني أنْ تقول: يا نَدما.

وقوله: «على ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ»، يقول: على ما ضَيَّعْتُ من العملِ بما أمرني اللهُ به، وقصرت في الدنيا في طاعة الله.

وقوله: «وَإنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ»، يقول: وإنْ كنتُ لمن المستهزئينَ بأمرِ اللهِ وكتابهِ ورسوله والمؤمنين به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾

يقول تعالى ذكره: وأنيبوا إلى رَبِّكم أيها الناسُ، وأسْلِمُوا له، أنْ لا تقولَ نفسٌ يومَ القيامة: يا حسرتا على ما فرَّطتُ في جنب الله، في أمرِ الله، وأنْ لا

تقول نفسٌ أخرى: لو أنَّ الله هداني للحقِّ، فوفقني للرشادِ لكنتُ مِمَّن اتقاه بطاعتهِ واتباعِ رضاه، أو أنْ لا تقول أخرى حين ترى عذابَ الله فتعاينه «لَوْ أنَّ لي كَرَّةً»، تقول: لو أنَّ لي رجعةً إلى الدنيا «فَأكُونَ مِنَ المُحْسِنينَ» الذين أحسنوا في طاعةِ رَبِّهم، والعمل بما أمَرَتْهُم به الرسلُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٥٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مكذباً للقائل: «لَوْ أنَّ الله هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ المُتَّقِينَ»، وللقائل: «لَوْ أنَّ لي كَرَّةً فَأكُونَ مِنَ المُحْسِنِينَ»: ما القولُ كما تقولون «بَلى قَدْ جاءَتْكَ» أيها المتمني على الله الردَّ إلى الدنيا لتكونَ فيها من المحسنين «آياتِي»، يقول: قد جاءتك حججي من بين رسولٍ أرسلتُه إليكَ، وكتابٍ أنزلتُه يُتْلَى عليكَ ما فيهِ من الوعدِ والوعيدِ والتذكير «فَكَذَّبْتَ» بآياتي «وَاسْتَكْبَرْتَ» عن قبولها واتباعها. «وكُنْتَ مِنَ الكافِرينَ»، يقول: وكنتَ ممن يعملُ عملَ الكافرينَ، ويَسْتَنُّ بسنتهم، ويتبعُ منهاجهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٦٠﴾

يقول تعالى ذكره: «وَيَوْمَ القِيامَةِ تَرَى» يا محمدُ هؤلاء «الَّذينَ كَذَبُوا على اللهِ» من قومكَ فزعموا أنَّ له ولداً، وأنَّ له شريكاً، وعبدوا آلهةً من دونه: «وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ».

وقوله: «ألَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ»، يقول: أليس في جهنم مأوى ومسكنٌ لمن تكبرَ على الله، فامتنعَ من توحيدِه، والانتهاءِ إلى طاعتِه فيما أمره

ونهاه عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦١ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝٦٢﴾

يقول تعالى ذكره: وينجي اللهُ من جهنمَ وعذابها، الذين اتقوه بأداءِ فرائضِه، واجتنابِ معاصيه في الدنيا، بمفازتهم: يعني بفوزهم.

وقوله: «لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لا يَمَسُّ المتقينَ من أذى جهنمَ شيءٌ، وهو السوءُ الذي أخبر جَلَّ ثناؤه أنه لن يمسهم، «ولا هم يحزنون»، يقول: ولا هم يحزنون على ما فاتهم من آرابِ الدنيا، إذْ صاروا إلى كرامةِ الله ونعيمِ الجنان.

وقوله: «اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وهُوَ على كُل شَيْءٍ وَكِيلٌ»، يقول تعالى ذكره: اللهُ الذي له الألوهةُ من كُلِّ خَلْقِه الذي لا تصلحُ العبادةُ إلا له، خالقُ كل شيء، لا ما لا يقدرُ على خَلْقِ شيءٍ، «وهو على كل شيء وكيل»، يقول: وهو على كل شيء قَيِّمٌ بالحِفْظِ والكلاءة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٦٣﴾

يقول تعالى ذكره: له مفاتيحُ خزائنِ السمواتِ والأرض، يفتحُ منها على مَنْ يشاء، ويمسكها عَمَّنْ أَحَبَّ من خَلْقِه، واحدها: مقليد. وأما الإقليد: فواحدُ الأقاليد.

وقوله: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بآياتِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الخاسِرُونَ»، يقول تعالى ذكره: والذين كفروا بحججِ الله فكذبوا بها وأنكروها، أولئك هم المغبونونَ حُظوظَهم من خيرِ السمواتِ التي بيده مفاتيحُهَا، لأنهم حُرِمُوا ذلك كله في الآخرة بخلودِهم في النار، وفي الدنيا بخذلانِهم عن الإيمانِ بالله عزّ وجلّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه: قُلْ يا محمدُ لمشركي قومك، الدَّاعِيكَ إلى عبادةِ الأوثان «أفغَيرَ اللهِ» أيها الجاهلونَ بالله «تَأْمُرُونِّي» أنْ «أعْبُدُ» ولا تصلحُ العبادةُ لشيءٍ سواه.

وقوله: «وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ»، يقول تعالى ذكره: ولقد أوحى إليكَ يا محمدُ رَبُّكَ، وإلى الذين من قبلك من الرسل «لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ»، يقول: لئن أشركتَ بالله شيئاً يا محمدُ، ليبطلنَّ عملُكَ، ولا تنال به ثواباً، ولا تدركْ جزاءً إلا جزاءَ مَنْ أشركَ بالله، وهذا من المُؤَخَّرِ الذي معناه التقديمُ. . ومعنى الكلام: ولقد أُوحيَ إليك لئن أشركتَ ليحبطنَّ عملك، ولتكوننَّ من الخاسرين، وإلى الذين من قبلك، بمعنى: وإلى الذين من قبلك من الرسلِ من ذلك، مثل الذي أُوحيَ إليك منه، فاحذرْ أنْ تشركَ بالله شيئاً فتهلك.

ومعنى قوله: «وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخاسِرِينَ» ولتكوننَّ من الهالكينَ بالإشراكِ بالله إنْ أشركتَ به شيئاً.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَـى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٦ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٧﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: لا تعبد ما أمركَ به هؤلاء المشركونَ من قومكَ يا محمدُ بعبادته، بلِ الله فاعبدْ دونَ كلِّ ما سواهُ من الآلهةِ والأوثانِ والأندادِ «وكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ» لله على نعمتهِ عليكَ بما أنعمَ من الهدايةِ لعبادتهِ، والبراءةِ من عبادةِ الأصنام والأوثان.

وقوله: «ومَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ»، يقول تعالى ذكره: وما عظَّمَ اللهَ حقَّ عظمته، هؤلاء المشركونَ بالله، الذين يَدْعُونَكَ إلى عبادة الأوثان.

وقـولـه: «والأرْضُ جَميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامَةِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والأرضُ كلها قَبْضَتُه في يومِ القيامةِ «والسَّمَوَاتُ» كلها «مَطْويَّاتٌ بيَمِينِهِ» فالخبرُ عن الأرضِ مُتَنَاهٍ عند قوله: يوم القيامة، والأرض مرفوعة بقوله: «قَبْضَتُهُ»، ثم استأنف الخبر عن السموات، فقال: «والسَّمَوَاتُ مَطْوياتٌ بيمينِهِ» وهي مرفوعة بمطويات.

وقوله سبحانه وتعالى: «عَمَّا يُشْرِكُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه تنزيهاً وتبرئةً لله، وعلوّاً وارتفاعاً عما يشركُ به هؤلاء المشركونَ من قومكَ يا محمدُ، القائلون لك: اعْبُدِ الأوثانَ من دونِ الله، واسجدْ لآلهتنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾

يقول تعالى ذكره: ونَفَخَ إسرافيلُ في القرن.

وقوله: «فَصَعقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ ومَنْ فِي الأَرْضِ»، يقول: مات وذلك في النفخةِ الأولى.

وقوله: «إلاَّ مَنْ شاءَ اللهُ»، اختلف أهلُ التأويل في الذي عنى الله بالاستثناء في هذه الآية، فقال بعضهم: عَنَى به جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيل وملكَ الموت.

وقال آخرون: عنى بذلك الشهداء.

وقال آخرون: عنى بالاستثناء في الفزع: الشهداء، وفي الصَّعْقِ: جبريلَ، ومَلَكَ الموت، وحَمَلَةَ العرش.

وهذا القول الأخير أَوْلى بالصحة، لأنَّ الصعقةَ في هذا الموضع: الموت. والشهداءُ وإنْ كانوا عند الله أحياءً كما أخبر الله تعالى ذِكْرُه فإنهم قد ذاقوا الموتَ قبلَ ذلك.

وإنما عنى جلّ ثناؤه بالاستثناء في هذا الموضع، الاستثناء من الذي صعقوا عند نفخة الصعقِ، لا من الذين قد ماتوا قبل ذلك بزمانٍ ودهرٍ طويل، وذلك أنه لو جاز أنْ يكونَ المرادُ بذلك مَنْ قد هَلَكَ، وذاقَ الموتَ قبلَ وقتِ نفخةِ الصعقِ، وَجَبَ أنْ يكون المرادُ بذلك مَنْ قد هلك، فذاقَ الموتَ من قبل ذلك، لأنه ممن لا يصعقُ في ذلك الوقتِ إذا كان الميتُ لا يُجَدَّدُ له موتٌ آخر في تلك الحال.

وقوله: «ثُمَّ نُفخَ فِيهِ أُخْرَى»، يقول تعالى ذكره: ثم نُفخ في الصور نفخة أخرى، والهاء التي في «فيه» من ذِكْرِ الصور.

وقوله: «فإذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ»، يقول: فإذا مَنْ صَعِقَ عند النفخةِ التي قبلها وغيرهم من جميعِ خَلْقِ الله الذين كانوا أمواتاً قبل ذلك قيامٌ من قبورهم وأماكنهم من الأرض أحياءٌ كهيئتهم قَبْلَ مماتِهم ينظرونَ أمرَ الله فيهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ٦٩﴾

يقول تعالى ذكره: فأضاءت الأرضُ بنورِ ربها، يقال: أشرقتِ الشمسُ: إذا صَفَتْ وأضاءت، وأشرقت: إذا طلعت، وذلك حين يبرزُ الرحمنُ لفصلِ القضاءِ بين خَلْقِه.

وقوله: «وَوُضِعَ الكِتابُ»، يعني: كتاب أعمالهم لمحاسبتهم ومجازاتهم.

وقوله: «وَجِيءَ بالنَّبِيِّينَ والشُّهَداء»، يقول: وجِيءَ بالنبيين ليسألهم رَبُّهم عما أجابتهم به أممهم، وردَّتْ عليهم في الدنيا، حين أتتهم رسالةُ الله؛ «والشهداء»، يعني بالشهداء: أمةَ محمدٍ ﷺ يستشهدهم رَبُّهم على الرسلِ، فيما ذكرت من تبليغها رسالةَ الله التي أرسلهم بها رَبُّهم إلى أممها، إذْ جَحدتْ أممهم أنْ يكونوا أبلغوهم رسالةَ الله. والشهداءُ: جَمْعُ شهيد، وهذا نظير قول الله: «وكذَلكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً، لِتَكونُوا شُهَداءَ على النَّاسِ، وَيكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً» [البقرة: ١٤٣] وقيل: عنى بقوله: «الشُّهَداءُ»: الذين قُتلوا في سبيل الله، وليس لما قالوا من ذلك في هذا الموضع كبيرُ معنى، لأنَّ عقيب قوله: «وَجِيَ بالنَّبيِّينَ وَالشهَداءِ، وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالحَقِّ»، وفي ذلك دليلٌ واضح على صحة ما قلنا من أنه إنما دُعي بالنبيين والشهداء للقضاءِ بين الأنبياءِ وأممها، وأنَّ الشهداء إنما هي جمعُ شهيد، الذين يشهدونَ للأنبياءِ على أممهم كما ذكرنا.

وقوله: «وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالحَقِّ»، يقول تعالى ذكره: وقَضى بين النبيين وأممها بالحقِّ، وقضاؤه بينهم بالحق، أنْ لا يَحملَ على أحدٍ ذنبَ غيرِه، ولا يعاقبَ نفساً إلا بما كسبت.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وَوَفَّى اللهُ حينئذٍ كُلَّ نفسٍ جزاءَ عملها من خيرٍ وشرّ، وهو أعلمُ بما يفعلونَ في الدنيا من طاعةٍ أو معصية، ولا يعزبُ عنه عِلْمُ شيءٍ من ذلك، وهو مُجازِيهم عليه يومَ القيامة، فمثيبُ المحسنَ بإحسانه، والمسيء بما أساء.

وقوله: «وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إلى جَهَنَّمَ» يقول: وحُشر الذين كفروا بالله إلى نارِه التي أعَدَّها لهم يومَ القيامةِ جماعات، جماعةً جماعةً، وحزباً حزباً.

وقوله: «حتى إذَا جاءُوها فُتِحَتْ أبْوَابُها» السبعةُ «وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها» قوَّامها: «أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ»، يعني: كتابَ الله المُنْزَلَ على رُسُلِه وحججه التي بعث بها رسله إلى أممهم «وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هَذا»، يقول: وينذرونكم ما تَلْقَوْنَ في يومكم هذا، وقد يحتمل أن يكون معناه: وينذرونكم مصيرَكُم إلى هذا اليوم، «قالوا: بلى»، يقول: قال الذين كفروا مُجيبينَ لخزنةِ جهنمَ: بلى قد أتتنا الرسلُ منا، فأنذرتنا لقاءَنا هذا اليومَ «وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ العَذَابِ على الكافِرِينَ»، يقول: قالوا: ولكن وجبت كلمةُ الله أنَّ عذابه لأهلِ الكفرِ به علينا بكفرنا به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾

يقول تعالى ذكره: فتقولُ خَزَنَةُ جهنمَ للذين كفروا حينئذٍ: «ادْخُلُوا أبْوَابَ جَهَنَّمَ» السبعة على قَدْرِ منازلكم فيها. «خالِدِينَ فِيها»، يقول: ماكثينَ فيها لا يُنقلون عنها إلى غيرها. «فَبِئْسَ مَثْوَى المُتَكَبرين»، يقول: فبئسَ مسكنُ المتكبرينَ على الله في الدنيا، أنْ يُوَحِّدُوه ويُفْرِدُوا له الأُلوهةَ، جهنم يوم القيامة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وحُشِرَ الذين اتقوا رَبَّهم بأداءِ فرائضِه، واجتنابِ معاصيه في الدنيا، وأخلصوا له فيها الأُلوهةَ، وأفردوا له العبادةَ، فلم يشركوا في عبادتهم إياهُ شيئاً «إلى الجَنَّةِ زُمَراً» يعني: جماعاتٍ، فكان سوقُ هؤلاء إلى منازلهم من الجنةِ وَفْداً على ماقد بَيَّنا قَبْلُ في سورة مريم على نجائبَ من نجائبِ الجنة، وسوق الآخرين إلى النار دَعاً ووِرداً، كما قال الله.

ثم قال: «حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها: سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين»، دخلوها «وقالوا: الحمدُ لله الذي صَدَقَنا وعده». وعَنَى بقوله: «سَلامٌ عَلَيْكُمْ»: أَمَنَةٌ من الله لكم أنْ ينالكم بعدُ مكروهٌ أو أذى.

وقوله: «طِبْتُمْ» يقول: طابتْ أعمالُكم في الدنيا، فطابَ اليومَ مثواكم.

وقوله: «وقَالُوا الحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ»، يقول: وقال الذين سِيقُوا زمراً ودخلوها، الشكرُ خالصٌ للهِ الذي صَدَقنا وَعْدَهُ، الذي كان وَعَدَناهُ في الدنيا على طاعتهِ، فَحَقَّقَهُ بإنجازِه لنا اليومَ، «وأَوْرَثَنا الأَرْضَ»، يقول: وجعلَ أرضَ الجنةِ التي كانت لأهلِ النار لو كانوا أطاعوا الله في الدنيا، فدخلوها،

ميراثاً لنا عنهم.

وقوله: «نَتَبَوَّأُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ»، يقول: نَتَّخِذُ من الجنةِ بيتاً، ونسكنُ منها حيث نحبُّ ونشتهي.

وقوله: «فَنِعْمَ أَجْرُ العامِلِينَ»، يقول: فنعم ثوابُ المطيعينَ لله، العاملينَ له في الدنيا، الجنة لمن أعطاهُ الله إياها في الآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٧٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وترى يا محمدُ الملائكةَ مُحْدِقينَ من حولِ عرشِ الرحمنِ، ويعني بالعرش: السرير.

وقوله: «يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ»، يقول: يُصَلُّونَ حولَ عرشِ الله شكراً له، والعربُ تُدْخِلُ الباء أحياناً في التسبيح، وتحذفها أحياناً، فتقول: سبح بحمدِ الله، وسبح حَمْدَ الله، كما قال جلّ ثناؤه: «سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى» [الأعلى: ١]، وقال في موضع آخر: «فَسَبِّحْ باسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ» الواقعة: ٧٤].

وقوله: «وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالحَقِّ»، يقول: وقَضَى الله بين النبيينَ الذين جِيءَ بهم، والشهداء وأممها بالعدلِ، فأسكنَ أهلَ الإيمانِ بالله، وبما جاءت به رُسُلُه الجنةَ. وأهلَ الكفرِ به، وبما جاءت به رسله النارَ. «وَقِيلَ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالمينَ»، يقول: وختمت خاتمة القضاء بينهم بالشكرِ للذي ابتدأ خَلْقَهُم الذي له الألوهيةُ، ومُلكُ جميعِ ما في السمواتِ والأرضِ من الخَلْقِ من ملك وجنٍّ وإنس، وغيرِ ذلك من أصنافِ الخلق.



سُورَةُ غَافِرٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾

قوله: «حمٓ»، القول في ذلك عندي نظيرُ القولِ في أخواتها، وقد بَيَّنا ذلك، في قوله: «الٓمٓ»، ففي ذلك كفايةٌ عن إعادته في هذا الموضع، إذْ كان القولُ في «حمٓ»، وجميعِ ما جاءَ في القرآن على هذا الوجهِ، أعني حروف التَّهجِّي قولاً واحداً.

وقوله: «تَنْزِيلُ الكِتابِ مِنَ اللهِ العَزيزِ العَليم»، يقول الله تعالى ذِكْرُه: من الله العزيزِ في انتقامهِ من أعدائه، العليمِ بما يعملونَ من الأعمالِ وغيرها، تنزيل هذا الكتاب.

وفي قوله: «غافِرِ الذَّنْبِ» وجهان: أحدهما: أن يكون بمعنى يغفرُ ذنوبَ العباد، فيكون معنى الكلام حينئذٍ: تنزيلُ الكتابِ من اللهِ العزيزِ العليمِ، من غافرِ الذنبِ، وقابلِ التوب.

والآخـر: أنْ يكون معناهُ: أنَّ ذلك من صِفَتهِ تعالى، إذْ كان لم يَزَلْ لذنوبِ العبادِ غفوراً من قبلِ نزولِ هذه الآيةِ وفي حالِ نزولها، ومن بعدِ ذلك.

وقوله: «شَدِيدِ العِقاب»، يقول تعالى ذكره: شديدُ عقابهُ لمن عاقَبَهُ من

أهلِ العصيان له، فلا تَتَّكِلُوا على سَعَةِ رحمتِهِ، ولكنْ كونوا منه على حَذَرٍ، باجتنابِ معاصيه، وأداءِ فرائضِه، فإنه كما أنه لا يُؤْيِسُ أهلَ الإجرامِ والآثام من عفوِه، وقبولِ توبةِ مَنْ تاب منهم من جُرْمِه، كذلك لا يؤمنهم من عقابِهِ وانتقامه منهم بما اسْتَحَلُّوا من محارِمه، وركبوا من معاصيه.

وقوله: «ذِي الطَّوْلِ»، يقول: ذي الفضل والنعمِ المبسوطةِ على مَنْ شاء من خَلْقِه، يقال منه: إنَّ فلاناً لذو طَوْلٍ على أصحابه إذا كان ذا فَضْلٍ عليهم.

وقوله: «لا إِلَهَ إِلاَّ هَو إِلَيْهِ المَصِيرُ»، يقول: لا معبودَ تصلحُ له العبادةُ إلا الله العزيزُ العليم، الذي صِفَتُه ما وصفَ جل ثناؤه، فلا تعبدوا شيئاً سواه «إِلَيْهِ المَصِيرُ»، يقول تعالى ذكره: إلى الله مصيركم ومرجعكم أيها الناس، فإياه فاعبدوا، فإنه لا ينفعكم شيءٌ عبدتموه عند ذلك سواه.

القَولُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾

يقول تعالى ذكره: ما يخاصمُ في حججِ الله وأدلته على وحدانيتِهِ بالإنكارِ لها، إلا الذينَ جَحَدُوا توحيدَهُ.

«فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي البلادِ»، يقول جلّ ثناؤه: فلا يخدعك يا محمدُ تَصَرُّفُهم في البلاد وبقاؤهم ومُكْثُهم فيها، مع كُفْرِهم بربِّهم، فتحسب أنهم إنما أُمْهِلُوا وتقلَّبُوا، فتصرَّفُوا في البلاد مع كفرهم بالله، ولم يُعَاجَلُوا بالنقمةِ والعذابِ على كُفْرِهم لأنهم على شيءٍ من الحقِّ فإنَّا لم نُمهلهم لذلك، ولكنْ ليبلغَ الكتابُ أجلَهُ، ولتحقَّ عليهم كلمةُ العذابِ، عذاب ربك.

ثم قَصَّ على رسولِ الله ﷺ قَصَصَ الأمم المكذِّبةِ رُسُلَها، وأخبره أنهم كانوا من جدالهم لرسله على مِثْلِ الذي عليه قومُه الذين أرسل إليهم، وأنه أحلَّ بهم من نقمته عند بلوغهم أمدهم بعد إعذارِ رسلهِ إليهم، وإنذارِهم بأسَهُ ماقد ذكر في كتابه إعلاماً منه بذلك نَبِيَّهُ، أنَّ سُنَّتَهُ في قومه الذين سلكوا سبيلَ أولئك في تكـذيبـه وجدالِه سنته من إحلالِ نقمته بهم، وسطوته بهم، فقال تعالى ذكره: كَذَّبَتْ قبلَ قومكَ المكذِّبينَ لرسالتكَ إليهم رسولاً، المُجَادِليكَ بالباطلِ قومُ نوحٍ والأحزابُ من بعدهم، وهم الأممُ الذين تَحَزَّبُوا وتجمَّعُوا على رسلهم بالتكذيبِ لها، كعادٍ وثمود، وقومِ لوط، وأصحابِ مَدْيَن وأشباههم.

وقوله: «وهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ برَسُولِهِمْ لِيأْخُذُوهُ»، يقول تعالى ذكره: وهمت كلُّ أمةٍ من هذه الأمم المكذبةِ رُسُلَها، المتحزِّبة على أنبيائها، برسولهم الذي أُرسلَ إليهم ليأخذوه فيقتلوه.

وقوله: «وجَادَلُوا بالباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقَّ»، يقول: وخاصموا رسولَهم بالباطلِ من الخصومةِ لِيُبْطِلُوا بجدالهم إياهُ وخصومتهم له الحقَّ الذي جاءهم به من عند الله، من الدخولِ في طاعته، والإقرار بتوحيده، والبراءة من عبادةِ ما سواه، كما يخاصمكَ كُفَّارُ قومكَ يا محمدُ بالباطل.

وقوله: «فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ»، يقول تعالى ذكره: فأخذتُ الذين هَمُّـوا برسـولهم ليأخذوه بالعذابِ من عندي، فكيف كان عقابي إياهم، أَلَمْ أُهلكهم فأجعلهم للخلق عبرةً، ولمن بعدهم عِظةً؟ وأجعل ديارهم ومساكنهم منهم خلاء، وللوحوش ثواء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾

يقول تعالى ذكره: وكما حَقَّ على الأمم التي كَذَّبَتْ رسلها التي قصصتُ عليك يا محمدُ قصصها عذابي، وحَلَّ بها عقابي بتكذيبهم رسلهم، وجدالهم إياهم بالباطل، ليدحضوا به الحقَّ، كذلك وَجَبَتْ كلمةُ ربك على الذين كفروا بالله من قومكَ، الذين يجادلون في آياتِ الله.

وقوله: «أنَّهم أصحاب النَّار»، بمعنى: وكذلك حَقَّ عليهم عذابُ النار، الذي وَعَدَ الله أهلَ الكفرِ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧﴾

يقول تعالى ذكره: الذين يحملون عرشَ الله من ملائكته، ومن حولِ عرشه، مِمَّنْ يحفُّ به من الملائكةِ «يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ»، يقول: يُصَلُّونَ لربهم بحمدِه وشكره «وَيُؤْمِنُونَ بِهِ»، يقول: ويُقِرُّونَ بالله أنه لا إله لهم سواه، ويشهدون بذلك، لا يستكبرون عن عبادته «وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا»، يقول: ويسألون رَبَّهم أنْ يغفرَ للذين أقَرُّوا بمثلِ إقرارِهم من توحيدِ الله، والبراءةِ من كلِّ معبودٍ سواه ذنوبهم، فيعفوها عنهم.

وقوله: «رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً»، وفي هذا الكلام محذوفٌ، وهو: يقولون، ومعنى الكلام: ويستغفرونَ للذين آمنوا يقولون: يا رَبَّنا وسعتَ كلَّ شيءٍ رحمةً وعلماً. ويعني بقوله: «وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً»: وسعتْ رحمتُكَ وعِلْمُكَ كلَّ شيء من خَلْقِكَ، فعلمتَ كلَّ شيء، فلم يَخْفَ عليك شيءٌ، ورحمتَ خَلْقَكَ، ووسعتهم برحمتك.

وقوله: «فاغْفِرْ للَّذِينَ تابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ»، يقول: فاصفحْ عن جُرْمِ مَنْ تابَ من الشرك بك من عبادك، فرجعَ إلى توحيدكَ، واتَّبَعَ أمركَ ونهيك.

وقوله: «وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ»، يقول: وسلكوا الطريقَ الذي أمرتهم أنْ يسلكوه، ولزموا المنهاجَ الذي أمرتهم بلزومه، وذلك الدخول في الإسلام.

وقوله: «وَقِهِمْ عَذَابَ الجَحِيمِ»، يقول: واصرفْ عن الذين تابوا من الشركِ، واتبعوا سبيلكَ عذابَ النار يومَ القيامة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى ذكره مخبراً عن دعاءِ ملائكته لأهلِ الإيمانِ به من عباده، تقول: يا«رَبَّنا وأدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ»، يعني: بساتينَ إقامة «التي وَعَدْتَهُمْ»، يعني: التي وعدتَ أهلَ الإنابةِ إلى طاعتكَ أنْ تُدْخِلَهُمُوهَا «وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وأزْوَاجِهِمْ وَذُرِّياتِهِمْ»، يقول: وأدخِلْ مع هؤلاء الذين تابوا «واتَّبَعُوا سَبِيلَكَ» جنات عدنٍ مَنْ صلح من آبائهم وأزواجهم وذرّياتهم، فعملَ بما يُرضيكَ عنه من الأعمالِ الصالحة في الدنيا، وذُكِرَ أنه يدخل مع الرجل أبواه وولده وزوجته الجنة، وإنْ لم يكونوا عملوا عملَهُ بفضلِ رحمة الله إياه.

وقوله: «إنك أنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ»، يقول: إنك أنتَ يا رَبَّنا العزيزُ في انتقامه من أعدائه، الحكيمُ في تدبيره خلقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله مخبراً عن قِيلِ ملائكته: «وقِهم»، اصرفْ عنهم سوءَ عاقبةِ سيئاتهم التي كانوا أتوها قبل توبتهم وإنابتهم، يقولون: لا تؤاخذهم بذلك، فتعذّبهم به «وَمَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ»، يقول: ومَنْ تَصْرِفْ عنه سوءَ عاقبةِ سيئاته بذلك يومَ القيامة، فقد رحمته، فَنَجَّيْتَهُ من عذابكَ. «وَذلكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيم» لأنه مَنْ نجا من النارِ وأُدخلَ الجنةَ فقد فاز، وذلك لا شكَّ هو الفوزُ العظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين كفروا بالله ينادون في النار يومَ القيامة إذا دخلوها، فَمَقَتُوا بِدُخُولِهِمُوها أنفسَهُمْ حين عاينوا ما أعدَّ اللهُ لهم فيها من انواع العذاب، فيقال لهم: لَمَقْتُ اللهِ إياكم أيها القومُ في الدنيا، إذْ تُدْعَوْنَ فيها للإيمانِ بالله، فتكفرونَ أكبرُ من مقتِكم اليومَ أنفسَكم لما حلَّ بكم من سخطِ الله عليكم.

وقوله: «رَبَّنا أَمَتَّنا اثْنَتَيْنِ وأحْيَيْتَنا اثْنَتَيْنِ» قد أتينا عليه في سورةِ البقرةِ[1]، فأغنى ذلكَ عن إعادتهِ في هذا الموضع.

وقوله: «فاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا»، يقول: فأقْرَرْنَا بما عملنا من الذنوبِ في الدنيا «فَهَلْ إلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ»، يقول: فهل إلى خروجٍ من النار لنا سبيل، لنرجعَ إلى الدنيا، فنعمل غير الذي كنا نعملُ فيها.

---

(١) البقرة:

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾

وفي هذا الكلام متروكٌ استغني بدلالةِ الظاهرِ من ذِكْرِه عليه، وهو: فأُجيبوا أنْ لا سبيلَ إلى ذلك هذا الذي لكم من العذاب أيها الكافرونَ «بأنَّه إذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَه كَفَرْتُمْ»، فأنكرتم أنْ تكونَ الأُلوهةُ له خالصة، وقلتم: «أجَعَلَ الآلِهَةَ إلَهاً واحداً».

«وإنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا»، يقول: وإنْ يُجْعَلْ لله شريكٌ تُصدِّقُوا مَنْ جعلَ ذلك له «فالحُكْمُ للهِ العَلِيِّ الكَبِيرِ»، يقول: فالقضاءُ لله العليِّ على كلِّ شيءٍ، الكبير الذي كلُّ شيءٍ دونَهُ متصاغراً له اليوم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى ذكره: الذي يُريكم أيها الناسُ حُجَجَهُ وأدِلَّتَهُ على وحدانيتهِ وربوبيتهِ. «وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً». يقول: ينزِّلُ لكم من أرزاقكم من السماء بإدرارِ الغيثِ الذي يُخرِجُ به أقواتَكم من الأرضِ، وغذاءَ أنعامِكم عليكم «ومَا يَتَذَكَّرُ إلاَّ مَنْ يُنِيبُ»، يقول: وما يتذكر حججَ الله التي جعلها أدلةً على وحدانيته، فيعتبر بها ويتعظ، ويعلم حقيقةَ ما تدلُّ عليه، «إلا مَنْ ينيب»، يقول: إلا مَنْ يرجع إلى توحيده، ويُقْبِلْ على طاعته.

وقوله: «فادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ»، يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ وللمؤمنين به، فاعبدُوا الله أيها المؤمنونَ له، مخلصينَ له الطاعةَ غيرَ مشركينَ

به شيئاً مما دونه. «وَلَوْ كَرِهَ الكافِرُونَ»، يقول: ولو كره عبادتكم إياهُ مخلصينَ له الطاعةَ الكافرونَ المشركونَ في عبادَتِهم إياهُ الأوثانَ والأندادَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾

يقول تعالى ذكره: هو رفيع الدرجات. «ذو العَرْشِ»، يقول: ذُو السريرِ المحيط بما دونه.

وقوله: «يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أمْرِهِ على مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ»، يقول: ينزل الوحيَ من أمرِهِ على مَنْ يشاء من عباده.

وقوله: «لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ»، يقول: لينذر مَنْ يلقي الروح عليه من عباده من أمرِ الله بانذارِه من خَلْقِه عذابَ يومٍ تلتقي فيه أهلُ السماء وأهلُ الأرض، وهو يومُ التلاق، وذلك يومُ القيامة.

وقوله: «يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفَى على اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ»، يعني بقوله: «يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ» يعني المنذَرِينَ الذينَ أرسل اللهُ إليهم رُسُلَهُ لينذروهم وهم ظاهرونَ يعني للناظرينَ لا يحولُ بينهم وبينهم جبلٌ ولا شجرٌ، ولا يسترُ بعضهم عن بعضٍ ساترٌ، ولكنهم بقاعٍ صَفْصَفٍ لا أمتَ فيه ولا عِوَجَ وهُمْ من قوله: «يَوْمَ هُمْ» في موضعِ رفعٍ بما بعده، كقول القائل: فعلتُ ذلك يومَ الحجاج أميرٌ.

وقوله: «لا يَخْفَى على اللهِ مِنْهُمْ»، أي: ولا من أعمالهم التي عملوها في الدنيا «شَيْءٌ».

وقوله: «لِمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ؟» معناه: يقول الربُّ: لمن السلطانُ اليوم؟ وذلك يوم القيامة، فيجيب نفسه فيقول: «للهِ الوَاحِدِ» الذي لا مِثْلَ له ولا شبيه «القَهَّارِ» لكلِّ شيء سواه بقدرته، الغالب بِعِزَّتِهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِه يومَ القيامة حين يبعثُ خَلْقَهُ من قبورهم لموقفِ الحساب «الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ»، يقول: اليوم يُثَابُ كلُّ عاملٍ بعمله، فيوفى أجرَ عمله، فعاملُ الخير يُجْزَى الخيرَ، وعاملُ الشرِّ يجزى جزاءه.

وقوله: «لا ظُلْمَ اليَوْمَ»، يقول: لا بَخْسَ على أحدٍ فيما استوجبه من أجرِ عملِهِ في الدنيا، فَيُنْقَص منه إنْ كان محسناً، ولا حُمِلَ على مسيءٍ إثمُ ذَنْبٍ لم يعمله فيعاقب عليه. «إنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسابِ»، يقول: إن الله ذُو سرعةٍ في محاسبةِ عبادِه يومئذٍ على أعمالهم التي عملوها في الدنيا، ذُكر أنَّ ذلك اليوم لا يَنْتَصِفُ حتى يَقِيلَ أهلُ الجنة في الجنة، وأهلُ النارِ في النار، وقد فرغ من حسابهم، والقضاء بينهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ١٨ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩ وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٢٠﴾

يقولُ تعالى ذكره لنبيه: وأنذر يا محمدُ مشركي قومكَ يومَ الآزفةِ، يعني

المؤمن: ٢٠

يومَ القيامةِ أنْ يُوافُوا اللهَ فيه بأعمالِهم الخبيثة، فيستحقوا من الله عقابَهُ الأليم.

وقوله: «إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إذ قلوبُ العبادِ من مخافةِ عقابِ الله لدى حناجرِهم قد شَخَصَتْ من صدورِهم، فَتَعَلَّقَتْ بحلوقِهم كاظِمِيهَا، يَرُومونَ رَدَّهَا إلى مواضِعِها من صدورِهم فلا ترجع، ولا هي تخرجُ من أبدانِهم فيموتوا.

وقوله: «مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ»، يقول جلّ ثناؤه: ما للكافرينَ باللهِ يومئذٍ من حميمٍ يحم لهم، فيدفع عنهم عظيمَ ما نزلَ بهم من عذابِ الله، ولا شفيع يشفعُ لهم عند رَبِّهم فيطاع فيما شَفَعَ، ويُجابَ فيما سألَ.

وقوله: «يُطاعُ» صلة للشفيع. ومعنى الكلام: ما للظالمينَ من حميمٍ ولا شفيعٍ إذا شفع أُطيعَ فيما شفع، فأُجيبَ وقُبِلَتْ شفاعتُه له.

وقوله: «يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ»، يقول جلَّ ذكره مخبراً عن صفة نفسه: يعلمُ رَبُّكم ما خانتْ أعينُ عبادِه، وما أَخْفَتْهُ صُدورُهم، يعني: وما أضمرتْهُ قلوبُهم: يقول: لا يَخْفَى عليه شيءٌ من أمورهم حتى ما يحدِّثُ به نفسَهُ، ويضمره قلبُه إذا نظرَ ماذا يريدُ بنظرِه، وما ينوي ذلك بقلبه. «وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ»، يقول: والله تعالى ذِكْرُه يقضي في الذي خانته الأعين بنظرها، وأخفته الصدورُ عند نَظَرِ العيونِ بالحق، فيجزي الذين أغمضوا أبصارَهم، وصرفوها عن محارمِهِ حَذَارَ الموقفِ بين يديه، ومسألته عنه بالحُسنى، والذين رَدَّوُا النظرَ، وعَزَمَتْ قلوبُهم على مواقعةِ الفواحشِ إذا قدرت، جزاءها.

وقوله: «وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ»، يقول: والأوثانُ والآلهة التي يعبدها هؤلاء المشركونَ بالله من قومكَ من دونِه لا يقضون بشيءٍ، لأنها لا تعلمُ شيئاً، ولا تقدرُ على شيء، يقول جلّ ثناؤه لهم: فاعبدوا الذي يقدرُ على كلِّ شيءٍ، ولا يَخْفَى عليه شيءٌ من أعمالكم، فيجزي محسنكم

بالإحسانِ، والمسيءَ بالإساءةِ، لا مالا يقدرُ على شيءٍ ولا يعلمُ شيئاً، فيعرف المحسنَ من المسيء، فيثيب المحسن، ويعاقب المسيء.

وقوله: «إنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ»، يقول: إنَّ الله هو السميعُ لما تنطقُ به ألسنتكم أيها الناسُ، البصيرُ بما تفعلون من الأفعالِ، محيطٌ بكلِّ ذلك مُحْصِيه عليكم، ليجازي جميعَكم جزاءه يومَ الجزاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أَوَ لَمْ يَسِرْ هؤلاء المُقِيمونَ على شركهم بالله، المكذِّبونَ رسولَهُ من قريش في البلاد، «فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ»، يقول: فيروا ما الذي كان خاتمةَ أممِ الذين كانوا من قَبْلِهم من الأممِ الذين سلكوا سبيلَهم، في الكفرِ بالله، وتكذيبِ رسله. «كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً»، يقول: كانت تلك الأممُ الذين كانوا من قبلهم أشدّ منهم بطشاً، وأبقى في الأرضِ آثاراً، فلم تنفعهم شِدَّةُ قُواهم، وعظمُ أجسامِهم، إذْ جاءهم أمرُ الله، وأخذهم بما أجرموا من معاصيهِ، واكتسبوا من الآثام، ولكنه أبادَ جَمْعَهُمْ، وصارتْ مساكِنُهم خاويةً منهم بما ظلموا «وَمَا كانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ»، يقول: وما كان لهم من عذابِ الله إذْ جاءهم، من واقٍ يَقِيهم، فيدفعه عنهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى ذكره: هذا الذي فعلتُ بهؤلاء الأممِ الذين من قبل مشركي قريش من إهلاكِنَاهُمْ بذنوبهم فَعَلْنَا بهم بأنهم كانتْ تأتيهم رُسُلُ اللهِ إليهم «بالبَيِّناتِ»، يعني: بالآياتِ الدالاتِ على حقيقةِ ما تدعوهم إليه من توحيد الله، والانتهاء إلى طاعته «فَكَفَرُوا»، يقول: فأنكروا رسالَتها، وجحدوا توحيدَ الله، وأبوا أن يطيعوا الله «فأخَذَهُمُ اللهُ»، يقول: فأخذهم اللهُ بعذابه فأهلكهم «إنَّهُ قَوِيٌّ شَديدُ العِقابِ»، يقول: إنَّ الله ذو قُوَّةٍ لا يقهره شيءٌ، ولا يغلبه، ولا يعجزه شيءٌ أراده، شديدٌ عقابه مَنْ عاقبَ من خَلْقِه، وهذا وعيدٌ من الله مشركي قريش، المكذِّبينَ رسولَهُ محمداً ﷺ يقول لهم جلّ ثناؤه: فاحذروا أيها القومُ أنْ تسلكوا سبيلَهم في تكذيبِ محمدٍ ﷺ وجحودِ توحيدِ الله، ومخالفةِ أمره ونهيه فيسلك بكم في تعجيلِ الهلاكِ لكم مسلَكَهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مُسَلِّياً نبيه محمداً ﷺ، عما كان يَلْقَى من مشركي قومِه من قريش، بإعلامِه ما لقيَ موسى مِمَّنْ أُرسلَ إليه من التكذيب، ومُخْبِرَهُ أنه مُعْلِيه عليهم، وجاعلٌ دائرةَ السَّوْءِ على مَنْ حادَّهُ وشاقَّهُ، كَسُنَّتِه، في موسى صلواتُ الله عليه، إذْ أعلاه، وأهلكَ عدوَّهُ فرعونَ «وَلَقَدْ أرْسَلْنَا مُوسَى بآياتِنا»، يعني: بأدلته. «وَسُلْطانٍ مُبِينٍ»: أي عذر مبين، يقول: وحججه المبينة لمن يراها أنها حُجَّةٌ مُحَقِّقَةٌ ما يَدْعُو إليه موسى «إلى فِرْعَوْنَ وهَامان وقَارُونَ، فَقالُوا ساحِرٌ كَذَّابٌ»، يقول: فقال هؤلاء الذين أُرسلَ إليهم موسى لموسى: هو ساحرٌ يسحرُ العَصَا، فيرى الناظرُ إليها أنها حيةٌ تسعى. «كذّاب»، يقول: يكذبُ على اللهِ، ويزعمُ أنه أرسله إلى الناسِ رسولاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى ذكره: فلما جاء موسى هؤلاء الذين أرسلَهُ اللهُ إليهم بالحقِّ من عندنا، وذلك مجيئُهُ إياهم بتوحيدِ الله، والعملِ بطاعته، مع إقامةِ الحجةِ عليهم، بأنَّ الله ابتعثه إليهم بالدعاءِ إلى ذلك «قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا» بالله «مَعَهُ» من بني إسرائيل. «وَاسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ»، يقول: واستبقوا نساءَهُمْ للخِدمة.

فإنْ قال قائل: وكيف قيل: «فَلَمَّا جاءَهُمْ مُوسَى بالحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، واسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ»، وإنما كان قَتْلُ فرعون الولدانَ من بني إسرائيل حَذَارَ المولودِ الذي كان أُخْبِرَ أنه على رأسِهِ ذهابُ مُلْكِه، وهلاكُ قومِهِ، وذلك كان فيما يقال قبل أنْ يَبْعَثَ اللهُ موسى نبيًّا؟ قيل: إنَّ هذا الأمرَ بقتلِ أبناءِ الذين آمنوا مع موسى، واستحياءِ نسائهم، كان أمراً من فرعونَ وملئه من بعدِ الأمرِ الأوَّلِ الذي كان من فرعون قبلَ مولدِ موسى.

وقوله: «ومَا كَيْدُ الكافِرِينَ إلَّا فِي ضَلالٍ»، يقول: وما احتيالُ أهلِ الكفرِ لأهلِ الإيمان بالله إلا في جَوْرٍ عن سبيلِ الحقِّ، وصدٍّ عن قصدِ المحجة، وأخذٍ على غير هدى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وقَالَ فِرْعَوْنُ» لملئه: «ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ»

الذي يزعمُ أنه أرسله إلينا فيمنعه منا «إِنّي أخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ»، يقول: إني أخافُ أن يُغَيِّرَ دِينَكم الذي أنتم عليه بسحره.

وقوله: «أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الفَسادَ»، يعني: إني أخافُ من موسى أَنْ يغير دينكم الذي أنتم عليه، أو أَنْ يُظْهِرَ في أرضكم أرضِ مصر، عبادةَ رَبِّه الذي يدعوكم إلى عبادتِهِ، وذلك كان عنده هو الفسادُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذكره: وقال موسى لفرعونَ ومَلَئِه: إني استجرتُ أيها القومُ بربي وربِّكم، من كلِّ متكبرٍ عليه، تكبَّرَ عن توحيده، والإقرارِ بألوهيته وطاعته، لا يؤمنُ بيومٍ يحاسبُ اللهُ فيه خَلْقَهُ، فيجازي المحسنَ بإحسانِهِ، والمسيءَ بما أساء، وإنما خصَّ موسى صلوات الله وسلامه عليه، الاستعاذةَ باللهِ ممن لا يؤمنُ بيومِ الحساب، لأَنَّ مَنْ لم يؤمن بيومِ الحساب مُصَدِّقاً، لم يكنْ للثوابِ على الإحسانِ راجياً، ولا للعقابِ على الإساءة، وقبيحِ ما يأتي من الأفعال خائفاً، ولذلك كان استجارتُه من هذا الصنفِ من الناسِ خاصة.

وقـوله: «وقَالَ رَجُلٌ مؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إيمَانَهُ»، اختلف أهلُ العلم في هذا الرجل المؤمن، فقال بعضهم: كان من قومِ فرعون، غيرَ أنه كان قد آمَنَ بموسى، وكان يُسِرُّ إيمانَهُ من فرعونَ وقومِهِ خوفاً على نفسه.

وأولى القولين في ذلك بالصواب عندي قولُ مَن قال: إنَّ الرجلَ المؤمنَ كانَ من آلِ فرعونَ، قد أصغى لكلامه، واستمع منه ما قاله، وتوقَّفَ عن قتلِ موسى عند نهيهِ عن قتله، وقِيلِه ما قالَ، وقال له: ما أُرِيكُمْ إلا ما أرى، وما أهديكم إلا سبيلَ الرشادِ، ولو كان إسرائيلياً لكان حَرِيًّا أنْ يعاجل هذا القائلَ له، ولملئه ما قال بالعقوبةِ على قوله: لأنه لم يكنْ يَستنصحُ بني إسرائيلَ، لاعتدادِه إياهم أعداءً له، فكيف بقولِهِ عن قتلِ موسى لو وجد إليه سبيلاً، ولكنه لما كان من ملأٍ قومِهِ، استمعَ قولَهُ، وكَفَّ عما كان هَمَّ به في موسى.

وقـوله: «أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ»، يقول: أتقتلون أيها القومُ موسى لأن يقول ربي الله.

«وَقَـدْ جاءَكُمْ بالبَيِّناتِ»، يقول: وقد جاءكم بالآياتِ الواضحاتِ على حقيقةِ ما يقولُ من ذلك، وتلك البينات من الآيات يَدُهُ وعَصَاهُ.

وقوله: «وَإنْ يَكُ كاذِباً فَعلَيْهِ كَذِبُهُ»، يقول: وإنْ يَكُ موسى كإذباً في قِيلِهِ: إنَّ اللهَ أرسلَهُ إليكم يأمركم بعبادتهِ، وتركِ دِينكُم الذي أنتم عليه، فإنما إثمُ كَذِبهِ عليه دونَكم «وَإنْ يَكُ صَادقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ»، يقول: وإنْ يَكُ صادقاً في قِيلِهِ ذلك، أصابكم الذي وعدكم من العقوبةِ على مقامكم على الدين الذي أنتم عليه مقيمون، فلا حاجةَ بكم إلى قتلِهِ، فتزيدوا رَبَّكم بذلك إلى سَخَطِه عليكم بكفركُمْ سَخطاً. «إنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ»، يقول: إن الله لا يوفِّقُ للحقِّ مَنْ هو متعدٍّ إلى فعلِ ما ليسَ له فِعْلُه، كذّاب عليه يكذب، ويقول عليه الباطلَ وغيرَ الحقِّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ المؤمنِ من آلِ فرعونَ لفرعونَ ومَلَئِه: «يا قَوْمِ لَكُمُ المُلْكُ اليَوْمَ ظاهِرِينَ في الأَرْضِ»، يعني: أرض مصر، يقول: لكم السلطانُ اليومَ والملكُ ظاهرينَ أنتم على بني إسرائيل في أرض مصر «فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللهِ»، يقول: فَمَنْ يدفعُ عنا بأسَ الله وسطوته إنْ حَلَّ بنا، وعقوبته إنْ جاءتنا، قال فرعون! «ما أُرِيكُمْ إلا ما أَرَى»، يقول قال فرعونُ مجيباً لهذا المؤمن الناهي عن قتلِ موسى: ما أُرِيكُم أيها الناسُ من الرأي والنصيحةِ إلا ما أرى لنفسي ولكم صلاحاً وصواباً، «وما أهديكم إلا سبيلَ الرشاد»، يقول: وما أدعوكم إلا إلى طريقِ الحقِّ والصوابِ في أمرِ موسى وقتله، فإنكم إنْ لم تقتلوه بَدَّلَ دينكم، وأظهرَ في أرضكم الفساد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾

يقول تعالى ذكره: وقال المؤمنُ من آلِ فرعونَ لفرعونَ وملئه: يا قوم إني أخافُ عليكم بقتلكم موسى إنْ قتلتموه مثلَ يومِ الأحزابِ الذين تَحَزَّبُوا على رُسُلِ الله نوحٍ وهود وصالح، فأهلكهم الله بِتَجَرُّئِهم عليهم، فَيُهْلِكَكُمْ كما أهلكهم.

وقوله: «مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ»، يقول: يفعل ذلك بكم فيهلككم مِثْلَ سُنَّتِه في قومِ نوحٍ وعادٍ وثمود وفعله بهم. وقد بيَّنا معنى الدأب فيما مضى .

وقوله: «وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ» يعني قوم إبراهيم، وقوم لوط، وهم أيضاً من الأحزاب.

وقوله: «وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً للْعِبادِ»، يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ المؤمنِ من آلِ فرعونَ لفرعونَ وملئه، وما أهلكَ اللهُ هذه الأحزابَ من هذه الأمم ظلماً منه لهم بغير جُرْمٍ اجترموه بينهم وبينه، لأنه لا يريد ظُلْمَ عباده، ولا يشاؤه، ولكنه أهلكهم بإجرامهم وكفرهم به، وخلافهم أمره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قيل هذا المؤمنِ لفرعون وقومه: «ويَا قَوْمِ إنّي أخافُ عَلَيْكُمْ» بقتلكم موسى إنْ قتلتموه عقابَ الله «يَوْمَ التَّنادِ».

وقوله: «يوم التَّنادِ»، معناه: ويا قومِ إني أخافُ عليكم يوم ينادي الناسُ بعضُهم بعضاً، إما من هولِ ما قد عاينوا من عظيمِ سلطانِ الله، وفظاعةِ ماغَشِيَهُمْ من كَرْبِ ذلك اليوم، وإما لتذكيرِ بعضِهم بعضاً إنجازَ الله إياهم الوعدَ الذي وَعَدَهُمْ في الدنيا، واستغاثة من بعضهم ببعض، مما لقيَ من عظيمِ البلاءِ فيه.

وقوله: «يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرينَ»، فتأويله: يَوْمَ يُوَلُّونَ هارِبينَ في الأرْضِ حذَارَ عَذَابِ اللهِ وعِقَابِهِ عِنْدَ مُعايَنَتِهِمْ جَهَنَّمَ.

وقوله: «ما لَكُمْ مِنَ اللهِ من عاصِمٍ»، يقول: مالكم من الله مانعٌ يمنعكم، وناصرٌ ينصركم.

وقوله: «وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هاد»، يقول: ومَنْ يخذله اللهُ فلم يوفِّقْهُ لرشده، فما له من موفِّقٍ يوفقهُ له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد جاءكم يوسفُ بن يعقوب يا قوم من قبل موسى بالواضحاتِ من حججِ الله.

وقوله: «فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ»، يقول: فلم تزالوا مرتابينَ فيما أتاكم به يوسفُ من عند رَبِّكم غير موقني القلوبِ بحقيقتهِ «حتى إِذَا هَلَكَ»، يقول: حتى إذا ماتَ يوسفُ قلتم أيها القومُ: لن يبعثَ الله من بعد يوسفَ إليكم رسولاً بالدعاء إلى الحقِّ «كَذَلكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مَسْرِفٌ مُرْتابٌ»، يقول: هكذا يصدُّ الله عن إصابةِ الحقِّ وقصدِ السبيل مَنْ هو كافرٌ به مرتابٌ، شاكٌّ في حقيقةِ أخبارِ رسله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾

يقول تعالى ذكره مخبراً عن قِيلِ المؤمنِ من آلِ فرعون: «الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللهِ بغَيْرِ سُلْطانٍ أتاهُمْ»، فقوله: «الذين» مردودٌ على «من» في قوله: «مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ». وتأويل الكلام: كذلك يُضِلُّ اللهُ أهلَ الإسرافِ والغلوِّ في ضلالهم بكفرهم بالله، واجترائهم على معاصيه، المرتابينَ في أخبار رسله، الـذينَ يخـاصمـونَ في حججه التي أتتهم بها رسله ليدحضوها بالباطلِ من الحُجج بغيرِ سلطانٍ أتاهم، يقول: بغير حجة أتتهم من عند رَبِّهم يدفعونَ بها

حقيقةَ الحُجَج التي أتتهم بها الرسلُ.

وقوله: «كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ»، يقول: كبر ذلك الجدالُ الذي يجادلونه في آياتِ الله مقتاً عند الله، «وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا» بالله.

وقوله: «كَذَلكَ يَطْبَعُ اللهُ على كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ»، يقول: كما طبعَ اللهُ على قلوبِ المسرفينَ الذين يجادلونَ في آياتِ الله بغيرِ سلطانٍ أتاهم، كذلك يطبعُ اللهُ على كُلِّ قلبِ متكبرٍ على اللهِ أنْ يُوَحِّدَهُ، ويصدِّقَ رُسُلَهُ «جبار»، يعني: متعظم عن اتِّباعِ الحقِّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

يقول تعالى ذكره: وقال فرعونُ لما وَعَظَهُ المؤمنُ من آلهِ بما وعظَهُ به وزجرَهُ عن قتلِ موسى نبيِّ الله وحَذَّرَهُ من بأسِ الله على قِيلِهِ اقتله ما حذره لوزيره وزيرِ السوءِ هامان «يا هامانُ ابْنِ لي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبابَ»، يعني: بناءً.

«لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبابَ»، اختلفَ أهلُ التأويلِ في معنى الأسبابِ في هذا الموضع، فقال بعضهم: أسباب السموات: طرقها.

وقال آخرون: عَنَى بأسباب السموات: أبوابَ السموات.

وقال آخرون: بل عُنِي به مَنْزِل السماء.

وقد بيَّنا فيما مضى قبل، أنَّ السبب: هو كلُّ ما تُسَبِّبَ به إلى الوصولِ

إلى ما يطلبُ من حبلٍ وسلَّمٍ وطريقٍ وغير ذلك.

فأوْلى الأقوالِ بالصوابِ في ذلك أن يقال: معناه لعلِّي أبلغ من أسبابِ السمـواتِ أسباباً أَتسببُ بها إلى رؤيةِ إلهِ موسى، طرقاً كانت تلك الأسباب منها، أو أبواباً، أو منازل، أو غير ذلك.

وقوله: «فأطَّلِع إلى إلَهِ مُوسَى»، اختلفت القَرَأة في قراءة قوله: «فأطَّلِعَ» فقـرأتْ ذلك عامة قَرَأة الأمصارِ «فأطَّلِعُ» بضم العين: ردّاً على قوله: «أبْلُغُ الأسْبابَ» وعطفاً به عليه. وذُكر عن حميد الأعرج أنه قرأ «فأطَّلِعَ» نصباً جواباً للعَلِّي.

والقراءة التي لا أستجيزُ غيرها الرفع في ذلك، لإجماعِ الحجةِ من القراءِ عليه.

وقوله: «وَإني لأَظُنُّهُ كاذِباً»، يقول: وإني لأظنُّ موسى كاذباً فيما يقول ويدَّعي من أنَّ له في السماء رباً أرسله إلينا.

وقوله: «وكَذَلكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ»، يقول الله تعالى ذكره: وهكذا زَيَّنَ الله لفرعونَ حين عَتَا عليه وتمرَّدَ، قبيحَ عمله، حتى سَوَّلَتْ له نفسُه بلوغَ أسبابِ السمواتِ، ليطلع إلى إلهِ موسى.

وقوله: «وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ»، اختلفت القَرَأةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأة المدينة والكوفة: «وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ» بضمِّ الصاد، على وجه ما لم يُسَمَّ فاعله.

وقـرأ ذلـك حميد وأبـو عمرو وعامة قَرَأة البصرة «وَصَدَّ» بفتح الصاد، بمعنى: وأعرضَ فرعونُ عن سبيلِ الله التي ابتُعِث بها موسى استكباراً.

والصوابُ من القول في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان معروفتان في قرأةِ الأمصارِ، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب.

وقوله: «ومَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إلَّا فِي تَبابٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما احتيالُ فرعون الذي يحتالُ للاطلاع إلى إله موسى، إلا في خسارٍ وذهابِ مالٍ وغبنٍ، لأنه ذهبت نفقته التي أنفقها على الصرحِ باطلاً، ولم يَنَلْ بما أنفقَ شيئاً مما أراده، فذلك هو الخَسَارُ والتباب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى ذكره مخبراً عن المؤمنِ باللهِ من آلِ فرعونَ «وقَالَ الَّذِي آمَنَ» من قومِ فرعونَ لقومه: «يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ»، يقول: إن اتبعتموني فقبلتم مني ما أقولُ لكم، بَيَّنتُ لكم طريقَ الصوابِ الذي تَرشُدون إذا أخذتم فيه وسلكتُموه وذلك هو دِينُ الله الذي ابتعثَ به موسى، يقول: «إنَّمَا هَذِهِ الحَياةُ الدُّنْيا متاعٌ»، يقول لقومه: ماهذه الحياةُ الدنيا العاجلةُ التي عَجَّلْتُ لكم في هذه الدار إلا متاعٌ تستمتعونَ بها إلى أجلٍ أنتم بالغوه، ثم تموتونَ وتزول عنكم «وَإنَّ الآخِرَةَ هِيَ دارُ القَرارِ»، يقول: وإن الدار الآخرة، وهي دارُ القرار التي تستقرُّونَ فيها فلا تموتونَ ولا تزولُ عنكم، يقول: فلها فاعملوا، وإياها فاطلبوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾

يقول: مَنْ عملَ بمعصيةِ الله في هذه الحياة الدنيا، فلا يجزيه اللهُ في

الآخرةِ إلا سيئة مثلها، وذلك أن يعاقبه بها؛ «وَمَنْ عِمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى»، يقول: ومن عمل بطاعةِ الله في الدنيا؛ وأْتَمَرَ لأمره؛ وانتهى فيها عما نهاه عنه من رجلٍ أو امرأةٍ، وهو مؤمنٌ بالله «فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ»، يقول: فالذين يعملون ذلك من عبادِ الله يدخلون في الآخرةِ الجنةَ.

وقوله: «يُرْزَقُونَ فِيها بغَيْرِ حِسابٍ»، يقول: يرزقهم الله في الجنة من ثمارها، وما فيها من نعيمها ولذّاتِها بغير حساب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ هذا المؤمن لقومِهِ من الكَفَرَةِ «مَا لِي أَدْعُوكُمْ إلَى النَّجاةِ» من عذابِ الله وعقوبته بالإيمانِ به، واتباعِ رسولِهِ موسى، وتصديقِهِ فيما جاءكم به من عندِ رَبِّه «وَتَدْعُونَنِي إلى النَّارِ»، يقول: وتدعونني إلى عملِ أهلِ النار.

وقوله: «تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ باللهِ، وأُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ»، يقول: وأشرك بالله في عبادته أوثاناً، لستُ أعلمُ أنه يصلحُ لي عبادتها وإشراكها في عبادة الله، لأنَّ الله لم يأذن لي في ذلك بخبرٍ ولا عقل.

وقوله: «وأنا أَدْعُوكُمْ إلى العَزِيزِ الغَفَّارِ»، يقول: وأنا أدعوكم إلى عبادةِ العزيزِ في انتقامِهِ ممن كفر به، الذي لا يمنعُه إذا انتقم من عدوٍّ له شيءٌ، الغفار لمن تابَ إليه بعد معصيتِهِ إياهُ، لعفوِهِ عنه، فلا يضرُّهُ شيءٌ مع عفوِهِ عنه، يقول: فهذا الذي هذه الصفةُ صفته فاعبدوا، لا ما لا ضرَّ عنده ولا نفع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾﴾

يقول: حقاً أن الذي تدعونني إليه من الأوثانِ، ليس له دعاءٌ في الدنيا ولا في الآخرة، لأنه جمادٌ لا ينطقُ، ولا يفهم شيئاً.

وقوله: «وأنَّ مَرَدَّنا إلى اللهِ»، يقول: وأنَّ مرجعنا ومنقلبنا بعد مماتنا إلى الله «وأنَّ المُسْرِفِينَ هُمْ أصحَابُ النَّارِ»، يقول: وأنَّ المشركينَ بالله المتعدِّينَ حدوده، القَتَلَةَ النفوس التي حَرَّمَ اللهُ قتلها، هم أصحابُ نارِ جهنمَ عند مرجعنا إلى الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى ذكره مخبراً عن قِيلِ المؤمنِ من آلِ فرعونَ لفرعونَ وقومِهِ: فستذكرون أيها القومُ إذا عاينتم عقابَ الله قد حَلَّ بكم، ولقيتم ما لقيتموه صِدْقَ ما أقولُ، وحقيقةَ ما أخبركم به من أنَّ المسرفينَ هم أصحابُ النار.

وقوله: «وأُفَوِّضُ أمْرِي إلى اللهِ»، يقول: وأُسلمُ أمري إلى الله، وأجعله إليه وأتوكَّلُ عليه، فإنه الكافي مَنْ تَوكَّل عليه.

وقوله: «إنَّ اللهَ بَصِيرٌ بالعِبادِ»، يقول: إنَّ الله عالمٌ بأمورِ عبادِه، ومَن المطيعُ منهم، والعاصي له، والمستحقُّ جميلَ الثوابِ، والمستوجبُ سَيِّئَ العقاب.

وقوله: «فَوَقاهُ اللهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا»، يقول تعالى ذكره: فدفعَ اللهُ عن هذا المؤمنِ من آلِ فرعون بإيمانهِ وتصديقِ رسولهِ موسى، مكروهَ ما كان فرعونُ ينالُ به أهلَ الخلافِ عليه من العذابِ والبلاء، فَنَجَّاهُ منه.

وقوله: «وحَاقَ بآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ العَذاب»، يقول: وحَلَّ بآلِ فرعونَ ووجَبَ عليهم، وعَنَى بآلِ فرعونَ في هذا الموضع تُبَّاعَهُ وأهلَ طاعته من قومه.

وعنى بقوله: «سُوءُ العَذَابِ»: ما ساءهم من عذابِ الله، وذلك نارُ جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مبيِّناً عن سوءِ العذابِ الذي حلَّ بهؤلاء الأشقياءِ من قومِ فرعونَ ذلك الذي حاق بهم من سوءِ عذابِ الله «النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها» إنهم لما هلكوا وغرَّقهم اللهُ، جُعلتْ أرواحُهم في أجوافِ طيرٍ سُودٍ، فهي تُعْرَضُ على النارِ كُلَّ يومٍ مرّتين «غُدُوّاً وَعَشِيًّا» إلى أنْ تقومَ الساعة.

وقوله: «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أشَدَّ العَذَاب»، معناه: ويوم تقومُ الساعةُ يقول الله لملائكته: «أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أشَدَّ العَذَابِ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ٤٧ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ٤٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «وَأَنْذِرْهُم يَوْمَ الآزِفَةِ إذِ القُلُوبُ لَدَى الحَنَـاجِـرِ كاظِمِينَ» [غـافـر: ١٨]، «وإذْ يَتَحَـاجُّـونَ في النَّـارِ»، يقول: وإذْ يتخـاصمـون في النـار: وعَنَى بذلك: إذ يتخاصمُ الذين أُمِرَ رسولُ الله ﷺ بإنذارِهم من مشركي قومِهِ في النارِ، فيقولُ الضعفاءُ منهم وهم المتبعون على الشركِ بالله «إنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبعاً» تقولُ لرؤسائِهم الذين اتبعوهم على الضلالةِ: إنَّا كنا لكم في الدنيا تبعاً على الكفرِ بالله «فَهَلْ أنْتُمْ مُغْنُونَ» اليومَ «عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ» يعنون حظاً فَتُخَفِّفُوه عَنَّا، فقد كُنَّا نسارعُ في محبتكم في الدنيا، ومن قِبلكم أُتِينَا، لولا أنتم لكنا في الدنيا مؤمنينَ، فلم يُصِبْنَا اليومَ هذا البلاء.

«قال الذين استكبروا»، وهم الرؤساءُ المتبوعونَ على الضلالةِ في الدنيا: إنَّا أيها القومُ وأنتم كلنا في هذه النار مُخَلَّدُونَ، لا خلاصَ لنا منها. «إنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ العِبـادِ» بفصلِ قضائِه، فأسكنَ أهلَ الجنةِ الجنةَ، وأهلَ النارِ النارَ، فلا نحنُ مما نحنُ فيه من البلاء خارجونَ، ولا هم مما فيه من النعيم منتقلونَ، ورفع قوله: «كُلٌّ» بقوله: «فِيها» ولم ينصب على النعت.

وقد اختلف في جواز النصبِ في ذلك في الكلام. وكان بعض نحويي البصرة يقول: إذا لم يضف كلّ لم يجزِ الاتباعُ. وكان بعض نحويي الكوفة يقول: ذلك جائزٌ في الحذفِ وغيرِ الحذفِ، لأنَّ أسماءها إذا حُذفت اكتفي بها منها. وقد بيَّنا الصوابَ من القولِ في ذلك فيما مضى بما أغنى عن إعادته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال أهلُ جهنم لخزنتها وقوَّامها، استغاثةً بهم من عظيم ما هُمْ فيه من البلاء، ورجاءَ أنْ يجدوا من عندهم فَرَجاً «ادْعُوا رَبَّكُمْ» لَنا «يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً» واحداً، يعني قَدْرَ يومٍ واحدٍ من أيامِ الدنيا «مِنَ العَذَابِ» الذي نحنُ فيه. وإنما قلنا: معنى ذلك: قَدْرَ يومٍ من أيامِ الدنيا، لأنَّ الآخرةَ يومٌ لا ليلَ فيه، فيقال: خفف عنهم يوماً واحداً.

وقوله: «قالُوا أوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بالبَيِّناتِ»، يقول تعالى ذكره: قالت خَزَنَـةُ جهنم لهم: أو لم تَكُ تأتيكم في الـدنيا رُسُلكم بالبينـاتِ من الحجـجِ على توحيدِ الله، فَتُوحِّدُوه وتؤمنوا به، وتَبَرَّؤوا مما دونه من الآلهةِ؟ قالوا: بلى، قد أتتنا رُسُلُنَا بذلك.

وقوله: «قالُوا فادْعُوا»، يقول جلّ ثناؤه: قالت الخَزَنَةُ لهم: فادْعُوا إذنْ رَبَّكم الذي أتتكم الرسلُ بالدعاءِ إلى الإيمانِ به.

وقوله: «ومَا دُعاءُ الكافِرِينَ إلاَّ فِي ضَلالٍ»، يقول: قد دَعَوْا وما دعاؤُهم إلا في ضلال، لأنه دعاءٌ لا ينفعهم، ولا يُستجابُ لهم، بل يقال لهم: «اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ» [المؤمنون: ١٠٨].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ ۝٥١ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ۝٥٢﴾

يقول القائل: وما معنى: «إنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَياةِ الدُّنْيا» وقـد علمنـا أنَّ منهم مَنْ قتله أعـداؤه، ومَثَّلُوا به، كشعياء ويحيى بن زكريا وأشباههما. ومنهم مَنْ هَمَّ بقتلِهِ قومُه، فكان أحسن أحواله أنْ يخلصَ منهم حتى فارقهم ناجياً بنفسه، كإبراهيمَ الذي هاجرَ إلى الشامِ من أرضِه مفارقاً

لقومِهِ، وعيسى الذي رفع إلى السماء إذْ أراد قومُه قَتْلَهُ، فأينَ النُّصْرَةُ التي أخبرنا أنه ينصرها رُسُلَهُ، والمؤمنينَ به في الحياة الدنيا، وهؤلاء أنبياؤه قد نالهم من قومِهم ما قد علمتَ، وما نصروا على مَنْ نالهم بما نالهم به؟

قيل: إنَّ لقوله: «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا» وجهين كلاهما صحيحٌ معناه. أحدهما: أنْ يكونَ معناه: إنا لننصرُ رُسُلَنَا والذينَ آمنوا في الحياةِ الدنيا إما بإعلائِنَاهُمْ على مَنْ كَذَّبَنا وإظفارِنَا بهم، حتى يقهروهم غَلَبَةً، ويُذِلُّوهُمْ بالظفرِ ذِلَّةً، كالذي فعل من ذلك بداود وسليمان، فأعطاهما من المُلكِ والسلطان ماقهرا به كُلَّ كافرٍ، وكالذي فعل بمحمدٍ ﷺ بإظهارِه على مَنْ كَذَّبَهُ من قومه، وإما بانتقامنا ممن حادَّهُمْ وشاقَّهُمْ بإهلاكِهم وإنجاءِ الرسلِ ممن كَذَّبهم وعَادَاهم، كالذي فعل تعالى ذِكْرُه بنوحٍ وقومِهِ، من تغريقِ قومِهِ وإنجائِهِ منهم، وكالذي فعل بموسى وفرعون وقومه، إذ أهلكهم غرقاً، ونجى موسى ومَنْ آمنَ به من بني إسرائيلَ وغيرهم ونحو ذلك، أو بانتقامنا في الحياة الدنيا من مُكَذِّبيهم بعد وفاةِ رسولنا من بعد مهلكهم، كالذي فعلنا من نصرتنا شعياء بعد مهلكه، بتسليطنا على قَتَلَتِه مَن سلَّطنا حتى انتصرنا بهم مِنْ قَتَلَتِه، وكفِعْلِنَا بقَتَلَةِ يحيى، من تسليطنا بُخْتُنَصَّر عليهم حتى انتصرنا به من قتله له وكانتصارنا لعيسى من مُرِيدي قَتْلِه بالروم حتى أهلكناهم بهم، فهذا أحدُ وجهيه.

والوجه الآخر: أنْ يكونَ هذا الكلامُ على وجهِ الخبرِ عن الجميعِ من الرسل والمؤمنينَ، والمرادُ واحدٌ، فيكون تأويلُ الكلام حينئذٍ: إنَّا لننصرُ رسولَنا محمداً ﷺ والذين آمنوا به في الحياة الدنيا، ويومَ يقومُ الأشهادُ، كما بَيَّنا فيما مضى أنَّ العربَ تُخْرِجُ الخبرَ بلفظِ الجميع، والمرادُ واحدٌ إذا لم تنصب للخبر شخصاً بعينه.

وعنى بقوله: «وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهادُ» يوم يقومُ الأشهادُ من الملائكةِ والأنبياءِ

والمؤمنينَ على الأمم المكذبة رُسُلَها بالشهادة بأنَّ الرسل قد بلغتهم رسالات رَبِّهم، وأنَّ الأمم كذّبتهم. والأشهادُ: جَمْعُ شهيد، كما الأشرافُ: جمع شريف.

وقوله: «يومَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرتُهُمْ»، يقول تعالى ذكره: ذلك يوم لا ينفعُ أهلَ الشركِ اعتذارُهم لأنهم لا يعتذرونَ إن اعتذروا إلا بباطلٍ، وذلك أنَّ الله قد أعـذرَ إليهم في الدنيا، وتابعَ عليهم الحُجَجَ فيها فلا حجةَ لهم في الآخرة إلا الاعتصامُ بالكذبِ بأنْ يقولوا: «وَاللهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِين».

وقوله: «ولَهُمُ اللَّعْنَةُ»، يقول: وللظالمينَ اللعنةُ، وهي البُعْدُ من رحمةِ الله. «ولَهُمْ سُوءُ الدَّارِ»، يقول: ولهم مع اللعنةِ من اللهِ شَرُّ ما في الدارِ الآخرةِ، وهو العذابُ الأليم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تعَالَى: وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى» البيانَ للحقِّ الذي بعثناهُ به كما آتينا ذلك محمداً فكذَّبَ به فرعون وقومه، كما كذَّبتْ قريش محمداً «وَأَوْرَثْنا بَني إسْرائِيلَ الكِتابَ»، يقول: وأورثنا بني إسرائيلَ التوراةَ، فَعَلَّمْنَاهُمُوها، وأنـزلنـاه إليهم «هُـدًى» يعني: بياناً لأمرِ دينهم، وما ألزمناهم من فرائضها، «وَذِكْرَى لأُولي الألْبابِ»، يقول: وتذكيراً منا لأهلِ الحِجَا والعقولِ منهم بها.

وقوله: «فاصْبرْ إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: فاصبرْ يا محمدُ لأمرِ ربك، وانفذ لما أرسلكَ به من الرسالةِ، وبلِّغْ قومكَ ومن أُمرتَ بإبلاغهِ ما أنزل إليك، وأيقن بحقيقةِ وعدِ الله الذي وعدكَ من نصرتك،

ونصرةِ مَنْ صَدَّقَكَ وآمنَ بك، على مَنْ كَذَّبَكَ، وأنكرَ ماجئته به من عند ربك، إنَّ وعدَ الله حقٌّ لا خُلْفَ له وهو منجزٌ له. «وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ»، يقول: وسله غفرانَ ذنوبكَ وعفوَهُ لكَ عنه «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ»، يقول: وصلِّ بالشكرِ منك لربـك «بِـالْعَشِيِّ» وذلك من زوالِ الشمس إلى الليل، «وَالإِبْكَارِ» وذلك من طلوعِ الفجرِ الثاني إلى طلوع الشمس.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين يخاصمونكَ يا محمدُ فيما أتيتهم به من عندِ رَبِّكَ من الآياتِ «بغير سلطانٍ أتاهم»، يقول: بغير حجةٍ جاءتهم من عندِ الله بمخاصمتكَ فيها. «إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ»، يقول: ما في صدورهم إلا كِبْرٌ يتكبرونَ من أجلهِ عن اتباعكَ، وقبولِ الحقِّ الذي أتيتَهُمْ به حَسَداً منهم على الفضل الذي آتاكَ الله، والكرامة التي أكرمكَ بها من النبوّةِ «ما هُمْ بِبالِغِيهِ»، يقول: الذي حسدوك عليه أمرٌ ليسوا بمُدْرِكيه ولا نائليه، لأنَّ ذلك فضلُ الله يؤتيه مَنْ يشاء، وليس بالأمرِ الذي يُدْرَكُ بالأمانيِّ.

وقوله: «فاسْتَعِذْ باللهِ إنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فاستجرْ باللهِ يا محمدُ من شرِّ هؤلاء الذين يجادلون في آياتِ الله بغيرِ سلطانٍ، ومن الكبر أنْ يعرض في قلبكَ منه شيءٌ. «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ»، يقول: إنَّ الله هو السميعُ لما يقولُ هؤلاء المجادلونَ في آياتِ الله وغيرهم من قولٍ «البصير» بما تعمله جوارحهم، لا يَخْفَى عليه شيءٌ من ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لابتداع السمواتِ والأرضِ وإنشاؤُها من غير شيءٍ أعظمُ أيها الناسُ عندكم إن كنتم مُسْتَعْظِمي خَلْقِ الناس، وإنشائِهم من غير شيءٍ من خلق الناس، ولكنَّ أكثرَ الناس لا يعلمون أنَّ خَلْقَ جميع ذلك هَيِّنٌ على الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

وما يستوي الأعمى الذي لا يبصرُ شيئاً، وهو مثل الكافر الذي لا يتأملُ حُجَجَ الله بعينه، فيتدبرها ويعتبر بها، فيعلم وحدانيته وقُدْرَتَهُ على خَلْقِ ما شاء من شيءٍ، ويؤمن به ويصدِّق. والبصيرُ الذي يرى بعينيه ما شَخَصَ لهما ويبصره، وذلك مَثَلٌ للمؤمن الذي يرى بعينيه حُجَجَ الله، فيتفكَّر فيها ويتعظ، ويعلم ما دلَّتْ عليه من توحيدِ صانعهِ، وعظيمِ سلطانهِ وقُدْرتهِ على خَلْقِ ما يشاء، يقول جلّ ثناؤه: كذلك لا يستوي الكافرُ والمؤمنُ. «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلوا الصَالحاتِ»، يقول جل ثناؤه: ولا يستوي أيضاً كذلك المؤمنونَ باللهِ ورسوله، المطيعونَ لربهم، ولا المسيء، وهو الكافرُ بربه، العاصي له، المخالف أمره «قَليلاً ما تَتَذَكَّرُونَ»، يقول جلّ ثناؤه: قليلاً ما تتذكرون أيها الناسُ حجج الله، فتعتبرونَ وتتعظون، يقول: لو تذكرتم آياتهِ واعتبرتم، لعرفتُمْ خطأَ ما أنتم عليه مقيمونَ من إنكارِكم قُدْرَةَ الله على إحيائهِ من فني من خَلْقه من بعد الفناء، وإعادتِهم لحياتِهم من بعد وفاتِهم، وعلمتم قُبْحَ شِرْكِكم مَنْ تُشْرِكُون في عبادة ربكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

يقول تعالى ذكره: إنَّ الساعةَ التي يحيي اللهُ فيها الموتى للثوابِ والعقابِ لجائيةٌ أيها الناسُ لا شكَّ في مجيئها، يقول: فأيقنوا بمجيئها، وأنكم مبعوثون من بعدِ مماتِكم، ومجازونَ بأعمالِكم، فتوبوا إلى ربِّكم. «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسَ لا يُؤْمِنُونَ»، يقول: ولكن أكثر قريش لا يُصَدِّقُونَ بمجيئها.

وقوله: «وقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ويقول رَبُّكم أيها الناسُ لكم ادعوني: يقول: اعبدوني وأَخْلِصُوا لي العبادةَ دونَ مَنْ تعبدون من دوني من الأوثانِ والأصنام وغير ذلك «أَسْتَجِبْ لَكُمْ»، يقول: أُجِبْ دعاءكم فأعفو عنكم وأرحمكم.

وقوله: «إنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي»، يقول: إنَّ الذين يتعظمون عن إفرادي بالعبادة، وإفراد الأُلوهةِ لي «سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ»، بمعنى: صاغرين. وقد دَلَّلْنَا فيما مضى قَبْلُ على معنى الدَّخْرِ بما أغنى عن إعادتِهِ في هذا الموضع[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾

(١) أنظر تفسير سورة النمل: ٨٧.

يقول تعالى ذِكْرُه: الله الذي لا تصلحُ الألوهةُ إلا له، ولا تنبغي العبادةُ لغيره، الذي صِفَتُه أنه جعلَ لكم أيها الناسُ الليلَ سَكَناً لتسكنوا فيه، فتهدؤوا من التصـرُّفِ والاضـطرابِ للمعاش، والأسباب التي كنتم تتصرفون فيها في نهاركم «والنَّهارَ مُبْصِراً»، يقول: وجعلَ النهارَ مُبصراً مَن اضطربَ فيه لمعاشه، وطلبِ حاجاتِه، نعمةً منه بذلك عليكم. «إنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ على النَّاسِ»، يقول: إنَّ اللهَ لمتفضلٌ عليكم أيها الناسُ بما لا كفءَ له من الفضل. «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّـاسِ لا يَشْكُـرُونَ»، يقـول: ولكن أكثرهم لا يشكرونه بالطاعةِ له، وإخلاصِ الألوهةِ والعبادةِ له، ولا يدٌ تقدَّمت له عنده استوجبَ بها منه الشكر عليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٦٢ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٦٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الذي فعلَ هذه الأفعالَ، وأنعمَ عليكم هذه النعمَ أيها الناسُ، اللهُ مالِكُكم ومُصْلِحُ أموركم، وهو خالقكُم وخالقُ كلِّ شيءٍ «لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»، يقول: لا معبودَ تصلحُ له العبادةُ غيره، «فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ»، يقول: فأيّ وجه تأخذون، وإلى أينَ تذهبونَ عنه، فتعبدونَ سواه؟

وقوله: «كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كانُوا بآياتِ اللهِ يَجْحَدُونَ»، يقول: كَذَهابِكُم عنه أيها القومُ، وانصرافِكم عن الحقِّ إلى الباطل، والرشد إلى الضلالِ، ذهب عنـه الـذين كانوا من قبلكم من الأممِ بآياتِ الله يعني: بحججِ اللهِ وأدلَّتِه يكـذِّبـونَ فلا يؤمنونَ؛ يقول: فسلكتم أنتم معشرَ قريشٍ مَسْلَكَهُم، وركبتم محجتهم في الضلال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «اللهُ» الذي له الأُلوهةُ خالصة أيها الناسُ «الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأرْضَ» التي أنتم على ظهرها سكان «قَراراً» تستقرونَ عليها، وتسكنون فوقَها، «والسَّماءَ بِناءً»: بناها فرفعها فوقَكم بغيرِ عَمَدٍ ترونها لمصالحكم، وقوام دُنياكُمْ إلى بلوغِ آجالِكم «وَصَوَّرَكمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ»، يقول: وخلقكم فأحسنَ خَلْقَكُم. «وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ»، يقول: ورزقكم من حلالِ الرزق، ولذيذاتِ المطاعمِ والمشارب.

وقوله: «ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فالذي فعلَ هذه الأفعالَ، وأنعم عليكم أيها الناسُ هذه النعمَ، هو اللهُ الذي لا تنبغي الألوهةُ إلا له، ورَبُّكم الذي لا تصلحُ الربوبيةُ لغيره، لا الذي لا ينفعُ ولا يضرُّ، ولا يخلقُ ولا يرزقُ «فَتَبارَكَ اللهُ رَبُّ العالَمينَ»، يقول: فتبارك الله مالكُ جميع الخَلْقِ جِنِّهم وإنْسِهم، وسائرِ أجناسِ الخلقِ غيرهم «هُوَ الحَيُّ»، يقول: هو الحيُّ الذي لا يموتُ، الدائمُ الحياةِ، وكُلُّ شيءٍ سواه فمنقطعُ الحياةِ غير دائمها «لا إلَهَ إلَّا هُوَ»، يقول: لا معبودَ بحقٍّ تجوزُ عبادته، وتصلحُ الأُلوهةُ له إلا اللهُ الذي هذه الصفاتُ صفاته، فادعوه أيها الناسُ مخلصينَ له الدين، مخلصينَ له الطاعةَ، مفردينَ له الأُلوهةَ، لا تشركوا في عبادته شيئاً سواه، من وثنٍ وصنم، ولا تجعلوا له ندّاً ولا عِدلاً.

«الحَمْـدُ للهِ رَبِّ العَالِمينَ»، يقول: الشكرُ لله الذي هو مالكُ جميعِ

أجنـاسِ الخلقِ، من مَلكٍ وجنٍّ وإنس وغيرهم، لا للآلهةِ والأوثان التي لا تملكُ شيئاً، ولا تقدرُ على ضُرٍّ ولا نفعٍ، بل هو مملوكٌ، إنْ ناله نائلٌ بسوء لم يقدر له عن نفسه دفعاً.

وكان جماعةٌ من أهلِ العلم يأمرون مَنْ قال لا إله إلا الله أنْ يُتْبِعَ ذلك «الحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» تأولاً منهم هذه الآيةَ، بأنها أمرٌ من اللهِ بِقِيلِ ذلك.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ لمشركي قومكَ من قريش «إنّي نُهيتُ» أيها القومُ «أنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ» من الآلهةِ والأوثانِ «لَمَّا جاءَنِيَ البَيِّناتُ مِنْ رَبّي»، يقول: لما جاءني الآيات الواضحات من عند ربي، وذلـك آيات كتابِ الله الذي أنزله «وأُمِرْتُ أنْ أُسْلِمَ لِرَب العَالمينَ»، يقـول: وأمـرني ربي أنْ أذلّ لربِّ كلِّ شيءٍ، ومـالكِ كلِّ خَلْقٍ بالخضوع، وأخضع له بالطاعةِ دونَ غيرِه من الأشياء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالى ذكره آمراً نبيه محمداً ﷺ بتنبيه مشركي قومه على حججهِ عليهم في وحدانيته قُلْ يا محمدُ لقومكَ: أُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لربِّ العالمين الذي

صِفَتُه هذه الصفاتُ، وهي أنه خَلَقَ أباكم آدم «مِنْ تُرابٍ، ثُمَّ» خلقكم «مِنْ نُطْفَةٍ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ» بعد أن كنتم نطفاً «ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً» من بطونِ أمهاتكم صغاراً، «ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أشُدَّكُمْ»، فتتكامل قُواكم، ويتناهَى شبابُكم، وتمام خلقكم شيوخاً «وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ» أن يبلغ الشيخوخة «وَلِتَبْلُغُوا أجَلاً مُسَمًّى»، يقول: ولتبلغوا ميقاتاً مؤقتاً لحياتكم، وأجلاً محدوداً لا تجاوِزُونَهُ، ولا تتقدمون قَبْلَهُ «وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»، يقول: وكي تَعْقِلُوا حججَ الله عليكم بذلك، وتتدبروا آياتهِ فتعرفوا بها أنه لا إله غيرُه فعلَ ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٦٨ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ۝٦٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ لهم يا محمدُ «هوَ الَّذِي يُحْيِي ويُمِيتُ»، يقولُ: قل لهم: ومن صفته جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنه هو الذي يحيي مَنْ يشاء بعد مماته، ويُميتُ مَنْ يشاء من الأحياءِ بعد حياتهِ و«إذَا قَضَى أمْراً»، يقولُ: وإذا قضى كونَ أمرٍ من الأمورِ التي يريد تكوينها «فإنَّمَا يقُولُ لَهُ كُنْ»، يعني للذي يريد تكوينه كُنْ، فيكون ما أرادَ تكوينه موجوداً بغير معاناةٍ، ولا كلفةِ مؤنة.

وقوله: «ألَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ يُجادِلُونَ في آياتِ اللهِ أنَّى يُصْرَفُونَ»، يقول لنبيه محمدٍ ﷺ: ألم تَرَ يا محمدُ هؤلاءِ المشركينَ من قومك، الذين يخاصمونك في حججِ الله وآياته «أنَّى يُصْرَفون»، يقولُ: أيِّ وجه يصرفون عن الحقِّ، ويعدلون عن الرشد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا

بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ألم تر إلى الذين يجادلونَ في آياتِ الله أنَّى يُصرفون الذين كذَّبُوا بكتابِ الله»، وهو هذا القرآنُ، والذين الثانية في موضع خفض ردّاً لها على الذين الأولى على وجه النعت «وَبما أرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا»، يقولُ: وكَذَّبُوا أيضاً مع تكذيبهم بكتابِ الله بما أرسلنا به رُسُلَنا من إخلاصِ العبادةِ لله، والبراءة مما يعبد دونه من الآلهةِ والأنداد، والإقرار بالبعثِ بعد المماتِ للثواب والعقاب.

وقوله: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إذِ الأغْلالِ في أعْناقِهِمْ والسَّلاسِلُ»، وهذا تهديدٌ من الله المشركينَ به، يقول جَلَّ ثناؤه: فسوف يعلمُ هؤلاءِ الذين يجادلون في آياتِ الله، المكذِّبُونَ بالكتابِ حقيقة ما تخبرهم به يا محمدُ، وصحة ما هُمْ به اليوم مُكَذِّبونَ من هذا الكتابِ، حين تُجعلُ الأغلالُ والسلاسلُ في أعناقهم في جهنم.

وقوله: «يُسْحَبُونَ»، يقولُ: يَسْحَبُ هؤلاءِ الذين كَذَّبُوا في الدنيا بالكتابِ زبانيةُ العذابِ يومَ القيامة في الحميم، وهو ما قد انتهى حَرُّه، وبلغَ غايته.

وقوله: «ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ»، يقولُ: ثم في نار جهنم يحرقون، يقولُ: تُسَجَّرُ بهم جهنم: أي تُوقَدُ بهم.

وقوله: «ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أيْنما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللهِ»، يقولُ: ثم قيل: أين الذين كنتم تشركونَ بعبادتكم إياها من دونِ الله من آلهتكم وأوثانكم حتى

يغيثوكم فينقذوكم مما أنتم فيه من البلاءِ والعذابِ فإنَّ المعبودَ يغيث من عبده وخدمه، وإنما يقال هذا لهم توبيخاً وتقريعاً على ما كان منهم في الدنيا من الكفر بالله وطاعةِ الشيطانِ؛ فأجابَ المساكينُ عند ذلك فقالوا: ضَلُّوا عنا: يقولُ: عَدَلُوا عنا، فأخذوا غير طريقنا، وتركونا في هذا البلاء، بَلْ ما ضَلُّوا عنا، ولكِنَّا لم نكن نَدْعُو من قَبْلُ في الدنيا شيئاً: أي لم نكن نعبدُ شيئاً، يقول الله تعالى ذِكْرُه: «كَذَلكَ يُضِلُّ اللهُ الكافِرِينَ»، يقولُ: كما أضلَّ هؤلاءِ الذين ضلَّ عنهم في جهنم ما كانوا يعبدون في الدنيا من دونِ الله من الآلهةِ والأوثانِ آلهتهم وأوثانهم، كذلك يضلُّ الله أهلَ الكفرِ به عنه، وعن رحمتهِ وعبادتهِ، فلا يرحمهم فينجيهم من النارِ، ولا يغيثهم فيخفف عنهم ما هُمْ فيه من البلاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأرضِ بغيرِ الحَقِّ» هذا الذي فعلنا اليوم بكم أيها القومُ من تَعذِيبناكُمْ العذابَ الذي أنتم فيه، بفرحكم الذي كنتم تفرحونه في الدنيا، بغيرِ ما أذن لكم به من الباطل والمعاصي، وبمرحكم فيها. والمرح: هو الأشَرُ والبطر.

وقوله: «ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها»، يقول تعالى ذِكْرُه لهم: ادخلوا أبوابَ جهنمَ السبعة من كلِّ بابٍ منها جزء مقسوم منكم. «فَبِئْسَ مَثْوَى المُتَكَبِّرِينَ»، يقولُ: فبئس منزلُ المتكبرين في الدنيا على الله أنْ يُوَحِّدُوه، ويؤمنوا برسلهِ اليومَ، جهنمُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فاصبر يا محمدُ، على ما يجادلك به هؤلاءِ المشركونَ في آياتِ الله التي أنزلناها عليك، وعلى تكذيبهم إياك، فإنَّ الله منجزٌ لكَ فيهم ما وعَدَكَ من الظفرِ عليهم، والعلوِّ عليهم، وإحلالِ العقاب بهم، كسنتنا في موسى بن عمران ومَنْ كذَّبه «فإمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ»، يقول جَلَّ ثناؤُه: فإما نُرِيَنَّكَ يا محمدُ في حياتك بعض الذي نعد هؤلاءِ المشركينَ من العذاب والنقمة أنْ يحلَّ بهم «أوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ» قبل أن يحلَّ ذلك بهم «فَإلَيْنا يُرْجَعُونَ»، يقولُ: فإلينا مصيرك ومصيرهم، فنحكم عند ذلك بينك وبينهم بالحقِّ بتخليدِنَاهُمْ في النار، وإكرامِنَاكَ بجوارنا في جنات النعيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «وَلَقَدْ أرْسَلْنَا» يا محمدُ «رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ» إلى أممها «مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ»، يقولُ: من أولئك الذين أرسلنا إلى أممهم مَنْ قَصَصْنَا عليكَ نبأهم «وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ» نبأهم.

وقوله: «وَما كانَ لِرَسُولٍ أنْ يَأْتِيَ بآيَةٍ إلاَّ بإذْنِ اللهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما جعلنا لرسولٍ ممن أرسلنا من قبلكَ قصصناهم عليك، والذين لم نقصصهم عليكَ إلى أممها أنْ يأتي قومَهُ بآيةٍ فاصلةٍ بينه وبينهم، إلا بإذنِ الله له بذلك،

فيأتيهم بها، يقول جَلَّ ثناؤه لنبيه: فلذلك لم يجعلْ لكَ أنْ تأتي قومكَ بما يسألونك من الآياتِ دونَ إذننا لكَ بذلك، كما لم نجعلْ لمن قبلك من رُسُلنا إلا أن نأذنَ له به «فإذَا جاءَ أمْرُ اللهِ قُضِيَ بالحَقِّ» يعني بالعدل، وهو أن يُنَجِّي رسله والذين آمنوا معهم «وَخَسِرَ هُنَالكَ المُبْطِلُونَ»، يقولُ: وهلك هنالك الذين أبطلوا في قِيلهم الكذبَ، وافترائِهم على الله وادعائِهم له شريكاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه «اللهُ» الذي لا تصلحُ الأُلوهةُ إلا له أيها المشركونَ به من قريش «الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأنعَامَ» من الإبلِ والبقرِ والغنمِ والخيل، وغير ذلك من البهائمِ التي يقتنيها أهلُ الإسلام لمركبٍ أو لمطعم «لِتَرْكَبُوا مِنْهَا»، يعني: الخيلَ والحمير «وَمِنْها تَأكُلُونَ» يعني الإبلَ والبقرَ والغنم. وقال: «لِتَرْكَبُوا مِنْهَا»، ومعناه: لتركبوا منها بعضاً ومنها بعضاً تأكلون، فحذف استغناء بدلالة الكلام على ما حذف.

وقوله: «وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ» وذلك أنْ جعلَ لكم من جُلودِهَا بيوتاً تَسْتَخِفُّونها يوم ظَعْنِكم، ويومَ إقامتِكم، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين.

وقوله: «وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حاجَةً في صُدُورِكُمْ»، يقولُ: ولتبلغوا بالحمولةِ على بعضها، وذلك الإبل حاجة في صدوركم لم تكونوا بالغيها لولا هيَ، إلا بشقٍّ أنفسكم، كما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «وَتَحْمِلُ أَثْقالَكُمْ إلى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بالِغِيه

إلَّا بِشِقِّ الأَنْفُسِ».

وقـوله: «وَعَلَيْها»، يعني: وعلى هذه الإبلِ، وما جانَسَها من الأنعامِ المركوبةِ «وَعَلى الفُلْكِ»، يعني: وعلى السفن «تُحْمَلُونَ»، يقولُ: نحملكم على هذه في البَـرِّ، وعلى هذه في البحـر «وَيُرِيكُم آياتِـهِ»، يقولُ: ويريكم حُجَجَـهُ، «فأيَّ آياتِ اللهِ تُنْكِرونَ»، يقولُ: فأي حجج الله التي يُريكم أيها الناسُ. في السماء والأرض تنكرون صِحَّتَها، فتكذِّبُونَ من أجلِ فسادها بتوحيدِ الله، وتدعونَ من دونِه إلهاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أفلم يَسِرْ يا محمدُ هؤلاءِ المجادلونَ في آياتِ الله من مشركي قومك في البلاد، فإنهم أهل سفرٍ إلى الشأم واليمن، رحلتهم في الشتاء والصيف، فينظروا فيما وطئوا من البلادِ إلى وقائعنا بمن أوقعنا به من الأممِ قبلهم، ويروا ما أحْلَلْنَا بهم من بأسنا بتكذيبهم رُسُلَنا، وجحودهم آياتنا، كيف كان عُقْبَى تكذِيبهم، «كانوا أكثر منهم»، يقولُ: كان أولئك الذين من قبل هؤلاءِ المُكَذِّبيكَ من قريش أكثر عدداً من هؤلاءِ وأشدّ بطشاً، وأقوى قوّةً، وأبقى في الأرض آثاراً، لأنهم كانوا ينحتون من الجبالِ بيوتاً ويتخذون مصانع.

وقوله: «فَمَا أغْنَى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ»، يقولُ: فلما جاءهم بأسنا وسطوتنا، لم يُغْنِ عنهم ما كانوا يعملونَ من البيوتِ في الجبال، ولم يدفَعْ عنهم ذلك شيئاً، ولكنهم بادوا جميعاً فهلكوا. وقد قيل: إنَّ معنى قوله: «فَمَا أغْنَى عَنْهُمْ» فأيّ شيء أغنى عنهم، وعلى هذا التأويلِ يجب أنْ يكونَ ما الأولى في موضع نصب، والثانية في موضع رفع. يقولُ: فلهؤلاءِ المُجَادِليك من قومكَ

يا محمدُ في أولئك معتبرٌ إنْ اعتبروا، ومُتَّعَظٌ إنِ اتَّعَظُوا، وإنَّ بأسنا إذا حَلَّ بالقوم المجرمين لم يدفعه دافع، ولم يمنعه مانع، وهو بهم إنْ لم ينيبوا إلى تصديقكَ واقع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما جاءتْ هؤلاءِ الأمم الذين من قبل قريش المكذِّبةِ رُسُلَهَا رُسُلَهم الذين أرسلهم الله إليهم «بالبيناتِ»، يعني: بالواضحاتِ من حججِ الله عزّ وجلّ «فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ العِلْمِ»، يقولُ: فرحوا جهلاً منهم بما عندهم من العِلْمِ وقالوا: لن نبعث، ولن يُعَذِّبَنَا الله.

وقوله: «وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ»، يقولُ: وحاقَ بهم من عذابِ الله ما كانوا يستعجلون رُسُلَهم به استهزاءً وسخريةً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ۝٨٤﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: فلما رأتْ هذه الأممُ المكذِّبةُ رُسُلَها بأسنا، يعني عقابَ الله الذي وعدتهم به رُسُلُهم قد حَلَّ بهم.

وقوله: «قالُوا آمَنَّا بالله وَحْدَهُ»، يقولُ: قالوا أقررنا بتوحيدِ الله، وصَدَّقنا أنه لا إله غيره، «وكَفَرْنا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ»، يقولُ: وجَحَدنا الآلهةَ التي كنا قبل وقتنا هذا نُشْرِكُهَا في عبادتنا الله ونعبدها معه، ونتخذها آلهةً، فَبَرِئْنَا منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ

المؤمن: ٨٥

﴿ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلم يَكُ ينفعهم تصديقهم في الدنيا بتوحيدِ اللهِ عند معاينةِ عقابهِ قد نزلَ، وعذابه قد حلَّ، لأنهم صَدَّقُوا حين لا ينفعُ التصديقُ مصدّقاً، إذْ كان قد مضى حُكْمُ الله في السابقِ من عِلْمِه، أنَّ مَنْ تابَ بعد نزولِ العذابِ من الله على تكذيبهِ لم تنفعه توبته.

وقوله: «سُنَّةَ اللهِ التي قَدْ خَلَتْ في عِبادِهِ»، يقولُ: تَرَكَ اللهُ تبارك وتعالى إقـالَتَهُمْ، وقبولَ التوبةِ منهم، ومراجعتهم الإيمانَ بالله، وتصديقَ رسلهم بعد معاينتهم بأسَهُ، قد نزلَ بهم، سُنَّتُهُ التي قد مَضَتْ في خَلْقِه، فلذلك لم يُقِلْهُمْ ولم يقبلْ توبتهم في تلك الحال.

وقوله: «وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكافِرُونَ»، يقولُ: وهلك عند مُجيء بأسِ الله، فغبنتْ صفقتُـه وَوُضِـعَ في بيعهِ الآخرةَ بالدنيا، والمغفرة بالعذاب، والإيمانَ بالكفر، الكافرونَ بربهم، الجاحدونَ توحيدَ خالِقهم، المتخذونَ من دونِه آلهةً يعبدونهم من دونِ بارئهم.



بسم الله الرحمن الرحيم

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤﴾

قد تقدم القولُ منا فيما مضى قبلُ في معنى «حمٓ»، والقول في هذا الموضع كالقولِ في ذلك.

وقوله: «تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هذا القرآنُ تنزيلٌ من عندِ الرحمنِ الرحيم نَزَّلَهُ على نبيه محمدٍ ﷺ «كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ»، يقولُ: كتابٌ بُيِّنَتْ آياتُه.

وقوله: «لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ»، يقولُ: فُصِّلَتْ آياتُ هذا الكتابِ قرآناً عربياً لقومٍ يعلمونَ اللسانَ العربي «بشيراً» لهم يبشرهم إنْ هُمْ آمنوا به، وعملوا بما أنزلَ فيه من حدودِ الله وفرائضه بالجنة، «ونذيراً»، يقولُ: ومنذراً مَنْ كَذَّبَ به ولم يعملْ يما فيه بأمرِ الله في عاجلِ الدنيا، وخلودِ الأبدِ في نارِ جهنمَ في آجلِ الآخرة.

وقوله: «فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فاستكبرَ عن الإصغاءِ له وتَدَبُّرِ ما فيه من حُجَجِ الله، وأعرضَ عنه أكثرُ هؤلاءِ القوم الذين أنزلَ هذا

القرآنُ بشيراً لهم ونذيراً، وهم قومُ رسولِ الله ﷺ. «فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ»، يقولُ: فهم لا يُصْغُونَ له فيسمعوه إعراضاً عنه واستكباراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال هؤلاءِ المشركونَ المُعْرِضُونَ عن آياتِ الله من مشركي قريش إذْ دعاهم محمدٌ نبيُّ الله إلى الإقرارِ بتوحيدِ الله وتصديقِ ما في هذا القرآنِ من أمرِ الله ونهيه، وسائر ما أنزل فيه. «قُلُوبُنا في أكِنَّةٍ»، يقولُ: في أغطيةٍ «مِمَّا تَدْعُونا» يا محمدُ «إلَيْهِ» من توحيدِ الله، وتصديقكَ فيما جِئْتَنا به، لا نَفْقَهُ ما تقولُ «وفي آذانِنا وَقْرٌ» وهو الثِقَلُ، لا نسمعُ ما تَدْعُونَا إليه استثقالاً لما يدعو إليه وكراهةً له.

وقوله: «وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ»، يقولون: ومن بيننا وبينك يا محمدُ ساترٌ لا نجتمعُ من أجلِه نحنُ وأنتَ، فيرى بعضُنا بعضاً، وذلك الحجابُ هو اختلافُهم في الدين، لأنَّ دِينهم كان عبادة الأوثان، ودين محمدٍ ﷺ عبادة الله وحده لا شريكَ له، فذلك هو الحجابُ الذي زعموا أنه بينهم وبين نبيِّ الله، وذلك هو خلافُ بعضِهم بعضاً في الدين.

وقوله: «فاعْمَلْ إنَّنا عامِلُونَ»، يقولُ: قالوا له ﷺ: فاعملْ يا محمدُ بدينكَ وما تقولُ إنه الحقُّ، إننا عاملونَ بديننا، وما نقولُ إنه الحقُّ، ودَعْ دُعاءَنا إلى ما تَدْعُونَا إليه من دِينكَ، فإنَّا ندع دعاءك إلى ديننا. وأدخلت «من» في قوله: «وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ»، والمعنى: وبيننا وبينك حجابٌ توكيداً للكلام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قُلْ يا محمدُ لهؤلاءِ المعرضينَ عن آياتِ الله من قومكَ أيها القومُ: ما أنَا إلَّا بشرٌ من بني آدم مثلكم في الجنسِ والصورةِ والهيئةِ لستُ بملَك «يُوحَى إليَّ»، يقولُ: يوحي اللهُ إليَّ أنْ لا معبودَ لكم تصلحُ عبادتُه إلا معبودٌ واحدٌ «فاسْتَقِيمُوا إلَيْهِ»، يقولُ: فاستقيموا إليه بالطاعةِ، وَوَجِّهُوا إليه وجوهَكُمْ بالرغبةِ والعبادةِ دونَ الآلهةِ والأوثانِ «وَاسْتَغْفِرُوهُ»، يقولُ: وسَلُوه العَفْوَ لكم عن ذنوبِكم التي سَلَفَتْ منكم بالتوبةِ من شرككم، يَتُبْ عليكم ويغفر لكم.

وقوله: «وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وصديدُ أهلِ النار، وما يسيلُ منهم للمُدَّعينَ للهِ شريكاً العابدينَ الأوثانَ دونَهُ الذينَ لا يُؤْتُونَ الزكاةَ.

وقوله: «وَهُمْ بالآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ»، يقولُ: وهُمْ بقيام الساعة، وبعث الله خَلْقَهُ أحياء من قبورِهم، من بعدِ بلائِهم وفنائِهم مُنْكِرُون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين صَدَّقُوا اللهَ ورسولَهُ، وعملوا بما أمرهم الله به ورسولُه، وانتهوا عما نَهيَاهُمْ عنه، وذلك هو الصالحاتُ من الأعمالِ «لَهُمْ

أَجْرٌ غَيرُ مَمْنُونٍ»، يقولُ: لِمَنْ فعلَ ذلك أجرٌ غيرُ منقوصٍ عمَّا وَعَدَهُمْ أنْ يأجُرَهُمْ عليه.

وقوله: «أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالَّذِي خَلَقَ الأرْضَ فِي يَوْمَيْنِ» وذلك يوم الأحد ويوم الأثنين.

وقوله: «وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً»، يقولُ: وتجعلونَ لمن خَلَقَ ذلك كذلك أنداداً، وهم الأكفاءُ من الرجالِ تُطيعونهم في معاصي الله. وقد بيَّنا معنى النِّدِّ بشواهده فيما مضى قَبْلُ.

وقـولـه: «ذلكَ رَبُّ العالَمِينَ»، يقولُ: الذي فعل هذا الفعل، وخلقَ الأرضَ في يومين، مالك جميع الجنِّ والإنس، وسائر أجناسِ الخَلْقِ، وكلُّ ما دونه مملوكٌ له، فكيف يجوزُ أنْ يكون له ندٌّ، وهل يكون المملوكُ العاجز الذي لا يقدرُ على شيءٍ نِدّاً لمالكه القادر عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: وجعـلَ في الأرضِ التي خلق في يومين جبـالاً رواسيَ، وهي الثوابتُ في الأرض من فوقها، يعني: من فوقِ الأرضِ على ظهرها.

وقوله: «وَبَارَكَ فِيها» يقولُ: وباركَ في الأرض فجعلها دائمةَ الخيرِ لأهلها.

قوله: «وَقَدَّرَ فِيها أقْواتَها»، تأويله أن يقال: إن الله تعالى أخبرَ أنه قَدَّرَ في الأرضِ أقواتَ أهلها، وذلك ما يَقُوتُهم من الغذاءِ، ويُصْلِحُهم من المعاشِ، ولم يخصصْ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «وقَدَّرَ فِيها أقْواتَها» أنه قَدَّرَ فيها قوتاً دونَ قوتٍ، بل عَمَّ الخبر عن تقديره فيها جميع الأقوات، ومما يقوتُ أهلها ما لا يصلحهم غيرهُ من الغذاء، وذلك لا يكونُ إلا بالمطرِ والتصرُّفِ في البلاد لما خَصَّ به بعضاً دونَ بعضٍ، ومما أخرج من الجبالِ من الجواهر، ومن البحر من المآكلِ والحُلِيِّ، ولا قولَ في ذلك أصحّ مما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: قدّر في الأرضِ أقواتَ أهلِها لما وصفنا من العلة.

وقال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «في أرْبَعَةِ أيَّامٍ»، أولهن يوم الأحد وآخرهن يوم الأربعاء.

وقوله: «سواءً للسائلين»، معناه: وقَدَّرَ فيها أقواتَها سواءً لسائِليها على ما بهم إليه الحاجةُ، وعلى ما يصلحهم.

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «ثم استوى إلى السماء»: ثم ارتفع إلى السماء.

وقوله: «فَقَالَ لَهَا وَللأرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أوْ كَرْهاً»، يقول جَلَّ ثناؤه: فقال الله للسماء والأرض: جِيْئَا بما خلقتُ فيكما، أما أنتِ يا سماءُ فأطلعي ما خلقتُ فيكِ من الشمسِ والقمرِ والنجومِ، وأما أنتِ يا أرضُ فأخرجي ما خلقتُ فيكِ من الأشجار والثمار والنبات، وتَشَقَّقِي عن الأنهار «قالَتا أتَيْنا طائِعينَ» جِئْنَا بما أحدثتَ فينا من خَلْقِكَ، مُستجيبينَ لأمركَ لا نعصي أمركَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ففرغَ مِنْ خَلْقِهنَّ سبعَ سمواتٍ في يومين، وذلك يوم الخميس ويوم الجمعة.

وقوله: «وأَوْحَى فِي كُلِّ سَماءٍ أمْرَها»، يقولُ: وألقى في كلِّ سماءٍ من السمواتِ السبعِ ما أرادَ من الخلق.

وقوله: «وَزَيَّناالسَّمَاءَ الدُّنْيا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وزَيَّنا السماءَ الدنيا إليكم أيها الناسُ بالكواكبِ وهي المصابيح.

وقوله: «ذلكَ تَقْدِيرُ العَزيزِ العَلِيمِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي وصفتُ لكم من خلقي السماءَ والأرضَ وما فيهما، وتزييني السماءَ الدنيا بزينة الكواكبِ، على ما بَيَّنْتُ تقدير العزيز في نقمته من أعدائه، العليم بسرائرِ عبادهِ وعلانيتهم، وتدبيرهم على ما فيه صلاحُهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فإنْ أعرض هؤلاءِ المشركونَ عن هذه الحجةِ التي بَيَّنْتَها لهم يا محمدُ، ونَبَّهتهم عليها فلم يؤمنوا بها ولم يُقِرُّوا أن فاعل ذلك هو الله الذي لا إله غيره، فقل لهم: أنذرتكم أيها الناسُ صاعقةً تُهلككم مثلَ صاعقةِ عادٍ وثمود.

وقوله: «إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَينِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ»، يقولُ: فقل: أنذرتُكم صاعقةً مثلَ صاعقةِ عادٍ وثمود التي أهلكتهم، إذ جاءتْ عاداً وثمودَ الرسلُ من بين أيديهم، فقوله: «إذ» من صلة صاعقة. وعَنَى بقوله: «مِنْ بَينِ

أيْدِيهِمْ» الرسل التي أتَتْ آباءَ الذين هلكوا بالصاعقةِ من هاتين الأمتين وعَنى بقوله: «وَمِنْ خَلْفِهِمْ»: من خلفِ الرسلِ الذين بعثوا إلى آبائهم رسلاً إليهم، وذلك أنَّ الله بعث إلى عادٍ هوداً، فكذَّبُوه من بعد رسل قد كانت تَقَدَّمَتْهُ إلى آبائهم أيضاً، فكذَّبوهم، فأهلكوا.

وقوله: «ألَّا تَعْبُدُوا إلَّا الله»، يقول تعالى ذِكْرُه: جاءتهم الرسلُ بأنْ لا تعبدوا إلا الله وحدَهُ لا شريكَ له، قالوا: «لَوْ شاءَ رَبُّنا لأَنْزَلَ مَلائِكَةً»، يقول جَلَّ ثناؤه: فقالوا لرسلهم إذْ دَعَوْهم إلى الإقرارِ بتوحيدِ الله: لو شاء رَبُّنَا أنْ نوحده، ولا نعبد من دونه شيئاً غيره، لأنزل إلينا ملائكةً من السماءِ رسلاً بما تدعوننا أنتم إليه، ولم يرسلكم وأنتم بشرٌ مثلنا، ولكنه رضيَ عبادَتَنا ما نعبدُ، فلذلك لم يرسلْ إلينا بالنهي عن ذلك ملائكةً.

وقوله: «فإنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ»، يقولُ: قالوا لرسلهم: فإنَّا بالذي أرسلكم به ربكم إلينا جاحدونَ غير مصدِّقينَ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «فأمَّا عادٌ» قوم هود «فاسْتَكْبَرُوا» على ربهم وتَجَبَّرُوا «في الأرْضِ» تكبراً وعتوّاً بغيرِ ما أذِنَ الله لهم به «وقالُوا مَنْ أشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟ أوَ لَمْ يَرَوْا أنَّ الله الَّذي خَلَقَهُمْ» وأعطاهم ما أعطاهم من عظمِ الخلقِ، وشدَّةِ البطشِ «هُوَ أشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً» فيحذروا عقابه، ويتقوا سطوته لكفرهم به، وتكذيبهم رسله «وكانُوا بآياتِنا يَجْحَدُونَ»، يقولُ: وكانوا بأدلتنا وحججنا عليهم يجحدون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأرسلنا على عادٍ ريحاً صرصراً، يعني: شديدة.

وقوله: «في أيَّامٍ نَحِساتٍ»، يعني: في أيام مشائيم ذاتِ نُحوس، لأنَّ ذلك هو المعروف من معنى النحس في كلام العرب.

وقوله: «لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ في الحَياةِ الدُّنْيا»، يقول جَلَّ ثناؤه: ولَعَذَابُنَا إياهُمْ في الآخرة أخزى لهم وأشدّ إهانةً وإذلالاً «وهُمْ لا يُنْصَرُونَ»، يقولُ: وهم يعني عاداً لا ينصرهُمْ من اللهِ يومَ القيامةِ إذا عَذَّبهم ناصرٌ، فينقذهم منه، أو ينتصر لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فبيَّنا لهم سبيلَ الحقِّ وطريقَ الرشد.

وقوله: «فاسْتَحَبُّوا العَمَى على الهُدَى»، يقولُ: فاختاروا العَمَى على البيانِ الذي بيَّنتُ لهم، والهدى الذي عرفتهم، بأخذهم طريقَ الضلالِ على الهدى، يعني على البيانِ الذي بَيَّنْتُه لهم، من توحيدِ الله.

وقوله: «فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ العَذابِ الهُونِ بِمَا كانُوا يكْسِبُونَ»، يقولُ: فأهْلَكَتْهم من العذابِ المذلِّ المهينِ لهم مُهلكةٌ أذلَّتْهُمْ وأخزتهم، والهونُ: هو الهوانُ.

وقوله: «بِمَا كانُوا يَكْسِبُونَ» من الآثامِ بكفرهم بالله قبل ذلك، وخلافهم إياه وتكذيبهم رسله.

وقوله: «وَنَجَّيْنا الَّذِينَ آمَنُوا»، يقولُ: ونجينا الذين آمنوا من العذابِ الذي أخذهم بكفرهم بالله، الذين وحَّدُوا الله، وصدَّقُوا رُسُلَهُ «وكانُوا يَتَّقُونَ»، يقولُ: وكانوا يخافون الله أنْ يحلَّ بهم من العقوبة على كفرهم لو كفروا ما حلَّ بالذين هَلَكُوا منهم، فآمنوا اتقاءَ اللهِ وخوفَ وعيدِه، وصدَّقُوا رسله، وخلعوا الآلهةَ والأنداد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٩ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويومَ يجمع هؤلاءِ المشركونَ أعداءَ اللهِ إلى النار، إلى نارِ جهنم، فهم يُحْبَسُ أوَّلُهم على آخِرِهم.

وقوله: «حتى إذَا ما جاؤُوها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وأبْصارُهُمْ»، يقولُ: حتى إذا ما جاءوا النارَ شَهِدَ عليهم سمعُهم بما كانوا يصغون به في الدنيا إليه، ويستمعون له، وأبصارهم بما كانوا يبصرون به وينظرون إليه في الدنيا «وَجُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢١ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال هؤلاءِ الذين يحشرون إلى النار من أعداءِ الله سبحانه لجلودِهم إذْ شهدتْ عليهم بما كانوا في الدنيا يعملون: لِمَ شَهِدْتُمْ علينا بما كُنَّا نعملُ في الدنيا؟ فأجابتهم جُلُودُهم: «أَنْطَقَنا اللهُ الَّذي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ» فنطقنا، وذُكر أنَّ هذه الجوارحَ تشهدُ على أهلها عند استشهادِ اللهِ إياها عليهم إذا هُمْ أنكروا الأفعالَ التي كانوا فعلوها في الدنيا بما يسخطُ الله.

وقوله: «وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والله خلقكم الخلقَ الأوَّلَ ولم تكونوا شيئاً، «وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»، يقولُ: وإليه مصيرُكم من بعد مماتِكم، «وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ» في الدنيا «أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ» يوم القيامة «سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ».

واختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ»، فقال بعضهم: معناه: وما كنتم تستَخْفُون.

وقال آخرون: معناه: وما كنتم تَتَّقُونَ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وما كنتم تظنون.

وأولى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: وما كنتم تستَخْفُونَ، فتتركوا ركوبَ محارمِ الله في الدنيا حذراً أنْ يشهدَ عليكم سَمْعُكم وأبصارُكم اليوم.

وإنما قلنا ذلك أوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ، لأنَّ المعروفَ من معاني الاستتار الاستخفاء.

فإنْ قال قائلٌ: وكيف يستخفي الإنسانُ عن نفسه مما يأتي؟ قيل: قد بيَّنا أنَّ معنى ذلك إنما هو الأماني وفي تركه إتيانه إخفاؤه عن نفسه.

وقوله: «وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا» كنتم «تَعْمَلُونَ»، يقول جَلَّ ثناؤُه: ولكن حسبتم حين ركبتم في الدنيا ما ركبتم من معاصي الله أنَّ الله

لا يعلمُ كثيراً مما تعملون من أعمالكم الخبيثة، فلذلك لم تستتروا أنْ يشهدَ عليكم سمعكم وأبصاركم وجلودكم، فتتركوا ركوبَ ما حَرَّمَ الله عليكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وهذا الذي كان منكم في الدنيا من ظَنِّكم أنَّ الله لا يعلمُ كثيراً مما تعملون من قبائح أعمالكم ومساويها، هو ظَنُّكم الذي ظَنَنْتُم بربِّكم في الدنيا «أرْدَاكُمْ»، يعني: أهْلَكَكُمْ، «فأصبحتم من الخاسرين»، يقولُ: فأصبحتم اليوم من الهالكينَ، قد غبنتم ببيعكم منازِلَكُمْ من الجنةِ بمنازلِ أهلِ الجنة من النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فإنْ يصبرْ هؤلاءِ الذين يحشرون إلى النار على النار، فالنارُ مسكنٌ لهم ومنزلٌ، «وإنْ يَسْتَعْتِبُوا»، يقولُ: وإنْ يسألوا العُتْبى، وهي الرجعةُ لهم إلى الذي يُحِبُّونَ بتخفيفِ العذابِ عنهم «فَمَا هُمْ مِنَ المُعْتَبِينَ» يقولُ: فليسوا بالقومِ الذين يُرْجَعُ بهم إلى الجنةِ، فَيُخَفَّفُ عنهم ما هُمْ فيه من العذاب، وذلك كقوله جَلَّ ثَنَاؤُهُ مخبراً عنهم: «قالُوا رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا». . . إلى قوله: «وَلا تُكَلِّمُونِ» [المؤمنون: ١٠٦-١٠٨] وكقولهم لِخَزَنَةِ جهنمَ: «ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يوماً مِنَ العَذابِ». . . إلى قوله: «وَما دُعاءُ الكافِرِينَ إلَّا في ضَلال» [غافر: ٤٩-٥٠].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ» وبعثنا لهم نُظراءَ من الشياطين، فجعلناهم لهم قرناءَ قَرَنَّاهُمْ بهم يُزَيِّنُونَ لهم قبائحَ أعمالهم، فزينوا لهم ذلك.

وقوله: «فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَينَ أيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ»، يقولُ: فَزَيَّنَ لهؤلاءِ الكفارِ قرناؤُهم من الشياطين ما بين أيديهم من أمرِ الدنيا، فَحَسَّنُوا ذلك لهم وحَبَّبوهُ إليهم حتى آثَرُوه على أمرِ الآخرة «وَما خَلْفَهُمْ» يقولُ: وَحَسَّنوا لهم أيضاً ما بعد مماتهم بأنْ دَعَوْهُمْ إلى التكذيب بالمعاد، وأنَّ مَنْ هلكَ منهم، فلن يُبْعَثَ، وأنْ لا ثوابَ ولا عقابَ حتى صَدَّقُوهم على ذلك، وسَهَّلَ عليهم فِعْلَ كلِّ ما يشتهونه، وركوبَ كلِّ ما يَلْتَذُّونَهُ من الفواحشِ باستحسانِهم ذلك لأنفسهم.

وقوله: «وَحَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ووجَبَ لهم العذابُ بركوبهم ما ركبوا مما زَيَّنَ لهم قرناؤهم وهم من الشياطين.

«في أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وحقَّ على هؤلاءِ الذين قَيَّضْنَا لهم قُرَناءَ من الشياطين، فزيَّنُوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم العذاب في أمم قد مضت قبلهم من ضُرَبائِهم، حقَّ عليهم من عذابِنَا مثل الذي حَقَّ على هؤلاءِ بعضهم من الجنِّ وبعضهم من الإِنس. «إنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ»، يقولُ: إنَّ تلك الأمم الذين حَقَّ عليهم عذابنا من الجنِّ والإنس، كانوا مغبونين ببيعهم رضا الله ورحمتَهُ بسخطِهِ وعذابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَروا» بالله ورسوله من مشركي قريش «لا تَسْمَعُوا لِهَذا القُرآنِ وَالْغَوْا فِيهِ»، يقولُ: قالوا للذين يطيعونهم من أوليائِهم من المشركينَ: لا تسمعوا لقارىءِ هذا القرآنِ إذا قرأه، ولا تُصْغُوا له، ولا تتبعوا ما فيه فتعملوا به.

وقوله: «وَالْغَوْا فيه»، يقولُ: الغطُوا بالباطلِ من القولِ إذا سمعتم قارِئَهُ يقرؤه كَيْما لا تسمعوه، ولا تفهموا ما فيه.

وقوله: «لَعلَّكُمْ تَغْلِبُونَ»، يقولُ: لعلكم بفِعْلِكم ذلك تَصُدُّون مَنْ أراد استماعه عن استماعه، فلا يسمعه، وإذا لم يسمعه ولم يفهمه لم يتبعه، فَتَغلبونَ بذلك من فِعْلِكم محمداً، قال الله جَلَّ ثَناؤُهُ: «فَلَنُذِيقنَّ الَّذينَ كَفَرُوا» بالله من مشركي قريش الذين قالوا هذا القولَ عذاباً شديداً في الآخرة «وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ»، يقولُ: ولنثيبنهم على فعلهم ذلك وغيره من أفعالهم بأقبحِ جزاء أعمالهم التي عملوها في الدنيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الجزاءُ الذي يُجْزَى به هؤلاءِ الذين كفروا من مشركي قريش جزاء أعداءِ الله، ثم ابتدأ جَلَّ ثَنَاؤُهُ الخبرَ عن صفةِ ذلك الجزاء، وما هو؟ فقال: هو النار، فالنارُ بيانٌ عن الجزاء، وترجمةٌ عنه، ثم قال: «لَهُمْ

فِيهَا دَارُ الخُلْدِ»، يعني: لهؤلاءِ المشركينَ باللهِ في النارِ دارُ الخُلْدِ يعني دار المُكْثِ واللُّبْثِ، إلى غير نهاية ولا أمد، والدارُ التي أخبر جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنها لهم في النارِ هي النارُ، وحسن ذلك لاختلاف اللفظين، كما يقال لك: من بلدتكَ دارٌ صالحةٌ، ومن الكوفة دارٌ كريمةٌ، والدار: هي الكوفةُ والبلدة، فيحسن ذلك لاختلافِ الألفاظ.

وقوله: «جَزَاءً بِمَا كانُوا بآياتِنا يَجْحَدُونَ»، يقولُ: فعلنا هذا الذي فعلنا بهؤلاءِ من مجازاتنا إياهم النارَ على فِعْلِهِم جزاءً منا بجحودِهم في الدنيا بآياتنا التي احْتَجَجْنا بها عليهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال الذين كفروا بالله ورسولِه يومَ القيامةِ بعدما أُدْخِلُوا جهنمَ: يا رَبَّنا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانا من خَلْقِكَ من جِنِّهم وإنسهم. وقيل: إن الذي هو من الجنِّ إبليسُ، والذي هو من الإنس ابنُ آدم الذي قتل أخاه.

وقـولـه: «نَجْعَلْهُما تَحْتَ أقْدامِنا لِيَكُونا مِنَ الأسْفَلِينَ»، يقولُ: نجعلُ هذين اللَّذَيْنِ أضلَّانا تحتَ أقدامنا، لأنَّ أبوابَ جهنم بعضها أسفل من بعض، وكلُّ ما سَفَلَ منها فهو أشدُّ على أهله، وعذابُ أهلِه أغلظُ، ولذلك سأل هؤلاءِ الكفار رَبَّهم أنْ يُرِيَهُمْ اللذين أضلاهم ليجعلوهما أسفل منهم ليكونا في أشدِّ العذابِ في الدَّرْكِ الأسفلِ من النار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنا اللهُ» وحده لا شريكَ له، وبَرِئُوا من الآلهـةِ والأنداد، «ثُمَّ اسْتَقامُوا» على توحيدِ الله، ولم يخلطوا توحيدَ الله بِشِرْكِ غيرِه به، وانتهوا إلى طاعته فيما أَمَرَ ونهى.

وقـولـه: «تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِم المَلاَئِكَةُ»، يقولُ: تتهبط عليهمُ الملائكةُ عند نزولِ الموت بهم.

وقوله: «أنْ لا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا»، يقولُ: تتنزلُ عليهمُ الملائكةُ بأنْ لا تخافوا ولا تحزنوا.

وَعَنَى بقوله: «لا تَخافُوا» ما تقدمون عليه من بعد مماتكم «وَلا تَحْزَنُوا» على ما تخلفُونَهُ وراءكم.

وقوله: «وأبْشِرُوا بالجَنَّةِ التي كُنْتُم تُوعَدُونَ»، يقولُ: وسُرُّوا بأنَّ لكم في الآخرةِ الجنة التي كنتم تُوعَدُونَها في الدنيا على إيمانِكم بالله، واستقامتكم على طاعته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ ملائكتِه التي تَتَنَزَّلُ على هؤلاءِ المؤمنينَ الذين استقاموا على طاعتِه عند موتهم «نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ» أيها القَوْمُ «فِي الحَياةِ الدُّنْيا» كنا نَتولاَّكم فيها، وذُكِرَ أنهم الحَفَظَةُ الذين كانوا يكتبون أعمالَهم.

وقوله: «وفِي الآخِرَةِ»، يقولُ: وفي الآخرة أيضاً نحن أولياؤكم، كما كنا لكم في الدنيا أولياء، «وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ»، يقولُ: ولكم في الآخرةِ عند الله ما تشتهي أنفسُكم من اللذَّات والشهواتِ.

وقوله: «وَلَكُمْ فِيهَا ما تَدَّعُونَ»، يقولُ: ولكم في الآخرة ما تَدَّعُونَ.

وقوله: «نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ»، يقولُ: أعطاكم ذلك رَبُّكم نُزُلاً لكم من ربٍّ غفورٍ لذنوبكم، رحيم بكم أنْ يعاقبكم بعد توبتكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ أحسنُ أيها الناسُ قولاً مِمَّنْ قال رَبُّنَا اللهُ ثم استقامَ على الإيمانِ به، والانتهاءِ إلى أمرِه ونهيه، ودعا عبادَ الله إلى ما قالَ وعملَ به من ذلك.

وقوله: «وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ المُسْلِمِينَ»، يقولُ: وقال: إنني ممن خضعَ لله بالطاعةِ، وذَلَّ له بالعبودةِ، وخشع له بالإيمانِ بوحدانيته.

وقوله: «وَلا تَسْتَوِي الحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولا تستوي حَسَنَةُ الذين قالوا رَبُّنَا اللهُ ثم استقاموا، فأحسنوا في قولهم، وإجابتهم رَبَّهم إلى ما دَعَاهم إليه من طاعته، ودعوا عبادَ الله إلى مِثْلِ الذي أجابوا رَبَّهم إليه، وسيئة الذين قالوا: «لا تَسْمَعُوا لِهَذَا القُرآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ» فكذلك لا تستوي عند الله أحوالهم ومنازلهم، ولكنها تختلف كما وصف جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنه خالف بينهما.

وإنما عنى بقوله: «وَلا تَسْتَوِي الحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ» ولا يستوي الإيمانُ بالله والعمل بطاعتِه والشرك به والعمل بمعصيته.

وقوله: «ادْفَعْ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ادفعْ

يا محمدُ بحلمكَ جهلَ مَنْ جهلَ عليك، وبعفوكَ عَمَّنْ أساء إليكَ إساءة المسيء، وبصبرك عليهم مكروه ما تجد منه ويلقاك من قبلهم.

وقوله: «فإذَا الَّذِي بَيْنَكَ وبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: افعلْ هذا الذي أمرتُكَ به يا محمدُ من دَفْعِ سيئةِ المسيءِ إليكَ بإحسانكَ الذي أمرتُكَ به إليه، فيصير المسيء إليكَ الذي بينك وبينه عداوةٌ، كأنه من مُلاطفتهِ إياكَ، وبرِّهِ لكَ، وليٌّ لك من بني أعمامك، قريبُ النسبِ بك، والحميمُ: هو القريبُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما يُعْطَى دفعَ السيئةِ بالحسنةِ إلا الذين صبروا لله على المكارهِ، والأمور الشاقة؛ وقال: «وَما يُلَقَّاها» ولم يقل: وما يُلَقَّاهُ، لأنَّ معنى الكلام: وما يُلَقَّى هذه الفعلة من دفعِ السيئةِ بالتي هي أحسن.

وقوله: «وَما يُلَقَّاهَا إلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ»، يقولُ: وما يُلَقَّى هذه إلا ذُو نصيبٍ وجدٍّ له سابقٌ في المَبَرَّاتِ عظيم.

وقوله: «وَإمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فاسْتَعِذْ باللهِ»... الآية، يقول تعالى ذِكْرُه: وإما يُلْقِيَنَّ الشيطانُ يا محمدُ في نفسكَ وسوسةً من حديثِ النفس إرادةَ حَمْلِكَ على مجازاةِ المسيءِ بالإساءة، ودعائك إلى مساءته، فاستجِرْ بالله واعتصمْ من خطواته، إنَّ الله هو السميعُ لاستعاذتك منه واستجارتك به من نزغاته، ولغير ذلك من كلامك وكلامِ غيرك، العليم بما ألقى في نفسك من نزغاته، وحَدَّثَتْكَ به نفسُك ومما يُذْهِبُ ذلك من قلبكَ، وغيرِ ذلك من أمورِكَ

وأمورِ خَلْقِه.

القَوْلُ فِي تَأْويل قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝٣٧﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: ومِنْ حُجـجِ الله تعالى على خَلْقِه ودلالته على وحـدانيته، وعظيمِ سلطانه، اختلاف الليلِ والنهار، ومعاقبة كلٍّ واحدٍ منهما صاحبَهُ، «والشمس والقمر»، لا الشمسُ تُدْرِكُ القمرَ «وَلا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وكُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُـون» [يسٓ: ٤٠] لا تسجـدوا أيها الناسُ للشمسِ ولا للقمرِ، فإنهما وإنْ جَرَيَا في الفلك بمنافعكم، فإنما يجريان بها لكم بإجراءِ الله إياهما لكم طائعينَ له في جَرْيِهما ومسيرهما، لا بأنهما يقدران بأنفسهما على سيرٍ وجَرْيٍ دونَ إجراءِ الله إياهما وتسييرهما، أو يستطيعان لكم نفعاً أو ضرًّا، وإنما الله مُسَخِّرهما لكم لمنافعكم ومصالحكم، فله فاسجدُوا، وإياهُ فاعبدوا دونَهما، فانه إنْ شاء طمسَ ضوءهما، فتركَكم حيارَى في ظلمةٍ لا تهتدونَ سبيلاً، ولا تبصرون شيئاً.

وقوله: «إنْ كُنْتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدُونَ»، يقولُ: إن كنتم تعبدون الله، وتَذِلُّونَ له بالطاعةِ، وإنَّ من طاعتِه أنْ تُخْلِصُوا له العبادةَ، ولا تشركوا في طاعتكم إياه وعبادَتِكُمُوه شيئاً سواه، فإنَّ العبادةَ لا تصلحُ لغيره ولا تنبغي لشيءٍ سواه.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ۝٣٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فإنِ استكبرَ يا محمدُ هؤلاءِ الذين أنتَ بين أظهرهم من مشركي قريش، وتَعَظَّمُوا عن أنْ يسجدُوا لله الذي خلقهم وخلقَ الشمسَ والقمرَ، فإنَّ الملائكةَ الذين عندَ رَبِّكَ لا يستكبرونَ عن ذلك، ولا يتعظمون عنه، بل يُسَبِّحُون له، ويصلون ليلاً ونهاراً، «وهم لا يسأمون»، يقولُ: وهم لا يفترون عن عبادتهم، ولا يَمَلُّونَ الصلاة له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: ومن حججِ الله أيضاً وأدلته على قُدْرَتِه على نشرِ الموتى من بعد بِلاَهَا، وإعادتها لهيئتها كما كانتْ من بعد فنائها أنكَ يا محمدُ ترى الأرضَ دارسةً غبراءَ، لا نباتَ بها ولا زرع.

«فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت»، يقول تعالى ذِكْرُه: فإذا أنزلنا من السماء غيثاً على هذه الأرضِ الخـاشعـةِ اهتـزَّتْ بالنبـاتِ، يقـولُ: تحرَّكَتْ به، «وَرَبتْ»، يقولُ: انتفخت.

وقوله: «إنَّ الَّذِي أحْياها لَمُحْيِي المَوْتَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذي أحيا هذه الأرضَ الدارسةَ فأخرجَ منها النباتَ، وجعلها تهتزُّ بالزرعِ من بعد يبسها ودُثُورِهَا بالمطر الذي أنزل عليها، القادر أن يُحْيِي أمواتَ بني آدمَ من بعد مماتِهم بالماءِ الذي ينزلُ من السماء لإحيائهم.

وقوله: «إنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ رَبَّكَ يا محمدُ على إحياءِ خَلْقِه بعد مماتهم وعلى كُلِّ ما يشاءُ ذو قدرةٍ لا يعجزه شيءٌ أراده، ولا يتعذَّرُ عليه فِعْلُ شيءٍ شاءه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾

يعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنَا»: إن الذين يميلونَ عن الحقِّ في حججنا وأدلتنا، ويعدلونَ عنها تكذيباً بها وجُحوداً لها.

وقوله: «لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا»، يقول تعالى ذِكْرُه: نحن بهم عالمونَ لا يخفونَ علينا، ونحنُ لهم بالمرصاد إذ وردوا علينا، وذلك تهديدٌ من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ لهم بقوله: سيعلمونَ عند ورودِهم علينا ماذا يَلْقَوْنَ من أليم عذابنا، ثم أخبر جَلَّ ثَنَاؤُهُ عما هو فاعلٌ بهم عند ورودِهم عليه، فقال: «أفَمَنْ يُلْقَى في النَّار خَيْرٌ، أمْ مَنْ يأْتِي آمِناً يَوْمَ القِيامَةِ»، يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاءِ الذين يُلْحدون في آياتنا اليوم في الدنيا يوم القيامةِ عذاب النار، ثم قال الله: أفهذا الذي يُلْقى في النار خيرٌ، أم الذي يأتي يومَ القيامة آمِناً من عذابِ الله لإيمانه بالله جلَّ جلاله؟ هذا الكافر، إنه إنْ آمنَ بآياتِ الله، واتَّبَعَ أمرَ الله ونهيه، أمَّنه يومَ القيامة مما حَذَّرَهُ منه من عقابِهِ إنْ وَرَدَ عليه يومئذٍ به كافراً.

وقوله: «اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ» وهذا أيضاً وعيدٌ لهم من الله خرجَ مخرجَ الأمر.

وقوله: «إنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»، يقول جَلَّ ثناؤه: إنَّ الله أيها الناسُ بأعمالكم التي تعملونها ذو خبرةٍ وعلمٍ لا يَخْفَى عليه منها، ولا من غيرها شيءٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ

حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين جَحَدُوا هذا القرآنَ وكَذَّبُوا به لما جاءهم، وعَنَى بالذكرِ القرآنَ.

وقوله: «وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإنَّ هذا الذِّكْرَ لكتابٌ عزيزٌ بإعزازِ اللهِ إياهُ، وحِفْظِه من كلِّ مَنْ أرادَ له تبديلاً، أو تحريفاً، أو تغييراً، من إنسيٍّ وجنيٍّ وشيطانٍ مارد.

وقوله: «لا يَأْتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَينِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ»، اختلف أهلُ التأويل في تأويله، فقال بعضُهم: معناه: لا يأتيه النكيرُ من بين يديه ولا من خلفه.

وقال آخرون: معنى ذلك: لا يستطيعُ الشيطانُ أنْ ينقصَ منه حقاً، ولا يزيد فيه باطلاً، قالوا: والباطلُ هو الشيطان.

وقال آخرون: معناه: إنَّ الباطلَ لا يطيقُ أنْ يزيدَ فيه شيئاً من الحروفِ ولا ينقص منه شيئاً منها.

وأولى الأقوالِ في ذلك عندنا بالصواب أنْ يقال: معناه: لا يستطيعُ ذُو باطلٍ بكيدِه تغييرَهُ بكيدِه، وتبديل شيءٍ من معانيه عَمَّا هُوَ به، وذلك هو الإتيانُ من بين يَدَيْهِ، ولا إلحاقَ ما ليسَ منه فيه، وذلك إتيانه من خلفه.

وقوله: «تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هو تنزيلٌ من عند ذي حكمةٍ بتدبيرِ عبادِه، وصرفهم فيما فيه مصالحهُم، «حميدٌ»، يقولُ: محمودٌ على نِعَمِه عليهم بأياديهِ عندهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ما يقولُ لكَ هؤلاءِ المشركونَ المُكَذِّبُونَ ما جئتهم به من عند رَبِّكَ إلا ما قد قاله مَنْ قَبْلَهُمْ من الأمم لرسلهم الذين كانوا من قبلك، يقول له: فاصبرْ على ما نالك من أذىً منهم، كما صبرَ أُولُو العزمِ من الرسلِ، وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الحُوتِ.

وقوله: «إنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ»، يقولُ: إن ربك لذو مغفرةٍ لذنوبِ التائبينَ إليه من ذنوبهم بالصفحِ عنهم. «وَذُو عِقابٍ أليمٍ»، يقولُ: وهو ذو عقابٍ مؤلمٍ لمن أصَرَّ على كُفْرِهِ وذنوبه، فمات على الإصرارِ على ذلك قبل التوبة منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٤٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولو جعلنا هذا القرآنُ الذي أنزلناه يا محمدُ أعجمياً لقال قومُكَ من قريش: «لَوْلا فُصِّلَتْ آياتُهُ»، يعني: هلا بُيِّنَتْ أدِلَّتهُ وما فيه من آية، فنفقهُه ونعلم ما هوَ وما فيه، أأعجميٌّ، يعني أنهم كانوا يقولون إنكاراً له: أأعجميٌّ هذا القرآنُ ولسانُ الذي أُنْزِلَ عليه عربيٌّ؟

وقـولـه: «قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وشِفاءٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قُلْ يا محمدُ لهم هو، ويعني بقوله: «هُوَ» القرآن «لِلَّذِينَ آمَنُوا» باللهِ ورسولِه، وصَدَّقُوا بما جاءهم به من عند رَبِّهم «هُدًى»، يعني: بيانٌ للحقِّ «وَشِفاءٌ»، يعني: أنه شفاء من الجهل.

وقوله: «وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً»، يقول تعالى

ذِكْرُه: والذين لا يؤمنونَ باللهِ ورسوله، وما جاءهم به من عندِ الله في آذانهم ثقلٌ عن استماعِ هذا القرآن، وصَمَمٌ لا يستمعونه ولكنهم يعرضون عنه، «وهو عليهم عمى»، يقولُ: وهذا القرآنُ على قلوبِ هؤلاءِ المكذِّبينَ به عمًى عنه، فلا يبصرونَ حُجَجَهُ عليهم، وما فيه من مواعظه.

وقوله: «أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ»، اختلف أهلُ التأويل في معناه، فقال بعضهم: معنى ذلك: تشبيهٌ من الله جَلَّ ثَناؤُهُ: لِعَمَى قلوبِهم عن فَهْمِ ما أُنـزلَ في القرآن من حُجَجِهِ ومواعِظِه، ببعيدٍ فَهْمُ سامعِ صوتٍ من بعيدٍ نُودِيَ، فلم يفهمْ ما نُودي، كقولِ العربِ للرجلِ القليلِ الفَهْمِ: إنك لَتُنَادَى من بعيدٍ، وكقولهم للفَهِمِ: إنك لتأخذُ الأمورَ من قريبٍ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: إنهم ينادون يومَ القيامةِ من مكانٍ بعيد منهم بأشنع أسمائهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الكِتابَ» يا محمدُ، يعني التوراةَ كما آتيناكَ الفرقانَ، «فاخْتُلِفَ فِيه»، يقولُ: فاختلف في العمل بما فيه الذين أُوتُوه من اليهود. «وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ»، يقولُ: ولولا ما سبقَ من قضاءِ الله وحُكْمِه فيهم أنه أخَّرَ عذابهم إلى يوم القيامة. «لقضيَ بينهم»، يقولُ: لعَجَّلَ الفصلَ بينهم فيما اختلفوا فيه بإهلاكهِ المُبْطِلِينَ منهم.

وقوله: «وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ»، يقولُ: وإنَّ الفريقَ المُبْطِلَ منهم لفي شكٍّ مما قالوا فيه «مُريب»، يقول: يريبهم قولهم فيه ما قالوا، لأنهم قالوا بغير ثبتٍ، وإنما قالوه ظنًّا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مَنْ عملَ بطاعةِ الله في هذه الدنيا، فأْتَمَرَ لأمرِه، وانتهى عما نهاه عنه «فَلِنَفْسِهِ»، يقولُ: فلنفسه عملَ ذلك الصالحَ من العملِ، لأنه يجازى عليه جزاءه، فيستوجبُ في المعاد من الله الجنةَ، والنجاةَ من النار، «وَمَنْ أساءَ فَعَلَيْها»، يقولُ: ومَنْ عملَ بمعاصي الله فيها، فعلى نفسه جَنَى، لأنه أكسبها بذلك سخطَ اللهِ، والعقابَ الأليم «وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما رَبُّكَ يا محمدُ بحاملٍ عقوبةَ ذنبِ مذنبٍ على غير مكتسبه، بل لا يعاقبُ أحداً إلا على جُرْمِه الذي اكتسبه في الدنيا، أو على سببٍ استحقَّهُ به منه، واللهُ أعلم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إلى الله يَرُدُّ العالمونَ به عِلْمَ الساعة، فإنه لا يعلم ما قيامها غيرُه «وَما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أكمامِها»، يقولُ: وما تظهرُ من ثمرةِ شجـرةٍ من أكمامها التي هي متغيبةٌ فيها، فتخرج منها بارزة «وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى»، يقولُ: وما تحملُ من أنثى من حملٍ حينَ تحملُه، ولا تَضَعُ ولدها إلا بعلمٍ من الله، لا يَخْفَى عليه شيءٌ من ذلك.

وقوله: «وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ أيْنَ شُرَكائي»، يقول تعالى ذِكْرُه: ويوم ينادي اللهُ هؤلاءِ المشـركينَ به في الـدنيا الأوثـانَ والأصنـامَ: أين شركائيَ الذين كنتم تشركونهم في عبادتكم إياي «قالُوا آذَنَّاكَ»، يقولُ: أعلمناك «ما مِنَّا مِنْ شَهِيد»،

يقولُ: قال هؤلاءِ المشركونَ لربِّهم يومئذٍ: ما منا من شهيدٍ يشهدُ أنَّ لك شريكاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ۝٤٨ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ۝٤٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وضَلَّ عن هؤلاءِ المشركينَ يوم القيامة آلهتُهم التي كانوا يعبدونَها في الدنيا، فأخِذَ بها طريقٌ غير طريقهم، فلم تنفعهم، ولم تَدْفَعْ عنهم شيئاً من عذابِ الله الذي حَلَّ بهم.

وقوله: «وَظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ»، يقولُ: وأيقنوا حينئذٍ ما لهم من ملجأ: أي ليس لهم ملجأ يلجؤون إليه من عذابِ الله.

وقوله: «لا يَسأَمُ الإنْسانُ مِنْ دُعاءِ الخَيْرِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لا يملُّ الكافرُ بالله من دعاء الخيرِ، يعني من دعائِه بالخيرِ، ومسألته إياه رَبَّهُ، والخيرُ في هذا الموضع: المالُ وصحةُ الجسم، يقولُ: لا يملُّ من طلب ذلك «وَإنْ مَسَّهُ الشَّرُّ»، يقولُ: وإنْ ناله ضرٌّ في نفسه من سُقمٍ أو جَهْدٍ في معيشته، أو احتباسٍ من رزقه «فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ»، يقولُ: فإنه ذو يأسٍ من روحِ الله وفرجه، قنوطٌ من رحمتِه، ومن أنْ يكشف ذلك الشرَّ النازلَ به عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولئن نحن كشفنا عن هذا الكافرِ ما أصابَهُ من سقمٍ في نفسه وضرٍّ، وشدّةٍ في معيشته وجهد، رحمةً منا، فوهبنا له العافيةَ في نفسه بعد السقم، ورزقناه مالاً، فوسَّعنا عليه في معيشته من بعد الجهدِ والضرِّ «لَيَقُولَنَّ هَذَا لي» عند الله، لأنَّ الله راضٍ عني برضاهُ عملي، وما أنا عليه مقيمٌ.

وقوله: «وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائمَةً»، يقولُ: وما أحسبُ القيامةَ قائمةً يومَ تقومُ «وَلَئِنْ رُجِعْتُ إلى رَبِّي»، يقولُ: وإنْ قامتْ أيضاً القيامةُ، ورُدِدْتُ إلى الله حياً بعد مماتي «إنَّ لي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى»، يقولُ: إن لي عنده غِنًى ومالاً.

وقوله: «فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذينَ كَفَرُوا بِما عَمِلُوا»، يقول تعالى ذِكْرُه: فلنخبرنَّ هؤلاءِ الكفار بالله، المتمنين عليه الأباطيلَ يوم يرجعونَ إليه بما عملوا في الدنيا من المعاصي، واجترحوا من السيئاتِ، ثم لنجازينَّ جميعَهم على ذلك جزاءهم «وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غَليظٍ»، وذلك العذابُ الغليظُ تخليدهم في نارِ جهنمَ، لا يموتونَ فيها ولا يحيون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا نحنُ أنعمنا على الكافرِ، فكشفنا ما به من ضُرٍّ، ورزقناه غِنىً وسَعَةً، ووهبنا له صِحَّةَ جسمٍ وعافية، أَعْرَضَ عمَّا عَدَوْنَاهُ إليه من طاعته، وصدَّ عنه. «ونأى بجانِبِه»، يقول: وبَعُدَ من إجابتنا إلى ما دَعَوْنَاهُ إليه، ويعني بجانبه: بناحيته.

وقوله: «وَإذَا مَسَّه الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ»، يعني بالعريض: الكثير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يا محمدُ للمكذِّبينَ بما جئتهم به من عند ربك من هذا القرآن «أَرَأَيْتُمْ» أيها القومُ «إِنْ كانَ» هذا الذي تُكَذِّبُونَ به «مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ» ألستم فِي فِراقٍ للحَقِّ وبُعْدٍ من الصواب، فجعل مكانَ التفريق الخبر، فقال: «مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ في شِقاقٍ بَعِيدٍ» إذا كان مفهوماً معناه.

وقوله: «مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ في شِقاقٍ بَعِيدٍ»، يقولُ: قل لهم من أشدُّ ذهاباً عن قصدِ السبيل، وأسلكُ لغيرِ طريقِ الصوابِ، ممن هو في فراقٍ لأمرِ الله وخلافٍ له، بعيد من الرشاد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: سَنُرِي هؤلاءِ المكذِّبينَ ما أنزلنا على محمدٍ عبدنا من الذِّكْرِ آياتِنا في الآفاق.

واختلف أهلُ التأويل في معنى الآيات التي وَعَدَ اللهُ هؤلاءِ القوم أنْ يُريهم، فقال بعضهم: عنى بالآياتِ في الآفاق وقائعَ النبيِّ ﷺ بنواحي بلدِ المشركينَ من أهلِ مكةَ وأطرافِها، وبقوله: «وفِي أَنْفُسِهِمْ» فتحَ مكة.

وقال آخرون: عَنَى بذلك أنه يريهم نجومَ الليلِ وقمره، وشمسَ النهار، وذلك ما وعدهم أنه يريهم في الآفاق. وقالوا: عَنَى بالآفاق: آفاقَ السماء، وبقوله: «وفِي أَنْفُسِهِمْ» سبيلَ الغائطِ والبول.

وأولى القولين في ذلك بالصوابِ القول الأوَّل، وذلك أنَّ الله عزَّ وجلَّ وعد نبيهُ ﷺ أنْ يُري هؤلاءِ المشركينَ الذين كانوا به مكذِّبينَ آياتٍ في الآفاق، وغير معقول أنْ يكون تَهَدُّدَهُمْ بأنْ يُريَهم ما هُمْ رَاؤوه، بل الواجب أنْ يكون ذلك وعداً منه لهم أنْ يريهم ما لم يكونوا رأوه قَبْلُ من ظهورِ نبيٍّ الله ﷺ على أطرافِ بلدهم وعلى بلدهم، فأما النجومُ والشمس والقمرُ فقد كانوا يرونها كثيراً قَبْلُ وبَعْدُ ولا وجهَ لتهدّدهم بأنه يريهم ذلك.

وقولـه: «حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّـهُ الحَقُّ»، يقـول جَلَّ ثنـاؤه: أُرِي هؤلاءِ المشركينَ وقائعنا بأطرافهم وبهم حتى يعلموا حقيقةَ ما أنزلنا إلى محمدٍ، وأوحينا إليه من الوعدِ له بأنَّا مُظْهِرُو ما بعثناهُ به من الدين على الأديانِ كلها، ولو كره المشركونَ.

وقوله: «أوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أو لم يكفِ بربك يا محمدُ أنه شاهدٌ على كل شيءٍ مما يفعله خَلْقُه، لا يعزبُ عنـه عِلْمُ شيءٍ منـه، وهـو مُجـازِيهم على أعمـالهم، المحسن بالإحسانِ، والمسيء جزاءه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُۢ ﴿٥٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ألا إنَّ هؤلاءِ المكذِّبينَ بآياتِ الله في شكٍّ من لقاءِ رَبِّهم، يعني أنهم في شكٍّ من البعثِ بعد المماتِ، ومعادِهم إلى رَبِّهم.

وقوله: «ألا إنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ألا إنَّ الله بكل شيءٍ مما خلق محيطٌ عِلْماً بجميعه، وقُدرة عليه، لا يعزبُ عنه عِلْمُ شيءٍ منه أراده فيفوته، ولكنَّهُ المقتدرُ عليه العالمُ بمكانه.

سورة الشورى

بسم الله الرحمن الرحيم

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣﴾

قد ذكرنا اختلاف أهل التأويل في معاني حروفِ الهجاءِ التي افتتحت بها أوائلُ ما افتتح بها من سور القرآن، وبيَّنا الصوابَ من قولهم في ذلك عندنا بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع، إذ كانت هذه الحروف نظيرةَ الماضيةِ منها[1].

وقوله: «كَذَلكَ يُوحي إِلَيْكَ وَإِلى الَّذِين مِنْ قَبْلِكَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هكذا يوحي إليكَ يا محمدُ وإلى الذين من قبلك من أنبيائه.

وقوله: «اللهُ العزيزُ الحكيمُ»، يعني: العَزِيزُ في انتقامه من أعدائه، الحَكِيمُ في تدبيره خلقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾

---

(١) انظر أول تفسير سورة البقرة.

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: لله مُلك «مَا في السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأرْضِ» من الأشياء كلهـا «وَهُـوَ العَلِيُّ»، يقـولُ: وهو ذو عُلُوٍّ وارتفاعٍ على كلِّ شيءٍ، والأشياء كلها دونه، لأنهم في سلطانه، جارية عليهم قُدرته، ماضية فيهم مشيئته «الْعَظِيم» الذي له العَظَمَةُ والكبرياءُ والجبرية.

وقـوله: «تَكادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ»، يقول تعالى ذِكْرُه: تَكادُ السمواتُ يتشقَّقْنَ من فوقِ الأرضينَ، من عظمةِ الرحمنِ وجلاله.

وقوله: «وَالمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والملائكةُ يُصلونَ بطاعةِ رَبِّهم وشكرهم له من هيبةِ جلالِهِ وعظمته.

وقوله: «وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأرْضِ»، يقولُ: ويسألون رَبَّهم المغفرةَ لذنوبِ مَنْ في الأرض من أهلِ الإيمان به. يقول الله عَزَّ وجَلَّ: «ألا إنَّ الله هو الغفور» لذنوبِ مؤمِني عبادِه. «الرحيم» بهم أنْ يعاقبهم بعد توبتهم منها.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا» يا محمدُ من مشركي قومك مِنْ دُونِ اللهِ آلهةً يتولونها ويعبدونها «اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ» يُحْصِي عليهم أفعالَهم، ويحفظُ أعمالهم، ليجازيهم بها يومَ القيامة جزاءهم «وَما أنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ»، يقولُ: ولستَ أنتَ يا محمدُ بالوكيلِ عليهم بحفظِ أعمالهم، وإنما أنتَ منذرٌ فَبَلِّغْهُمْ ما أُرْسلتَ به إليهم، فإنما عليكَ البلاغُ وعلينا الحساب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وهكذا «أَوْحَيْنا إِلَيْكَ» يا محمدُ «قُرْآناً عَرَبِيًّا» بلسانِ العــرب، لأن الـذين أرسلتـك إليهم قومٌ عَرَبٌ، فأوحينـا إليك هذا القـرآنَ بألسنتهم، ليفهموا ما فيه من حججِ اللهِ وذِكْرِه، لأنَّا لا نرسلُ رسولاً إلا بلسانِ قومه، ليبين لهم «لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى» وهي مكة «وَمَنْ حَوْلَها»، يقولُ: ومن حول أمِّ القرى من سائرِ الناس.

وقوله: «وَتُنْذِرَ يَوْمَ الجَمْعِ»، يقولُ عزَّ وجلَّ: وتنذر عقابَ اللهِ في يومِ الجمعِ عبادَهُ لموقفِ الحسابِ والعرض. وقيل: وتنذر يومَ الجمع، والمعنى: وتنذرهم يومَ الجمع، كما قيل: يخوِّفُ أولياءه، والمعنى: يخوِّفكم أولياءه.

وقوله: «لا رَيْبَ فِيهِ»، يقولُ: لا شكَّ فيه.

وقـوله: «فَرِيقٌ فِي الجَنَّة، وفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ»، يقولُ: منهم فريقٌ في الجنـة، وهم الـذين آمنوا بالله واتَّبَعُوا ما جاءهم به رسولُه ﷺ. «وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ»، يقولُ: ومنهم فريقٌ في المُوقَدَةِ من نارِ الله المسعورةِ على أهلها، وهم الذين كفروا بالله، وخالفوا ما جاءهم به رسولُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولو أراد الله أنْ يجمعَ خَلْقَهُ على هدى، ويجعلهم على ملةٍ واحـدةٍ لفعـلَ، و«لجعلهم أمـةً واحـدة»، يقولُ: أهل ملة واحدة،

وجماعة مجتمعة على دينٍ واحد «وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ في رَحْمَتِهِ»، يقولُ: لم يفعلْ ذلك فيجعلهم أمةً واحدة، ولكن يُدخلُ مَنْ يشاء من عباده في رحمته، يعني أنه يُدخله في رحمته بتوفيقِه إياه للدخولِ في دينه، الذي ابتعثَ به نَبِيَّهُ محمداً ﷺ «وَالظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ»، يقولُ: والكافرون بالله ما لهم من وليٍّ يتـولاهم يومَ القيامـة، ولا نصير ينصـرهم من عقـابِ الله حين يعـاقبهم، فينقـذهم من عذابـه، ويقتصَّ لهم ممن عاقبهم، وإنما قيلَ هذا لرسولِ الله ﷺ تسليةً له عما كان يناله من الهمِّ بتوليةِ قومِه عنه، وأمراً له بتركِ إدخالِ المكروهِ على نفسه من أجلِ إدبارِ مَنْ أدبرَ عنه منهم، فلم يستجبْ لما دعاه إليه من الحقِّ، وإعلاماً له أنَّ أمورَ عباده بيده، وأنه الهادي إلى الحقِّ مَنْ شاء، والمضلّ مَنْ أراد دونه، ودون كلِّ أحدٍ سواه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: أم اتخذ هؤلاءِ المشركونَ بالله أولياء من دونِ الله يتولَّونهم «فالله هُوَ الوَلِيُّ»، يقولُ: فاللهُ هو وليُّ أوليائه، وإياه فليتخذوا ولياً لا الآلهةَ والأوثانَ، ولا ما لا يملكُ لهم ضرّاً ولا نفعاً، «وَهُوَ يُحْيِي المَوْتَى»، يقولُ: والله يحيي الموتى من بعد مماتهم، فيحشرهم يوم القيامة «وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، يقولُ: والله القادرُ على إحياءِ خَلْقِه من بعد مَمَاتِهم وعلى غير ذلك، إنه ذُو قدرةٍ على كلِّ شيء.

وقوله: «وَما اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إلى اللهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ومـا اختلفتم أيهـا الناسُ فيه من شيءٍ فتنازعتم بينكم، «فَحُكْمُه إلى الله»، يقولُ: فإن الله هو الذي يقضي بينكم ويفصل فيه الحكم.

وقوله: «ذَلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ»، يقول لنبيه ﷺ: قُلْ لهؤلاءِ المشركينَ باللهِ هذا الذي هذه الصفاتُ صفاتُه ربي، لا آلهتكم التي تَدْعُونَ من دونه، التي لا تقدرُ على شيءٍ «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ» في أموري، وإليه فَوَّضْتُ أسبابي، وبه وثقتُ «وَإِلَيْهِ أُنِيبُ»، يقولُ: وإليه أرجع في أموري وأتوبُ من ذنوبي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاطِرُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ الْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «فَاطِرُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ»، خالق السموات السبعِ والأرض.

وقوله: «جَعَلَ لَكُم مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: زَوَّجكم رَبُّكم من أنفسكم أزواجاً وإنما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «مِنْ أَنْفُسِكُمْ» لأنه خلق حوَّاء من ضلعِ آدم، فهو من الرجال «وَمِنَ الأَنْعامِ أَزْوَاجاً»، يقول جَلَّ ثناؤه: وجعل لكم من الأنعامِ أزواجاً من الضأنِ اثنين، ومن المعز اثنين، ومن الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، ذكوراً وإناثاً، ومن كلِّ جنسٍ من ذلك. «يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ»، يقولُ: يخلقكم فيما جعلَ لكم من أزواجِكم، ويُعَيِّشُكُمْ فيما جعلَ لكم من الأنعام.

وقوله: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ»، فيه وجهان: أحدهما أنْ يكون معناه: ليس هُوَ كشيءٍ، وأدخلَ المِثْلَ في الكلام توكيداً للكلام إذا اختلف اللفظ به وبالكاف، وهما بمعنى واحد.

والآخر: أن يكون معناه: ليس مثله شيءٌ، وتكون الكاف هي المدخلة

في الكلام.

وقوله: «وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ»، يقول جَلَّ ثناؤه واصفاً نفسه بما هو به، وهو يعني نفسه، السميعُ لما تنطقُ به خَلْقُه من قولٍ، البصيرُ لأعمالهم، لا يَخْفَى عليه من ذلك شيءٌ، ولا يعزبُ عنه عِلْمُ شيءٍ منه، وهو محيطٌ بجميعه، مُحْصٍ صغيرَهُ وكبيره «لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ» من خيرٍ أو شرّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «لَهُ مَقَالِيدُ السَّمواتِ والأرْضِ»: له مفاتيحُ خزائنِ السمواتِ والأرض وبيده مغاليقُ الخيرِ والشرِّ ومفاتيحها، فما يفتحْ من رحمةٍ فلا مُمْسِكَ لها، وما يمسك فلا مرسلَ له من بعدِه.

وقوله: «يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ»، يقولُ: يُوسِّعُ رِزْقَهُ وفَضْلَهُ على مَنْ يشاء من خلقه، ويبسطُ له، ويكثرُ مالَهُ ويُغْنِيه «ويقدر»، يقولُ: ويُقَتِّرُ على مَنْ يشاء منهم فيضيقه ويفقره «إنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»، يقولُ: إنَّ الله تبارك وتعالى بكلِّ ما يفعلُ من توسيعِه على مَنْ يُوسِّعُ، وتقتيرِه على مَنْ يقتر، ومَنِ الذي يُصْلِحُه البَسْطُ عليه في الرزقِ، ويفسده من خلقه، والذي يُصلحه التقتيرُ عليه ويفسده، وغير ذلك من الأمور، ذُو عِلْمٍ لا يخفى عليه موضعُ البسطِ والتقتيرِ وغيره، من صلاحِ تدبيرِ خَلْقِه. يقول تعالى ذِكْرُه: فإلى مَنْ له مقاليدُ السمواتِ والأرض الذي صِفَتُه ما وصفتُ لكم في هذه الآياتِ أيها الناسُ فارغبوا، وإياهُ فاعبدوا مخلصينَ له الدِّينَ لا الأوثانَ والآلهةَ والأصنامَ، التي لا تملكُ لكم ضرّاً ولا نفعاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «شَرَعَ لَكُمْ» رَبُّكم أيها الناسُ «مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً» أنْ يعمله «وَالَّذِي أوْحَيْنا إلَيْكَ»، يقول لنبيه محمدٍ ﷺ: وشَرَعَ لكم من الدين الذي أوحينا إليك يا محمدُ، فأمرناكَ به «وَما وَصَّيْنا بِهِ إبْراهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أنْ أقِيمُوا الدِّينَ»، يقولُ: شرع لكم من الدين، أنْ أقيموا الدين، فأنْ، إذْ كان ذلك معنى الكلام، في موضعِ نصبٍ على الترجمةِ بها عن «ما» التي في قوله: «ما وَصَّى بِهِ نُوحاً». ويجوز أنْ تكون في موضع خفض ردّاً على الهاء التي في قوله: «بِهِ»، وتفسيراً عنها، فيكون معنى الكلام حينئذٍ: شرع لكم من الدينِ ما وَصَّى به نوحاً، أنْ أقيموا الدين ولا تتفرَّقُوا فيه. وجائزٌ أنْ تكون في موضع رفعٍ على الاستئناف، فيكون معنى الكلام حينئذٍ: شَرَعَ لكم من الدين ما وصى به، وهو أنْ أقيموا الدين. وإذ كان معنى الكلام ما وصفت، فمعلومٌ أنَّ الذي أوصى به جميع هؤلاءِ الأنبياء وصية واحدة، وهي إقامة الدينِ الحَقِّ، ولا تتفرَّقُوا فيه.

وعنى بقوله: «أنْ أقِيمُوا الدِّينَ» أنِ اعْمَلُوا به على ما شَرَعَ لكم وفَرَضَ، كما قد بينا فيما مضى قبل في قوله: «أقِيمُوا الصَّلاةَ».

وقـولـه: «وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ»، يقولُ: ولا تختلفوا في الدين الذي أُمِرْتُمْ بالقيامِ به، كما اختلفَ الأحزابُ من قبلكم.

وقـوله: «كَبُرَ على المُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إلَيْهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: كَبُرَ على المشركينَ بالله من قومكَ يا محمدُ ما تدعوهم إليه من

إخلاصِ العبادةِ لله، وإفرادِه بالألوهةِ والبراءة مما سواه من الآلهةِ والأنداد.

وقـوله: «اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ»، يقولُ: الله يصطفي إليه من يشاء من خَلْقِه، ويختارُ لنفسه، وولايته مَنْ أحبَّ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما تفرَّقَ المشركونَ باللهِ في أديانهم فصاروا أحزاباً، إلَّا من بعدِ ما جاءهم العلمُ بأنَّ الذي أمرهم اللهُ به، وبعثَ به نوحاً، هو إقامةُ الدين الحقِّ، وأنْ لا تتفرَّقُوا فيه.

وقوله: «بَغْياً بَيْنَهُمْ»، يقولُ: بغياً من بعضِكم على بعضٍ وحَسَداً وعداوةً على طَلَبِ الدنيا. «وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إلى أجَلٍ مُسَمًّى»، يقول جَلَّ ثناؤه: ولولا قولٌ سَبَقَ يا محمدُ من رَبِّكَ لا يُعاجلهم بالعذابِ، ولكنه أَخَّرَ ذلك إلى أجلٍ مسمى، وذلك الأجلُ المسمى فيما ذُكر: يوم القيامة.

وقـولـه: «لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ»، يقـولُ: لفـرغ رَبُّـكَ من الحُكْمِ بين هؤلاءِ المختلفينَ في الحقِّ الذي بعث به نبيهُ نوحاً من بعد علمهم به، بإهلاكِه أهلَ الباطلِ منهم، وإظهارِه أهلَ الحقِّ عليهم.

وقوله: «وَإنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ»، يقولُ: وإنَّ الذين آتاهم الله من بعد هؤلاءِ المختلفينَ في الحقِّ كتابةَ التوراةِ والإنجيلِ «لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ»، يقولُ: لفي شكٍّ من الدين الذي وَصَّى اللهُ به نوحاً، وأوحاهُ إليكَ يا محمدُ، وأمركما بإقامتِهِ مُرِيبٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فإلى ذلك الدين الذي شَرَع لكم، ووصَّى به نوحاً، وأوحاهُ إليكَ يا محمدُ، فادع عبادَ الله، واستقم على العملِ به، ولا تَزِغْ عنه، واثبتْ عليه كما أمركَ رَبُّكَ بالاستقامة.

وقوله: «وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولا تتبع يا محمدُ أهواءَ الذين شكُّوا في الحقِّ الذي شَرَعَهُ اللهُ لكم من الذين أُورِثُوا الكتابَ من بعد القرونِ الماضية قبلهم، فتشكَّ فيه، كالذي شَكُّوا فيه. «وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتابٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وقُلْ لهم يا محمدُ صَدَّقْتُ بما أنزلَ اللهُ من كتابٍ كائناً ما كان ذلك الكتابُ، توراةً كانَ أو إنجيلاً أو زَبُوراً أو صُحُفَ إبراهيمَ، لا أكذِّبُ بشيءٍ من ذلك تكذيبكم ببعضِه معشرَ الأحزابِ، وتصديقَكُمْ ببعضٍ.

وقوله: «وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وقُلْ لهم يا محمدُ وأمرني ربي أنْ أعدلَ بينكم معشرَ الأحزابِ، فأسيرَ فيكم جميعاً بالحقِّ الذي أمرني به وبعثني بالدعاء إليه.

وقوله: «اللهُ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ»، يقولُ: الله مَالِكُنا ومالِكُكُمْ معشرَ الأحزابِ من أهلِ الكتابين التوراة والإنجيل «لَنا أعمالُنا ولَكُمْ أعمالُكُمْ»، يقولُ: لنا ثوابُ ما اكتسبناهُ من الأعمالِ، ولكم ثوابُ ما اكتسبتم منها.

وقوله: «لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ»، يقولُ: لا خصومةَ بيننا وبينكم.

وقوله: «اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا»، يقولُ: اللهُ يجمعُ بيننا يومَ القيامة، فيقضي بيننا بالحقِّ فيما اختلفنا فيه. «وإلَيْهِ المَصِيرُ»، يقولُ: وإليه المَعَادُ والمرجعُ بعد مماتنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۝١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والذين يخاصمونَ في دِينِ الله الذي ابتعثَ به نبيه محمداً ﷺ من بعد ما استجابَ له الناسُ، فدخلوا فيه من الذين أُورِثُوا الكتابَ. «حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ»، يقولُ: خصومتهم التي يخاصمونَ فيه باطلةٌ ذاهبة عند ربهم. «وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ»، يقولُ: وعليهم من اللهِ غضبٌ، ولهم في الآخرةِ عذابٌ شديد، وهو عذابُ النار.

وذُكر أنَّ هذه الآيةَ نزلتْ في قومٍ من اليهودِ خاصموا أصحابَ رسولِ الله ﷺ في دِينهم، وطمعوا أن يَصُدُّوهم عنه، ويردُّوهم عن الإسلامِ إلى الكفرِ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ۝١٧ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ» هذا «الكِتَابَ» يعني القرآنَ «بالحَقِّ والمِيزَانِ»، يقولُ: وأنزلَ الميزانَ وهو العدلُ، ليقضي بين الناسِ بالإنصاف، ويحكم فيهم بحكمِ اللهِ الذي أمرَ به في كتابه.

وقوله: «وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأيّ شيء يُدْرِيكَ ويعلمـك، لعلَّ الساعةَ التي تقومُ فيها القيامةُ قريبٌ، «يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بها»، يقولُ: يستعجلك يا محمدُ بمجيئِها الذينَ لا يُوقِنُونَ بمجيئهـا، ظنـاً منهم أنهـا غير جائيةٍ. «وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا»، يقولُ: والذين صَدَّقُوا بمجيئها، وَوَعْدَ اللهِ إياهُمْ الحشرَ فيها، «مشفقون منها»، يقولُ: وَجِلُونَ من مجيئها، خائفونَ من قيامها، لأنهم لا يدرون ما اللهُ فاعلٌ بهم فيها «وَيَعْلَمُونَ أَنَّها الحَقُّ»، يقولُ: ويوقنون أنَّ مجيئها الحقُّ اليقينُ، لا يمترون في مجيئها «ألاَ إنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ألا إنَّ الذين يُخاصمونَ في قيام الساعة ويجادلون فيه «لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ»، يقولُ: لفي جَوْرٍ عن طريقِ الهدى، وزيغٍ عن سبيلِ الحقِّ والرشاد، بعيد من الصواب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ۝١٩ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ۝٢٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: اللهُ ذُو لطف بعبادِه، يرزقُ مَنْ يشاء فيوسع عليه ويقتِّر على مَنْ يشاء منهم «وَهُوَ القَوِيُّ» الذي لا يغلبه ذُو أَيدٍ لشدَّته، ولا يمتنعُ عليه إذا أراد عقابَهُ بقدرتِه «العَزِيزُ» في انتقامه إذا انتقم من أهلِ معاصيه. «مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: مَنْ كان يريدُ بعملِه الآخرةَ «نَزِدْ له في حرثه»، يقولُ: نزد له في عمله الحسن، فنجعل له بالواحدةِ عشراً، إلى ما شاء رَبُّنَا من الزيادةِ «وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا»، يقولُ: ومَنْ كان يُريدُ بعملِه الدنيا ولها يسعى لا للآخرة، نُؤْتِه منها ما قسمنا له منها «وما لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ»، يقولُ: وليس لمن طلب بعمله الدنيا،

ولم يُرِد الله به في ثوابِ الله لأهلِ الأعمالِ التي أرادوه بأعمالهم في الدنيا حظّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أم لهؤلاءِ المشركينَ بالله شركاء في شِرْكِهم وضلالتهم «شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ»، يقولُ: ابتدعوا لهم من الدين ما لم يُبِحِ الله لهم ابتداعَهُ «وَلَوْلا كَلِمَةُ الفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولولا السابقُ من الله في أنه لا يعجلُ لهم العذابَ في الدنيا، وأنه مضى من قِيلِه إنهم مُؤَخَّرُونَ بالعقوبةِ إلى قيامِ الساعة، لفرغ من الحكمِ بينكم وبينهم بتعجيلنا العذابَ لهم في الدنيا، ولكن لهم في الآخرة من العذابِ الأليم، كما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»، يقولُ: وإنَّ الكافرينَ بالله لهم يوم القيامةِ عذابٌ مؤلم مُوجِعٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ترى يا محمدُ الكافرينَ بالله يومَ القيامة «مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا»، يقولُ: وَجِلِينَ خائفينَ من عقابِ الله على ما كسبوا في الدنيا من أعمالهم الخبيثة «وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ»، يقولُ: والذين هم مشفقونَ منه من عذابِ الله نازلٌ بهم، وهم ذائقوهُ لا محالة.

وقوله: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الجَنَّاتِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والذين آمَنُوا بالله وأطاعوه فيما أمر ونهى في الدنيا في روضاتِ البساتين في الآخرة. ويعني بالروضات: جمع روضة، وهي المكانُ الذي يكثُرُ نَبْتُه، ولا تقولُ العربُ لمواضعِ الأشجار: رياض. وإنما عَنَى جَلَّ ثَنَاؤُهُ بذلك: الخبرَ عَمَّا هُمْ فيه من السرورِ والنعيم.

وقوله: «لَهُمْ ما يَشاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ»، يقولُ: للذين آمنوا وعملوا الصالحات عند رَبِّهم في الآخرة ما تشتهيه أنفسُهم، وتَلَذُّهُ أعينُهم، «وذلك هو الفضلُ الكبير»، يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي أعطاهم الله من هذا النعيم، وهذه الكرامةِ في الآخرةِ: هو الفضلُ من اللهِ عليهم، الكبيرُ الذي يفضلُ كُلَّ نعيمٍ وكرامةٍ في الدنيا من بعضٍ أهلها على بعض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي أخبرتكم أيها الناسُ أني أَعْدَدْتُه للذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ في الآخرة من النعيمِ والكرامةِ، البشرى التي يُبَشِّرُ الله عبادَهُ الذين آمنوا به في الدنيا، وعملوا بطاعتِه فيها «قُلْ لا أسألُكُمْ عَلَيْهِ أجْراً»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يا محمدُ للذين يمارونك في الساعة من مشركي قومكَ: لا أسألكم أيها القومُ على دعايتكم إلى ما أدعوكُمْ إليه من الحقِّ الذي جئتكم به، والنصيحة التي أنصحكم ثواباً وجزاء، وعِوَضاً من أموالكم تُعْطُونَنِيه «إلَّا المَوَدَّةَ فِي القُرْبى».

واختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «إلَّا المَوَدَّةَ فِي القُرْبى»، فقال بعضهم: معناه: إلا أن تَوَدُّوني في قرابتي منكم، وتَصِلُوا رَحِمي بيني وبينكم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: قل لمن تبعك من المؤمنينَ: لا أسألكم على ما جئتكم به أجراً إلا أن تَوَدُّوا قرابتي.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: قُلْ لا أسألكم أيها الناسُ على ما جئتكم به أجراً إلا أنْ تَوَدَّدُوا إلى الله، وتَتَقَرَّبُوا بالعملِ الصالحِ والطاعةِ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: إلا أنْ تَصِلُوا قرابتكم.

وأولى الأقوال في ذلك بالصوابِ، وأشبهها بظاهرِ التنزيلِ قولُ مَنْ قال: معناه: قل لا أسألكم عليه أجراً يا معشرَ قريش، إلا أنْ تَوَدُّوني في قرابتي منكم، وتَصِلُوا الرحم التي بيني وبينكم.

وإنما قلتُ هذا التأويل أوْلى بتأويل الآية لدخول «في» في قوله: «إلاَّ المَوَدَّةَ فِي القُرْبَى»، ولو كان معنى ذلك على ما قاله مَنْ قال: إلا أن تَوَدُّوا قرابتي، أو تقربوا إلى الله، لم يكن لدخول «في» في الكلام في هذا الموضع وجـهٌ معروف، ولكان التنزيلُ: إلا مودّة القربى إنْ عُنِيَ به الأمرُ بمودَّةِ قرابةِ رسولِ الله ﷺ، أو إلا المودَّة بالقُرْبَى، أو ذا القربَى إنْ عُنِيَ به التودّد والتقرّب. وفي دخول «في» في الكلام أوضحُ الدليل على أن معناه: إلا مودّتي في قرابتي منكم، وأنَّ الألف واللام في المودّةِ أدخلت بدلاً من الإضافة، كما قيل: «فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى» [النازعات: ٤١]. وقوله: «إلا» في هذا الموضع استثناء منقـطع ومعنى الكلام: قل لا أسألكم عليه أجراً، لكني أسألكم المودَّةَ في القُرْبى، فالمودَّةُ منصوبة على المعنى الذي ذكرت.

وقوله: «وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً»، يقول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ يعمـلْ حسنةً. وذلك أنْ يعمل عملاً يطيعُ اللهَ فيه من المؤمنينَ «نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً»، يقولُ: نضاعف عمله ذلك الحسن، فنجعل له مكانَ الواحدِ عشراً إلى ما شئنا من الجزاءِ والثواب.

وقوله: «إنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ»، يقولُ: إن اللهَ غَفورٌ لذنوبِ عباده، شكورٌ لحسناتِهم وطاعتهم إياه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أمْ يقولُ هؤلاءِ المشركونَ بالله: «افْتَرَى» محمدٌ «على اللهِ كَذِباً» فجاء بهذا الذي يَتْلُوهُ علينا اختلافاً من قِبَلِ نفسه.

وقوله: «فَإِنْ يَشَإِ اللهُ» يا محمدُ يطبعْ على قلبكَ، فتنسَ هذا القرآنَ الذي أُنزلَ إليك.

وقوله: «وَيَمْحُ اللهُ الباطِلَ»، يقولُ: ويذهب الله بالباطلِ فيمحقُه «ويُحِقُّ الحَقَّ بكَلِماتِه» التي أنزلها إليكَ يا محمدُ فيثبته.

وقوله: «إنَّهُ عَليمٌ بذَاتِ الصُّدُورِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله ذو علم بما في صدورِ خَلْقِه، وما تنطوي عليه ضمائِرُهم، لا يَخْفَى عليه من أمورِهم شيءٌ، يقول لنبيه محمدٍ ﷺ: لو حَدَّثْتَ نفسكَ أنْ تفتري على الله كذباً، لطبعتُ على قلبكَ، وأذهبتُ الذي آتيتُكَ من وحيي، لأني أمحو الباطلَ فَأُذْهِبُه، وأحقُّ الحقَّ، وإنما هذا إخبارٌ من الله الكافرينَ به، الزاعمينَ أنَّ محمداً افترى هذا القرآنَ من قِبَلِ نفسه، فأخبرهم أنه إنْ فعلَ لفعلَ به ما أخبرَ به في هذه الآية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والله الذي يقبلُ مراجعةَ العبدِ إذا رجعَ إلى توحيدِ الله

وطاعته من بعد كُفْرِه «وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئاتِ»، يقولُ: ويعفو له أنْ يعاقبه على سيئاتِه من الأعمالِ، وهي معاصيه التي تاب منها.

«وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ»، اختلفت القَـرَأة في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأة المدينة والبصرة: «يَفْعَلُونَ» بالياء، بمعنى: ويعلمُ ما يفعلُ عباده، وقرأته عامة قَرَأة الكوفة: «تَفْعَلُونَ» بالتاء على وجه الخطاب.

والصواب من القولِ في ذلك عندي أنهما قراءتان مشهورتان في قَرَأةِ الأمصار متقاربتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيبٌ، غير أنَّ الياء أعجبُ إليَّ، لأنَّ الكلام من قبل ذلك جرى على الخبرِ، وذلك قوله: «وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ»، ويعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ» ويعلم رَبُّكم أيها الناسُ ما تفعلونَ من خيرٍ وشرٍّ، لا يخفى عليه من ذلك شيءٌ، وهو مُجَازِيكم على كُلِّ ذلك جزاءه، فاتقوا الله في أنفسكم، واحذروا أنْ تركبوا ما تستحقونَ به منه العقوبة.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويجيبُ الذين آمنوا باللهِ ورسولِه، وعملوا بما أمرهم اللهُ به، وانتهوا عما نهاهم عنه لبعضِهم دعاء بعض.

وقـولـه: «وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ»، يقـول تعالى ذِكْرُه: ويزيدُ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ مع إجابته إياهم دعاءهم، وإعطائِه إياهم مسألتهم من فَضْلِه على مسألتهم إياه، بأنْ يعطيهم ما لم يسألوه. وقيل: إنَّ ذلك الفضلَ الذي ضَمِنَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنْ يَزِيدَهُمُوه، هو أنْ يُشَفِّعَهُمْ في إخوانِ إخوانهم إذا هم شفعوا في إخوانهم، فشفعوا فيهم.

وقوله: «والكافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ»، يقول جَلَّ ثناؤه: والكافرونَ باللهِ لهم يومَ القيامةِ عذابٌ شديدٌ على كفرهم به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ۝٢٧﴾

ذكر أن هذه الآية نزلتْ من أجلِ قومٍ من أهل الفاقةِ من المسلمينَ تَمَنَّوْا سَعَةَ الدنيا والغِنى، فقال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ولو بَسَطَ اللهُ الرزقَ لعباده، فوسَّعَهُ وكَثَّرَهُ عندهم لَبَغَوْا، فتجاوزوا الحدَّ الذي حَدَّهُ اللهُ لهم إلى غير الذي حَدَّهُ لهم في بلاده بركوبهم في الأرض ما حظره عليهم، ولكنه يُنَزِّلُ رزقهم بقدرٍ لكفايتهم الذي يشاء منه.

وقوله: «إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله بما يصلحُ عبادَهُ ويفسدهم من غنى وفقرٍ وسَعَةٍ وإقتار، وغيرِ ذلك من مصالحهم و مضارِّهم، ذُو خبرةٍ وعلمٍ بصير بتدبيرهم وصرفهم فيما فيه صلاحُهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واللهُ الذي ينزل المطرَ من السماءِ فيغيثكم به أيها الناسُ «مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا»، يقولُ: من بعد ما يَئِسَ من نزوله ومجيئه «وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ»، يقولُ: وينشر في خلقه رحمته، ويعني بالرحمة: الغيث الذي ينزله من السماء.

وقوله: «وَهُوَ الوَلِيُّ الحَمِيدُ»، يقولُ: وهو الذي يَلِيكُمْ بإحسانِه وفَضْلِه، الحميدُ بأياديه عندكم، ونعمهِ عليكم في خلقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومن حُجَجِه عليكم أيها الناسُ أنه القادرُ على إحيائِكم بعد فنائِكم، وبَعْثِكم من قبوركم من بعد بلائِكم خَلْقَهُ السمواتِ والأرضَ، «وما بثَّ فيهما من دابةٍ»، يعني: وما فرّق في السموات والأرض من دابة.

«وَهُوَ على جَمْعِهِمْ إِذَا يَشاءُ قَدِيرٌ»، يقولُ: وهو على جمعِ ما بَثَّ فيهما من دابةٍ إذا شاء ذلك، ذُو قدرةٍ لا يتعذَّرُ عليه، كما لم يتعذر عليه خَلْقُه وتَفْرِيقُه، يقول تعالى ذِكْرُه: فكذلك هو القادرُ على جمعِ خَلْقِه بحشرِ يوم القيامةِ بعد تفرُّقِ أوصالِهم في القبور.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما يصيبكم أيها الناسُ من مصيبةٍ في الدنيا في أنفسكم وأهليكم وأموالكم. «فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ»، يقولُ: فإنما يصيبكم ذلك عقوبة من اللهِ لكم بما اجترمتُمْ من الآثامِ فيما بينكم وبينَ رَبِّكم ويعفو لكم رَبُّكم عن كثيرٍ من إجرامكم، فلا يعاقبكم بها.

وقوله: «وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ»، يقولُ: وما أنتم أيها الناسُ بمفيتي رَبِّكم بأنفسكم إذا أراد عقوبَتكم على ذنوبكم التي أذنبتموها، ومعصيتكُمْ إياهُ التي رَكِبْتُموها هَرَباً في الأرض، فَمُعْجِزِيه، حتى لا يقدر عليكم، ولكنكم حيثُ كنتم في سلطانِه وقَبْضَتِه، جاريةٌ فيكم مشيئَتُهُ «وما لَكُمْ

مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ» يليكم بالدفاعِ عنكم إذا أرادَ عقوبتَكم على معصيتكم إياه «ولا نَصِيرٍ»، يقولُ: ولا لكم من دونِه نصيرٌ ينصركم إذا هو عاقبكم، فينتصر لكم منه، فاحذروا أيها الناسُ معاصيه، واتقوهُ أنْ تخالفوه فيما أمركم أو نهاكم، فإنه لا دافعَ لعقوبتِه عمَّنْ أحَلَّهَا به.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومن حججِ الله أيها الناسُ عليكم، بأنه القادرُ على كلِّ ما يشاءُ، وأنه لا يتعذَّرُ عليه فِعْلُ شيءٍ أراده السفنُ الجاريةُ في البحر[1].
والجواري: جمع جارية، وهي السائرة في البحر.

وقوله: «كالأعْلام»، يعني: كالجبال، واحدها: علم.

وقوله: «إنْ يَشأْ يُسْكِنِ الرِّيح فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ على ظَهْرِهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنْ يشأ الله الذي قد أجرى هذه السفنَ في البحر أنْ لا تجري فيه، أسكنَ الريحَ التي تجري بها فيه، فثبتنَ في موضعٍ واحد، ووقفنَ على ظهرِ الماءِ لا تجري، فتتقدّم ولا تتأخر.

وقوله: «إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ»، يقولُ: إنَّ في جَرْيِ هذه الجواري في البحر بقُدرةِ الله لعظةً وعبرةً وحجة بَيِّنةً على قُدْرةِ الله على ما يشاء، لكل ذي صبرٍ على طاعةِ الله، شكور لنِعمه وأياديه عنده.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾

(١) السياق: ومن حجج الله عليكم... السفنُ الجارية في البحر.

﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أو يوبقْ هذه الجواري في البحرِ بما كسبتْ رُكْبانُها من الذنوبِ، واجترموا من الآثام ، وجَزَمَ يُوبقهنَّ، عطفاً على «يُسْكِنِ الرِّيحَ» ومعنى الكلام: إنْ يشإ يسكن الريحَ فيظللنَ رواكدَ على ظهره، «أَوْ يُوبِقْهُنَّ» ويعني بقوله: «أَوْ يُوبِقْهُنَّ» أو يهلكهنَّ بالغَرَقِ.

وقوله: «وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ»، يقولُ: ويصفح تعالى ذِكْرُه عن كثيرٍ من ذنوبِكم فلا يعاقب عليها.

وقوله: «وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آياتِنَا»، يقول جَلَّ ثناؤه: ويعلم الذين يخاصمونَ رسولَهُ محمداً ﷺ من المشركينَ في آياته وعبره وأدلته على توحيدِه.

وقوله: «مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيص»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما لهم من مَحِيدٍ من عقابِ الله إذا عاقبهم على ذنوبهم، وكفرهم به، ولا لهم منه ملجأ.

وقوله: «فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحَياةِ الدُّنْيا»، يقول تعالى ذِكْرُه: فما أُعْطِيتم أيها الناسُ من شيءٍ من رياشِ الدنيا من المالِ والبنينَ، «فمتاعُ الحياة الدنيا»، يقول تعالى ذِكْرُه: فهو متاعٌ لكم تتمتعونَ به في الحياة الدنيا، وليس من دارِ الآخرة، ولا مِمَّا ينفعكُمْ في مَعَادِكم. «وَما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وأَبْقَى»، يقول تعالى ذِكْرُه: والذي عندَ اللهِ لأهلِ طاعتِه والإيمانِ به في الآخرةِ، خيرٌ مما أُوتيتموه في الدنيا من متاعها وأبقى، لأنَّ ما أُوتيتم في الدنيا فانٍ نافد، وما عند الله من النعيمِ في جنانِه لأهلِ طاعته باقٍ غير نافد. «لِلَّذِينَ آمَنُوا»، يقولُ: وما عنـدَ الله للذين آمنوا به، وعليه يتوكلونَ في أمورهم، وإليه يقومون في أسبابهم، وبه يَثِقُونَ، خيرٌ وأبقى مما أوتيتموه من متاعِ الحياة الدنيا.

القَــوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: ومـا عندَ اللهِ للذين آمنوا «وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الإِثْمِ»، وكبائِرَ فواحشِ الإثم، «وَالفَوَاحِشَ»، قيل: إنها الزِّنى.

وقوله: «وَإِذَا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا ما غضبوا على مَنِ اجترمَ إليهم جرماً، هم يغفرونَ لمن أجرمَ إليهم الجُرْمَ ذَنْبَهُ، ويصفحونَ عنه عقوبةَ ذَنْبِهِ.

وقولـه: «وَالَّـذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ وأقامُوا الصَّلاةَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: والذين أجابوا لربهم حين دعاهم إلى توحيدِه، والإقرارِ بوحدانيتِه والبراءةِ من عبـادةِ كُلِّ ما يعبـد دونـه. «وأقامُوا الصَّلاةَ» المفروضةَ بحدودها في أوقاتها. «وأمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ»، يقولُ: وإذا حَزَبَهُمْ أمرٌ تشاوروا بينهم، «وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ»، يقولُ: ومن الأموالِ التي رزقناهم ينفقونَ في سبيلِ الله، ويؤدُّونَ ما فرض عليهم من الحقوقِ لأهلها من زكاةٍ ونفقةٍ على مَنْ تَجِبُ عليه نفقته.

القَــوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والذين إذا بَغَى عليهم باغٍ، واعتدى عليهم هُمْ ينتصرون.

ثم اختلف أهلُ التأويل في الباغي الذي حَمدَ تعالى ذِكْرُه، المُنْتَصر منه

بعد بغيِهِ عليه، فقال بعضهم: هو المشركُ إذا بَغَى على المسلم.

وقال آخرون: بل هو كُلُّ باغٍ بغى فَحُمِدَ المُنْتَصِرُ منه.

وهذا القولُ الثاني أوْلى في ذلك بالصواب، لأنَّ الله لم يخصصْ من ذلك معنًى دونَ معنى، بل حَمِدَ كلَّ مُنتصرٍ بحقٍّ مِمَّنْ بغى عليه. فإن قال قائل: وما في الانتصار من المدح؟ قيل: إنَّ في إقامةِ الظالم على سبيل الحقِّ وعقوبتِهِ بما هُوَ له أهلٌ تقويماً له، وفي ذلك أعظمُ المدح.

وقوله: «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها»، وقد بيَّنا فيما مضى معنى ذلك، وأنَّ معناه: وجزاءُ سيئةِ المسيء عقوبته بما أوجَبَهُ اللهُ عليه، فهي وإنْ كانت عقوبةً من الله أوجبها عليه، فهي مَساءة له. والسيئة: إنما هي الفعلة من السوء، وذلك نظير قول الله عَزَّ وجَلَّ: «وَمَنْ جاءَ بالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إلَّا مِثْلَها [الأنعام: ١٦٠].

وقوله: «فَمَنْ عَفا وأصْلَحَ فَأجْرُهُ على اللهِ»، يقول جَلَّ ثناؤه: فمن عفا عَمَّنْ أساءَ إليه إساءته إليه، فغفرها له، ولم يعاقبه بها، وهو على عقوبته عليها قادرٌ ابتغاءَ وجهِ الله، فأجرُ عَفْوه ذلك على الله، واللهُ مُثِيبُه عليه ثوابه. «إنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ»، يقولُ: إنَّ الله لا يحبُّ أهلَ الظلم الذين يَتَعدَّوْنَ على الناسِ، فيسيئون إليهم بغيرِ ما أذن الله لهم فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۝٤١ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولمن انتصرَ مِمَّنْ ظَلَمَهُ من بعدِ ظُلْمِه إياه «فَأُولَئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ»، يقولُ: فأولئك المنتصِرُونَ منهم لا سبيلَ للمنتصَر منهم

عليهم بعقوبةٍ ولا أذى، لأنهم انتصروا منهم بحقٍّ، ومَنْ أخذَ حَقَّهُ مِمَّنْ وَجَبَ ذلك له عليه، ولم يتعدَّ، لم يَظْلِم، فيكونَ عليه سبيل.

وقد اختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ بذلك، فقال بعضهم: عنى به كلَّ منتصرٍ ممن أساءَ إليه، مسلماً كان المسيءُ أو كافراً.

وقال آخرون: بل عُنِي به الانتصارُ من أهلِ الشركِ، وقال: هذا منسوخ.

والصوابُ من القولِ أن يقال: إنه معنيٌّ به كلُّ منتصرٍ من ظالمِه، وأنَّ الآية محكمةٌ غير منسوخةٍ للعلة التي بينتُ في الآية قَبْلَها.

وقوله: «إِنَّمَا السَّبِيلُ على الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ»، يقول تبارك وتعالى: إنما الطريقُ لكم أيها الناسُ على الذين يتعدَّوْنَ على الناس ظُلماً وعدواناً، بأنْ يعاقبوهم بظلمهم لا على مَنِ انتصرَ مِمَّنْ ظلمه، فأخذ منه حقه.

وقوله: «وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ»، يقولُ: ويتجاوزون في أرضِ الله الحدَّ الذي أباح لهم رَبُّهم إلى ما لم يأذنْ لهم فيه، فيفسدون فيها بغير الحقِّ «أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»، يقولُ: فهؤلاءِ الذين يظلمون الناسَ، ويبغون في الأرضِ بغير الحقِّ، لهم عذابٌ من الله يومَ القيامة في جهنم مؤلمٌ مُوجِعٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولِمَنْ صبرَ على إساءةِ مَنْ أساء إليه، وغفر للمسيء إليه جُرْمَهُ إليه، فلم ينتصرْ منه، وهو على الانتصارِ منه قادرٌ ابتغاءَ وجهِ الله وجزيلِ ثوابه. «إِنَّ ذلكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ»، يقولُ: إنَّ صبره ذلك وغفرانَهُ ذَنْبَ المسيءِ إليه، لمن عَزْمِ الأمورِ التي نَدَبَ إليها عبادَهُ، وعزمَ عليهم العملَ به.

«وَمَنْ يُضْلِل اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ»، يقولُ: ومَنْ خذله اللهُ عن الرشاد، فليس له من وليٍّ يليه، فيهديه لسبيلِ الصواب، ويسدّده من بعدِ إضلالِ اللهِ إياه «وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رأَوُا العَذَابَ» يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وترى الكافرينَ باللهِ يا محمدُ يومَ القيامة لما عاينوا عذابَ الله يقولون لربِّهم: «هَلْ» لنا يا ربِّ «إلى مَرَدٍّ مِنْ سَبيلٍ؟» وذلك كقوله: «وَلَو تَرَى إذِ المُجْرِمُونَ ناكِسُو رُؤوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا» [السجدة: ١٢]... الآية، استعتب المساكين في غيرِ حِينِ الاستعتاب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وترى يا محمدُ الظالمينَ يُعْرَضُونَ على النار «خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ»، يقولُ: خاضعين متذللين.

وقوله: «يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ»، يقولُ: ينظر هؤلاءِ الظالمونَ إلى النارِ حين يُعْرضُونَ عليها من طرفٍ خفيٍّ، يعني: من طرفٍ ذليلٍ، وصفه الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ بالخفاء للذلَّةِ التي قد رَكِبَتْهُمْ، حتى كادتْ أعينُهم أنْ تغورَ، فتذهب.

وقوله: «وَقالَ الَّذِينَ آمَنُوا إنَّ الخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القِيامَةِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وقال الذين آمنوا بالله ورسوله: إنَّ المغبونين الذين غبنوا أنفسهم وأهليهم يومَ القيامة في الجنة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا

﴿مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ ٤٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولم يكن لهؤلاءِ الكافرينَ حين يُعَذِّبهم اللهُ يومَ القيامة أولياء يمنعونهم من عذابِ الله ولا ينتصرونَ لهم من رَبِّهم على ما نالهم به من العذابِ من دون الله «وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ»، يقول: ومَنْ يخذله عن طريقِ الحقِّ فما له من طريقٍ إلى الوصولِ إليه، لأنَّ الهدايةَ والإضلالَ بيدِهِ دونَ كلِّ أحد سواه.

وقوله: «اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: للكافرين به: أجيبوا أيها الناسُ داعيَ اللهِ وآمنوا به واتبعوه على ما جاءكم به من عند ربكم، «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ»، يقولُ: لا شيء يردُّ مجيئه إذا جاء اللهُ به، وذلك يوم القيامة. «ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ»، يقول جَلَّ ثناؤه: ما لكم أيها الناسُ من معقلٍ تحترزونَ فيه، وتلجؤونَ إليه، فتعتصمونَ به من النازلِ بكم من عذابِ الله على كفركم به، كان في الدنيا «وَما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ»، يقولُ: ولا أنتم تقدرون لما يحلُّ بكم من عقابِهِ يومئذٍ على تغييرِهِ، ولا على انتصارٍ منه إذا عاقبكم بما عاقبكم به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ٤٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فإنْ أعرضَ هؤلاءِ المشركونَ يا محمدُ عما أتيتهم به من الحقِّ، ودَعَوْتَهُمْ إليه من الرشد، فلم يستجيبوا لك، وأبَوْا قَبولَهُ منكَ، فَدَعْهُمْ، فإنَّا لم نرسلكَ إليهم رقيباً عليهم، تحفظ عليهم أعمالَهم وتحصيها

«إنْ عَلَيْكَ إلَّا البَلاغُ»، يقولُ: ما عليكَ يا محمدُ إلا أنْ تبلغهم ما أرسلناكَ به إليهم من الرسالةِ، فإذا بلَّغتهم ذلك، فقد قضيتَ ما عليكَ «وَإنَّا إذَا أذَقْنا الإنْسانَ منَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها»، يقولُ تعالى ذِكْرُه: فإنَّا إذا أغنينا ابنَ آدم فأعطيناهُ من عندنا سَعَةً، وذلك هو الرحمةُ التي ذكرها جَلَّ ثَناؤُهُ، «فَرِحَ بها»، يقولُ: سُرَّ بما أعطيناهُ من الغِنى، ورزقناه من السَّعة وكثرة المال، «وَإنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ»، يقولُ: وإنْ أصابتهم فاقةٌ وفقرٌ وضِيقُ عيشٍ «بِمَا قَدَّمَتْ أيْدِيهِمْ»، يقولُ: بما أسلفت من معصيةِ الله عقوبة له على معصيتِه إياه، جَحَدَ نعمةَ الله، وأَيِسَ من الخير «فإنَّ الإنْسانَ كَفُورٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فإنَّ الإنسانَ جَحُودٌ نِعَمَ رَبِّهِ، يُعَدِّدُ المصائبَ، ويجحد النعم. وإنما قال: «وَإنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ» فأخرج الهاء والميم مخرجَ كناية جمعِ الذكور، وقد ذكر الإنسان قبل ذلك بمعنى الواحد، لأنه بمعنى الجمع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًاۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لله سلطانُ السمواتِ السبعِ والأرضينَ، يفعلُ في سلطانه ما يشاء، ويخلقُ ما يحبُّ خَلْقَهُ، يَهَبُ لمن يشاء من خَلْقِهِ من الولد الإناثِ دونَ الذكورِ، بأنْ يجعل كل ما حَمَلَتْ زوجتُه من حملٍ منه أنثى «وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ»، يقولُ: ويَهَبُ لمن يشاء منهم الذكور، بأنْ يجعل كلَّ حملٍ حملته امرأته ذكراً لا أنثى فيهم.

وقوله: «أو يُزَوِّجُهم ذُكراناً وإناثاً ويجعلُ مَنْ يشاءُ عَقِيماً»، يقولُ: يَهَبُ لهم ذكراناً وإناثاً، ويجعل من يشاء عقيماً لا يولَدُ له.

وقوله: «إنَّهُ عَلِيم قَدِيرٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الله ذُو علم بما يخلقُ،

وقُدرةٍ على خَلْقِ ما يشاء لا يعزبُ عنه علمُ شيءٍ من خلقه، ولا يعجزه شيءٌ أراد خلقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما ينبغي لبشرٍ من بني آدم أنْ يُكَلِّمَهُ رَبُّه إلا وحياً يُوحي اللهُ إليه كيف شاء، أو إلهاماً، وإما غيره «أوْ مِنْ وَرَاءِ حِجابٍ»، يقول: أو يكلمه بحيثُ يسمعُ كلامَهُ ولا يراهُ، كما كَلَّمَ موسى نَبِيَّهُ ﷺ «أوْ يُرْسِلَ رَسُولًا»، يقولُ: أو يرسل اللهُ من ملائكته رسولاً، إما جبرائيل، وإما غيره «فَيُوحِيَ بإذْنِهِ مَا يَشاءُ»، يقولُ: فيوحي ذلك الرسولُ إلى المُرْسَلِ إليه بإذنِ رَبِّه ما يشاءُ، يعني: ما يشاء رَبّه أنْ يوحيه إليه من أمرٍ ونهي، وغيرِ ذلك من الرسالةِ والوحي.

وقوله: «إنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنه يعني نفسه جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ذُو عُلوٍّ على كل شيء وارتفاعٍ عليه، واقتدار. «حكيم»، يقولُ: ذو حكمة في تدبيره خلقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ۝٥٣﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «وَكَذٰلِكَ أوْحَيْنَا إلَيْكَ رُوحاً مِنْ أمْرِنا»، وكما كنا نوحي في سائر رسلنا، كذلك أوحينا إليك يا محمدُ هذا القرآنَ، «روحاً من

أمرنا»، يقولُ: وحياً ورحمةً من أمرنا.

وقـوله: «مَا كُنْتَ تَدْرِي ما الكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ»، يقول جَلَّ ثناؤه لنبيه محمـدٍ ﷺ: ما كنتَ تدري يا محمـدُ أيَّ شيء الكتاب ولا الإيمان اللذين أعطيناكهُمَا «وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً»، يقولُ: ولكن جعلنا هذا القرآنَ، وهو الكتاب نوراً، يعني ضياءً للناس، يستضيئونَ بضوئِه الذي بَيَّنَ الله فيه، وهو بيانه الذي بين فيه، ممـا لهم فيه في العمـلِ به الرشادُ، ومن النار النجاةُ. «نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبادِنا»، يقولُ: نهدي بهذا القرآن، فالهاء في قوله: «به» من ذِكْرِ الكتاب.

ويعني بقوله: «نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ»: نسدّد إلى سبيلِ الصوابِ، وذلك الإيمـانُ بالله «مَنْ نَشـاءُ مِنْ عِبادِنا»، يقولُ: نهدي به من نشاء هدايتَهُ إلى الطريقِ المستقيمِ من عبادنا.

وقوله: «وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وإنـك يا محمدُ لتهدي إلى صراطٍ مستقيمٍ عبادَنَا، بالدعاءِ إلى الله، والبيانِ لهم. «صِراطِ اللهِ الَّذِي لَهُ ما في السَّمٰواتِ وما في الأَرْضِ»، يقول جَلَّ ثناؤه: وإنك لتهدي إلى صراطٍ مستقيم، وهو الإسلامُ، طريقُ الله الذي دعا إليه عبادَهُ، الذي له مُلكُ جميعِ ما في السمواتِ وما في الأرضِ، لا شريكَ له في ذلك. والصراط الثاني: ترجمة عن الصراط الأوّل.

وقوله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «ألا إلى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ»، يقول جَلَّ ثناؤه: ألا إلى الله أيها الناسُ تصيرُ أمورُكم في الآخرة، فيقضي بينكم بالعدل.

فإن قال قائل: أَوَ ليستْ أمورُهم في الدنيا إليه؟ قيل: هي وإنْ كان إليه تدبيرُ جميعِ ذلك، فإنَّ لهم حكاماً ووُلاةً ينظرونَ بينهم، وليس لهم يومَ القيامة حاكمٌ ولا سلطانٌ غيرُه، فلذلك قيل: إليه تصيرُ الأمورُ هنالك وإنْ كانت الأمور كلها إليه وبيدِه قضاؤُها وتدبيرها في كل حال.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾

قد بيَّنا فيما مضى قوله: «حمٓ» بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع(١).

وقوله: «وَالكِتابِ المُبِينِ» قسَم من الله تعالى أقسم بهذا الكتابِ الذي أنزله على نبيه محمدٍ ﷺ فقال: «وَالكِتابِ المُبِينِ» لمن تدبَّره وفكَّر في عبره وعظاته هداه ورشده وأدلته على حَقِّيَّتِهِ، وأنه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد، لا اختلاقٍ من محمدٍ ﷺ ولا افتراءٍ من أحدٍ «إنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِياً»، يقولُ: إنا أنزلناه قرآناً عربياً بلسانِ العرب، إذْ كنتم أيها المُنْذَرُونَ به من رَهْطِ محمدٍ ﷺ عرباً. «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»، يقولُ: لتعقِلُوا معانيه وما فيه من مواعظ، ولم يُنْزِلْهُ بلسانِ العجم، فيجعله أعجمياً، فتقولوا: نحن عَرَبٌ، وهذا كلام أعجميٌّ لا نفقهُ معانيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾

---

(١) تقدم في السور المبتدئة بالحروف.

يقول تعالى ذِكْرُه: وإن هذا الكتابَ أصلُ الكتابِ الذي منه نُسِخَ هذا الكتابُ عندنا «لعليٌّ»، يقولُ: لذو عُلُوٍّ ورِفْعةٍ، «حكيم»، قد أُحْكِمَتْ آياتُه، ثم فُصِّلَتْ فهو ذُو حِكْمةٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويلِ ذلك، فقال بعضهم: معناه: أفنضربُ عنكم ونتـركُكم أيها المشركونَ فيما تحسبون، فلا نُذَكِّرُكُمْ بعقابنا من أجلِ أنكم قومٌ مشركون.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أفنتركُ تذكيرَكُمْ بهذا القرآنِ، ولا نذكركم به، لِأَنْ كنتم قوماً مسرفين.

وأولى التـأويلين في ذلـك بالصـواب تأويلُ من تأوَّلَهُ: أفنضربُ عنكم العذابَ فنترككم ونعرض عنكم لِأَنْ كنتم قوماً مسرفينَ لا تؤمنون بربِّكم.

وإنما قلنا ذلك أولى التأويلين بالآية، لأنَّ الله تبارك وتعالى أتبعَ ذلك خبره عن الأممِ السالفةِ قبل الأمم التي تَوَعَّدَها بهذه الآيةِ في تكذيبها رسلها، وما أحلَّ بها من نقمته، ففي ذلك دليلٌ على أن قوله: «أَفَنَضْرِبُ عَنْكُم الذِّكْرَ صَفْحاً» وعيدٌ منه للمخاطبينَ به من أهلِ الشرك، إذْ سلكوا، في التكذيب بما جاءهم عن الله، رسولَهُم، مَسْلَكَ الماضينَ قبلهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ» يا محمدُ في القرون الأوَّلينَ الذين مضوا قبل قَرْنِكَ الذي بُعِثْتَ فيه كما أرسلناكَ في قومكَ من قريش «وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ»، يقولُ: وما كانَ يأتي قرناً من أولئك القرونِ وأمةً من أولئك الأممِ الأوّلينَ لنا من نبيٍّ يدعوهم إلى الهدى وطريقِ الحقِّ، إلا كان الـذين يأتيهم ذلك من تلك الأمم نَبِيُّهم الذي أرسله إليهم يستهزئون سخريةً منهم بهم كاستهزاءِ قومكَ بكَ يا محمد. يقولُ: فلا يَعْظُمَنَّ عليكَ ما يفعلُ بكَ قومُكَ، ولا يشقنَّ عليكَ، فإنهم إنما سلكوا في استهزائِهم بك مسلكَ أسلافِهم، ومنهاجَ أئمتهم الماضينَ من أهلِ الكفرِ باللهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأهلكنا أشدَّ من هؤلاءِ المستهزئينَ بأنبيائِهم بطشاً إذا بطشوا فلم يُعْجِزُونا بقواهم وشدّةِ بطشهم، ولم يقدروا على الامتناعِ من بأسنا إذْ أتاهم، فالذين هُمْ أضعفُ منهم قوّةً أحرى أنْ لا يقدروا على الامتناعِ من نقمنا إذا حلَّتْ بهم. «وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ»، يقول جَلَّ ثناؤه: ومضى لهؤلاءِ المشركينَ المستهزئينَ بك ولمن قَبْلَهُمْ من ضُرَبائِهم مَثَلُنَا الذي مَثَّلناه لهم في أمثـالهم من مكـذِّبي رُسُلِنَـا الـذين أهلكنـاهم، يقولُ: فليتوقع هؤلاءِ الذين يستهزئونَ بكَ يا محمدُ من عقوبتنا مثلَ الذي أحللناه بأولئكَ الذين أقاموا على تكذيبك.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولئن سألتَ يا محمدُ هؤلاءِ المشركينَ من قومكَ: مَنْ خلقَ السمواتِ السبع والأرضينَ، فأحدثهنَّ وأنشأهنَّ؟ ليقولُنَّ: خلقهنَّ العزيزُ في سلطانه وانتقامه من أعدائه، العليمُ بهنَّ وما فيهنَّ من الأشياء، لا يَخْفَى عليه شيءٌ «الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأرْضَ مَهْداً»، يقولُ: الذي مَهَّدَ لكم الأرْضَ، فجعلها لكم وِطاءً تُوطِئُونَها بأقدامِكُمْ، وتمشون عليها بأرجلكم «وَجَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا»، يقولُ: وسهَّلَ لكم فيها طرقاً تتطرَّقُونَها من بلدةٍ إلى بلدة، لمعايشِكم ومتاجرِكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بقَدَرٍ»، يعني: ما نزَّلَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ من الأمطارِ من السماءِ «بقدر»، يقول: بمقدارِ حاجتكم إليه، فلم يجعله كالطوفانِ، فيكون عذاباً كالذي أنزل على قومِ نوحٍ، ولا جعله قليلاً، لا ينبتُ به النباتُ والزرعُ من قِلَّته، ولكنه جعله غيثاً مُغيثاً، وَحَياً للأرضِ المَيْتَةِ مُحيياً. «فَأنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً»، يقول جَلَّ ثناؤه: فأحيينا به بلدةً من بلادكم ميتاً، يعني مُجْدِبةً لا نباتَ بها ولا زرعَ، قد دَرَسَتْ من الجدوبِ، وتَعَفَّتْ من القحوطِ «كَذلكَ تُخْرَجُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: كما أخرجنا بهذا الماء الذي نَزَّلناهُ من السماء من هذه البلدةِ الميتةِ بعد جُدوبها وقُحوطها النباتَ والزرع، كذلك أيها الناسُ تُخرجون من بعد فنائكم ومصيركم في الأرضِ رُفاتاً بالماء الذي أنزله إليها لإحيائكم من بعدِ مماتِكم منها أحياء كهيئتكم التي كنتم بها قبلَ مماتكم.

وقوله: «وَالَّذِي خَلَقَ الأزْوَاجَ كلَّها»، يقول تعالى ذِكْرُه: والذي خلق كلَّ شيءٍ فزوجه، أي خلقَ الذكورَ من الإناثِ أزواجاً، والإناثَ من الذكورِ أزواجاً.

«وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الفُلْكِ» وهي السفن «والأنْعامِ» وهي البهائم «ما تَرْكَبُونَ»، يقولُ: جعل لكم من السفنِ ما تركبونَهُ في البحارِ إلى حيث قصدتم واعتمدتم في سيركم فيها لمعايشِكم ومطالبكم، ومن الأنعامِ ما تركبونه في البرِّ إلى حيث أردتم من البلدانِ، كالإبلِ والخيلِ والبغالِ والحمير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: كي تَسْتَوُوا على ظهورِ ما تركبون.

وقـوله: «ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ثم تذكروا نعمةَ رَبِّكم التي أنعمها عليكم بتسخيرِه ذلك لكم مراكب في البَرِّ والبحر «إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ» فَتُعَظِّمُوه وتُمَجِّدُوه، وتقولوا تنزيهاً لله الذي سَخَّرَ لنا هذا الذي ركبناه من هذه الفلك والأنعـام، ممـا يَصِفُه به المشركونَ، وتشرك معه في العبادة من الأوثانِ والأصنام.

وقوله: «ومَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ» وما كنا له مُطِيقينَ ولا ضابطينَ، من قولهم: قد أقرنتَ لهذا: إذا صرت له قِرْناً وأطقته، وفلان مقرنٌ لفلانٍ: أي: ضابطٌ له مُطِيق.

وقوله: «وَإِنَّا إلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُون»، يقول جَلَّ ثناؤه: وليقولوا أيضاً: وإنَّا إلى رَبِّنا من بعدِ مماتنا لصائرونَ إليه راجعون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا

بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وجعلَ هؤلاءِ المشركونَ للهِ من خَلْقِة نصيباً، وذلك قولهم للملائكةِ: هُمْ بناتُ الله.

وقوله: «إنَّ الإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبينٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الإِنسانَ لَذُو جَحْدٍ لنِعمِ رَبِّه التي أنعمها عليه «مبين»، يقولُ: يبينُ كفرانُه نِعَمَهُ عليه، لمن تأمَّلَهُ بفكرِ قلبهِ، وتدبر حاله.

وقـولـه: «أمِ اتَّخَـذَ مِمَّـا يَخْلُقُ بَنـاتٍ»، يقول جَلَّ ثناؤه موبخاً هؤلاءِ المشـركينَ الذين وصفوه بأن الملائكةَ بناته: أتخذ رَبُّكم أيها الجاهلون مما يخلقُ بناتٍ، وأنتم لا ترضونَ لأنفسكم، «وأصفاكُمْ بالبنين»، يقولُ: وأخلَصَكُمْ بالبنينَ، فجعلهم لكم «وَإذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ للرَّحْمَن مَثَلاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا بُشِّرَ أحدُ هؤلاءِ المشركينَ الجاعلينَ لله من عبادِه جزءاً «بما ضَرَبَ للرحمنِ مثلاً»، يقولُ: بما مَثَّلَ لله، فَشَبَّهَهُ شَبَهاً، وذلك ما وصفه به من أنَّ له بناتٍ.

وقوله: «ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: ظَلَّ وجهُ هذا الذي بشَّر بما ضربَ للرحمنِ مَثَلاً من البنات مسودّاً من سُوءِ ما بُشِّرَ به. «وَهُوَ كَظِيمٌ»، يقولُ: وهو حزين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: أَوَ مَنْ ينبتُ في الحِلْيةِ ويزين بهـا «وَهُـوَ فِي الخِصَامِ»، يقول: وهو في مخاصمةِ مَنْ خاصمه عند الخصامِ غيرُ مبين، من خصمه ببرهان وحجة، لعجزه وضعفه، جعلتموه جُزْءاً لله من خَلْقِه وزعمتم أنه

نصيبه منهم، وفي الكلام متروكٌ استغني بدلالةِ ما ذُكِرَ منه وهو ما ذكرتُ.

واختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ بقوله: «أَوْ مَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ»، فقال بعضهم: عُنِي بذلك الجواري والنساء.

وقال آخرون: عُنِي بذلك أوثانهم التي كانوا يعبدونها من دونِ الله.

وأَوْلى القولين في ذلك بالصوابِ قولُ مَنْ قال: عنى بذلك الجواري والنساء، لأنَّ ذلك عقيبَ خبرِ الله عن إضافةِ المشركينَ إليه ما يَكْرَهُونَهُ لأنفسهم من البناتِ، وقِلَّةِ معرفتهم بحقِّه، وتحليتهم إياهُ من الصفاتِ والبخل، وهو خالِقُهم ومالِكُهم ورازقهم، والمنعمُ عليهم النعمَ التي عَدَّدَهَا في أوَّلِ هذه السورةِ ما لا يرضونه لأنفسهم، فإتباع ذلك من الكلام ما كان نظيراً له أشبه وأَوْلى من إتباعهِ ما لم يَجْرِ له ذِكْرٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وجعل هؤلاءِ المشركونَ بالله ملائكته الذين هم عبادُ الرحمن.

واختلفت القَرَأةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأة المدينة «الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ» بالنون، فكأنهم تأوَّلُوا في ذلك قول الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ» فتأويلُ الكلام على هذه القراءة: وجعلوا ملائكةَ الله الذين هم عنده يُسَبِّحُونَهُ ويقدِّسُونه إناثاً، فقالوا: هم بناتُ الله جهلاً منهم بحقِّ الله، وجرأةً منهم على قِيلِ الكذبِ والباطل. وقرأ ذلك عامة قَرَأة الكوفة والبصرة «وَجَعَلُوا المَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمَنِ إناثاً» بمعنى: جمع عبد. فمعنى الكلام على قراءةِ هؤلاءِ: وجعلوا ملائكةَ الله الذين هم خَلْقُه وعباده بنات الله، فأنَّثُوهُمْ بوصفِهم إياهم بأنهم إناث.

والصوابُ من القولِ في ذلك عندي أنهما قراءتان معروفتان في قرأةِ الأمصارِ صحيحتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئُ فمصيب، وذلك أنَّ الملائكة عبادُ الله وعنده.

واختلفوا أيضاً في قراءة قوله: «أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ» فقرأ ذلك بعض قَرَأة المدينة «أُشْهِدُوا خَلْقَهُمْ» بضم الألف، على وجه ما لم يُسمَّ فاعلُه، بمعنى: أَأَشْهَدَ اللهُ هؤلاءِ المشركينَ الجاعلينَ ملائكةَ اللهِ إناثاً، خَلْقَ ملائكته الذين هم عنده، فعلموا ما هُمْ، وأنهم إناثٌ، فوصفوهم بذلك، لعلمهم بهم، وبرؤيتهم إياهم، ثم رُدَّ ذلك إلى ما لم يُسَمَّ فاعلُه. وقُرِىء بفتح الألف، بمعنى: أَشَهِدُوا هم ذلك فَعَلِمُوه؟

والصواب من القول في ذلك عندي أنهما قراءتان معروفتان، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيبٌ.

وقوله: «سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: سَتُكْتَبُ شهادةُ هؤلاءِ القائلين: الملائكة بنات الله في الدنيا، بما شهدوا به عليهم، ويُسألون عن شهادتهم تلك في الآخرة أنْ يأتوا ببرهانٍ على حقيقتها، ولن يجدوا إلى ذلك سبيلاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال هؤلاءِ المشركونَ من قريشٍ: لو شاء الرحمنُ ما عبدنا أوثانَنا التي نعبدها من دونه، وإنَّما لم يُحِلَّ بنا عقوبةً على عبادتِنا إياها لرضاهُ مِنَّا بعبادَتِناهَا.

«ما لَهُمْ بِذَلكَ مِنْ عِلْمٍ»، يقولُ: ما لهم بحقيقةِ ما يقولون من ذلك من علمٍ، وإنما يقولونه تَخَرُّصاً وتكذُّباً، لأنهم لا خبرَ عندهم مني بذلك ولا بُرْهانَ. وإنما يقولونه ظناً وحسباناً. «إنْ هُمْ إلَّا يَخْرُصُونَ»، يقولُ: ما هم إلا مُتَخَرِّصُونَ هذا القولَ الذي قالوه، وذلك قولهم: «لَوْ شاءَ الرَّحْمَنُ ما عَبَدْناهُمْ».

وقوله: «أمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما آتينا هؤلاءِ المتخرِّصينَ القائلينَ: لو شاء الرحمنُ ما عبدنا الآلهةَ كتاباً بحقيقة ما يقولون من ذلك، من قبلِ هذا القرآنِ الذي أنزلناه إليكَ يا محمدُ «فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ»، يقولُ: فهم بذلك الكتابِ الذي جاءهم من عندي من قبلِ هذا القرآن، مستمسكون يعملون به، ويَدينونَ بما فيه، ويحتجون به عليك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما آتينا هؤلاءِ القائلينَ: لو شاء الرحمنُ ما عبدنا هؤلاءِ الأوثانِ بالأمرِ بعبادتها، كتاباً من عِنْدِنَا، ولكنهم قالوا: وجدنا آباءنا الذين كانوا قبلنا يعبدونها، فنحنُ نَعْبُدُهَا كما كانوا يعبدونها؛ وعنى جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «إِنَّا وَجَدْنا آباءَنَا على أُمَّةٍ»: بَلْ وجدنا آباءنا على دِينٍ ومِلَّةٍ، وذلك هو عبادَتُهم الأوثانَ.

وقوله: «وَإنَّا على آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ»، يقولُ: وإنَّا على آثارِ آبائنا فيما كانوا عليه من دِينهم مهتدون، يعني: لهم مُتَّبِعُونَ على منهاجهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ

﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ٢٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وهكذا كما فعلَ هؤلاءِ المشركونَ من قريشٍ فعل مَنْ قبلهم من أهلِ الكفرِ بالله، وقالوا مِثْلَ قولهم، لم نرسل مِنْ قبلك يا محمدُ في قريةٍ، يعني إلى أهلها رسلاً تنذرهم عقابنا على كفرهم بنا فأنذروهم وحذَّروهم سخطنا، وحلولَ عقوبتنا بهم «إلاَّ قال مُتْرَفُوها»، وهم رؤساؤهم وكبراؤهم.

وقوله: «إنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا على أُمَّةٍ»، يقولُ: قالوا: إنَّا وجدنا آباءنا على مِلَّةٍ ودِين «وَإنَّا على آثارِهِمْ»، يعني: وإنا على منهاجهم وطريقتهم مقتدون بفعلهم نفعلُ كالذي فعلوا، ونعبدُ ما كانوا يعبدون: يقول جَلَّ ثناؤه لمحمدٍ ﷺ: فإنما سَلَكَ مشركُو قومكَ منهاجَ مَنْ قَبْلَهُمْ من إخوانِهم من أهلِ الشركِ بالله في إجابتهم إياكَ بما أجابوكَ به، وردِّهم ما ردُّوا عليكَ من النصيحةِ، واحتجاجهم بما احتجوا به لمُقامهم على دينهم الباطل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٢٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يا محمدُ، لهؤلاءِ المشركينَ من قومك، القائلينَ: «إنَّا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون». «أوَ لَوْ جِئْتُكُمْ» أيها القومُ من عند ربكم «بأَهْدَى» إلى طريقِ الحقِّ، وأدلَّ لكم على سبيلِ الرشاد «مِمَّا وَجَدْتُمْ» أنتم عليه آباءكم من الدين والمِلَّةِ، «قالُوا إنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ»، يقولُ: فقال ذلك لهم، فأجابوهُ بأنْ قالوا له كما قالَ الذينَ من قبلهم من الأممِ المكذِّبةِ رُسُلَها لأنبيائِها: «إنَّا بما أُرسلتم به» يا أيها القومُ «كافرون»، يعني: جاحدون مُنْكِرُون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فانتقمنا من هؤلاءِ المكذِّبةِ رُسُلَها من الأممِ الكافرةِ بربها، بإحلالنا العقوبةَ بهم، فانظرْ يا محمدُ كيف كان عُقْبى أمرهم، إذ كَذَّبُوا بآياتِ الله. ويعني بقوله: «عاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ» آخر أمر الذين كذَّبُوا رُسُلَ الله إلاَمَ صار يقولُ: ألم نهلكهم فنجعلهم عبرةً لغيرهم؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَإِذْ قالَ إبْراهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ» الذين كانوا يعبدون ما يعبده مشركُو قومكَ يا محمدُ «إنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ» من دونِ الله، فكذَّبوه، فانتقمنا منهم كما انتقمنا مِمَّنْ قَبْلَهُمْ من الأمم المكذِّبة رُسُلَها. وقيل: «إنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ» فوضعَ البراءَ وهو مصدر موضعَ النعتِ، والعربُ لا تثني البراء ولا تجمع ولا تؤنث، فتقول: نحن البراء والخلاء لِما ذكرت أنه مصدر، وإذا قالوا: هو بريءٌ منك ثنوا وجمعوا وأنَّثوا، فقالوا: هما بريئان منك، وهم بريئون منك. وذُكر أنها في قراءة عبدالله: «إنَّنِي بَرِيءٌ» بالياء، وقد يجمع بريء: براء وأبراء «إلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي»، يقولُ: إني بريء مما تعبدونَ من شيءٍ إلا من الذي فَطَرَني، يعني الـذي خَلَقَني. «فـإنَّهُ سَيَهْدِينِ»، يقولُ: فإنه سيقوِّمُني للدينِ الحقِّ، ويوفقني لاتباعِ سبيلِ الرشد.

وقوله: «وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ»، يقولُ تعالى ذِكْرُه: وجعل قوله: «إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي» وهو قولُ لا إله إلا الله، كلمةً باقيةً في عَقِبِهِ، وهم ذُرِّيته، فلم يزل في ذرّيته مَنْ يقول ذلك من بعده.

وقوله: «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ»، يقولُ: ليرجعوا إلى طاعةِ رَبِّهم، ويثوبوا إلى عبادته، ويتوبوا من كفرهم وذنوبهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «بَلْ مَتَّعْتُ» يا محمدُ «هَؤُلَاءِ» المشركينَ من قومكَ «وَآباءَهُمْ» من قبلهم بالحياةِ، فلم أُعاجِلْهُمْ بالعقوبةِ على كفرهم «حتى جاءَهُمْ الحَقُّ»، يعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ بالحقِّ: هذا القرآن: يقولُ: لم أُهلكهم بالعذابِ حتى أنزلتُ عليهم الكتابَ، وبعثتُ فيهم رسولاً مبيناً. يعني بقوله: «وَرَسُولٌ مُبِينٌ»: محمداً ﷺ، والمبين: أنه يبينُ لهم بالحججِ التي يحتجُّ بها عليهم أنه لله رسولٌ مُحِقٌّ فيما يقول. «ولمَّا جاءَهُمُ الحَقُّ»، يقول جَلَّ ثناؤه: ولما جاء هؤلاءِ المشركينَ القرآنُ من عند الله، ورسولٌ من الله أرسله إليهم بالدعاءِ إليه. «قالُوا هَذا سِحْرٌ»، يقولُ: هذا الذي جاءنا به هذا الرسولُ سحرٌ يسحرنا به، ليس بوحيٍ من الله «وَإِنَّا بِهِ كافِرُونَ»، يقولُ: قالوا: وإنَّا به جاحدون، نُنْكِرُ أنْ يكونَ هذا من الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٣٢﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: وقال هؤلاءِ المشركونَ باللهِ من قريش لما جاءهم القرآنُ من عند الله: هذا سحرٌ، فإنْ كان حقاً فَهَلَّا نزلَ على رجلٍ عظيمٍ من إحدى هاتين القريتين مكة أو الطائف.

وقوله: «أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أهؤلاءِ القائلون: لولا نُزِّلَ هذا القرآنُ على رجلٍ من القريتين عظيم يا محمدُ، يَقْسِمُونَ رحمةَ رَبِّكَ بين خَلْقِه، فيجعلونَ كرامته لمن شاؤوا، وفَضْلَهُ لمن أرادوا، أمِ اللهُ الذي يقسمُ ذلك، فيعطيه مَنْ أحبَّ، ويحرمه مَنْ شاء؟

وقوله: «نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الحَياةِ الدُّنْيا»، يقول تعالى ذِكْرُه: بل نحنُ نقسم رحمتَنا وكرامَتَنا بين مَنْ شئنا من خَلْقِنَا، فنجعل مَنْ شِئْنَا رسولاً، ومَنْ أردنـا صِدِّيقاً، ونتخذ مَنْ أردنا خليلاً، كما قسمنا بينهم معيشتهم التي يعيشون بها في حياتهم الدنيا من الأرزاقِ والأقواتِ، فجعلنا بعضَهم فيها أرفعَ من بعضٍ درجةً، بل جعلنا هذا غنياً، وهذا فقيراً، وهذا ملكاً، وهذا مملوكاً «لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا».

وقوله: «لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا»، يقولُ: ليستسخرَ هذا هذا في خِدْمَتِهِ إياه، وفي عَوْدِ هذا على هذا بما في يديه من فضلٍ، يقولُ: جعل تعالى ذِكْرُه بعضاً لبعضٍ سبباً في المعاش في الدنيا.

وقـوله: «وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ورحمةُ ربك يا محمدُ بإدخالهم الجنةَ خيرٌ لهم مما يجمعون من الأموالِ في الدنيا.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۝٣٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَلَوْلا أنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً»: جماعةً واحدة.

ثم اختلف أهلُ التأويل في المعنى الذي لم يُؤْمَنْ اجتماعُهم عليه، لو فَعَلَ ما قالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، وما به لم يفعله من أجله، فقال بعضهم: ذلك اجتماعُهم على الكفر. وقال: معنى الكلام: ولولا أنْ يكونَ الناسُ أمةً واحدة على الكفر، فيصيرَ جميعهم كفاراً «لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّة».

وقال آخرون: اجتماعهم على طَلَبِ الدنيا وتركِ طلب الآخرة. وقال: معنى الكلام: ولولا أنْ يكونَ الناسُ أمةً واحدة على طَلَبِ الدنيا ورفضِ الآخرة.

وقوله: «لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لجعلنا لمن يكفرُ بالرحمنِ في الدنيا سقفاً، يعني أعاليَ بيوتهم، وهي السطوحُ فِضَّةً.

وقوله: «وَمَعَارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ»، يقولُ: ومراقِيَ ودَرَجاً عليها يصعدونَ، فيظهرون على السقف. والمعارج: هي الدرج نفسها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وجعلنا لبيوتهم أبواباً من فضة، وسُرُراً من فضة.

وقوله: «وَزُخْرُفاً»، يقولُ: ولَجَعَلْنا لهم مع ذلك زخرفاً، وهو الذهبُ.

وقوله: «وَإنْ كُلُّ ذلكَ لَمَّا مَتاعُ الحَياةِ الدُّنْيا»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما كلُّ

هذه الأشياء التي ذكرتُ من السقفِ من الفضةِ والمعارجِ والأبوابِ والسُّرُر من الفضةِ والزخرفِ، إلا متاعٌ يستمتعُ به أهلُ الدنيا في الدنيا. «وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وزَيْنُ الدارِ الآخرةِ وبهاؤُها عند رَبِّكَ للمتقين، الذين اتقوا الله فخافوا عقابه، فَجَدُّوا في طاعته، وحذروا معاصيه خاصةً دونَ غيرهم من خَلْقِ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ يُعْرِضْ عن ذِكْرِ الله فلم يَخَفْ سطوته، ولم يَخْشَ عقابَهُ «نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ»، يقولُ: نجعلْ له شيطاناً يُغْويه «فهو له قرينٌ»، يقولُ: فهو للشيطانِ قرينٌ، أي يصيرُ كذلك، وأصلُ العشو: النظرُ بغيرِ ثبتٍ لعلةٍ في العين، يقال منه: عَشَا فلانٌ يعشو عشواً وعشوّاً: إذا ضَعُفَ بَصَرُه، وأظلمتْ عينه، كأنَّ عليه غشاوة.

وقوله: «وإنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبيلِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإنَّ الشياطينَ ليصدُّونَ هؤلاءِ الذين يعشون عن ذِكْرِ الله، عن سبيل الحقِّ، فيزينون لهم الضلالة، ويُكَرِّهُونَ إليهم الإيمانَ بالله، والعمل بطاعته. «وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ»، يقولُ: ويظنُّ المشركونَ بالله بتحسينِ الشياطينِ لهم ما هُمْ عليه من الضلالةِ، أنهم على الحقِّ والصوابِ، يخبرُ تعالى ذِكْرُه عنهم أنهم من الذي هُمْ عليه من الشركِ على شكٍّ وعلى غيرِ بصيرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: حتى إذا جاءنا هذا الذي عَشِيَ عن ذِكْرِ الرَّحمنِ، وقَرِينُه الذي قُيِّضَ له من الشياطين.

وقوله: «يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المَشْرِقَيْنِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قال أحد هذين القرينين لصاحبه الآخر: وَدِدْتُ أنَّ بيني وبينك بُعْدَ المشرقين: أي بُعْدَ ما بين المشرقِ والمغرب.

وقوله: «فبئس القرينُ»، يعني: فبئس القرينُ أنتَ أيها الشيطانُ[1].

وقوله: «وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ اليَوْمَ» أيها العاشُونَ عن ذِكْرِ الله في الدنيا «إذْ ظَلَمْتُمْ أنَّكُمْ في العَذَابِ مُشْتَرِكُونَ»، يقولُ: لن نُخفف عنكم اليوم من عذابِ الله اشتراككم فيه، لأنَّ لكلِّ واحدٍ منكم نصيبه منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾**

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «أفأنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ»: مَنْ قد سَلَبَهُ اللهُ استماعَ حُجَجِه التي احتجَّ بها في هذا الكتاب فأصَمَّهُ عنه، أو تهدي إلى طريقِ الهدى مَنْ أعمى اللهُ قلبه عن إبصارِه، واستحوذَ عليه الشيطانُ، فزيَّنَ له الرَّدَى. «وَمَنْ كانَ في ضَلالٍ مُبِينٍ»، يقولُ: أو تَهْدي مَنْ كان في جَوْرٍ عن قصدِ السبيل، سالك غير سبيل الحقِّ، قد أبانَ ضلالُه أنه عن الحقِّ زائلٌ، وعن قصدِ السبيلِ جائرٌ: يقول جَلَّ ثناؤه: ليس ذلك إليكَ، إنما ذلك إلى اللهِ الذي بيده صَرْفُ قلوبِ خَلْقِه كيفَ شاء، وإنما أنتَ منذرٌ، فَبَلِّغْهُمْ النذارةَ.

---

(١) هذه الجملة ليست في المطبوعة واستدركناها لإتمام تفسير الآية، وهي مستخلصة من تفسير المؤلف، وانظر أيضاً: زاد المسير لابن الجوزي: ٣١٧/٧.

وقوله: «فإمَّا نَذْهَبنَّ بكَ فإنَّا مِنْهُم مُنْتَقِمُونَ»، اختلف أهلُ التأويل في المعنيين بهذا الوعيد، فقال بعضهم: عُنِيَ به أهلُ الإسلام من أمةِ نبينا عليه الصلاة والسلام.

وقال آخرون: بل عنى به أهل الشرك من قريش، وقالوا: قد أرى اللهُ نَبِيَّهُ عليه الصلاة والسلام فيهم.

وهذا القول الثاني أوْلى التأويلين في ذلك بالصواب، وذلك أنَّ ذلك في سياقِ خبرِ الله عن المشركينَ فلأَنْ يكونَ ذلك تهديداً لهم أوْلى من أنْ يكون وعيداً لمن لم يجرِ له ذِكْرٌ. فمعنى الكلام إذ كان ذلك كذلك: فإنْ نذهبْ بكَ يا محمدُ من بين أظهر هؤلاءِ المشركينَ، فنخرجَك من بينهم «فَإنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ»، كما فعلنا ذلك بغيرهم من الأمم المكذِّبةِ رُسُلَها، «أوْ نُرِيَنَّكَ الَّذي وَعَدْنَاهُمْ» يا محمدُ من الظفر بهم، وإعلائِكَ عليهم «فَإنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ» أنْ نُظْهِرَكَ عليهم، ونخزيهم بيدك وأيدي المؤمنين بك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فَتَمَسَّكْ يا محمدُ بما يأمركَ به هذا القـرآنُ الذي أوحاه إليك رَبُّكَ، «إنَّكَ عَلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» ومنهاج سديد، وذلك هو دينُ الله الذي أمر به، وهو الإسلام.

وقوله: «وَإنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وإنَّ هذا القرآنُ الذي أُوحيَ إليك يا محمدُ، الذي أمرناك أنْ تستمسك به لشرفُ لك ولقومكَ من قريش «وَسَوْفَ تُسْألُونَ»، يقولُ: وسوف يسألك رَبُّكَ وإياهم عما عملتم فيه، وهل عملتم بما أمركم ربكم فيه، وانتهيتم عما نهاكم عنه فيه؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

اختلف أهلُ التأويلِ في معنى قوله: «واسأَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا» ومن الذين أُمِرَ رسولُ الله ﷺ بمسألتهم ذلك، فقال بعضهم: الذين أُمر بمسألتهم ذلك رسول الله ﷺ: مؤمنُو أهلِ الكتابين: التوراة، والإنجيل.

وقال آخرون: بل الذين أُمِرَ بمسألتهم ذلك الأنبياء الذين جُمِعوا له ليلة أُسرِيَ به ببيتِ المقدس.

وأَوْلى القولين بالصوابِ في تأويل ذلك، قولُ مَنْ قال: عنى به: سَلْ مؤمني أهلِ الكتابين.

فإنْ قال قائل: وكيف يجوز أن يقال: سَلِ الرسل، فيكون معناه: سل المؤمنينَ بهم وبكتابهم؟ قيل: جاز ذلك من أجلِ أنَّ المؤمنينَ بهم وبكتبهم أهلُ بلاغٍ عنهم ما أتوهم به عن رَبِّهم، فالخبرُ عنهم وعما جاؤوا به من رَبِّهم إذا صحَّ بمعنى: خَبَّرْهُمْ، والمسألة عما جاؤوا به بمعنى مسألتهم إذا كان المسؤول من أهلِ العلم بهم والصدق عليهم، وذلك نظير أمرِ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ إيانا بردِّ ما تنازَعْنَا فيه إلى اللهِ وإلى الرسولِ، يقولُ: «فإنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللهِ وَالرَّسُولِ» [النساء: ٥٩]، ومعلومٌ أن معنى ذلك: فردُّوه إلى كتاب الله وسنةِ رسولِه، لأنَّ الردّ إلى ذلك ردّ إلى الله والرسول.

وكذلك قوله: «وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا» إنما معناه: فاسأل كُتُبَ الذين أرسلنا من قبلك من الرسلِ، فإنك تعلمُ صِحَّةَ ذلك من قِبَلِنا، فاستغنى بذكر الرسل من ذكر الكتب، إذ كان معلوماً ما معناه.

وقوله: «أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ» يقولُ: أمرناهم بعبادةِ

الآلهةِ من دون الله فيما جاؤوهم به، أو أتوهم بالأمرِ بذلك من عندنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد أرسلنا يا محمدُ موسى بحججنا إلى فرعونَ وأشرافِ قومه، كما أرسلناك إلى هؤلاءِ المشركينَ من قومك، فقال لهم موسى: إني رسولُ ربِّ العالمين، كما قلتَ أنتَ لقومكَ من قريش: إني رسولُ الله إليكم، «فَلَمَّا جاءَهُمْ بآياتِنا إذَا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ»، يقولُ: فلما جاء موسى فرعونَ ومَلأَهُ بِحُجَجِنَا وأدلتنا على صِدْقِ قوله: فيما يدعوهم إليه من توحيدِ الله والبراءةِ من عبادةِ الآلهة، إذا فرعونُ وقومُه مما جاءهم به موسى من الآياتِ والعِبَر يضحكونَ؛ كما أنَّ قومكَ مما جِئْتَهُمْ به من الآياتِ والعِبر يسخرون.

وهذا تسليةٌ من الله عَزَّ وجَلَّ نبيه ﷺ عما كان يَلْقَى من مشركي قومه، وإعلامٌ منه له، أنَّ قومه من أهلِ الشرك لن يَعْدُوا أنْ يكونوا كسائرِ الأممِ الذين كانوا على منهاجهم في الكفر بالله وتكذيبِ رسله، وندب منه نبيه ﷺ إلى الاستنانِ في الصبرِ عليهم بسننِ أُولي العزمِ من الرسل، وإخبارٌ منه له أنَّ عُقْبَى مَرَدِّتهم إلى البوارِ والهلاكِ كسنته في المتمرِّدِينَ عليه قبلهم، وإظفارِه بهم، وإعلائه أمره، كالذي فعلَ بموسى عليه السلام، وقومه الذين آمنوا به من إظهارِهم على فرعونَ ومَلَئِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما نُري فرعونَ وملأه آيةً، يعني: حُجَّةً لنا عليه بحقيقة ما يدعوه إليه رسولُنا موسى «إلَّا هِيَ أكْبَرُ مِنْ أُخْتِها»، يقولُ: إلا التي نُريه من ذلك أعظمُ في الحجةِ عليهم وأوكدُ من التي مَضَتْ قبلها من الآيات، وأدلُّ على صحةِ ما يأمره به موسى من توحيدِ الله.

وقوله: «وأخَذْناهُمْ بالعَذَابِ»، يقولُ: وأنزلنا بهم العذابَ، وذلك كأخذِه تعالى ذِكْرُه إياهم بالسِّنينَ، ونقصٍ من الثمرات، وبالجرادِ، والقملِ، والضفادعِ، والدم.

وقوله: «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ»، يقولُ: ليرجعوا عن كفرهم بالله إلى توحيدِه وطاعتِه، والتوبةِ مما هُمْ عليه مُقيمونَ من معاصيهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ۝٤٩ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال فرعونُ ومَلَؤُه لموسى: «يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ» وعنوا بقولهم: «بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ»: بعهده الذي عَهِدَ إليكَ أنَّا إنْ آمنا بكَ واتبعناك، كُشِفَ عنا الرِّجْز.

إنْ قال لنا قائل: وما وجهُ قِيلِهم: «يا أيها الساحرُ ادْعُ لنا رَبَّكَ بما عهد عندكَ»، وكيف سموه ساحراً وهم يسألونه أنْ يدعوَ لهم رَبَّهُ ليكشفَ عنهم العذابَ؟ قيل: إنَّ الساحرَ كان عندهم معناه: العالم، ولم يكن السحر عندهم ذماً، وإنما دعوه بهذا الاسم، لأنَّ معناه عندهم كان: يا أيها العالم.

وقوله: «إنَّنا لَمُهْتَدُونَ»، يقولُ: قالوا: إنَّا لَمُتَّبِعُوكَ فَمُصَدِّقُوكَ فيما جِئْتَنا به، ومُوَحِّدُو الله فَمُبْصِرُو سبيلَ الرشاد.

وقوله: «فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ العَذَابَ إذا هُمْ يَنْكُثُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه:

فلما رفعنا عنهم العذابَ الذي أنزلنا بهم، الذي وعدوا أنهم إنْ كُشِفَ عنهم اهتدوا لسبيلِ الحقِّ، إذا هم بعد كشفنا ذلك عنهم ينكثون العهدَ الذي عاهدونا: يقولُ: يغدرون ويُصِرُّونَ على ضلالهم، ويتمادون في غيهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَنادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ» من القبط، فـ«قالَ يا قَوْمِ أَلَيْسَ لي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأنهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي، أَفَلا تُبْصِرُونَ»، يعني بقوله: «مِنْ تَحْتِي»: من بين يديّ في الجِنان.

وقوله: «أفَلا تُبْصِرُونَ»، يقولُ: أفلا تبصرون أيها القومُ ما أنا فيه من النعيمِ والخيرِ، وما فيه موسى من الفقرِ وعِيِّ اللسانِ، افتخرَ بملكِه مصرَ عدوُّ الله، وما قد مكّن له من الدنيا استدراجاً من الله له، وحَسِبَ أنَّ الذي هو فيه من ذلك نالَهُ بيده وحَوْلِه، وأنَّ موسى إنما لم يصلْ إلى الذي يصفه، فَنَسَبَهُ من أجلِ ذلك إلى المهانةِ محتجاً على جَهَلَةِ قومِه بأنَّ موسى عليه السلام لو كان مُحِقًّاً فيما يأتي به من الآياتِ والعبر، ولم يكنْ ذلك سحراً، لأكسبَ نفسَهُ من المُلْكِ والنعمة، مثلَ الذي هُوَ فيه من ذلك جهلاً بالله واغتراراً منه بإملائِه إياه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مُخبراً عن قِيلِ فرعونَ لقومه بعد احتجاجِه عليهم بملكِه

وسلطانِه، وبيانِ لسانه وتمامِ خَلْقِه، وفضلِ ما بينه وبين موسى بالصفاتِ التي وصف بها نفسَهُ وموسى: أنا خيرُ أيها القومُ، وصفتي هذه الصفةُ التي وصفتُ لكم، «أَمْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ» لا شيءَ له من المُلْكِ والأموالِ مع العلة التي في جسده، والآفةِ التي بلسانه، فلا يكادُ من أجلها يبينُ كلامه؟

وقوله: «وَلا يَكادُ يُبِينُ»، يقولُ: ولا يكادُ يُبين الكلامَ من عِيٍّ لسانه.

وقوله: «فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ»، يقولُ: فَهَلَّا أُلْقِيَ على موسى إنْ كان صادقاً أنه رسولُ ربِّ العالمين أسورةٌ من ذهبٍ، وهو جمع سوار، وهو القُلْب الذي يُجْعَلُ في اليد.

واختلفت القَرَأةُ في قراءة ذلك، فقرأته عامة قَرَأةِ المدينة والبصرة والكوفة: «فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَساوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ». وذُكر عن الحسن البصري أنه كان يقرؤه «أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ»[1]. وأَوْلى القراءتين في ذلك بالصوابِ عندي ما عليه قَرَأةُ الأمصار، وإن كانت الأخرى صحيحة المعنى.

وقوله: «أَوْ جاءَ مَعَهُ المَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ»، يقولُ: أو هَلَّا إنْ كان صادقاً جاء معه الملائكةُ مقترنين قد اقترنَ بعضُهم ببعضٍ، فتتابَعُوا يشهدونَ له بأنه للهِ رسولٌ إليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فاستخفَّ فرعونُ خَلْقاً من قومِه من القبط، بقوله الذي أخبر اللهُ تبارك وتعالى عنه أنه قاله لهم، فقبلوا ذلك منه فأطاعوه، وكَذَّبُوا موسى، قال الله: وإنما أطاعوا فاستجابوا لما دعاهم إليه عدوُّ الله من تصديقه،

(١) وهي قراءة حفص عن عاصم.

وتكذيب موسى، لأنهم كانوا قوماً عن طاعةِ الله خارجينَ بخذلانِه إياهم، وطبعه على قلوبهم، يقول الله تبارك وتعالى: «فَلَمَّا آسَفُونا»، يعني بقوله: آسفونا: أغضبونا.

وقوله: «انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ»، يقولُ: انتقمنا منهم بعاجلِ العذابِ الذي عجَّلناه لهم، فأغرقناهم جميعاً في البحر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾

تأويل الكلام: فجعلنا هؤلاءِ الذين أغرقناهم من قومِ فرعونَ في البحر مقدّمةً يتقدمونَ إلى النار، كفار قومكَ يا محمدُ من قريشٍ، وكفار قومك لهم بالأثر.

وقوله: «وَمَثَلًا للآخِرينَ»، يقولُ: وعبرةً وعِظةً يتعظُ بهم مَنْ بَعْدَهُمْ من الأممِ، فينتهوا عن الكفرِ بالله.

وقوله: «ولما ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَم مَثَلًا»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولما شبه الله عيسى في إحداثه وإنشائه إياه من غير فحلٍ بآدمَ، فَمَثَّله به بأنه خَلَقَهُ من ترابٍ من غير فحلٍ، إذا قومكَ يا محمدُ من ذلك يَضِجُّون ويقولون: ما يريدُ محمدٌ منا إلا أنْ نتخذه إلهاً نعبده، كما عبدتِ النصارى المسيحَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال مشركو قومكَ يا محمدُ: آلهتنا التي نعبدها خير؟ أم محمدٌ فنعبدُ محمداً؛ ونترك آلهتنا؟

وقوله تعالى ذِكْرُه: «مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إلا جَدَلاً» يقول تعالى ذِكْرُه: ما مَثَّلُوا لك هذا المثــلَ يا محمــدُ، ولا قالـوا لك هذا القـولَ إلا جدلاً وخصـومـةً يخاصمونكَ به. «بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ»، يقول جَلَّ ثناؤه: ما بقومكَ يا محمدُ هؤلاءِ المشركينَ في مُحَاجَّتِهم إياكَ بما يحاجُّونَكَ به طَلَبَ الحقِّ «بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ» يلتمسونَ الخصومةَ بالباطل.

وذُكر عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «ما ضَلَّ قَوْمٌ عَنِ الحَقِّ إلَّا أُوتُوا الجَدَلَ»[1].

وقوله: «إنْ هُوَ إلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فما عيسى إلا عبـدٌ من عبادنا، أنعمنا عليه بالتوفيقِ والإيمان، وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل، يقولُ: وجعلناه آيةً لبني إسرائيلَ، وحجةً لنا عليهم بإرسالِنَاهُ إليهم بالدعاءِ إلينا، وليس هو كما تقولُ النصارى من أنه ابنُ الله تعالى، تعالى اللهُ عن ذلك.

وقـولـه: «وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الأرض يَخْلُفُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولو نشاء معشرَ بني آدم أهلكناكُمْ، فأفنينا جَميعَكُمْ، وجعلنا بدلاً منكم في الأرض ملائكةً يخلفونكم فيها يعبدونني، وذلك نحو قوله تعالى ذِكْرُه: «إنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّها النَّاسُ وَيأْتِ بآخَرِينَ وكانَ اللهُ على ذلكَ قَدِيراً» [النساء: ١٣٣] وكما قال: «إنْ يَشأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ ما يَشاءُ» [الأنعام: ١٣٣].

---

(١) أخرجه المؤلف (٢٥/٨٨) والترمذي (٣٢٥٣)، وابن ماجة (٤٨) من حديث أبي غالب عن أبي أمامة صدي بن عجلان رضي الله عنه، وإسناده صحيح، وقال الترمذي: حسن صحيح. وتحرف «أبو غالب» في المطبوع من سنن ابن ماجة إلى «أبي طالب» وهو تحريف قبيح. وأخرجه المؤلف من حديث أبي جعفر بن القاسم عن أبي أمامة (٢٥/٨٨).

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في الهاء التي في قوله: «وإنَّهُ» وما المعنيُّ بها، ومن ذِكْرِ ما هِيَ، فقال بعضهم: هي من ذكر عيسى، وهي عائدةٌ عليه. وقالوا: معنى الكلام: وإنَّ عيسى ظهورُه عِلْمٌ يُعْلَمُ به مجيءُ الساعة، لأنَّ ظهورَهُ من أشراطها، ونزوله إلى الأرض دليلٌ على فناء الدنيا، وإقبالِ الآخرة.

وقال آخرون: الهاء التي في قوله: «وَإِنَّهُ» من ذِكْرِ القرآن، وقالوا: معنى الكلام: وإنَّ هذا القرآنَ لعلمٌ للساعةِ يعلمكم بقيامها، ويخبركم عنها وعن أهوالها[(١)].

وقوله: «فَلا تَمْتَرُنَّ بِها»، يقولُ: فلا تَشُكُّنَّ فيها وفي مجيئها أيها الناسُ.

وقوله: «وَاتَّبِعُونِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأطيعونِ فاعملوا بما أمرتُكم به، وانتهـوا عما نَهَيْتُكُمْ عنه، و«هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ»، يقولُ: اتباعكم إيايَ أيها الناسُ في أمري ونهيي «صراطٌ مستقيم»، يقولُ: طريقٌ لا اعوجاجَ فيه، بل هو قويم.

وقوله: «وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ»، يقول جَلَّ ثناؤه: ولا يعدلنكم الشيطانُ عن طاعتي فيمـا آمُرُكُمْ وأنهاكم، فتخالفوه إلى غيره، وتجوروا عن الصراطِ المستقيم فتضلوا. «إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ»، يقولُ: إنَّ الشيطان لكم عدوٌّ يدعوكم

---

(١) لم يرجح المؤلف أحد القولين، والأول أرجح على ما قرره العلامة ابن كثير ودلَّلَ عليه. وأيضاً فقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة.

إلى ما فيه هلاككم، ويصدّكم عن قَصْدِ السبيل، ليورِدَكُمْ المهالكَ، «مبينٌ» قد أبانَ لكم عداوته، بامتناعِه من السجودِ لأبيكم آدم، وإدلائِه بالغرورِ حتى أخرجه من الجنة حَسَداً وبغياً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٦٣ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولما جاء عيسى بني إسرائيل بالبيِّناتِ، يعني بالواضحاتِ من الأدلة. وقيل: عَنَى بالبيِّناتِ: الإنجيلَ.

وقوله: «قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بالْحِكْمَةِ»، قيل: عَنَى بالحكمة في هذا الموضع: النبوَّةَ.

وقوله: «وَلأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ»، يقولُ: ولأُبَيِّنَ لكم معشرَ بني إسرائيلَ بعضَ الذي تختلفونَ فيه من أحكامِ التوراة.

وقوله: «فاتَّقُوا الله وأطِيعُونِ»، يقولُ: فاتقوا رَبَّكم أيها الناسُ بطاعته، وخافوه باجتنابِ معاصيه، وأطيعونِ فيما أمرتُكم به من اتقاءِ الله واتباعِ أمره، وقبولِ نصيحتي لكم.

وقوله: «إنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فاعْبُدُوهُ»، يقولُ: إنَّ الذي يستوجبُ علينا إفرادَهُ بالألوهيةِ وإخلاص الطاعةِ له، ربي وربكم جميعاً، فاعبدوه وحده، لا تشركوا معه في عبادته شيئاً، فإنه لا يصلح، ولا ينبغي أن يُعبد شيءٌ سواه.

وقوله: «هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ»، يقولُ: هذا الذي أمرتُكم به من اتقاءِ الله وطاعتي، وإفرادِ الله بالألوهةِ، هو الطريقُ المستقيم، وهو دينُ الله الذي لا يقبلُ

من أحدٍ من عبادهِ غيره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في المَعْنِيِّينَ بالأحزاب، الذين ذكرهم اللهُ في هذا الموضعِ، فقال بعضهم: عَنَى بذلك: الجماعةُ التي تناظرت في أمر عيسى، واختلفتْ فيه.

وقال آخرون: بل هم اليهود والنصارى.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: معنى ذلك: فاختلف الفِرَقُ المختلفونَ في عيسى بن مريم من بين مَنْ دعاهم عيسى إلى ما دعاهم إليه من اتقاءِ الله والعملِ بطاعته، وهم اليهود والنصارى، ومن اختلف فيه من النصارى، لأنَّ جميعهم كانوا أحزاباً مختلفي الأهواء مع بيانه لهم أمرَ نَفْسِه، وقوله لهم: «إنَّ الله هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ».

وقوله: «فَوَيْلٌ للَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أليمٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فالوادي السائل من القيحِ والصديدِ في جهنم للذين كفروا بالله، الذين قالوا في عيسى بن مريم بخلافِ ما وصف عيسى به نَفْسَهُ.

في هذه الآية «مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ»، يقولُ: من عذابِ يومٍ مؤلمٍ، ووصفَ اليومَ بالإيلامِ، إذ كان العذابُ الذي يؤلمهم فيه، وذلك يوم القيامة.

وقوله: «هَلْ يَنْظُرُونَ إلَّا السَّاعَةَ أنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً»، يقولُ: هل ينظر هؤلاءِ الأحزاب المختلفون في عيسى بن مريم، القائلونَ فيه الباطلَ من القولِ، إلا الساعةَ التي فيها تقومُ القيامةُ فجأة. «وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ»، يقولُ: وهم لا يعلمون

بمجيئها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: المُتَخالُّونَ يومَ القيامة على معاصي اللهِ في الدنيا، بعضُهم لبعضٍ عدوٌّ، يتبرأ بعضُهم من بعضٍ، إلا الذين كانوا تخالّوا فيها على تقوى الله.

وقوله: «يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ»، وفي هذا الكلام محذوف استغني بدلالة ما ذُكِرَ عليه. ومعنى الكلام: الأخلَّاءُ يومئذٍ بعضُهم لبعضٍ عدوٌّ إلا المتقين، فإنهم يقال لهم: يا عبادي لا خوفٌ عليكم اليوم من عقابي، فإني قد أمنتكم منه برضايَ عنكم، ولا أنتم تحزنونَ على فراقِ الدنيا فإنَّ الذي قَدِمْتُمْ عليه خيرٌ لكم مما فارقتمُوه منها.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

وقوله: «الَّذِينَ آمَنُوا بآياتِنا»، يقول تعالى ذِكْرُه: يا عبادي الذين آمنوا وهم الـذين صَدَّقُـوا بكتـابِ اللهِ ورسله، وعملوا بمـا جاءتهم به رُسُلهم، «وكانوا مسلمينَ»، يقولُ: وكانوا أهلَ خضوعٍ لله بقلوبهم، وقبولٍ منهم لِمَا جاءتهم به رُسُلُهم عن رَبِّهم على دينِ إبراهيمَ خليلِ الرحمن ﷺ، حنفاءَ لا يهود ولا نصارى، ولا أهلَ أوثان.

وقوله: «ادْخُلُوا الجَنَّةَ أَنْتُمْ وأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ»، يقول جَلَّ ثناؤُه: ادخلوا الجنةَ أنتم أيها المؤمنونَ وأزواجُكم مغبوطينَ بكرامةِ الله، مسرورينَ بما أعطاكم

اليوم رَبُّكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يُطافُ على هؤلاءِ الذين آمنوا بآياته في الدنيا إذا دخلوا الجنـةَ في الآخرةِ بصِحَافٍ من ذهبٍ، وهي جمع للكثير من الصَّحْفة، والصَّحْفة: القصعة.

وقوله: «وأكْوابٍ» وهي جمع كوب، والكوب: الإبريقُ المستديرُ الرأسِ، الذي لا أُذُنَ له ولا خرطوم.

ومعنى الكلام: يُطافُ عليهم فيها بالطعامِ في صِحافٍ من ذهب، وبالشرابِ في أكوابٍ من ذهب، فاستغنى بذكر الصِّحاف والأكواب من ذكر الطعام والشراب، الذي يكون فيها لمعرفةِ السامعينَ بمعناه «وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لكم في الجنةِ ما تشتهي نُفوسُكم أيها المؤمنونَ، وتلذُّ أعينكم «وأَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ»، يقولُ: وأنتم فيها ماكثون، لا تخرجون منها أبداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يقال لهم: وهذه الجنةُ التي أَوْرَثَكُموهَا اللهُ عن أهلِ النارِ الذين أدخلهم جهنمَ بما كنتم في الدنيا تعملون من الخيراتِ. «لَكُمْ فِيها»، يقولُ: لكم في الجنةِ فاكهةٌ كثيرةٌ من كلِّ نوعٍ «مِنْها تَأْكُلُونَ»، يقولُ: من الفاكهةِ تأكلونَ ما اشتهيتم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إِنَّ المُجْرِمِينَ» وهم الذين اجترموا في الدنيا الكفرَ بالله، فاجترموا به في الآخرة «فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ»، يقولُ: هم فيه ماكثـونَ، «لا يُفَتَّرُ عنهم»، يقولُ: لا يُخَفَّفُ عنهم العذابُ. وأصل الفتور: الضعف «وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ»، يقولُ: وهم في عذاب جهنم مبلسون، والهاء في فيه من ذِكْرِ العذاب، والمعنى: وهم في جهنم مُبْلِسُونَ؛ والمبلس في هذا الموضع: هو الآيسُ من النجاةِ الذي قد قَنطَ فاستسلمَ للعذابِ والبلاء.

وقوله: «وَما ظَلَمْناهُمْ وَلَكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وما ظلمنـا هؤلاء المجرمينَ بفعلنا بهم ما أخبرناكم أيها الناسُ أنَّا فعلنا بهم من التعذيبِ بعذابِ جهنمَ «وَلَكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ» بعبادتهم في الدنيا غيرَ مَنْ كان عليهم عبادتهُ، وكفرهم بالله، وجحودهم توحيده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ونادى هؤلاءِ المجرمونَ ـ بعدما أدخلهم اللهُ جهنمَ، فنـالهم فيها من البلاءِ ما نالهم ـ مالكاً خازنَ جهنم «يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ»، قال: لِيُمِتْنا رَبُّكَ، فيفرغ من إماتتنا، فذكر أن مالكاً لا يُجيبهم في وقتِ قِيلِهم له ذلك، ويَدَعُهُمْ ألفَ عامٍ بعد ذلك، ثم يُجيبهم، فيقول لهم: «إِنَّكُمْ ماكِثُونَ».

وقوله: «لَقَدْ جِئْناكُمْ بالحَقِّ»، يقولُ: لقد أرسلنا إليكم يا معشرَ قريش

رسولنا محمداً بالحق.

«وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولكن أكثركم لِمَا جاءَ به محمدٌ ﷺ من الحقِّ كارهون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ۝٧٩ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۝٨٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أمْ أبرمَ هؤلاءِ المشركونَ من قريش أمراً فأحكموه، يكيدون به الحقّ الذي جئناهم به، فإنَّا مُحْكِمُونَ لهم ما يُخزيهم، ويُذِلُّهم من النكال.

وقوله: «أمْ يَحْسَبُونَ أنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ»، يقولُ: أم يظنُّ هؤلاءِ المشركونَ بالله أنَّا لا نسمعُ ما أخفوا عن الناسِ من منطقهم، وتشاوروا بينهم وتناجَوْا به دونَ غيرِهم، فلا نعاقبهم عليه لخفائه علينا.

وقوله: «بَلى ورُسُلُنا لَدَيْهِم يَكْتُبُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: بل نحنُ نعلمُ ما تناجَوْا به بينهم، وأخفوهُ عن الناسِ من سِرِّ كلامهم، وحَفَظَتُنا لديهم، يعني: عِنْدَهُمْ يكتبونَ ما نطقوا به من منطقٍ، وتكلموا به من كلامهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ۝٨١ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٨٢﴾

معنى الكلام: قُلْ يا محمدُ لمشركي قومكَ الزاعمينَ أنَّ الملائكة بنات الله: إنْ كان للرحمنِ ولدٌ فأنا أوَّلُ عابديهِ بذلك منكم، ولكنه لا ولدَ له، فأنا أعبدُه بأنه لا ولدَ له، ولا ينبغي أنْ يكون له.

وإذا وُجِّهَ الكلامُ إلى ما قلنا من هذا الوجه لم يكن على وجهِ الشكِّ، ولكن على وجه الإلطافِ في الكلام وحُسْنِ الخطاب، كما قال جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «قُلِ اللهُ، وإنَّا أوْ إيَّاكُمْ لَعَلى هُدًى أوْ فِي ضَلالٍ مُبينٍ» [سبأ: ٢٤] وقد علم أنَّ الحقَّ معه، وأنَّ مخالفيهِ في الضلال المبين.

وقـولـه: «سُبْحَـانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ والأرْضِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: تبرئةً وتنزيهاً لمالكِ السموات والأرضِ ومالك العرش المحيط بذلك كله، وما في ذلك من خَلْق مما يَصِفُه به هؤلاءِ المشركونَ من الكذبِ، ويُضِيفُونَ إليه من الولد وغير ذلك من الأشياء التي لا ينبغي أن تُضَافَ إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾**

يقول تعالى ذِكْرُه: فَذَرْ يا محمدُ هؤلاءِ المفترينَ على الله، الواصِفيهِ بأنَّ له ولـداً يَخُـوضُوا في باطلهم، ويلعبوا في دنياهم «حتى يُلاقُوا يَوْمَهُمْ الَّذِي يُوعَدُونَ» وذلك يومَ يُصْلِيهمُ اللهُ بفِرْيَتِهم عليه جهنمَ، وهو يومُ القيامة.

وقوله: «وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إلَهٌ، وفِي الأرضِ إلَه»، يقول تعالى ذِكْرُه: والله الذي له الأُلوهةُ في السماء معبودٌ، وفي الأرضِ معبودٌ كما هو في السماء معبودٌ، لا شيءَ سِواهُ تَصْلُح عبادته؛ يقول تعالى ذِكْرُه: فأفردوا لمن هذه صِفَتُه العبادةَ، ولا تشركوا به شيئاً غيره.

وقـولـه: «وَهُوَ الحَكِيمُ العَلِيمُ»، يقولُ: وهو الحكيمُ في تدبيرِ خَلْقِه، وتسخيرهم لما يشاء، العليمُ بمصالحهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وتباركَ الذي له سلطانُ السمواتِ السبع والأرض، وما بينهما من الأشياء كلها، جارٍ على جميع ذلك حُكْمُه، ماضٍ فيهم قضاؤُه. يقول: فكيف يكونُ له شريكاً مَنْ كان في سلطانِه وحُكْمُه فيه نافذٌ. «وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ»، يقولُ: وعنده علمُ الساعةِ التي تقومُ فيها القيامةُ، ويُحْشَرُ فيها الخَلْقُ من قبورهم لموقفِ الحساب.

قوله: «وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»، يقولُ: وإليه أيها الناسُ تُرَدُّون من بعد مماتِكم، فتصيرونَ إليه، فيجازي المحسنَ بإحسانِه، والمسيءَ بإساءته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك: فقال بعضهم معنى ذلك: ولا يملكُ عيسى وعُزير والملائكة الذين يعبدهم هؤلاءِ المشركونَ بالساعةِ، الشفاعةَ عند الله لأحدٍ، إلا مَنْ شهد بالحقِّ، فَوَحَّدَ الله وأطاعَهُ، بتوحيدٍ عُلِمَ منه، وصحةٍ بما جاءتْ به رُسُله.

وقال آخرون: عنى بذلك: ولا تملكُ الآلهةُ التي يَدْعُوهَا المشركونَ ويعبدونها من دونِ الله الشفاعةَ إلا عيسى وعُزير وذَوُوهما، والملائكةُ الذين شهدوا بالحقِّ، فأقرُّوا به وهم يعلمون حقيقةَ ما شهدوا به.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبر أنه لا يملكُ الذين يعبدهُم المشركونَ من دونِ الله الشفاعةَ عنده لأحدٍ، إلا مَنْ

شهد بالحقِّ، وشهادته بالحقِّ: هو إقرارُه بتوحيدِ الله، يعني بذلك: إلا مَنْ آمنَ بالله، وهم يعلمـون حقيقـةَ توحيدِه، ولم يخصص بأن الذي لا يملك ملك الشفاعة منهم بعض من كان يعبد دون الله، فذلك على جميع مَنْ كان تعبد قريش من دونِ الله يومَ نزلتْ هذه الآيةُ وغيرهم، وقد كان فيهم مَنْ يعبدُ من دونِ الله الآلهةَ، وكان فيهم مَنْ يعبدُ من دونِه الملائكةَ وغيرهم، فجميعُ أولئكَ داخلونَ في قوله: «ولا يملك» الذين يدعو قريش وسائر العرب من دون الله الشفـاعـة عند الله. ثم استثنى جَلَّ ثَنَاؤُهُ بقوله: «إلَّا مَنْ شَهِدَ بالحَقّ وهم يَعْلَمُونَ» وهم الذين يشهدون شهادةَ الحقِّ فيوحِّدُونَ الله، ويخلصون له الوحدانيةَ، على عِلْمٍ منهم ويقينٍ بذلك، أنهم يملكون الشفاعةَ عنده بإذنه لهم بها، كما قال جَلَّ ثَنـاؤُهُ «ولا يَشْفَعُونَ إلا لِمَن ارْتَضَى» فأثبت جَلَّ ثَنَاؤُهُ للملائكة وعيسى وعُزير ملكهم من الشفاعة ما نفاهُ عن الآلهةِ والأوثانِ باستثنائهِ الذي استثناه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٨٧ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٨٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولئن سألتَ يا محمدُ هؤلاءِ المشركينَ بالله من قومك: مَنْ خَلَقَهم؟ ليقولُنَّ: اللهُ خَلَقَنا. «فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ»، فأيّ وجهٍ يصرفون عن عبادةِ الذي خلقهم، ويُحْرَمُونَ إصابةَ الحقِّ في عبادته.

وقوله: «وَقِيلِه: يا رَبِّ إن هَؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ»، يعني: وقال محمدٌ قِيلَهُ شاكياً إلى رَبِّه تبارك وتعالى قومَهُ الذين كَذَّبُوهُ، وما يَلْقَى منهم: يا ربِّ إنَّ هؤلاءِ الذين أمرتني بإنذارِهم وأرسلتني إليهم لدعائِهم إليكَ، قومٌ لا يؤمنون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٨٩﴾

الزخرف: ٨٩

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ، جواباً له عن دعائِهِ إياهُ إذْ قال: «يا ربِّ إن هؤلاءِ قوم لا يؤمنون» «فاصْفَحْ عَنْهُمْ» يا محمدُ، وأعْرِضْ عن أذاهم «وَقُلْ» لهم «سَلامٌ» عليكم.

واختلفت القَـرَأة في قراءة قوله: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» فقرأ ذلك عامة قَرَأة المدينة «فَسَوْفَ تَعْلَمونَ» بالتاء على وجه الخطاب، بمعنى: أمر الله عَزَّ وجَلَّ نبيه ﷺ أنْ يقولَ ذلك للمشركينَ، مع قوله «سَلامٌ»، وقرأته عامة قَرَأة الكوفة وبعض قرّاء مكة: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» بالياء على وجه الخبر، وأنه وعيدٌ من الله للمشركين، فتأويله على هذه القراءة: «فاصْفَحْ عَنْهُمْ» يا محمدُ، «وَقُلْ سَلامٌ». ثم ابتدأ تعالى ذِكْرُه الوعيدَ لهم، فقال: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» ما يَلْقَوْنَ من البلاءِ والنكالِ والعذابِ على كفرهم، ثم نسخَ الله جَلَّ ثَناؤُهُ هذه الآية، وأمرَ نبيَّهُ ﷺ بقتالهم.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦﴾

قد تقدم بياننا في معنى قوله: «حمٓ، والكِتابِ المُبينِ».

وقـوله: «إنَّا أنْزَلْنَاهُ في لَيْلَةٍ مُبارَكةٍ» أقسم جَلَّ ثناؤُهُ بهذا الكتاب، أنه أنزله في ليلةٍ مباركة، وهي ليلةُ القدر، لأن الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ أخبر أن ذلك كذلك لقوله تعالى: «إنـا كُنَّا مُنْذِرينَ» خَلْقنا بهذا الكتابِ الذي أنزلناه في الليلة المباركةِ عقوبتنا أنْ تحلَّ بمن كفرَ منهم، فلم ينبْ إلى توحيدنا، وإفرادِ الألوهةِ لنا.

وقوله: «فِيها يُفْرَق كُلُّ أمْرٍ حَكِيمٍ»، يعني بقوله: «فيها»: ليلة القدر لِمَا قد تَقَدَّمَ من بياننا عن أن المعنيَّ بقوله: «إنَّا أنْزَلْناهُ في لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ» ليلة القدر، والهاء في قوله: «فيها» من ذِكْرِ الليلةِ المباركة. وعَنَى بقوله: «فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أمْرٍ حَكِيمٍ» في هذه الليلةِ المباركة يُقْضَى ويُفْصَلُ كلُّ أمرٍ أحكمَهُ اللهُ تعالى في تلك السنةِ إلى مِثْلِهَا من السنةِ الأخرى، ووضع حكيم موضع محكم، كما قال: «آلم، تِلْكَ آياتُ الْكِتَابِ الحَكِيمِ» «لقمان: ١-٢» يعني: المحكم.

وقوله: «أمْراً مِنْ عِنْدِنا»، يقول تعالى ذِكْرُه: في هذه الليلة المباركة يُفْرَقُ كلُّ أمرٍ حكيم، أمراً من عندنا.

وقوله: «إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّا كنا مُرْسِلي رسولنا محمدٍ ﷺ إلى عبادنا رحمةً من رَبِّكَ يا محمدُ. «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ»، يقولُ: إن الله تبارك وتعالى هو السميعُ لما يقولُ هؤلاءِ المشركونَ فيما أنزلنا من كتابنا، وأرسلنا من رُسُلِنَا إليهم، وغير ذلك من منطِقِهم ومنطِقِ غيرهم، العليمُ بما تنطوي عليه ضمائرهم، وغير ذلك من أمورهم وأمورِ غيرهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾

ويعني بقوله: «رَبِّ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُما»، يقول تعالى ذِكْرُه: الذي أنزلَ هذا الكتابَ يا محمدُ عليك، وأرسلكَ إلى هؤلاءِ المشركينَ رحمةً من ربك، مالك السمواتِ السبعِ والأرض وما بينهما من الأشياء كلها.

وقوله: «إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِين»، يقولُ: إنْ كنتم تُوقنون بحقيقةِ ما أخبرتكم من أنَّ رَبَّكم ربُّ السموات والأرض، فإن الذي أخبرتكم أنَّ الله هو الذي هذه الصفات صفاتُه، وأنَّ هذا القرآنَ تنزيلُه، ومحمداً ﷺ رسوله حَقٌّ يقين، فأيقنوا به كما أيقنتم بما توقنون من حقائقِ الأشياء غيره.

وقـولـه: «لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ»، يقـولُ: لا معبودَ لكم أيها الناسُ غير ربِّ السمواتِ والأرضِ وما بينهما، فلا تعبدوا غيره، فإنه لا تصلحُ العبادةُ لغيره، ولا تنبغي لشيءٍ سواه، يُحيي ويُميت، يقولُ: هو الذي يُحيي ما يشاء، ويميت ما يشاء مما كان حياً.

وقـولـه: «رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الأوَّلين»، يقولُ: هو مالِكُكُمْ ومالكُ مَنْ مضى قبلكم من آبـائكم الأوَّلين، يقـولُ: فهذا الذي هذه صِفَتُه، هو الربُّ

فاعبدوه دونَ آلهتكم التي لا تقدرُ على ضُرٍّ ولا نفع.

وقوله: «بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُون»، يقول تعالى ذِكْرُه: ما هُمْ بموقنينَ بحقيقةِ ما يُقالُ لهم ويخبرون من هذه الأخبار، يعني بذلك مشركي قريش، ولكنهم في شكٍّ منه، فهم يلهون بشكهم في الذي يخبرون به من ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه بقوله: «فارْتَقِبْ» فانتظرْ يا محمدُ بهؤلاءِ المشركينَ من قومكَ الذين هم في شَكٍّ يلعبون، وإنما هو افتعل، مِنْ رَقَبْتُه: إذا انتظرته وحرسته.

وقوله: «يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ»، اختلف أهلُ التأويل في هذا الذي أمر اللهُ عَزَّ وجَلَّ نبيه ﷺ أنْ يرتقبه، وأخبره أنَّ السماءَ تأتي فيه بدخانٍ مبين: أيّ يومٍ هُوَ، ومتى هو؟ وفي معنى الدخان الذي ذُكِرَ في هذا الموضع، فقال بعضهم: ذلك حين دعا رسولُ الله ﷺ على قريشٍ رَبَّهُ تبارك وتعالى أنْ يأخذهم بسنين كسنيِّ يوسف، فَأُخِذُوا بالمجاعةِ، قالوا: وعنى بالدخان ما كان يُصيبهم حينئذٍ في أبصارهم من شدَّةِ الجوعِ من الظلمة كهيئةِ الدخان.

وقال آخرون: الدخانُ آيةٌ من آياتِ الله، مُرْسَلَةٌ على عبادِه قبلَ مجيء الساعة، فيدخل في أسماعِ أهلِ الكفرِ به، ويعتري أهلَ الإيمان به كهيئةِ الزكام، قالوا: ولم يأتِ بَعْدُ، وهو آتٍ.

وأَوْلى القولين بالصوابِ في ذلك أنَّ الدخان الذي أمر الله نبيه ﷺ أنْ يَرتقبه، هو ما أصابَ قومه من الجَهْدِ بدعائِه عليهم، لأنَّ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ توعَّدَ

بالدخان مشركي قريش وإنَّ قوله لنبيِّه محمد ﷺ: «فارتَقِبْ يومَ تَأْتِي السماءُ بدخانٍ مبين» في سياق خطابِ الله كفارَ قريش وتقريعه إياهم بشركهم بقولهم: «لا إلَهَ إلَّا هُوَ يُحْيِي ويُمِيتُ ربُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الأوَّلِينَ، بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ»، ثم أتبع ذلك قوله لنبيهِ عليه الصلاة والسلام: «فارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخانٍ مُبين» أمراً منه له بالصبر إلى أنْ يأتيهم بأسُه، وتهديداً للمشركين فهو بأنْ يكون إذْ كان وعيداً لهم قد أحَلَّهُ بهم، أشبه من أنْ يكون أَخَّرَهُ عنهم لغيرهم، وبعد، فإنه غير منكرٍ أنْ يكونَ أحلَّ بالكفارِ الذين توعدهم بهذا الوعيد ما توعدهم، ويكون مُحِلاًّ فيما يستأنف بعد بآخرينَ دخاناً.

وإن كان تأويل الآية في هذا الموضع ما قلنا، فَبَيِّنٌ أنَّ معناه: فانتظر يا محمدُ لمشركي قومكَ يوم تأتيهم السماءُ من البلاءِ الذي يحل بهم على كفرهم بمثلِ الدخان المبين لمن تأمله أنه دخان. «يَغْشَى الناسَ»، يقولُ: يغشى أبصارَهُمْ من الجَهْدِ الذي يصيبهم «هَذَا عَذَابٌ أليمٌ»، يعني: أنهم يقولون مما نالهم من ذلك الكرب والجهد: هذا عذاب أليم. وهو الموجِعُ، وترك من الكلام «يقولون» استغناء بمعرفة السامعين معناه من ذكرها.

وقوله: «رَبَّنا اكْشِفْ عَنَّا العَذَابَ»، يعني أن الكافرين الذين يصيبهم ذلك الجهد يضرعونَ إلى ربهم بمسألتهم إياه كشفَ ذلك الجهدِ عنهم، ويقولون: إنكَ إنْ كشفته آمنا بكَ وعبدناكَ من دون كلِّ معبودٍ سواك، كما أخبر عنهم جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «رَبَّنا اكْشِفْ عَنَّا العَذَابَ إنَّا مُؤْمِنُونَ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: من أيِّ وجهٍ لهؤلاءِ المشركينَ التذكر من بعد نزولِ

البلاءِ بهم، وقد تولوا عن رسولنا حين جاءهم مُدْبرينَ عنه، لا يتذكرون بما يُتْلى عليهم من كتابنا، ولا يَتَّعِظُونَ بما يعظهم به من حججنا، ويقولون: إنما هو مجنون عُلِّمَ هذا الكلام.

وقوله: «إنَّا كاشِفُو العَذَابِ قَلِيلاً إنَّكُمْ عائِدُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاءِ المشركينَ الذين أخبر عنهم أنهم يستغيثونَ به من الدخانِ النازلِ والعذابِ الحالِّ بهم من الجهد، وأخبر عنهم أنهم يعاهدونه أنه إنْ كشفَ العذابَ عنهم آمنوا «إنا كاشفو العذاب»: يعني الضُرَّ النازل بهم بالخصبِ الذي نُحْدِثُه لهم «قَلِيلاً إنَّكُمْ عائِدُونَ»، يقولُ: إنكم أيها المشركونَ إذا كَشَفْتُ عنكم ما بكم من ضُرٍّ لم تَفُوا بما تَعِدُونَ وتعاهدون عليه رَبَّكم من الإيمان، ولكنكم تعودون في ضلالتكم وغَيِّكم، وما كنتم قبل أن يكشف عنكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنكم أيها المشركونَ إنْ كشفتُ عنكم العذابَ النازلَ بكم، والضُرَّ الحالَّ بكم، ثم عدتم في كفركم، ونقضتم عهدكم الذي عاهدتم رَبَّكم، انتقمتُ منكم يوم أبطشُ بكم بطشتي الكبرى في عاجلِ الدنيا، فأهلككم، وكشفَ اللهُ عنهم، فعادوا، فبطشَ بهم جَلَّ ثَنَاؤُهُ بطشتَهُ الكبرى في الدنيا، فأهلكهم قتلاً بالسيف.

وقد اختلف أهلُ التأويل في البطشة الكبرى، فقال بعضهم: هي بطشة الله بمشركي قريش يوم بدر.

وقال آخرون: بل هي بطشة الله بأعدائه يوم القيامة.

وقد بيَّنا الصوابَ في ذلك فيما مضى، والعلة التي من أجلها اخترنا ما اخترنا من القولِ فيه[1].

وقوله: «وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد اختبرنا وابتلينا يا محمدُ قبل مشركي قومكَ مثالَ هؤلاءِ قوم فرعونَ من القبطِ «وَجاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ»، يقولُ: وجاءهم رسولٌ من عندنا أرسلناهُ إليهم، وهو موسى بن عمران صلوات الله عليه.

وقوله: «أنْ أَدُّوا إليَّ عِبادَ اللهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وجاء قومَ فرعون رسولٌ من الله كريمٌ عليه بأنْ ادفعوا إليَّ، ومعنى «أَدُّوا»: ادفعوا إليَّ فأرسلوا معي واتبعونِ.

وقوله: «إنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أمِينٌ»، يقولُ: إني لكم أيها القومُ رسولٌ من الله أرسلني إليكم لا يدرككم بأسه على كُفْرِكُمْ به، «أمينٌ»، يقولُ: أمينٌ على وحيه ورسالتِه التي أَوْعَدَنِيهَا إليكم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وجاءهم رسولٌ كريم، أنْ أَدُّوا إليَّ عبادَ الله، وبأنْ لا تَعْلُوا على الله.

وعنى بقـوله: «أنْ لا تَعْلُوا على اللهِ» أنْ لا تطغوا وتَبْغُوا على رَبِّكم، فتكفـروا به وتعصـوه، فتخالفوا أمرَهُ «إنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِين»، يقولُ: إنِّي

---

(١) انظر تفسير الآية من سورة

آتيكم بحجةٍ على حقيقةِ ما أدعوكم إليه، وبرهان على صحته، مبين لمن تأمَّلَها وتَدَبَّرَهَا أنها حجةٌ لي على صحةِ ما أقولُ لكم.

وقوله: «وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُون»، يقولُ: وإني اعتصمتُ بربي وربكم، واستجرتُ به منكم أن ترجمون.

واختلف أهلُ التأويل في معنى الرجم استعاذَ موسى نبيُّ اللهِ عليه السلام بربه منه، فقال بعضهم: هو الشتمُ باللسان.

وقال آخرون: بل هو الرجمُ بالحجارة.

وقال آخرون: بل عَنَى بقوله: «أَنْ تَرْجُمُونِ»: أنْ تقتلوني.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصواب ما دلَّ عليه ظاهرُ الكلام، وهو أنَّ موسى عليه السلام استعاذَ بالله من أنْ يرجُمَهُ فرعونُ وقومُه، والرجمُ قد يكون قولاً باللسان، وفعلاً باليد. والصوابُ أن يقال: استعاذ موسى بربه من كُلِّ معاني رجمهم الذي يصل منه إلى المرجومِ أذًى ومكروهٌ، شتماً كان ذلك باللسانِ، أو رجماً بالحجارة باليد.

وقوله: «وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فاعْتَزِلُون»، يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ نبيه موسى عليه السلام لفرعونَ وقومه: وإنْ أنتم أيها القومُ لم تُصَدِّقُوني على ما جئتُكم به من عنـد ربي، «فاعتزلون»، يقولُ: فَخَلُّوا سبيلي غيرَ مرجومٍ باللسانِ ولا باليد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٢٣ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًاۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ۝٢٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فدعا موسى رَبَّهُ إذْ كَذَّبُوه ولم يؤمنوا به، ولم يؤدِّ إليه

عبادُ الله، وهَمُّوا بقتله بأنَّ هؤلاءِ، يعني فرعون وقومه «قَوْمٌ مُجْرِمُونَ»، يعني: أنهم مشركون بالله كافرون.

وقوله: «فَأَسْر بِعِبَادِي» وَفي الكلام محذوفٌ استغني بدلالة ما ذُكِرَ عليه منه، وهو: فأجابه رَبُّهُ بأنْ قال له: فأسْرِ إذْ كان الأمرُ كذلك بعبادي، وهم بنو إسرائيل. وَإنَّما معنى الكلام: فأسْرِ بعبادي الذين صدّقوكَ وآمنوا بك، واتبعوك دونَ الذين كذَّبُوكَ منهم، وأبَوْا قبولَ ما جئتهم به من النصيحةِ منك، وكان الذين كانـوا بهذه الصفة يومئذٍ بني إسرائيل. وقال: «فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً» لأنَّ معنى ذلك: سِرْ بهم بليلٍ قبل الصباح.

وقوله: «إنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ»، يقولُ: إنَّ فرعونَ وقومه من القبطِ مُتَّبِعُوكم إذا شخصتم عن بلدهم وأرضهم في آثاركم.

وقوله: «وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً»، يقولُ: وإذا قطعتَ البحرَ أنتَ وأصحابُك، فاتركه ساكناً على حاله التي كان عليها حين دخلته. وقيل إنَّ الله تعالى ذِكْرُه قال لموسى هذا القول بعد ما قطع البحرَ ببني إسرائيلَ فإذ كان ذلك كذلك، ففي الكلام محذوفٌ، وهو: فسرَى موسى بعبادي ليلاً، وقطعَ بهم البحر، فقلنا له بعد ما قَطَعَهُ، وأرادَ ردَّ البحرِ إلى هيئتِه التي كان عليها قبل انفلاقِه: اتركْهُ رَهْواً.

وقوله: «إنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ»، يقولُ: إنَّ فرعونَ وقومه جند، اللهُ مُغْرِقُهم في البحر.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: كم تركَ فرعونُ وقومُه من القبطِ بعدَ مهلكِهم وتغريقِ اللهِ إياهم من بساتينَ وأشجارٍ، وهي الجناتُ، «وعيون»، يعني: ومنابعَ ما كان ينفجرُ في جنانهم «وزروع» قائمة في مزارعهم «وَمَقامٍ كَرِيم»، يقولُ: وموضع كانوا يقومونه شريف كريم.

وقوله: «وَنَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأُخْرِجُوا من نعمةٍ كانوا فيها فاكهينَ متفكهينَ ناعمين.

وقوله: «كَذلكَ وَأوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هكذا كما وصفتُ لكم أيها الناسُ فعلنا بهؤلاءِ الذين ذكرتُ لكم أمرَهُمْ، الذين كذَّبُوا رسولَنا موسى ﷺ.

وقوله: «وَأوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأورثنا جناتهم وعيونهم وزروعهم ومَقاماتهم وما كانوا فيه من النعمةِ عنهم قوماً آخرِينَ بعد مهلكهم، وقيل: عُنِي بالقومِ الآخرينَ بنو إسرائيل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فما بكتْ على هؤلاءِ الذين غَرَّقَهُمْ اللهُ في البحر، وهم فرعون وقومه، السماءُ والأرضُ، وقيل: إنَّ بكاءَ السماء حُمْرَةُ أطرافِها.

وقوله: «وَما كانُوا مُنْظَرِينَ»، يقولُ: وما كانوا مؤخرينَ بالعقوبةِ التي حلَّتْ بهم، ولكنهم عُوجِلُوا بها إذ أَسْخطوا رَبَّهم عَزَّ وجَلَّ عليهم. «وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ العَذَابِ المُهِينِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد نجَّينا بني إسرائيلَ من العذابِ الذي كان فرعونُ وقومه يعذِّبُونَهُمْ به، «المهين»، يعني: المذلّ لهم.

وقوله: «مِنْ فِرْعَوْنَ إنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ المُسْرِفِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد نجينا بني إسرائيل من العذابِ من فرعونَ، فقوله: «مِنْ فِرْعَوْنَ» مكرّرة على قوله: «مِنَ العَذَابِ المُهِينِ» مبدلة من الأولى. ويعني بقوله: «إنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ المُسْرِفِينَ»، إنه كان جباراً مُسْتَعْلِياً مستكبراً على ربه، «مِنَ المُسْرِفِينَ»، يعني: من المتجاوزينَ ما ليسَ لهم تجاوزُه. وإنما يعني جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنه كان ذا اعتداءٍ في كفرِه، واستكبارٍ على رَبِّه جَلَّ ثَنَاؤُهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد اخترنا بني إسرائيلَ على عِلْمٍ منا بهم على عالمي أهل زمانِهم يومئذٍ، وذلك زمان موسى صلواتُ الله وسلامه عليه.

قوله: «وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الآياتِ ما فِيهِ بَلاءٌ مُبِينٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأعطيناهم من العِبَرِ والعِظاتِ ما فيه اختبارٌ يبين لمن تأمَّلَهُ أنه اختبارٌ اختبرهم اللهُ به.

واختلف أهلُ التأويل في ذلك البلاء، فقال بعضهم: ابتلاهم بنعمهِ عندهم.

وقال آخرون: بل ابتلاهم بالرخاء والشدَّةِ.

وأوْلى الأقوال في ذلك بالصواب أنْ يقال: إنَّ الله أخبر أنه آتى بني إسرائيلَ من الآياتِ ما فيه ابتلاؤُهم واختبارُهم، وقد يكون الابتلاءُ والاختبارُ بالرخاء، ويكون بالشدّةِ، ولم يضعْ لنا دليلاً من خبرٍ ولا عقلٍ، أنه عنى بعضَ ذلك دونَ بعضٍ، وقد كان الله اختبرهم بالمَعْنَيَيْنِ كليهما جميعاً. وجائزٌ أن يكون عنى اختباره إياهم بهما، فإذا كان الأمرُ على ما وصفنا، فالصوابُ من

القولِ فيه أن نقولَ كما قال جَلَّ ثَناؤُهُ إنه اختبرهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن قِيلِ مشركي قريش لنبيِّ الله ﷺ: إنَّ هؤلاءِ المشركينَ من قومكَ يا محمدُ، «لَيَقُولُونَ إنْ هِيَ إلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولى» التي نموتها، وهي الموتةُ الأولى «وَما نَحنُ بِمُنْشَرِينَ» بعد مماتنا، ولا بمبعوثينَ تكذيباً منهم بالبعثِ والثوابِ والعقاب.

وقوله: «فَأْتُوا بِآيَاتِنَا إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: قالوا لمحمدٍ عليه الصلاة والسلام: فأتوا بآبائنا الذين قد ماتوا إنْ كنتم صادقين، أنَّ الله باعثنا من بعد بِلاَنَا في قبورنا، ومُحْيينا من بعد مَمَاتِنَا، وخُوطِبَ ﷺ هو وحده خطابَ الجميع، كما قيل: «يا أَيُّها النَّبِيّ إذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ» [الطلاق: ١] وكما قال: «رَبِّ ارْجِعُونِ» [المؤمنون: ٩٩] وقد بيَّنتُ ذلك في غيرِ موضعٍ من كتابنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: أهؤلاءِ المشركونَ يا محمدُ من قومكَ خيرٌ، «أم قومُ تُبَّع»، يعني: تُبَّعاً الحِمْيريَّ.

وقـوله: «وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أهؤلاءِ المشركونَ من قريش خيرٌ أم قومُ تُبَّعٍ والذين من قبلِهم من الأممِ الكافرة بربها، يقولُ: فليس هؤلاءِ بخيرٍ من أولئكَ، فنصفح عنهم، ولا نُهلكهُم، وهم بالله كافرون، كما

كان الذين أهلكناهم من الأممِ قَبْلَهم كفاراً.

وقوله: «إنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ»، يقولُ: إنَّ قومَ تُبَّع والذين من قبلهم من الأمم الذين أهلكناهم إنما أهلكناهم لإجرامهم، وكُفْرِهم بربِّهم. وقيل: إنهم كانوا مجرمين، فكُسرت ألفُ «إن» على وجه الابتداء، وفيها معنى الشرطِ استغناءً بدلالةِ الكلامِ على معناها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَمَا خَلَقْنَا السَّمواتِ» السبع والأرضين وما بينهما من الخلق لَعِباً.

وقوله: «مَا خَلَقْناهُمَا إلَّا بالحَقّ»، يقولُ: ما خلقنا السمواتِ والأرضَ إلا بالحقِّ الذي لا يصلحُ التدبيرُ إلا به. وإنما يعني بذلك تعالى ذِكْرُه التنبيه على صحةِ البعثِ والمجازاةِ، يقول تعالى ذِكْرُه: لم نخلقِ الخلقَ عبثاً بأنْ نُحْدِثَهُمْ فَنُحْيِيَهُمْ ما أردنَا، ثم نُفْنِيهم من غيرِ الامتحانِ بالطاعةِ والأمرِ والنهي، وغير مجازاة المطيعِ على طاعته، والمعاصي على المعصية، ولكن خلقنا ذلك لنبتليَ مَنْ أردنا امتحانه من خَلْقِنَا بما شئنا من امتحانِه من الأمرِ والنهي «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أساءُوا بِما عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أحْسَنُوا بالحُسْنَى» [النجم: ٣١].

«وَلَكِنْ أكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ولكنَّ أكثرَ هؤلاءِ المشركينَ بالله لا يعلمون أن الله خلق ذلك لهم، فهم لا يخافون على ما يأتونَ من سخطِ الله عقوبةً، ولا يرجونَ على خيرٍ إنْ فعلوه ثواباً لتكذيبهم بالمعاد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ يومَ فصلِ الله القضاء بين خَلْقِه بما أسلفوا في دنياهم من خيرٍ أو شرٍّ يُجْـزَى به المحسنُ بالإحسـانِ، والمسيءُ بالإسـاءة «ميقاتهم أجمعين»، يقولُ: ميقات اجتماعهم أجمعين.

وقوله: «يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً»، يقولُ: لا يدفع ابنُ عمٍّ عن ابن عمٍّ، ولا صاحبٌ عن صاحبِه شيئاً من عقوبةِ الله التي حَلَّتْ بهم من الله. «وَلا هُمْ يُنْصَـرُونَ»، يقولُ: ولا ينصرُ بعضهم بعضاً، فيستعيذوا ممن نالهم بعقوبةٍ كما كانوا يفعلونه في الدنيا.

وقوله: «إلا مَن رَحِمَ اللهُ»، يقولُ: يوم لا يغني مولًى من مولى شيئاً إلا من رحم الله منهم، فإنه يغني عنه بأنْ يشفع له عند رَبِّه.

وقوله: «إنَّهُ هُوَ العَزيزُ الرَّحِيمُ»، يقول جَلَّ ثناؤه واصفاً نفسه: إنَّ الله هو العزيزُ في انتقامه من أعدائِه، الرحيمُ بأوليائِه، وأهلِ طاعته.

القَــوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ» التي أخبر أنها تَنْبُتُ في أصل الجحيم، التي جعلها طعاماً لأهلِ الجحيم، ثمرها في الجحيم طعامُ الآثمِ في الدنيا بربِّه، والأثيمُ: ذو الإثم، والإثْمُ مِنْ أَثِمَ يأثَمُ فهو أثيمٌ. وعنى به في هذا الموضع: الذي إثمهُ الكفرُ بربِّه دونَ غيرِه من الآثام.

وقوله: «كالمُهْلِ يَغْلِي فِي البُطُونِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ شجرةَ الزقوم

التي جعل ثمرتها طعام الكافر في جهنم، كالرصاصِ أو الفضة، أو ما يُذابُ في النار إذا أُذيبَ بها، فتناهَتْ حرارتُه، وشدّت حميته في شدّةِ السواد.

وقوله: «كَغَلْيِ الحَمِيمِ»، يقولُ: يغلي ذلك في بطونِ هؤلاءِ الأشقياء كغلي الماءِ المحموم، وهو المسخنُ الذي قد أُوقدَ عليه حتى تناهَتْ شِدَّةُ حَرِّهِ، وقيل: حميمٌ وهو محمومٌ، لأنه مصروفٌ من مفعولٍ إلى فعيل، كما يقال: قتيل من مقتول.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٤٧ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «خُذُوهُ» يعني: هذا الأثيم بربِّه، الذي أخبر جَلَّ ثَنَاؤُهُ أنَّ له شجرةَ الزقوم طعام «فاعْتِلُوهُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فادفعوه وسوقوه، يقال منه: عتله يعتله عتلاً: إذا ساقه بالدفع والجذب.

وقوله: «إلى سَوَاءِ الجَحِيمِ»، إلى وسطِ الجحيم. ومعنى الكلام: يقال يوم القيامة: خُذُوا هذا الأثيمَ فسوقُوه دفعاً في ظهره، وسحباً إلى وسط النار.

وقوله: «ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رأسِهِ مِنْ عَذابِ الحَمِيمِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ثم صُبُّوا على رأسِ هذا الأثيمِ من عذاب الحميم، يعني: من الماء المسخن الذي وصفنا صفته، وهو الماءُ الذي قال الله: «يُصْهَرُ بِهِ ما في بُطُونِهِمْ والجُلُودُ» [الحج: ٢٠]، وقد بيَّنتُ صفته هنالك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ۝٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يقال لهذا الأثيم الشقيّ: ذُقْ هذا العذابَ الذي تعذَّبُ به اليوم. «إنَّكَ أنتَ العَزِيزُ» في قومك «الكَرِيمُ» عليهم.

فإنْ قال قائل: وكيف قيل وهو يهان بالعذاب الذي ذكره الله، ويذلُّ بالعتلِ إلى سواء الجحيم: إنك أنت العزيز الكريم؟

قيل إن قوله: «إنَّكَ أنْتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ» غير وصف من قائلِ ذلكَ به بالعزَّةِ والكرم، ولكنه تقريعٌ منه له بما كان يصفُ به نفسه في الدنيا، وتوبيخٌ له بذلك على وجهِ الحكاية، لأنه كان في الدنيا يقول: إنكَ أنتَ العزيزُ الكريم، فقيل له في الآخرة، إذْ عذّب بما عُذِّبَ به في النار: ذُقْ هذا الهوانَ اليوم، فإنكَ كنتَ تزعمُ أنك أنتَ العزيزُ الكريم، وإنك أنتَ الذليلُ المهين، فأين الذي كنتَ تقولُ وتدَّعي من العزِّ والكرمِ، هلا تمتنع من العذاب بعزَّتك.

وقوله: «إنَّ هَذَا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: يقال له: إنَّ هذا العذابَ الذي تعذّب به اليومَ، هو العذابُ الذي كنتم في الدنيا تَشُكُّون، فتختصمونَ فيه، ولا تُوقِنُونَ به فقد لقيتموه، فذوقوه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ۝٥١ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٢ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين اتقوا اللهَ بأداءِ طاعته، واجتنابِ معاصيه في موضع إقامة، آمنينَ في ذلك الموضعِ مما كان يخافُ منه في مقاماتِ الدنيا من الأوصابِ والعللِ والأنصابِ والأحزان.

وقوله: «فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ» الجناتُ والعيون ترجمةٌ عن المقام الأمين، والمقامُ الأمين: هو الجناتُ والعيون، والجناتُ: البساتين، والعيونُ: عيونُ الماء المطرد في أصول أشجار الجنات.

وقوله: «يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ»، يقولُ: يلبسُ هؤلاءِ المتقون في هذه الجنات من سندسٍ، وهو ما رَقَّ من الديباجِ، وإستبرق: وهو ما غَلُظَ من الديباجِ.

وقوله: «مُتَقابِلِينَ»، يعني: أنهم في الجنة يقابل بعضُهم بعضاً بالوجوه، ولا ينظر بعضهم في قفا بعض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: كما أعطينا هؤلاءِ المتقين في الآخرةِ من الكرامةِ بإدخالِنَاهُمْ الجنات، وإلباسِنَاهُمْ فيها السندسَ والإستبرقَ، كذلك أكرمناهم بأنْ زوَّجناهم أيضاً فيها حوراً من النساء، وهُنَّ النقياتُ البياضِ، واحدتهنَّ: حَوْراء.

وقوله: «يَدْعُونَ فِيها»... الآية، يقولُ: يَدْعُو هؤلاءِ المتقونَ في الجنة بكلِّ نوعٍ من فواكه الجنةِ اشتهوه، آمنينَ فيها من انقطاعِ ذلك عنهم ونفادِه وفنائِه، ومن غائلةِ أذاهُ ومكروهه، يقولُ: ليست تلك الفاكهةُ هنالك كفاكهةِ الدنيا التي نأكلها، وهم يخافون مكروهَ عاقبتها، وغِبَّ أذاها مع نفادِهَا من عندهم، وعدمها في بعضِ الأزمنةِ والأوقات.

وقوله: «لا يَذُوقُونَ فِيها المَوْتَ إلاَّ المَوْتَةَ الأُولى»، يقول تعالى ذِكْرُه: لا يذوق هؤلاءِ المتقون في الجنة الموتَ بعدَ الموتةِ الأولى التي ذاقوها في الدنيا.

وقوله: «وَوَقاهُمْ عَذابَ الجَحِيمِ فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ووقى هؤلاءِ المتقين ربهم يومئذٍ عذابَ النارِ تفضلاً يا محمدُ من رَبِّكَ عليهم، وإحساناً منه إليهم بذلك، ولم يعاقبهم بجرمٍ سَلَفَ منهم في الدنيا، ولولا تفضله عليهم بصفحِه لهم عن العقوبةِ لهم على ما سَلَفَ منهم من ذلك، لم يَقِهِمْ عذابَ الجحيم، ولكن كان ينالهم ويصيبهم أَلَمُهُ ومكروهُه.

وقوله: «ذلكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي أعطينا هؤلاءِ المتقينَ في الآخرة من الكرامةِ التي وصفتُ في هذه الآيات، «هو الفوزُ العظيم»، يقولُ: هو الظفرُ العظيم بما كانوا يطلبون من إدراكه في الدنيا بأعمالهم وطاعتهم لربهم، واتقائهم إياه، فيما امتحنهم به من الطاعاتِ والفرائضِ، واجتنابِ المحارم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ۝٥٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فإنما سَهَّلْنَا قراءةَ هذا القرآن الذي أنزلناهُ إليكَ يا محمدُ بلسانكَ، ليتذكَّرَ هؤلاءِ المشركونَ الذين أرسلناك إليهم بعبرِه وحُجَجِه، ويتَّعِظُوا بعِظَاتِه، ويتفكَّرُوا في آياتِه إذا أنتَ تتلوهُ عليهم، فينيبوا إلى طاعةِ ربهم، ويُذْعِنُوا للحقِّ عند تَبَيُّنِهُمُوه.

وقوله: «فارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فانتظرْ أنتَ يا محمدُ الفتحَ من ربك، والنصر على هؤلاءِ المشركينَ بالله من قومكَ من قريش، إنهم منتظرون عند أنفسهم قهركَ وغلبتكَ بصدِّهم عما أتيتهم به من الحقِّ مَنْ أراد قبوله واتباعك عليه.



سُورَةُ الجَاثِيَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾

قد تقدم بياننا في معنى قوله: «حمٓ».

وأما قوله: «تَنْزِيلُ الكتابِ مِنَ اللهِ» فإن معناه: هذا تنزيلُ القرآن من عند الله «العَزِيزِ» في انتقامه من أعدائه «الحَكِيمِ» في تدبيره أمرِ خلقه.

وقوله: «إنَّ فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ لآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ في السمواتِ السبع اللاتي منهنَّ نزولُ الغيثِ، والأرض التي منها خروج الخَلْقِ أيها الناسُ «لآياتٍ للْمُؤْمِنينَ»، يقولُ: لأدلةً وحججاً للمصدِّقينَ بالحججِ إذا تَبَيَّنُوهَا ورأوها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾



يقول تعالى ذِكْرُه: وفي خَلْقِ الله إياكم أيها الناسُ، وخَلْقه ما تفرَّقَ في الأرضِ من دابةٍ تدبُّ عليها من غيرِ جنسكم «آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ»، يعني: حججاً وأدلةً لقومٍ يوقنونَ بحقائِقِ الأشياء، فيقرُّونَ بها، ويعلمون صحتها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾

يقول تباركَ وتعالى: «وفي اخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ» أيها النَّاسُ، وتعاقبهما عليكم، هذا بظلمتِه وسوادِه وهذا بنورِه وضيائه «وَما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ» وهو الغيثُ الذي به تُخْرِجُ الأرضُ أرزاقَ العباد وأقواتهم، وإحيائِه الأرضَ بعد موتها: يقول: فأنبتَ ما أنزلَ من السماءِ من الغيْثِ مَيِّتَ الأرض، حتى اهتزَّتْ بالنباتِ والزرع من بعد موتها، يعني: من بعد جُدُوبها وقُحُوطها ومصيرها داثرة لا نبتَ فيها ولا زَرْعَ.

وقوله: «وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ»، يقولُ: وفي تصريفه الرياحَ لكم شمالاً مرّةً، وجنوباً أخرى، وصبًّا أحياناً، ودَبُوراً أخرى لمنافعكم.

وقوله: «آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: في ذلك أدلةُ وحججُ للهِ على خَلْقِه، لقومٍ يعقلون عن الله حججه، ويفهمونَ عنه ما وَعَظَهُمْ به من الآياتِ والعِبر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هذه الآياتُ والحججُ يا محمدُ من ربك على خَلْقِه «نتلوها عليك بالحقِّ»، يقولُ: نخبرك عنها بالحقِّ لا بالباطلِ، كما يخبر مشركو قومكَ عن آلهتهم بالباطل، أنها تُقَرِّبُهم إلى الله زُلْفَى، «فبأيِّ حديثٍ بعد الله وآياته تؤمنون»، يقول تعالى ذِكْرُه للمشركينَ به: فبأيِّ حديثٍ أيها القومُ بعد

حديثِ الله هذا الذي يتلوه عليكم، وبعد حججه عليكم وأدلته التي دَلَّكُمْ بها على وحدانيته من أنه لا ربَّ لكم سواه، تصدّقون، إنْ أنتم كذّبتم لحديثه وآياته. وهذا التأويلُ على مذهب قراءةِ مَنْ قرأ «تُؤْمِنُونَ» على وجه الخطابِ من اللهِ بهذا الكلامِ للمشركينَ، وذلك قراءة عامة قَرَأة الكوفيين. وأما على قراءة من قرأه «يُؤْمِنُون» بالياء، فإن معناه: فبأيِّ حديث يا محمدُ بعد حديثِ الله الذي يتلوه عليك وآياته هذه التي نَبَّهَ هؤلاءِ المشركينَ عليها، وذكَّرَهُمْ بها، يؤمن هؤلاء المشركون، وهي قراءة عامة قرأة أهل المدينة والبصرة، ولكلتا القراءتين وجهٌ صحيح، وتأويلٌ مفهوم، فبأية القراءتين قرأ ذلك القارئُ فمصيبٌ عندنا، وإنْ كنتُ أميلُ إلى قِراءته بالياء، إذ كانت في سياق آياتٍ قد مَضَيْنَ قبلها على وجهِ الخبر، وذلك قوله: «لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» و«لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الوادي السائلُ من صديدِ أهلِ جهنم، لكلِّ كَذَّابٍ ذي إثمٍ بربه، مُفْتَرٍ عليه، «يَسْمَعُ آياتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ»، يقولُ: يسمعُ آياتِ كتابِ الله تُقْرَأُ عليه «ثُمَّ يُصِرُّ» على كفره وإثمه فيقيم عليه غيرَ تائبٍ منه، ولا راجعٍ عنه «مُسْتَكْبِراً» على ربه أنْ يذعنَ لأمرهِ ونهيه «كأنْ لَمْ يَسْمَعْها»، يقولُ: كأن لم يسمع ما تُلِيَ عليه من آياتِ الله بإصرارِه على كفره «فَبَشِّرْهُ بعَذَابٍ أليمٍ»، يقولُ: فبشر يا محمدُ هذا الأفَّاكَ الأثيمَ الذي هذه صِفَتُه بعذابٍ من الله له. «أليم»، يعني: موجعٌ في نار جهنم يوم القيامة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَإِذَا عَلِمَ» هذا الأفاكُ الأثيمُ «مِنْ» آياتِ الله «شَيْئاً اتَّخَذَها هُزُواً»، يقولُ: اتخذ تلك الآياتِ التي علمها هزواً، يسخرُ منها، وذلك كفعلِ أبي جهل حين نزلت «إنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّوم طَعامُ الأثِيمِ» [الدخان: ٤٣] إذ دعا بتمرٍ وزبد فقال: تَزَقَّمُوا من هذا، ما يَعِدُكُمْ محمد إلا شهداً، وما أشبه ذلك من أفعالهم.

وقولـه: «أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاءِ الذين يفعلونَ هذا الفِعْلَ، وهم الذين يسمعونَ آياتِ الله تُتلى عليهم ثم يصرُّونَ على كفرهم استكباراً، ويتخذون آياتِ الله التي علموها هزواً، لهم يومَ القيامةِ من الله عذابٌ مهين يُهينهم ويُذِلُّهم في نارِ جهنم، بما كانوا في الدنيا يستكبرونَ عن طاعةِ الله واتباع آياته، وإنما قال تعالى ذِكْرُه: «أُولَئِكَ» فجمع. وقد جرى الكلامُ قبل ذلك ردّاً للكلام إلى معنى الكلِّ في قوله: «وَيْلٌ لِكُلِّ أفَّاكٍ أثِيمٍ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومن وراء هؤلاءِ المستهزئينَ بآياتِ الله، يعني: من بين أيديهم. وقد بَيَّنا العلة التي من أجلها قِيلَ لِمَا أمامكَ، هو وَرَاءكَ، فيما مضى بما أغنى عن إعادتِه؛ يقول: من بين أيديهم نارُ جهنمَ هم وارِدُوهَا، ولا يُغْنِيهم ما كسبوا شيئاً: يقولُ: ولا يغني عنهم من عذابِ جهنمَ إذا هم عُذِّبُوا به ما كسبوا في الدنيا من مال وولدٍ شيئاً.

وقولـه: «وَلا ما اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أوْلِياءَ»، يقولُ: ولا آلهتهم التي عَبَـدُوهَـا من دونِ الله، ورؤسـاؤهم، وهم الـذين أطـاعوهم في الكفر بالله، واتخذوهم نُصراءَ في الدنيا، تغني عنهم يومئذٍ من عذابِ جهنم شيئاً. «وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ»، يقولُ: ولهم من الله يومئذٍ عذابٌ في جهنم عظيم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَٰذَا هُدًىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ ١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هذا القرآنُ الذي أنزلناه على محمدٍ هُدًى: يقولُ: بيانٌ ودليلٌ على الحقِّ، يهدي إلى صراطٍ مستقيم، مَن اتَّبَعَهُ وعملَ بما فيه. «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بآياتِ رَبِّهِمْ»، يقولُ: والذين جحدوا ما في القرآنِ من الآياتِ الدالاتِ على الحقِّ، ولم يُصَدِّقُوا بها، ويعملوا بها، لهم عذابٌ أليمٌ يومَ القيامة موجع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: اللهُ أيها القوم، الذي لا تنبغي الألوهةُ إلا له، الذي أنعمَ عليكم هذه النعم، التي بيَّنها لكم في هذهِ الآيات، وهو أنه «سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ» السفنُ «فيه بأمره» لمعايشِكم وتَصَرُّفِكُمْ في البلادِ لطلبِ فَضْلِه فيها، ولتشكروا رَبَّكم على تسخيره ذلك لكم فتعبدوه وتطيعوه فيما يأمركم به، وينهاكم عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّمَوَاتِ» من شمسٍ وقمرٍ ونجوم «وَما فِي الأَرْضِ» من دابةٍ وشجرٍ وجبلٍ وجمادٍ وسفنٍ لمنافعكم ومصالحكم «جَمِيعاً منه»، يقول تعالى ذِكْرُه: جميع ما ذكرتُ لكم أيها الناسُ من هذه

النعم، نِعَمٌ عليكم من اللهِ أنعمَ بها عليكم، وفضلٌ منه تفضَّلَ به عليكم، فإياهُ فاحمدوا لا غيره، لأنه لم يشركه في إنعامِ هذه النعم عليكم شريكٌ، بل تفرَّدَ بإنعامها عليكم وجميعها منه، ومن نعمه فلا تجعلوا له في شكركم له شريكاً بل أفردوه بالشكر والعبادةِ، وأخلصوا له الألوهةَ، فإنه لا إله لكم سواه.

وقوله: «إنَّ فِي ذلكَ لآياتٍ لِقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ في تسخيرِ الله لكم ما أنبأكم أيها الناسُ أنه سخره لكم في هاتين الآيتين «لآياتٍ»، يقولُ: لعلامات ودلالات على أنه لا إله لكم غيره، الذي أنعم عليكم هذه النعمَ، وسَخَّرَ لكم هذه الأشياء التي لا يقدرُ على تسخيرها غيره لقومٍ يتفكرونَ في آيات الله وحججه وأدلته، فيعتبرونَ بها ويَتَّعِظُونَ إذا تدبروها، وفَكَّرُوا فيها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قل يا محمدُ للذين صدَّقُوا الله واتبعوكَ، يغفروا للذين لا يخافون بأسَ الله ووقائعه ونِقَمَهُ إذا هُمْ نالوهم بالأذى والمكروه «لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كانُوا يَكْسِبُونَ»، يقولُ: ليجزيَ اللهُ هؤلاءِ الذين يؤذونهم من المشركينَ في الآخرةِ، فيصيبهم عذابُه بما كانوا في الدنيا يكسبون من الإثمِ، ثم بأذاهم أهلَ الإيمانِ بالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مَنْ عمل من عبادِ الله بطاعته فانتهى إلى أمره، وانزجرَ لنهيهِ، فلنفسِه عملَ ذلك الصالحَ من العملِ، وطلب خلاصها من عذابِ الله، أطاعَ

رَبَّهُ لا لغير ذلك، لأنه لا ينفعُ ذلك غيره، والله عن عملِ كُلِّ عاملٍ غنيٌّ «وَمَنْ أساءَ فَعَلَيْهَا»، يقولُ: وَمَنْ أساء عمله في الدنيا بمعصيته فيها رَبَّهُ، وخلافه فيها أمره ونهيه، فعلى نفسه جنى، لأنه أوبقها بذلك، وأكسبها به سخطه، ولم يضرَّ أحداً سوى نفسه «ثُمَّ إلى رَبِّكُم تُرْجَعُونَ»، يقولُ: ثم أنتم أيها الناسُ أجمعون إلى رَبِّكم تصيرونَ من بعد مماتكم، فيجازي المحسنَ منكم بإحسانِه، والمسيءَ بإساءته، فمن وَرَدَ عليه منكم بعملٍ صالح، جُوزيَ من الثواب صالحاً، ومن ورد عليه منكم بعملٍ سيءٍ جُوزيَ من الثواب سيئاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَلَقَدْ آتَيْنَا» يا محمدُ «بَنِي إِسْرائِيلَ الكِتابَ»، يعني: التوراة والإنجيل، «وَالحُكْمَ» يعني: الفهمَ بالكتاب، والعلمَ بالسُّنَنِ التي لم تنزلْ في الكتاب، «وَالنُّبُوَّةَ»، يقولُ: وجعلنا منهم أنبياء ورسُلاً إلى الخلقِ، «وَرَزَقْنـاهُمْ مِنَ الـطَّيِّبـاتِ»، يقولُ: وأطعمناهم من طيبتِ أرزاقنا، وذلك ما أطعمهم من المَنِّ والسلوى. «وَفَضَّلْنَاهُمْ على العالَمِينَ»، يقولُ: وفضلناهم على عالمي أهلِ زمانِهم في أيامِ فرعونَ وعهدِه في ناحيتهم بمصر والشأم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأعطينا بني إسرائيلَ واضحاتٍ من أمرنا بتنزيلنا إليهم التوراةَ فيها تفصيلُ كُلِّ شيءٍ «فَمَا اخْتَلَفُوا إلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً

بَيْنَهُمْ» طلباً للرياساتِ، وتركاً منهم لبيان الله تبارك وتعالى في تنزيله.

وقوله: «إنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ فِيما كانُوا فيهِ يَخْتَلِفُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: إنَّ ربكَ يا محمدُ يقضي بين المختلفينَ من بني إسرائيل بغياً بينهم يومَ القيامة، فيما كانوا فيه في الدنيا يختلفونَ بعدَ العلمِ الـذي آتاهم، والبيانِ الذي جاءهم منه، فيفلجُ المُحِقُّ حينئذٍ على المُبْطِلِ بفصلِ الحكمِ بينهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ثم جعلناكَ يا محمدُ من بعد الذي آتينا بني إسرائيلَ، الذين وصفتُ لك صفتهم «عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الأمْرِ»، يقولُ: على طريقةٍ وسنةٍ ومنهاجٍ من أمرنا الذي أمرنا به من قبلك من رسلنا «فاتَّبِعْها»، يقولُ: فاتَّبِعْ تلك الشريعةَ التي جعلناها لكَ «وَلا تَتَّبِعْ أهْوَاءَ الذِينَ لا يَعْلَمُونَ»، يقـولُ: ولا تتبـعْ ما دعـاكَ إليه الجاهلونَ باللهِ، الذين لا يعرفونَ الحقَّ من الباطل، فتعمل به، فتهلك إنْ عملتَ به.

وقوله: «إنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ هؤلاءِ الجاهلين بربهم، الذين يدعونكَ يا محمدُ إلى اتباعِ أهوائهم، لن يغنوا عنكَ إنْ أنتَ اتبعتَ أهواءهم، وخالفتَ شريعةَ ربك التي شرعها لك من عقابِ الله شيئاً، فيدفعوه عنكَ إنْ هو عاقبك، وينقذوك منه.

وقـولـه: «وَإنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أوْلِياءُ بَعْضٍ»، يقولُ: وإن الظالمين بعضهم أنصـارُ بعض، وأعـوانهم على الإيمـانِ باللهِ وأهل طاعته «وَاللهُ وَلِيُّ

الْمُتَّقِينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: واللهُ يَلِي مَن اتَّقَاهُ بأداءِ فرائضِه، واجتنابِ معاصيه بكفايته، ودفاع مَنْ أرادَهُ بسوء، يقول جَلَّ ثناؤه لنبيه عليه الصلاة والسلام: فَكُنْ من المتقينَ، يَكْفِكَ الله ما بغـاكَ وكادَكَ به هؤلاءِ المشركونَ، فإنه وليُّ مَنِ اتقـاه، ولا يعظم عليكَ خلاف مَنْ خالفَ أمره وإنْ كَثُرَ عددهم، لأنهم لن يضرُّوكَ ما كان الله وَلِيُّكَ وناصرك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٢٠ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٢١﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: «هَذَا» الكتابُ الذي أنزلناه إليكَ يا محمدُ «بَصَائِرُ لِلنَّاسِ» يُبْصِرون به الحقَّ من الباطلِ، ويعرفونَ به سبيلَ الرشادِ، والبصائر: جمع بصيرة.

وقوله: «وَهُدًى»، يقولُ: ورشادٌ «وَرَحْمَة لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» بحقيقةِ صِحَّةِ هذا القرآنِ، وأنه تنزيلٌ من الله العزيز الحكيم. وخصَّ جَلَّ ثَنَاؤُهُ الموقنينَ بأنه لهم بصائرُ وهدى ورحمة، لأنهم الذين انتفعوا به دونَ مَنْ كَذَّبَ به من أهلِ الكفر، فكان عليه عَمَىً وله حزناً.

وقوله: «أمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: أم ظَنَّ الذين اجترحوا السيئاتِ من الأعمالِ في الدنيا، وكَذَّبُوا رُسُلَ الله، وخالفوا أمرَ ربهم، وعبدوا غيره، أنْ نجعلهم في الآخرةِ، كالذينَ آمنوا بالله وصَدَّقُوا رسله وعملوا الصالحاتِ، فأطاعوا الله، وأخلصوا له العبادةَ دونَ ما سواه من الأندادِ والآلهـةِ، كَلَّا ما كانَ اللهُ ليفعلَ ذلك، لقد مَيَّزَ بين الفريقين، فجعل حزبَ الإيمانِ في الجنة، وحزبَ الكفرِ في السعير.

وقوله: «سَوَاءً مَحْياهُمْ ومَماتُهُمْ»، اختلفت القَرَأةُ في قراءة قوله: «سَوَاء»، فقرأت ذلك عامة قرأة المدينة والبصرة وبعض قَرَأة الكوفة «سَوَاءٌ» بالرفع، على أنَّ الخبرَ مُتناهٍ عندهم عند قوله: «كالَّذِينَ آمَنُوا» وجعلوا خبرَ قوله: «أنْ نَجْعَلَهُمْ» قوله: «كالَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ»، ثم ابتدؤوا الخبرَ عن استواء حالِ محيا المؤمنِ ومماتِـهِ، ومحيا الكافرِ ومماته، فرفعوا قوله: «سَوَاءٌ» على وجهِ الابتداءِ بهذا المعنى، وإلى هذا المعنى وَجَّهَ تأويلَ ذلك جماعةٌ من أهلِ التأويل.

وقـد يحتمل الكلامُ إذا قُرِىء «سواء» رفعاً وجهاً آخر غير هذا المعنى الذي ذكرناه، وهو أن يوجه إلى: أمْ حَسِبَ الذين اجترحوا السيئاتِ أنْ نجعلهم والمؤمنينَ سواء في الحياةِ والموت، بمعنى: أنهم لا يستوونَ، ثم يرفع سواء على هذا المعنى، إذ كان لا ينصرف.

وقرأ ذلك عامة قَرَأة الكوفة «سَوَاءً» نصباً، بمعنى: أحسبوا أن نجعلهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء.

والصـوابُ من القـول في ذلك عندي أنهما قراءتان معروفتان في قرأةِ الأمصار قد قرأ بكلٍّ واحدةٍ منهما أهلُ العلم بالقرآن صحيحتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارىءُ فمصيبٌ.

وقوله: «ساءَ ما يَحْكُمُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: بئسَ الحكمُ الذي حسبوا أنَّا نجعلُ الذين اجترحوا السيئاتِ والذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ سواء محياهم ومماتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وَخَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ بالحَقِّ» للعدل والحقِّ، لا لِمَا حسبَ هؤلاءِ الجاهلونَ بالله، من أنه يجعلُ من اجترحَ السيئات، فعصاهُ وخالفَ أمره، كالذين آمنوا وعملوا الصالحات في المحيا والممات، إذْ كان ذلك من فِعْلِ غيرِ أهلِ العدل والإنصاف، يقول جَلَّ ثناؤُه: فلم يخلق الله السمواتِ والأرضَ للظلمِ والجور، ولكنَّا خلقناهُمَا للحقِّ والعدل. ومن الحقِّ أنْ نخالفَ بين حكم المسيءِ والمحسن في العاجل والآجل.

وقوله: «وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وليثيبَ اللهُ كلَّ عاملٍ بما عمل من عملٍ، خَلَقَ السمواتِ والأرضَ، المحسنَ بالإِحسانِ، والمسيءَ بما هو أهلُه، لا لنبخسَ المحسنَ ثوابَ إحسانِه، ونحمل عليه جُرْمَ غيره، فنعاقبه، أو نجعلَ للمسيءِ ثوابَ إحسانِ غيرِه فنكرمه، ولكن لنجزي كُلًّا بما كسبتْ يداهُ، وهم لا يُظلمون جزاءَ أعمالهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾**

يقول جَلَّ ثناؤُه: أفرأيتَ يا محمدُ مَنِ اتخذَ معبودَهُ هواه، فيعبد ما هَوِيَ من شيءٍ دونَ إلهِ الحقِّ الذي له الألوهةُ من كلِّ شيء.

وقوله: «وأضَلَّهُ الله على عِلْمٍ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وخذله عن محجةِ الطريق، وسبيلِ الرشاد في سابقِ علمه على علمٍ منه بأنه لا يهتدي، ولو جاءته كُلُّ آية.

وقوله: «وَخَتَمَ على سَمْعِهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: وطَبَعَ على سمعه أنْ يسمعَ مواعظَ الله وآيَ كتابه، فيعتبر بها ويتدبرها، ويتفكر فيها، فيعقل ما فيها

من النورِ والبيانِ والهُدى.

وقوله: «وَقَلْبِهِ»، يقولُ: وطبع أيضاً على قلبه، فلا يعقل به شيئاً، ولا يعي به حقاً.

وقوله: «وَجَعَلَ على بَصَرِهِ غشَاوَةً»، يقولُ: وجعلَ على بصره غشاوةً أنْ يبصرَ به حججَ الله، فيستدلّ بها على وحدانيته، ويعلم بها أنْ لا إلهَ غيرُه.

وقوله: «فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فَمَنْ يوفِّقه لإصابةِ الحقِّ، وإبصار محجة الرشد بعد إضلالِ الله إياه «أفَلا تَذَكَّرُونَ» أيها الناسُ، فتعلموا أنَّ مَنْ فعلَ اللهُ به ما وصفنا، فلن يهتدي أبداً، ولن يجد لنفسه ولياً مرشداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال هؤلاءِ المشركونَ الذين تَقَدَّمَ خبرُه عنهم: ما حياةٌ إلا حياتُنَا الدنيا التي نحنُ فيها لا حياةَ سِواها تكذيباً منهم بالبعثِ بعد الممات.

وقولـه: «نَمُـوتُ وَنَحْيا» نموتُ نحن وتحيا أبناؤنا بعدنا، فجعلوا حياةَ أبنائِهم بعدهم حياةً لهم، لأنهم منهم وبعضهم، فكأنهم بحياتِهم أحياء، وذلك نظير قولِ الناس: ما ماتَ مَنْ خَلَّفَ ابناً مثل فلان، لأنه بحياةِ ذِكْرِهِ به، كأنه حيٌّ غيرُ ميتٍ، وقد يحتملُ وجهاً آخر، وهو أن يكون معناه: نحيا ونموتُ على وجه تقديمِ الحياةِ قبلَ الممات، كما يقال: قمتُ وقعدتُ، بمعنى: قعدتُ وقمتُ؛ والعربُ تفعل ذلك في الواو خاصة إذا أرادوا الخبر عن شيئين أنهما كانا أو يكونان، ولم تقصد الخبر عن كونِ أحدهما قبلَ الآخر، تقدم المتأخر

حدوثاً على المتقدم حدوثه منهما أحياناً، فهذا من ذلك، لأنه لم يقصد فيه إلى الخبر عن كونِ الحياةِ قبل المماتِ، فقدَّم ذِكْرَ المماتِ قبل ذِكْرِ الحياة، إذْ كان القصد إلى الخبر عن أنهم يكونون مرّةً أحياء وأخرى أمواتاً.

وقولـه: «وَما يُهْلِكُنا إلاَّ الدَّهْرُ»، يقول تعالى ذِكْرُه مخبراً عن هؤلاءِ المشركينَ أنهم قالوا: وما يُهْلِكُنَا فيفنينا إلا مَرُّ الليالي والأيامِ وطولُ العمر، إنكاراً منهم أنْ يكونَ لهم ربٌّ يفنيهم ويهلكهم.

وذُكِرَ أنَّ هذه الآيةَ نزلت من أجلِ أنَّ أهلَ الشركِ كانوا يقولون: الذي يُهْلِكُنَا ويُفنينا الدهرُ والزمانُ، ثم يَسُبُّونَ ما يفنيهم ويهلكهم، وهم يرون أنهم يسبون بذلك الدهرَ والزمانَ، فقال الله عَزَّ وجَلَّ لهم: أنا الذي أفنيكم وأهلككم، لا الدهرُ والزمانُ، ولا عِلْمَ لكم بذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا تُتلى على هؤلاءِ المشركينَ المكذِّبينَ بالبعثِ آياتنا، بأنَّ الله باعثُ خَلْقَهُ من بعد مماتِهم، فجامِعُهم يومَ القيامةِ عنده للثوابِ والعقابِ «بَيِّناتٍ»، يعني: واضحاتٍ جَلِيَّات، تنفي الشكَّ عن قلبِ أهلِ التصديقِ بالله في ذلك «ما كانَ حُجَّتَهُمْ إلاَّ أنْ قالُوا ائْتُوا بآبائنا إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

يقول جَلَّ ثناؤه: لم يكن لهم حجةٌ على رسولنا الذي يتلو ذلك عليهم إلا قولهم له: ائتنا بآبائنا الذين قد هَلَكُوا أحياء، وانشرهم لنا إنْ كنتَ صادقاً فيما تتلو علينا وتخبرنا، حتى نُصَدِّقَ بحقيقةِ ما تقولُ بأنَّ الله باعثنا من بعد مماتنا، ومُحْيينَا من بعدِ فنائنا.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه لنبيه محمـدٍ ﷺ: قُلْ يا محمـدُ لهؤلاءِ المشركينَ المكذِّبينَ بالبعثِ، القائلينَ لك ائتنا بآبائنا إنْ كنتَ صادقاً: اللهُ أيها المشركونَ يُحييكم ما شاء أنْ يُحييكم في الدنيا، ثم يُميتكم فيها إذا شاء، ثم يجمعُكُمْ إلى يومِ القيامة، يعني: أنه يجمعكم جميعاً أوَّلكم وآخركم، وصغيركم وكبيركم «إلى يوم القيامة»، يقولُ: ليوم القيامة، يعني: أنه يجمعكم جميعاً أحياء ليومِ القيامة. «لا رَيْبَ فِيهِ»، يقولُ: لاشكَّ فيه، يقولُ: فلا تَشُكُّوا في ذلك، فإنَّ الأمـرَ كما وصفتُ لكم «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ»، يقولُ: ولكنَّ أكثرَ النـاسِ الـذين هم أهـلُ تكذيبٍ بالبعث، لا يعلمون حقيقةَ ذلك، وأنَّ الله مُحْيِيهم من بعد مماتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولله سلطانُ السمواتِ السبع والأرض، دونَ ما تَدْعُونَهُ له شريكاً، وتعبدونه من دونه، والذي تدعونه من دونهِ من الآلهةِ والأندادِ في مُلكه وسلطانه، جارٍ عليه حُكْمُه، فكيفَ يكونُ ما كان كذلك له شريكاً، أم كيف تعبدونه، وتتركونَ عبادةَ مالِكِكُمْ، ومالكُ ما تعبدونه من دونه «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ»، يقول تعالى ذِكْرُه: ويوم تجيءُ الساعةُ التي يُنْشِرُ اللهُ فيها الموتى من قبـورهم، ويجمعهم لموقف العرض، «يَخْسَرُ المُبْطِلُونَ»، يقولُ: يغبنُ فيها الذين أبطلوا في الدنيا في أقوالهم ودعواهم لله شريكاً، وعبادَتِهم آلهةً دونَهُ بأنْ يفوزَ بمنازلهم من الجنة المُحِقُّونَ، ويُبَدَّلُوا بها منازلَ من النارِ كانت للمحقين،

فجعلت لهم بمنازلهم من الجنة، ذلك هو الخسرانُ المبين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وترى يا محمدُ يومَ تقومُ الساعةُ أهلَ كُلِّ ملةٍ ودِينٍ «جاثية»، يقولُ: مجتمعة مستوفزة على رُكَبِهَا من هَوْلِ ذلك اليوم.

وقوله: «كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إلى كِتابِها»، يقولُ: كُلُّ أهلِ ملةٍ ودِينٍ تُدعى إلى كتابها الذي أملت على حَفَظَتِهَا. عن أبي هريرة، قال: «قال الناسُ: يا رسولَ الله هل نَرَى ربَّنا يومَ القيامَةِ؟ قال: هَلْ تُضَامُّونَ[1] في الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَها سَحَابٌ؟ قالوا: لا يا رسولَ الله. قال: هَلْ تُضَارُّونَ في القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ لَيْسَ دُونَـهُ سحابٌ؟ قالوا: لا يا رسولَ الله. قال: فإنَّكُمْ تَرَوْنَهُ يَوْمَ القِيامَةِ كَذَلِكَ. يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ فَيَقُولُ: مَنْ كانَ يَعْبُدُ شَيْئاً فَلْيَتْبَعْهُ، فَيَتْبَعُ مَنْ كانَ يَعْبُـدُ القَمَـرَ القَمَـرَ، وَمَنْ كانَ يَعْبُـدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتْبَع مَنْ كانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَى هَذِهِ الأُمَّةُ فِيها مُنافِقُوها، فَيأتِيهِمْ رَبُّهُمْ فِي صورَةٍ، وَيُضْرَبُ جِسْرٌ على جَهَنَّمَ قال النبيُّ ﷺ: فَأكُونُ أوَّلَ مَنْ يُجِيز، وَدَعْوَةُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ، اللَّهُمَّ سَلِّمْ، وبها كَلالِيبُ كَشَوْكِ السَّعْدانِ[2]. هَلْ رَأيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدانِ؟ قالوا: نعم يا رسول الله. قال: فإنَّها مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدانِ غير أنَّهُ لا يَعْلَمُ أحَدٌ قَدْرَ عِظَمِها إلاَّ اللهُ ويُخْطَفُ النَّاسُ بأعمالِهِمْ، فَمِنْهُمْ المُوبَقُ

---

(١) يعني: هل يشقُّ عليكم وتتعبون؟ والمراد: هل تشكون. ومثلها ما ورد في روايات أخرى: هل تضارّون. أو هل تمارون، ونحوها.

(٢) نبتٌ له شوكة عظيمة مثل الحسك من كل الجوانب.

بعَمَلِهِ، وَمِنْهُمُ المُخَرْدَلُ[١] ثُمَّ يَنْجُو، ثم ذكر الحديث بطوله»[٢].

وقوله: «اليَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: كلُّ أُمةٍ تُدعى إلى كتابها، يقال لها: «اليوم تجزون»، أي: تُثابونَ وتُعْطَوْنَ أجورَ ما كنتم في الدنيا من جزاءِ الأعمالِ تعملون بالإحسانِ الإحسانَ، وبالإساءةِ جزاءها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لكلِّ أمةٍ دُعِيَتْ في القيامة إلى كتابها الذي أملت على حفَظَتِهَا في الدنيا. «اليَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» فلا تجزعوا من ثوابنَاكُمْ على ذلك، فإنكم يَنْطقُ عليكم إنْ أنكرتموه بالحقِّ فاقرؤوه «إنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»، يقولُ: إنَّا كنا نستكتبُ حَفَظَتنا أعمالَكُمْ، فَتُثْبِتُهَا في الكتبِ وتكتبها.

وقـولـه: «فـأمَّـا الَّـذِينَ آمنـوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، فِيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ»، يقول تعالى ذِكْرُه: فأما الذين آمنوا بالله في الدنيا فوحَّدُوه، ولم يشركوا به شيئاً، «وعملوا الصالحاتِ»، يقولُ: وعملوا بما أمرهم اللهُ به، وانتهوا عما نهاهم الله عنه «فَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَتِهِ»، يعني: في جنته برحمته.

وقوله: «ذلكَ هُوَ الفَوْزُ المُبِينِ»، يقولُ: دخولهم في رحمةِ الله يومئذٍ هو

---

(١) المخردل: هو المرمي المصروع، وقيل: المقطّع، تقطعه كلاليب الصراط حتى يهوي في النار. يقال: خردلت اللحم: أي: فَصَّلْتُ أعضاءه وقطعته.

(٢) الحديث بطوله في الصحيحين: البخاري (٦٥٧٣) ومسلم (١٨٢).

الظفرُ بما كانوا يطلبونه، وإدراك ما كانوا يسعون في الدنيا له، المبين غايتهم فيها، أنه هو الفوز.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ٣١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأما الذين جحدوا وحدانيةَ الله، وأبوا إفرادَهُ في الدنيا بالألوهةِ، فيقال لهم: ألم تكنْ آياتي في الدنيا تُتْلَى عليكم.

وقوله: «فاسْتَكْبَرْتُمْ»، يقولُ: فاستكبرتم عن استماعها والإيمانِ بها «وكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ»، يقولُ: وكنتم قوماً تكسبونَ الآثامَ والكفرَ بالله، لا تُصَدِّقُونَ بمعَادٍ، ولا تؤمنون بثوابٍ ولا عقاب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ٣٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويقال لهم حينئذٍ «وَإِذَا قِيلَ» لكم «إِنَّ وَعْدَ اللهِ» الذي وَعَدَ عبادَهُ، أنه مُحْيِيهم من بعد مماتِهم، وباعِثُهم من قبورِهم «حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ» التي أخبرهم أنه يقيمها لحشرهم، وجمعهم للحسابِ والثوابِ على الطاعة، والعقابِ على المعصية، آتيةٌ «لا رَيْبَ فِيها»، يقولُ: لاشكَّ فيها، يعني: في الساعةِ، والهاء في قوله: «فِيها» من ذِكْرِ الساعة. ومعنى الكلام: والساعةُ لا ريبَ في قيامها، فاتقوا اللهَ وآمنوا باللهِ ورسولِه، واعملوا لما يُنجيكم من عقابِ الله فيها. «قُلْتُمْ ما نَدْرِي ما السَّاعَةُ» تكذيباً منكم بوعدِ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ، وردًّا لخبرِه، وإنكاراً لقُدْرتِه على إحيائِكم من بعد مماتكم.

وقوله: «إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا»، يقولُ: وقلتم ما نظنُّ أنَّ الساعةَ آتيةٌ إلا ظناً: «وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ» أنها جائيةٌ، ولا أنها كائنةٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٣٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وَبَدا لهؤلاءِ الذين كانوا في الدنيا يكفرونَ بآياتِ الله سيئـاتُ ما عملوا في الـدنيا من الأعمـال، يقولُ: ظَهَرَ لهم هنالك قبائحها وشرارها لما قرؤوا كُتُبَ أعمالهم التي كانت الحَفَظَةُ تنسخها في الدنيا «وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ»، يقولُ: وحاقَ بهم من عذابِ الله حينئذٍ ما كانوا به يستهزئون إذْ قيل لهم: إن الله مُحِلُّهُ بمن كَذَّبَ به على سيئاتِ ما في الدنيا عملوا من الأعمال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ۝٣٤﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: وقيل لهؤلاءِ الكَفَرةِ الذين وصفَ صِفَتهم: اليومَ نَتْرُكُكم في عذابِ جهنم، كما تركتمُ العملَ للقاءِ رَبِّكم يومَكم هذا.

وقوله: «وَمأْوَاكُمُ النَّارُ»، يقولُ: ومأواكم التي تأوون إليها نارُ جهنم، «وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ»، يقولُ: وما لكم من مُسْتَنْقِذٍ يُنقذكم اليومَ من عذابِ الله، ولا منتصر ينتصرُ لكم ممن يعذِّبُكم، فيستنقذُ لكم منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يقال لهم: هذا الذي حَلَّ بكم من عذابِ الله اليومَ «بِأَنَّكُم» في الدنيا «اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللهِ هُزُواً»، وهي حججه وأدلته وآي كتابه التي أنزلها على رسولِه ﷺ «هُزُواً»، يعني: سخريةً تسخرون منها «وَغَرَّتْكُمُ الحَياةُ الدُّنْيا»، يقولُ: وخدعتكم زينةُ الحياة الدنيا، فآثرتُموهَا على العملِ لما يُنجيكم اليومَ من عذابِ الله، يقول تعالى ذِكْرُه: «فالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا» من النار «وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ»، يقولُ: ولا هُمْ يُرَدُّونَ إلى الدنيا ليتوبوا ويراجعوا الإنابةَ مما عُوقِبُوا عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «فَلِلَّهِ الحَمْدُ» على نِعمه وأياديه عند خَلْقِه، فإياهُ فاحمدوا أيها الناسُ، فإنَّ كُلَّ ما بكم من نعمةٍ فمنه دونَ ما تعبدونَ من دونِه من آلهةٍ ووثنٍ، ودونَ ما تتخذونه من دونه رباً، وتشركونَ به معه «رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَب الأرْضِ»، يقولُ: مالك السمواتِ السبع، ومالك الأرضين السبع و«رَبِّ العالِمينَ»، يقولُ: مالك جميع ما فيهنَّ من أصنافِ الخلق، «وله الكبرياءُ في السموات والأرض»، يقولُ: وله العَظَمةُ والسلطانُ في السموات والأرض دونَ ما سواهُ من الآلهةِ والأنداد «وَهُوَ العَزِيزُ» في نقمته من أعدائِه، القاهرُ كُلَّ ما دونه، ولا يقهرهُ شيءٌ «الحَكِيمُ» في تدبيره خَلْقَهُ وتصريفه إياهم فيما شاء كيف شاء، والله أعلم.



المجلد السادس

فهرس المحتويات

